OBLOMOV

NOVEL

رواية

أبلوموف

إيفان غونتشاروف

ترجمة

نجاح الجبيلي



رواية

أبلوموف

إيفان غونتشاروف

ترجمة: نجاح الجبيلي

الجزء الاول


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

تسلسل زمني لحياة إيفان غونتشاروف ومؤلفاته

في 6 يونيو 1812 حسب التقويم القديم:

ولد إيفان ألكسندروفيتش غونتشاروف في سمبريك (التي تسمى الآن أوليانفسك)، وهو ابن ألكسندر إيفانوفيش وأفدوتيا ماتييفنا، وكان الثاني في سلسلة من ستة أطفال، بقي أربعة منهم. حصل جدّه من جهة الأب على رتبة النبالة في منتصف القرن الثامن عشر عن طريق خدمته العسكرية، لكن العائلة واصلت العمل في تجارة الحبوب المزدهرة. ويذكر أحد كتاب المذكرات أنّ أم غونتشاروف كانت «شديدة» و«كثيرة الشكوك». ويتذكرها إيفان، الذي كان يحبها حبًا عميقًا كونها امرأة ذكية وحريصة. كان والده ناجحًا ومحترمًا وقد انتخب محافظًا عدة مرات على الرغم من أن هذا المركز ذو مسؤولية محدودة خلال الحكم الاستبدادي في روسيا. كان تقيا وكئيبا. ووصفها أحد أحفاد العائلة بكونها «مريضة جسديًا وغير مستقرة». عانى غونتشاروف من الكآبة وظلّ لفترة يكنُّ عداوة وارتيابًا مشهورَين لصديقه وزميله الروائي إيفان تورغنيف.

1819: مات أبوه حين كان إيفان في السابعة؛ وانتقل تعليم الأطفال إلى نيكولاس تريغوبوف، وهو نزيل وضابط بحري متقاعد من أصل أرستقراطي وذو أفكار ليبرالية. كانت خلفيته الكوسموبوليتانية تتعارض بشدة مع النزعة المحافظة لعائلة التاجر. ويتذكره المؤلف كونه مجسدًا لكل شيء تعبر عنه الكلمة الإنكليزية «رجل نبيل»، لكنه أيضًا ينتقد النزعة غير العملية للأرستقراطية والمثالية التجريدية.

كان إيفان وأخوه نيكولاس أول من تلقى تعليمًا رسميًا في عائلة غونتشاروف. ففي الثامنة من عمره أرسل إيفان إلى مدرسة داخلية يديرها كاهن؛ ودرس الأدب (كانت الكتابة في عائلة غونتشاروف تقتصر على الأوراق التجارية) وتعلّم اللغتين الفرنسية والألمانية.

1822: دخل مدرسة موسكو التجارية التي تقدم مناهج دراسية في الفنون والعلوم الحرة، لكن المعلمين كانوا بمنزلة أدنى في المدارس بسبب التفرقة الطبقية، ونظام العقاب كان قاسيًا.

1831: دخل جامعة موسكو. ومن بين زملائه الشاعر البارز والروائي ميخائيل ليرمنتوف، ورجال صاغوا الحياة الفكرية لعصرهم ومستقبل الفكر الروسي مثل فيساريون بيلنسكي، وألكسندر هيرتسن، ونيكولاس ستانكيفيتش، وقسطنطين أكساكوف. وكانت الرومانتيكية والفلسفة المثالية الألمانية هي الموضة السائدة حينذاك. لم يشارك غونتشاروف في حلقات الجدل المعروفة في الجامعة. وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر انقسمت حلقات موسكو إلى مخيمَين هما المستغربون والسلافيون.

1834: تخرج من جامعة موسكو.

1835: بدأ مهنة عمرها 33 سنة في الدوائر الحكومية. وانتقل إلى بطرسبورغ. وأصبح يرتاد صالون مايكوف؛ الذي تديره عائلة مايكوف الأرستقراطية المثقفة، ومن بين أعضاء الصالون كان فنانون بارزون وشعراء. وكان غونتشاروف يتقاسم معهم حبهم للفن من أجل مصلحته الخاصة أكثر مما لأهداف سياسية.

1836 1838: ظهرت أولى مؤلفاته الأدبية المعروفة في صحيفة لعائلة مايكوف.

1840: يخطط في عقد الأربعينات لرواياته الثلاث. وكلها تعالج رجلًا شابًّا يبحث عن مكانه في العالم، وهو السبب في اعتبارها ثلاثية روائية. ألّف رواية «قصة شائعة» في عام 1844 وأنهاها في السنة التالية.

1846 1848: بدأ العمل برواية أبلوموف وعلى الأرجح في عام 1847.

1847: نشرت رواية «قصة شائعة»

1849: نشر فصل «حلم أبلوموف». ووضع خطة رواية «الجُرف».

1852 1855: عين سكرتيرًا للأدميرال في رحلة رسمية إلى اليابان والشرق الأقصى. ورجع عن طريق سيبيريا.

1855: وقع في حب أليزافيتا تولستوي التي قابلها في أوائل الأربعينات. كانت تلك هي العلاقة الرومانسية الوحيدة في حياة غونتشاروف. ولمّا اختارت شخصًا آخر قرّر ألَّا يتزوج أبدًا.

1855 1857: نشرت على شكل صور قلمية منفردة وقائع رحلته إلى الشرق الأقصى بعنوان «الفرقاطة بالاس: مذكرات رحلة».

1856: بدأ العمل كرقيب حكومي.

1857 صيفًا: كتب هيكل رواية أبلوموف.

1858: نشرت «الفرقاطة بالاس» على شكل كتاب.

1859: نشرت رواية «أبلوموف». وفي هذه السنة قام غونتشاروف باتهام تورغنيف بالانتحال.

1860: وجدت لجنة من الشخصيات الأدبية البارزة أن لا أساس لهذا الاتهام.

1867: تقاعد من الوظيفة الحكومية.

1869: نشرت رواية «الجرف».

1878: تولى مسؤولية ألكسندرا تريغوت وهي زوجة خادمه، وأطفالها الثلاثة عند موت زوجها.

1890: عانى من الإصابة بالسكتة الدماغية.

1891: مات بعد مرض قصير الأجل. وترك معظم عزبته لألكسندرا تريغوت وأطفالها الثلاثة.

مقدمة إلى روايات غونتشاروف

ينتمي «إيليا أليتش أبلوموف» إلى سلسلة من الأبطال الهزليين غير المألوفين الذين يجعلوننا نضحك ومع ذلك يثيرون عواطفنا مثل دون كيخوته. أدى به كسله الكبير إلى أن يحوله الروس إلى رمز لهذا العيب المفترض في الشخصية الوطنية. فحين ظهرت الرواية في عام 1859 تحرّى أحد النقاد سلبيته كونها مرض الأبلوموفية وسرعان ما انتشر المصطلح. وغالبًا ما وظّفهُ لينين في خطبه المسهبة ضد البيروقراطية العاجزة.

بعض النقاد الروس والغربيين حملوا رؤية معتدلة، وشهدت السنوات الأخيرة نزعة نحو تبرئة أبلوموف والنظر إلى كسله وجموده (الفصول الأولى تدور وهو ما زال في الفراش) كونه نظيرًا مضادًا لفاوست، الرجل المكافح بشكل مستمر. والبعض اقترح ترشيحه لفئة القديسين.

على مدى خمسين سنة من نشاطه الأدبي نحج إيفان غونتشاروف في كتابة ثلاث روايات هي: «أبلوموف» و«قصة شائعة» 1847، و«الجرف» 1869 (التي تترجم أحيانًا إلى «الوادي»). وترك أيضًا مجموعة من القصص القصيرة، وكتابًا يضم وصفًا ساحرًا لرحلته إلى اليابان كعضو في حملة بحرية بعنوان «الفرقاطة بالاس: مذكرات رحلة» 1858. خلافًا لأبلوموف الأرستقراطي كان غونتشاروف يعمل من أجل كسب الرزق. وكان يحب ممارسة الكتابة الأدبية في وقت الفراغ بعد أداء واجباته كموظف في الخدمة المدنية، وضِمنها مهنته في الرقابة. كانت عائلته من التجار في مدينة سيمبرك الواقعة على نهر الفولغا (تسمى الآن أوليانوفسك). رُقّيَت عائلة غونتشاروف رسميًا إلى رتبة النبالة حسب النظام الروسي شبه الإقطاعي كمكافأة على الخدمة العسكرية التي أداها جد إيفان، لكنهم استمروا بالعيش من تجارتهم بالحبوب. وكان معظم زملائه من الكتاب كسبوا رزقهم من الأرستقراطية المالكة للأراضي، والمحظوظ منهم عاش على عائدات أملاكه.

بلغ غونتشاروف النضج الأدبي أثناء السنوات المظلمة لحكم نيقولا الأول الاستبدادي (1825 1855). كان ينتمي إلى جيل بارز يسمى «رجال الأربعينات». ففي هذا العقد ظهرت مؤلفات دوستويفسكي وتورغنيف والشاعر نكراسوف مطبوعة. وفي أعقابهم ظهر تولستوي في الخمسينات؛ وكان الناقد فيساريون بيلنسكي والمفكر اللامع ألكسندر هرتسن في قمة عطائهما.

كان المزاج معاكسًا للرومانتيكية على الرغم من أنها أثبتت بأنها أكثر مرونة مما افترضه الكثيرون. فالنزعة العاطفية والفنتازيا والآلام الميتافيزيقية كانت خارج الطراز السائد. بينما كانت الرصانة والدقة في الوصف والحياة «الاعتيادية» سائدة.

كان الروس مدركين لحال بلادهم الاقتصادي والاجتماعي المتخلف. لقد انتصر آباؤهم على نابليون لكي يكتشفوا المقياس الأسمى الذي كان يعيش به المهزوم. كانت شعارات «الفعل» و«العمل» و«المآثر» منتشرة حينذاك. استجاب ابن عائلة التجار لهذه البلاغة الجديدة وجعل بطل روايته الأولى يتلقى تعليمًا بقيمة النشاط الحسي والكبح العاطفي.

تتبع رواية «قصة شائعة» خط الحبكة المميزة لواقعية القرن التاسع عشر، وهي تنساب من «الآمال الكبرى» إلى «الأوهام الضائعة». بطلها ألكسندر أدوييف شخص بريء من المقاطعات يأتي إلى العاصمة على أمل الحصول على الثروة والحب، لكنه يتعثر من خلال سلسلة من التشوهات الهزلية. كانت المحاكاة الساخرة بالنسبة للواقعية الصاعدة هي السلاح الرئيس ضد الرومانتيكية. (حتى كتاب «الفرقاطة بالاس» ممكن قراءته كونه محاكاة ساخرة للرحّالة في الحملات، والذين تعج بهم الكتب). كونه كاتبًا طموحًا فإن أدوييف يوضّح بأن العثور على ذاته يتم بالعثور على أسلوب خاص. ويجري التهكّم على كلامه وبالأخص عمّه بيتر وهو متعهد ناجح لكنه جاف السلوك.

تنتهي الرواية بانعطاف ساخر. فبعد أن يحوّل وظيفته إلى رجل أعمال واع مثل عمّه، يندهش من الأخبار بأنّ بيتر في سنوات شبابه قد اجتاز طورًا رومانسيًا متهورًا.

كرّر ألكسندر مهنة عمّه حتى مع آلام الظهر التي تزامنت مع النجاح. لم تكن حماسة الشباب ولا نزعة الشك في منتصف العمر كافية للاستجابة إلى مشكلة العيش. وبدلًا من الدفاع الوعظي عن الفضائل البرجوازية فإنّ رواية غونتشاروف الأولى كانت تعليقًا ساخرًا على وضع العالم و«القصة الشائعة» للنضج.

على الرغم من أن رواية «أبلوموف» تنسج على نفس التعارض بين الفعل العملي والانجراف العاطفي، إلا أنها أكثر غنىً وأعمق إحساسًا. إنها لا تدور عن مهنة يجب أن تمارس بل عن حياة يجب إنقاذها. مرّت كتابة رواية «قصة شائعة» بشكل سلس فقد ولدت فكرتها عام 1844 وكتبت في عام 1845، وأنهاها في السنة التالية وفقًا لشهادة المؤلف الأخيرة. إنه كتاب ظريف لكنه يخاطب العقل. ظلّ غونتشاروف يكتب رواية «أبلوموف» لمدة إحدى عشرة سنة قبل أن تظهر نهائيًا في عام 1859. وتذكّر كيف «نضجت» في ذهنه وقد كتب معظمها في صيف عام 1857 في منتجع للمياه المعدنية في مارينباد. وكانت أسعد لحظة في حياته.

كانت الفترة الطويلة في الكتابة تعكس الأساليب المتحولة في الرواية. فالجزء الأول منها، الذي يصوّر يومًا في حياة أبلوموف، مكتوب بأسلوب ينتمي إلى ما يطلق عليه الروس «المدرسة الطبيعية» وهي الزهرة الأولى للواقعية. فالمضحك والهزلي والعلاقة ما بين السيّد والخادم ينتسبان إلى غوغول، وهو الشخصية الأدبية البارزة في ذلك الزمن. كان أبلوموف يعيش في غرفته الضيقة معزولًا عن العالم الخارجي بالنوافذ التي تمتلئ بالغبار، وهو دائم الشجار مع خادمه زاخار ويبدو الاثنان وكأنهما زوجان ويخشى أن تنتهي حياته قبل أن تبدأ. إن السؤال الذي يجعل الرواية في حالة حركة هو: «لماذا أنا هكذا؟». وفي الفصل المميز «حلم أبلوموف» يرجع ذهنه الحالم بالحنين إلى فردوس طفولته المفقود، حين كانت عادات الحياة الطبيعية مُرضية تمامًا. فالمطبخ والفناء المحاذي لمخزن الحبوب والمرج يجري الوعي بها عن طريق الدفء الشعري، والحياة المنزلية تمنح معنى أسطوريًا. وفي حلمه يشرع أبلوموف باكتشاف جذور مرضه. وعند الطريق

المسدود يكون ملاذه في معرفة ذاته. وكما في نظرية التحليل النفسي تمنحنا الطفولة بواعث رغبتنا وأصل سقمنا.

وعند اليقظة يقوم بمحاولة يائسة للالتحاق بالعالم. وفي عام 1857 حين كتب فصول حب أبلوموف لأولغا كانت غرائب المدرسة الطبيعية قد فقدت رواجها منذ وقت طويل. أسلوب الرومانس الصيفي مرهف وشعري على طريقة تورغنيف وهو الروائي البارز في أواخر الخمسينات. هرب أبلوموف من عزلته القذرة ودخل عالم الصفاء الأرستقراطي. كانت صورة أولغا غالبًا ما تمتزج بالصور الغنائية: باقة زهور الليلك، والضوء الساطع، ولحن أغنية «أيتها العذراء الطاهرة». فهي تعد بالرشاقة.

وجد القرّاء شتولتس شخصية غير مقنعة لكن صداقته مع أبلوموف مهمة. لقد كانا صديقين منذ الطفولة. فكل منهما يمثل نصف حياة كما يروى لنا. فشتولتس ألماني من جهة الأب (ويعني اسمه كبرياء) يجسّد قيم العمل والانضباط والطموح (وهو نظير لبيتر أدويف). أما أبلوموف بسبب كل أحزانه ينعم بالفضائل التي تشي بالكسل: الضعف والخيال والرقة. فاسم أبلوموف يعني في اللغة الروسية «حُطام» إذ كلاهما رجلان محطمان وكل منهما ينظر بلهفة إلى ما ينقص الآخر.

وفي محاولته للتهكم من الرومانيكية كان غونتشاروف، مثل بقية «رجال الأربعينات»، مقيدًا بحلمهم عن الكمال الإنساني. كان أبلوموف يصيح: «أعطني إنسانًا».

في المقطع الأخير يعود الوصف المحبّب للحياة اليومية، والجو الشبيه بالحلم في فصل «حلم أبلوموف»، حين ندخل المجال البيتي لأغافيا ماتفييفنا. من بين الشخصيات المتقابلة لروايات غونتشاروف بيتر وألكسندر أدوييف، شتولتس وأبلوموف شخصيتا أولغا وأغافيا، اللتان تمثلان الجمال الأرستقراطي، والمرأة المتربية في الطبقات السفلية على التعاقب.

الرواية واعية جدًا بالزمن. في شقته يحاول أبلوموف الأعزب والأعزل أن يحجب الحس السليم بالزمن الذي يتحرك بخط مستقيم إلى هدفه الموت. يستدعي في

«حلمه» الزمن الأسطوري للعودة الأبدية، إذ تمضي الفصول وتعود، والرجال يزرعون ويحصدون ولا شيء يتغيّر. رومانس الصيف يجدُّ في الهروب من قلق التغيير بنوع آخر من البقاء من خلال لحظة غنائية جامدة وأغنية لن تموت. الصفحات الختامية تقبل حتمية الموت لكنها ترى الحياة، حسب قياس الإيقاعات الجيولوجية، كونها محافظة على التوازن الدائم. في أحد الأماكن تتآكل الجبال؛ وفي مكان آخر يتجمع البحر في أرض جديدة.

بدأ غونتشاروف كتابة رواية «الجرف» في عام 1849، حين كان في المراحل الأخيرة من رواية «أبلوموف». امتدت عملية كتابة الثلاثية الروائية إلى عشرين سنة. وكان يهرع إلى مدينة مارينباد بشكل دوري، لكن إلهام الصيف البهي في عام 1857 لن يعود. كان مترددًا، فلم تكن لديه مشكلة في كتابة الكلمات لكنه لم يستطع أن يجد قاعدة تربط بينها.

وفي عام 1860 قرّر أن يغيّر إجراءاته السردية. فروايتا «قصة شائعة» و«أبلوموف» سيرتان ذاتيتان للروح. إنهما تصفان مجرى الحياة، الأولى كجزء من كوميديات السلوك الرقيقة المسلّية، والثانية بدفء الإحساس والعمق النفسي. بدأ غونتشاروف رواية «الجُرف» بغايات متشابهة أن يصور في شخصية بوريس رايسكي «دواخل الفنان وقلبه»، لكنه لم يستطع أن ينتزعه.

حوالي سنة 1860 قرّر أن يفرض اتجاهات متغيرة في المشهد الأدبي الروسي، ويكتب رواية سياسية بشكل درامي وعدم الاعتماد على السيرة الذاتية. تنتمي رواية «الجُرف» إلى موجة من الروايات المضادة للنزعة العدَمية (كان المتطرفون يوصفون بالعدميين)، وأبرز مثالين على هذه النزعة رواية «الآباء والبنون» لتورغنيف و«الشياطين» لدوستويفسكي (التي تترجم أحيانًا ب «الممسوسون»).

لا تصنّف محاولة غونتشاروف ضمن فريقهما. فرواية «الجُرف» منمّقة وميلودرامية وهي صيحة بعيدة عن الطريقة التأملية والدفء الشعري لرواية «أبلوموف».

وهي خالية من السخرية أيضًا. كان الروس يعيشون في مجتمع أوتوقراطي مستبد لا يسمح بالحوار المفتوح المتبادل، وكانوا يرون فيه مُقسَّمًا بين «نحن» و«هم».
تحوَّل الخطاب السياسي إلى أخلاقي. إن العدَمي في رواية «الجُرف» فاسق ولديه عادات سيئة. في رواية «أبلوموف» تكون العزبة الأرستقراطية، وهي المؤسسة المركزية لروسيا القديمة، هي مكان غامض أرض الأحلام التي يسودها هدوء الريف، مثل جزيرة مفصولة عن إمكانيات التطور الأخلاقي والفكري.
إن رواية «الجرف» هي المتراس الثابت في عالم العواطف المتقلّبة. المؤلفات العظيمة تأسرنا بتعقيدها. ومن بينها رواية «أبلوموف».

القسم الأول

الجزء الأول

(1)

كان إيليا إيلتش أبلوموف مستلقيًا على الفراش، في صباح أحد الأيام، بشقته المطلة على شارع غوروخوفايا[1]، ضمن تلك البيوت الكبيرة التي تحتوي على عدد من الساكنين بقدر ما تحتويه بلدة ريفية.

كان رجلًا عمرهُ حوالي اثنتين أو ثلاث وثلاثين سنة، ذا طول متوسط، ومظهر لطيف، بعينين رماديتين غامقتين، لكن مع غياب تام لأي فكرة محدّدة أو تركيز في ملامحه. كانت الأفكار تتنزه بشكل حر في كل أنحاء وجهه، وترفرف في عينيه، وتسترخي على شفتيه المفتوحتين قليلًا، وتختفي في تجاعيد جبينه، ثم تتلاشى نهائيًا.

في مثل تلك اللحظات كان ينتشر تعبير من اللا مبالاة الهادئة على محيّاه. وينتقل من وجهه إلى تقاطيع جسمه، وداخل طيات مبذله[2] أيضًا.

كانت نظرة كئيبة تشي بالإرهاق أو الضجر تزحف أحيانًا إلى عينيه؛ لكن لا الإرهاق ولا الضجر بمقدورهما أن يتخلصا، للحظة، من تعبير اللطف السائد، والأساس، لا على وجهه فحسب بل وروحه كلها، إذ انعكس بشكل صاف وبلا مواربة في عينيه، وابتسامته، وفي كل حركة من حركات رأسه ويديه. إنّ أيَّ مراقبٍ خارجيّ لا مبالٍ يلقي نظرة عابرة على أبلوموف سوف يخلص إلى القول:

رجلٌ ذو طبيعة طيبة. لكنّي متأكد من أنه ساذج!

غير أنّ رجلًا أكثر مراعاة للآخرين وتعاطفًا معهم، وبعد فحص دقيق لوجهه، سوف يبتعد مبتسمًا وتنتابه الأفكار السارّة.

ليست بشرة أبلوموف ورديّة ولا سمراء ولا شاحبة على الأخص، بل بالأحرى لا يمكن وصفها، فإذا ظهرت هكذا فلأنه نشأ بدينًا ومترهلًا جدًا وهو أمر غير

1أحد الشوارع الرئيسة في مدينة بتروغراد (سان بطرسبورغ في العهد القيصري ولينينغراد في عهد الثورة)

2هو ما يسمى روب دي شامير.

مألوف بالنسبة لرجل بعمره إذ يصعب القول إن سبب ذلك هو نقص التمرين، أو الهواء النقي، أو كلاهما. بشكل عام، إذا ما تسنّى لأحدٍ أن يحكم على اللون الأبيض الشديد والباهت لعنقه ويديه السمينتين وكتفيه الرقيقتين لبدا جسده كجسد رجل مخنّث.

كانت حركاته، أيضًا، حتى حين يكون منفعلًا، يحكمها نوع محدّد من اللطف والكسل اللذين لم تعُزْهما لمسة خاصة من الرشاقة. فإذا ما اضطرب عقله تغشّت عيناه، وظهرت الخطوط على جبينه، وغرق في الشك والحزن والخوف؛ لكن قلقه نادرًا ما اتخذ شكل فكرة محدّدة، ومن النادر أن يكون قد تحوّل إلى قرار، بل تحلّل إلى آهة وذاب في الشعور الفاتر أو النعاس.

لكن كم تناسقت ملابس أبلوموف مع الملامح الهادئة لوجهه وجسده الخنثويين! كان يرتدي مبذلًا ذا منشأ فارسي مبذلٌ شرقي حقيقي دون أية مسحة أوربية ضئيلة، وبلا شُرّابات أو زركشة مخملية، وهو واسع إذ بمقدوره أن يلفّهُ حولهُ مرتين، بينما كمّاه، وهما في الحقيقة من الطراز الآسيوي، واسعان من الكتفين نزولا حتى اليدين. وعلى الرغم من أنّ هذا المبذل فقَدَ أناقته الأصلية، وهنا وهناك بادل بريقه الطبيعي بآخر مكتسب نتيجة سنوات الخدمة المخلصة، إلا أنه احتفظ بلمعان لونه الشرقي، وكانت خامته قويّة كما هي دائمًا.

لهذا السبب احتوى المبذل على عددٍ واسع من الميزات النفيسة في عيني أبلوموف. كان رقيقًا ومرنًا وخفيفًا جدًا فلم يشعر بثقله، وقد خضع لأقل حركة من جسده كأنه عبدٌ مخلص.

لم يلبس أبلوموف ربطة عنق أو صدرة في البيت، لأنه أحبّ أن يشعر بالانعتاق والحرية. كان يلبس نعلين طويلين رقيقين واسعين؛ حين كان يضع قدميه على الأرضية، وينهض من الفراش، كان يخطو بهما بثبات دون أن ينظر.

لم يكن الاستلقاء بالنسبة لأبلوموف ضرورة كما هو الحال بالنسبة لرجل مريض أو لرجل نعسان؛ أو فرصة كما هو الحال بالنسبة لرجل مرهق؛ أو متعة كما هو الحال بالنسبة لرجل كسلان؛ إنها حالته الطبيعية؛ حين يكون في البيت ودائمًا هو

في البيت تقريبًا يظل مستلقيًا طوال الوقت، ودائمًا في الغرفة نفسها، الغرفة التي وجدناه فيها، التي خدمته كغرفة نوم ومطالعة واستقبال. في حين أن لديه ثلاث غرف أخرى، لكنه نادرًا ما يظهر داخلها عدا ساعات الصباح، وهذا أيضًا لا يحصل كل يوم، بل فقط حين يقوم خادمه بكنس غرفة مكتبه بشكل غير يومي. في تلك الغرف كان الأثاث مغطىً بملاءات الغبار وكانت الستائر مسدلة.

بدت الغرفة التي يستلقي فيها أبلوموف لأول وهلة مؤثثة على نحو رائع. احتوت على مكتب مصنوع من خشب الماهوغاني وأريكتين، منجَّدتين بمادة حريرية، وشاشة جميلة مطرَّزة بالطيور والأزهار والثمار التي لا يمكن أن توجد في الطبيعة. كما احتوت على ستائر حرير وسجّاد وعدد من الصور والبرونز والبورسلين وكل أنواع الزينة البيتية. لكن أي شخص مجرّب صاحب ذوق رفيع يلقي نظرة سريعة على الغرفة سوف يكتشف حالًا الرغبة في الاحتفاظ بالمظاهر إلى حدٍّ ما، بما أن المظاهر يجب الاحتفاظ بها. إنّ أبلوموف، بطبيعة الحال، لا يوجد في ذهنه شيءٌ آخر حين قام بتأثيث مكتبه، فالمرء صاحب الذوق المهذّب لن يرضى أبدًا بتلك الكراسي الثقيلة غير الملائمة المصنوعة من خشب الماهوغاني، وحاملات الكتب الضعيفة. وقد سقط ظهر إحدى الأرائك فبدت قشرة خشب الماهوغاني متآكلة في بعض الأماكن.

في المقابل كانت الصور وأواني الزهور ومعرض الزينة من النوع الرديء على حدٍّ سواء، غير أنّ المالك نفسه لم يبدُ مباليًا كثيرًا بأثاث مكتبه، إذ إنه بدا يتساءل عمّن يستطيع في الواقع أن يتخلص من تلك النفايات هناك. إنها لا مبالاة أبلوموف بمِلكيته الخاصة، وربما أيضًا لا مبالاة خادمه زاخار الشديدة، ما جعل المكتب يبدو، بعد فحص دقيق، مهملًا وغير مرتّب. انتشرت بيوت العنكبوت المغطاة بالغبار حول الصور المعلقة على الحائط؛ وبدلًا من أن تعكس المرايا الأشياء في الغرفة، فإنها بدت أكثر شبهًا بألواح كانت تستعمل لكتابة المذكرات على الغبار؛ كان السجّاد مغطىً بالبقع وتُركت منشفة على الأريكة؛ في كل صباح تقريبًا يمكن رؤية طبق قذر مع قنينة ملح وعظم من أثر عشاء الليلة السابقة على المائدة. ولولا

وجود ذلك الطبق مع غليون جرى التدخين به توًا على الفراش، أو أنّ مالك الشقة نفسه استلقى هناك، لما فكّرنا أنّ أحدًا سكن المكان كل شيء كان مُغبرًا وشاحبًا وخاليًا من أي أثر حي للوجود البشري. صحيح، كان هناك كتابان أو ثلاثة كتب مفتوحة وصحيفة على حاملات الكتب، ومحبرة وعدد من الأقلام على المكتب؛ لكن الصفحات المفتوحة قد اصفرّ لونها وغطّاها الغبار. من الواضح أنّها تُركت على هذا الوضع منذ أمد طويل جدًا؛ فالصحيفة تحمل تاريخ السنة الماضية، وإذا ما غمرَ أحدٌ قلمه في المحبرة فليس بعيدًا أن تطنّ ذبابة خائفة فيها.

كان أبلوموف، خلافًا لعادته، يستيقظ مبكرًا جدًا حوالي الساعة الثامنة، ويبدو قلقًا حول شيءٍ ما. فيتغير وجهه بشكل مستمر وكأنه تحذير من ألم مبرّح أو غيظ. من الواضح أنه كان يعيش في نوبات من الصراع الداخلي دون أن يسعفه عقله بعد.

حدث في المساء الماضي أن تسلّم أبلوموف رسالة مزعجة من وكيل عزبته. من المعتاد تصوّر الأخبار السيئة التي يرسلها الوكيل بسهولة: المحصول الرديء، متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين، الإيرادات الهابطة، وغيرها. على الرغم من أنّ الوكيل كتب رسائل مماثلة إلى سيده في السنة الماضية والتي قبلها، إلا أنّ الرسالة الأخيرة كان لها التأثير القوي نفسه الذي تتركهُ أية أخبار مفاجئة وغير سارّة.

المسألة بمجملها تمثّل إزعاجًا كبيرًا: كان عليه أن يفكّر بجمع المال واتخاذ خطوات محدّدة. مع أنه من المناسب إنصاف العناية التي يوليها أبلوموف لشؤونه. بعد أن تسلم رسالة وكيله المزعجة قبل عدة سنين، انهمك بوضع خطة لكل التغييرات والتحسينات في إدارة العزبة. حسب خطته توجَّب اتخاذ إجراءات اقتصادية وإدارية متنوعة. وبغض النظر عما جرى التفكير به بصورة شاملة، فإنّ رسائل الوكيل المزعجة تواصلت سنويًا، وأثارت فيه الرغبة بعمل شيء، وبالنتيجة أقلقت راحة باله.

أدرك أبلوموف تمامًا بأنه يجب أن يتخذ قرارًا حاسمًا قبل أن يضع الخطة موضع التنفيذ.

ما إن استيقظ من النوم حتى عزمَ على النهوض والاغتسال، وبعد أن تناول فطوره، لقد ظنّ وهو لم يزل في فراشه أن الأمور حسمت تمامًا، فتوصّل إلى قرار، ودوّنه على الورق، ثم صنعَ منه عملًا جيدًا على العموم. استلقى لمدة نصف ساعة، وقد عذّبه هذا القرار؛ لكن بعد ذلك، رأى بأنّ لديه الوقت الكافي لكي ينفّذه بعد وجبة الفطور التي تناولها في الفراش كالعادة، وبالأخص أنّ لا شيء يمنعه من التفكير وهو مستلقٍ.

ذلك ما فعلهُ. جلسَ بعد الفطور، ونهض خارج الفراش؛ لمح نعليه، ودلَّى إحدى قدميه، لكنه أرجعها ثانية، وقد أجفلته دقات الساعة التاسعة.

قال بصوتٍ عال ممتلئ بالغيظ:

ماذا أفعل؟ هذا مخيف! يجب أن أخطط للعمل! لن أستمرّ على مثل هذا...

صاح:

زاخار!

جاء ما يشبه هرير كلب حراسة مُقيّد بسلسلة من غرفة مفصولة يربطها بمكتب أبلوموف ممر ضيق، تبعهُ ضجيج ساقين قفزتا من مكان ما. كان ذلك زاخار الذي قفز من على الموقد الذي عادةً ما يجلس عليه ويغلبهُ النعاس.

كان رجلًا كبير السن، يلبس صدرة رمادية بأزرار نحاسية ومعطفًا رماديًا ذا ثقب عند الذراع، برز منه قميصه. دخل إلى الغرفة؛ كان رأسه أصلع مثل كرة البليارد، لكن شعرات لحيته الجانبية، البنية الفاتحة والمخططة بالرمادي، كانت ضخمة وكثيفة جدًا إذ يمكن لكل منها أن تشكّل ثلاث لحىً.

لم يقم «زاخار» بأي محاولة لتغيير مظهره الذي منحه إيّاه الربّ الطيّب أو ملابسه التي مزّقها في الريف. كانت ملابسه مصنوعة على وفق النمط الذي جلبه من قريته. أحبَّ المعطف الرمادي والصدرة، لأنهما ذكّراه بشكل غامض بالزيّ المميز الذي اعتاد أن يلبسه في أيام الخير الغابرة حين صحب سيّده وسيّدته الراحلين إلى

الكنيسة أو بعض الزيارات؛ كان هذا الزيّ المميز في رأيه هو الدليل الوحيد على كرامة عائلة أبلوموف. ولم يوجد شيء آخر يذكّر الرجل العجوز بحياته الهادئة والمزدهرة في بيت سيده القديم عند براري الريف. كان سيدهُ وسيدته السابقين ميتين، وقد تُرِكت صورٌ شخصية للعائلة في البيت الريفي القديم، وهي بلا شك موجودة في مكان ما في العلّية؛ ولم تعد القصص التي تُروى عن أسلوب الحياة القديم، والمكانة المهمة التي شغلتها العائلة، مسموعةً، وعاشت فقط في ذاكرة القلة من كبار السن الذين ظلوا يعيشون في العزبة. هذا هو السبب في أنّ معطف زاخار الرمادي كان عزيزًا جدًا عليه، إذ رأى فيه انعكاسًا واهنًا لمجد الماضي، ذكرّه أيضا بشيء ما في وجه أبلوموف، والطريقة التي استدعى بها والديه؛ سيدة وسيد «زاخار» السابقين، وبنزواته التي كان يتذمر منها الخادم سرًا وجهارًا، لكنه احترمها كونها تعبيرًا عن رغبة سيّده وحقوقه. فهو دون هذه النزوات لن يشعر إلى حد ما بأنّ لديه سيدًا؛ ولن تعود له ذاكرة شبابه، والريف الذي تركوه منذ أمدٍ طويل وحكايات كرسي العائلة القديم المحفوظ في ذاكرة الخدَم القدماء ومربيات الأطفال، والذي انتقل من جيل إلى آخر.

كانت عائلة أبلوموف غنية ومشهورة في الريف، لكن بعد ذلك، والربّ وحده يعرف السبب، أصبحوا فقراء وفقدوا كل تأثيرهم، وأخيرًا اختفوا، على نحو لا يمكن إدراكه، بين العائلات الأرستقراطية. ظلَّ الخدم ذوو الشعر الرمادي وحدهم أحياء وسلّموا لمن تلاهم ذكريات الماضي المخلصة التي ادَّخروها وكأنها أشياء مقدّسة.

ذلك هو السبب في أنّ «زاخار» كان مولعا جدًّا بمعطفه الرمادي. ناهيك عن تقديره شاربيه الخدّيين؛ لأنه حين كان طفلًا رأى الكثير من الخدم القدامى الذين لبسوا هذه الحلية الأرستقراطية القديمة.

استغرق أبلوموف في أفكاره، ولم يلاحظ «زاخار» لمدة طويلة. وقف «زاخار» أمامه صامتًا. ثم سَعَلَ أخيرًا.

سأله أبلوموف:

ماذا تريد؟

لكنك طلبتني يا سيدي، أليس كذلك؟

أجاب ومدّ نفسه:

طلبتك؟ ما الأمر الذي طلبتك من أجله؟ ألا تتذكر! من الأفضل أن تعود إلى غرفتك وسوف أحاول أن أتذكّر.

خرج «زاخار» من الغرفة، واستمرّ أبلوموف بالارتماء على فراشه مفكرًّا في الرسالة اللعينة. مرّت ربع ساعة.

قال:

«لقد استلقيتُ بما فيه الكفاية. يجب أن أنهض. لكن مهلًا دعني أقرأ رسالة الوكيل بدقة مرّة أخرى ثم انهض. زاخار!».

ومرّة أخرى كانت القفزة نفسها وأصبحت الدمدمة أعلى.

دخل «زاخار» واستغرق «أبلوموف» مرّة أخرى في التفكير. وقف «زاخار» دقيقتين ينظر إلى سيّده مستنكرًا، وبشكل منحرف قليلًا، وأخيرًا سار نحو الباب.

سأله أبلوموف فجأة:

إلى أين ذهبت» أجاب زاخار بصوت خافت وأجشّ:

أنت لم تقل شيئًا يا سيدي، فلماذا يتوجب عليّ أن أقف هنا من أجل لا شيء؟

وفقد صوته. لقد زعم دوما أنه كان يقود كلاب الصيد مع السيّد السابق، حين صفعت ريح قوية حنجرته.

كان يقف في وسط الغرفة، مبتعدًا قليلًا عن أبلوموف، وظلّ ينظر إليه جانبيًا.

هل فقدت وظيفة ساقيك إذ لم تستطع الوقوف مدة أطول؟ ترى أنني قلق لذا انتظر! ألم يكفِك استلقاؤك طويلًا في غرفتك؟ اعثر على الرسالة التي تسلمتها من الوكيل أمس. أين وضعتها؟

قال زاخار:

أية رسالة؟ لم أرَ رسالة يا سيدي.

لكنك أخذتها من ساعي البريد بنفسك يا لها من رسالة قذرة!

قال زاخار:

كيف ينبغي لي أن أعرف أين وضعتها؟

ونقرَ على الأوراق وأشياء أخرى على المنضدة.

إنك لا تعرف أي شيء! انظر هناك، في سلة المهملات، أو ربما سقطت وراء الأريكة؟ انظر خلف تلك الأريكة. ألم يتم تصليحها بعد؟ لماذا لا تطلب النجّار لكي يصلحها؟ إنك أنت الذي كسرها أليس كذلك؟ إنك لا تفكّر بأي شيء!

أجاب زاخار:

لست أنا الذي كسرها. لقد انكسرت بنفسها لا يمكن أن تدوم للأبد. أليس كذلك؟ أكيد أنها ستنكسر في يوم ما.

لم يفكّر أبلوموف بضرورة مناقشة المسألة.

سأل فحسب:

ألم تعثر عليها لحد الآن؟

ها هي بعض الرسائل سيدي.

ليست هي.

قال زاخار:

حسنٌ يا سيدي، لا توجد رسائل أخرى.

قال أبلوموف وقد فقد صبره:

حسنٌ. بإمكانك الذهاب. سوف أبحث عنها بنفسي حين أنهض.

عاد زاخار إلى غرفته، لكنه كان على وشك أن يضع يديه على الموقد كي يثب عليه، حين سمع نداءً عاجلًا.

زاخار! زاخار!

دمدم زاخار بينما دخل إلى المكتب ثانيةً:

يا إلهي. يا لها من محنة! أتمنى لو كنت ميتًا!

سأل:

ما الأمر الآن سيدي؟

وأمسك بباب المكتب بيد واحدة، ولكي يظهر استنكاره الشديد نظر إلى أبلوموف بزاوية استطاع من خلالها أن يراه فقط خارج زاوية عينيه، بينما أمكن لسيده رؤية شعرات اللحية الجانبية التي بدت وكأنّ طيرين أو ثلاثة ستحلّق منها في أي لحظة.

علّق أبلوموف بشكل متجهّم:

مناديلي، أسرعْ بجلبه! ربما فكرت به بنفسك. إنك لن ترى أي شيء!

لم يظهر زاخار أي علامة على الاستياء أو الدهشة بسبب طلب سيده وتوبيخه، ولا شك أنه وجده أمرًا طبيعيًا تمامًا.

دمدم قائلًا:

كيف لي أن أعلم أين منديلك؟

وسار حول الغرفة ولمس كل كرسيّ على الرغم من عدم وجود علامة على أن شيئًا يستلقي هناك.

قال:

دائمًا ما تفقد الأشياء.

وفتح باب غرفة الاستقبال ليرى إن كان المنديل هناك.

قال أبلوموف:

أين أنت ذاهب؟ ابحث عنه هنا. لم أكن هناك منذ أول أمس. هلّا أسرعت؟

قال زاخار:

«أين ذلك المنديل؟ لا يمكنني أن أراه في أي مكان!» ورفع يديه بسرعة، ونظر في أرجاء الغرفة. وفجأةً همس بغضب: «آه، ها هو. إنه تحتك يا سيدي! التصق أحد طرفيه! إنك تستلقي على منديلك ثم تسأل عليه!

كان زاخار على وشك أن يغادر الغرفة دون أن ينتظر الجواب. شعر أبلوموف بشيء من الحرج بسبب غلطته. لكنه سرعان ما وجد سببًا آخر في إلقاء اللوم على زاخار.

أهذه هي الطريقة التي تجعل بها المكان نظيفًا ومرتّبًا؟ انظر إلى الغُبار، والقذارة. يا إلهي! انظر إلى الزوايا. إنّك لم تقمْ بأي شيء».

قال زاخار بصوت مؤلم:

لم أقُمْ بأي شيء؟ كأني لم أحاول أن أعمل بأصابعي تمامًا، أنا أنظف وأكنس طوال اليوم.

وأشار إلى وسط الأرضية والمائدة التي يأكل عليها أبلوموف.

قال:

انظرْ هناك يا سيدي. انظرْ. كل شيء نظيف ومرتّب كأنّ هناك حفل زفاف. فما الذي تريده بعد؟

قاطعه أبلوموف:

ما هذا؟ وهذا وهذا.

وأشار بأصابعه إلى الجدران والسقف.

أشار إلى المنشفة المتروكة على الأريكة منذ يوم أمس، وإلى الطبق الذي يحتوي على قطعة من الخبز منسية على المائدة.

قال زاخار:

حسن سيدي، أعتقد بأنّي سوف أرفعها.

والتقط الطبق وبدت ملامحه لطيفة.

قال أبلوموف وأشار إلى الجدران:

فقط ذلك؟ وماذا عن الغبار على الحائط، وخيوط العنكبوت؟

عادةً ما أكنس الجدران قبل عيد الفصح يا سيدي، ثمّ أنظّف الأيقونات أيضًا وأكنس خيوط العنكبوت.

والكتب والصور. متى نظفتها؟

الكتب والصور نظفتها يا سيدي قبل عيد الميلاد. أنا وأنيسيا قلبنا كل حاويات الكتب حينئذ. كيف تريد مني أن أنظّف المكان وأنت في البيت طوال اليوم؟ أليس كذلك؟

أحيانًا أذهب إلى المسرح أو أزور الأصدقاء. ذلك ما يتوجب عليك أن تفعله.
وأستطيع أن أقوم بالأعمال في الليل يا سيدي. أليس كذلك؟
نظر إليه أبلوموف نظرة توبيخ، هزّ رأسهُ وتحسّرَ. ألقى زاخار نظرة لا مبالية خارج النافذة وتحسّر أيضًا. بدا السيّد مفكرًا: «حسن، يا عزيزي. إنّك أكثر أبلوموفية منّي». ومن المحتمل تمامًا أنّ زاخار فكّر في سرّه: «هراء! كلّ ما تجيده هو أن تستعمل الكلمات الغاضبة ذات التردد العالي إنك لا تهتم قيد أنملة بالغبار وبيوت العنكبوت!» قال أبلوموف:
ألا تدرك أنّ العثّة تنمو في الغبار؟ وأحيانًا بإمكاني أيضًا أن أرى بعوضًا على الحائط!
أشار زاخار بلا مبالاة:
وجدتُ البراغيث أيضًا سيدي.
قال أبلوموف:
هل تعتقد أن الوضع على ما يرام؟ آه، إنها الهوام!
بدا وجه زاخار مكشّرًا بأكمله، وتفرّقت حواجبه عن شعر اللحية الجانبي، وانتشر وهجٌ أحمر في محيّاه.
قال بدهشة ساذجة:
«ليس خطأي يا سيدي. إذا ما وجد بقٌّ في العالم فإنّي لم أخترعه، أليس كذلك؟
قاطعهُ أبلوموف قائلًا:
إنه بسبب القذارة. يا له من هراء تتكلم عنه!
أنا لم أخترع القذارة أيضًا.
لديك فئران تركض في غرفتك أثناء الليل بإمكاني سماعها.
أنا لم أخترع الفئران أيضًا. ثمة العديد من هذه المخلوقات في كل مكان يا سيدي. الفئران والعث والبق.
كيف لا يوجد في بيوت الآخرين بقٌّ أو عثّ؟
عبّر وجه زاخار عن الشك، أو بالأحرى عن تأكيد بأنّ ذلك لم يحدث أبدًا.

قال بعناد:
فعلتُ كل شيء يا سيدي. لا تتوقع مني أن أرى كل بقّة. لا أستطيع أن أزحف داخل شقوقها. أليس كذلك؟
بدا يفكّر: «وكيف سيبدو النوم دون وجود البق؟» أعطى أبلوموف تعليماته قائلًا: «اكنسْ القاذورات من الزوايا؛ حينئذ لن يوجد أيٌّ منها».
قال زاخار:
أكنسها اليوم وسيكون غدًا الكثير منها.
قاطعهُ سيده:
كلا. لن تكون. ويجب ألَّا تكون.
أصرَّ الخادم قائلًا:
بل ستتراكم. أنا أعرف يا سيدي.
حسنٌ. إذا ما تراكمت يجب أن تكنسها مرة أخرى.
سأله زاخار:
ماذا سيدي؟ أأكنس الزوايا كل يوم؟ آه، وأي نوع من الحياة ستكون؟ أتمنى لو أموت!
أعاد أبلوموف القول:
لكن لماذا تكون غُرفُ الآخرين نظيفة؟ انظرْ إلى نوافذ منزل مدوزن نغمات البيانو المقابل، من المتعة أن تنظر إلى مكانه، ولديه خادمة واحدة فقط.
اعترض زاخار فجأة:
ومِنْ أين تتوقع أن تأتي القذارة إلى الألمان؟ انظر كيف يعيشون! العائلة كلها تقضم عظمًا طوال الأسبوع. المعطف يمرُّ من الأب إلى الابن، ومن الابن يرجع إلى الأب.
تلبس زوجته وبناته أثوابًا قصيرة. سيقانهنّ ملتصقة تحتهنّ كأنهنّ إوزات. فمِنْ أينَ تأتيهم القاذورات؟ إنهم ليسوا مثلنا، بأكوام الملابس البالية النائمة في خزانة

الثياب لعدّة سنوات. إنهم لا يملؤون الزوايا بفتات الخبز أثناء الشتاء. إنهم لا يضيّعون كسرة خبز، لا يضيّعونها! يحولونها إلى كعك ويضعونها مع بيرتهم!
بصق زاخار عبر أسنانه على فكرة هذه الحياة البخيلة.
أجاب أبلوموف:
كلامك هراء! من الأفضل أن ترتّب الغرف.
حسنٌ سيدي. سأكون سعيدًا لو رتَّبتُها، لكنك لا تسمح لي.
عُدنا من جديد! إذن أنا الذي لا أسمح لك. من فضلك!
بالطبع أنت يا سيدي! أنتَ دائمًا في البيت: فكيف أستطيع أن أرتّب المكان وأنت موجود هنا؟ اخرج لمدة يوم واحد وسوف أجعل منه مكانًا نظيفًا ومرتّبًا.
يا إلهي! ماذا بعد؟ أخرجُ حقًا! من الأفضل أن تعود إلى غرفتك.
أصرَّ زاخار قائلًا:
لكن حقًا يا سيدي، لماذا لا تخرج اليوم، وأنا وأنيسيا سوف نرتّب كل شيء على أحسن وجه. مع ذلك، أذكّرك يا سيدي: لن نكون قادرين على عمل كل شيء بأنفسنا. لا نستطيع نحن الاثنين. يجب أن تكون هناك خادمات نهاريات يتولين الغسل...» قال أبلوموف:
يا إلهي! يا لها من فكرة! خادمة نهارية؛ اذهبْ، عُدْ إلى غرفتك.
كان نادمًا على بدء الحديث مع زاخار. نسي أنه حالما يبلغ ذلك الموضوع الحساسّ حتى يتورّط في مشكلة مستمرة. ودّ أبلوموف أن تكون غرفهُ نظيفة، لكنهُ لم يمنع نفسه من الرغبة في تصوّر أن كلّ ذلك يحدث بذاته، دون أية ضجّة؛ لأنه ما إن يطلب من زاخار التنظيف والمسح وغيرها، حتى تقوم الضجة دائمًا! وقد ثبت له في كل مرّة أن الأمر سوف يعني عددًا ضخمًا من المشاكل، وزاخار نفسه يدرك جيدًا بأنّ الفكرة تفزع سيّده.
ترك زاخار الغرفة واستغرق أبلوموف في التفكير. بعد دقائق أعلنت الدقّات الرنانة عن مرور نصف ساعة.
قال أبلوموف مرعوبًا:

يا إلهي! ستكون الساعة الحادية عشرة وأنا لم أنهض وأغسل! زاخار! زاخار! زاخار!
جاء صوت زاخار من الممر بينما تبعه صوت قفزة كالعادة:
يا إلهي، يا إلهي! ماذا تريد؟
سأله أبلوموف:
هل الماء جاهز؟
أجاب زاخار:
لقد جَهزَ منذ ساعات. لماذا لا تنهض سيدي؟
لماذا لم تقل لي أنّه جاهز لكنتُ نهضتُ منذُ أمد طويل؟ اذهب الآن. سوف ألحق بك حالًا. لديّ عمل أنجزه. سوف أجلس وأكتب.
خرج زاخار، لكنهُ رجع بعد دقيقة حاملًا دفتر ملاحظات ملطخًا ببقع الشحم وتغطيه كتابة وقصاصات من الورق.
إذا ما أردت الكتابة سيدي فيجب أيضًا أن تدقق هذه الحسابات. يجب أن تدفع المستحقات.
سأل أبلوموف بقلق:
أية حسابات؟ وكم مبلغ المستحقات؟
القصّاب، بائع الخضراوات، صاحب المصبغة، الخبّاز، يا سيدي. كلهم يسألون عن النقود!
دمدم أبلوموف:
كل ما يفكرون به هو المال! لماذا لم تجلب لي الفواتير في وقتها؟ لماذا تقدّمها كلها الآن.
لكن في كل مرّة أقدمها لك يا سيدي تأمرني أن أنصرف، ودائمًا تقول لي: غدًا، غدًا.
حسنٌ، هل تستطيع أن تؤجلها إلى يوم غد؟
كلا يا سيدي. إنهم يضايقونني سيدي. لن يمنحونا أية ثقة. اليوم هو أول أيام الشهر.

قال أبلوموف بكآبة:
إزعاج جديد! حسنٌ. ماذا تنتظر؟ ضعها على المائدة. سوف أنهض الآن وأغتسل وألقي نظرة عليها. هل الماء جاهز؟
قال زاخار:
إنه جاهز يا سيدي.
حسنٌ، الآن...
ندّت عنه آهة وكان على وشك أن يرفع نفسه من فراشه لكي يجلس.
قال زاخار:
نسيت أن أخبرك، قبل بضع ساعات، وفيما كنتَ نائمًا أرسلَ وكيل البيت إلى البوّاب ليقول له بأننا يجب أن ننتقل إنهم يريدون الشقة.
حسنٌ، ما المشكلة؟ إذا ما أرادوها، فبطبيعة الحال أننا سننتقل. لماذا تضايقني؟ إنها المرة الثالثة التي تخبرني فيها.
إنهم يضايقونني أيضًا يا سيدي.
قل لهم أننا سننتقل.
إنهم يقولون يا سيدي أنك وعدتهم بالانتقال الشهر الماضي، لكنك لم تتنقل لحد الآن. وهم يهددون برفع شكوى إلى الشرطة.
قال أبلوموف بعزم:
دعهم! سوف ننتقل حالما يصبح الجوّ دافئًا خلال ثلاثة أسابيع أو ما يقارب.
خلال ثلاثة أسابيع سيدي؟ لماذا سيدي؟ يقول الوكيل بأن العمال سيدخلون بعد أسبوعين. وهم عازمون على تهديم البناء كله. يجب أن ننتقل غدًا أو بعد غد، ذلك ما يقوله يا سيدي!
هل قال ذلك؟ إنه مستعجل جدًا! يريد منا أن ننتقل حالًا، أليس كذلك؟ لا تتجاسر على ذكر الشقة لي ثانية. حذّرتك في إحدى المرات وها أنت تفعلها من جديد.
انتبه!

سأل زاخار:
لكن ماذا عليّ أن أفعل يا سيدي؟
أجاب أبلوموف:
ماذا عليك فعله؟ إذن تلك هي الطريقة التي تريد أن تتهرب بها من مسؤولياتك؟ أنت تطلب مني بماذا أهتم؟ طالما أنك لا تزعجني تستطيع أن تقوم بأي ترتيبات حسبما تشاء، على شرط ألّا ننتقل من هذه الشقة. إنك لن تفعل أي شيء لسيّدك، أصحيح ذلك؟
تكلم زاخار بصوت واهن خشن:
لكن ماذا باستطاعتي أن أفعل يا سيدي؟ إنه ليس بيتي، أليس كذلك؟ كيف يمكننا أن نرفض الرحيل إذا ما طُرِدنا؟ والآن يا سيدي، لو كان بيتي لكنت سعيدًا جدًا...
ألا تستطيع أن تقنعهم بطريقة ما؟ قل لهم بأننا عشنا عدة سنوات، وكنا دائمًا ندفع الإيجار بانتظام...
لقد أخبرتهم بذلك يا سيدي.
آه؟ حسنٌ. ماذا قالوا؟
آه يا سيدي، ماذا تعتقد أنهم قالوا؟ ظلوا يقولون إننا يجب أن ننتقل لأنهم يريدون أن يقوموا بكل أنواع التغييرات. إنك ترى يا سيدي إنهم يريدون أن يحوّلوا الشقة وبيت الطبيب المجاور إلى شقة أخرى كبيرة بالتزامن مع زفاف ابن مالك الأراضي.
قال أبلوموف بغيظ:
يا إلهي، كيف ترضى بذلك وأنت تفكر بمثل هؤلاء الحمير الذين يرغبون بالزواج؟!
انقلب على ظهره.
قال زاخار:

لماذا لا تكتب إلى مالك الأرض يا سيدي؟ لن يزعجك حينئذ، فربما يأمر العمال أن يهدموا الشقة المجاورة أولًا!» وأشار زاخار إلى مكان ما إلى اليمين.

أوه، حسنٌ جدًا. سوف أكتب له حالما أنهض. من الأفضل أن تعود الآن إلى غرفتك. وسوف أفكّر بالأمر.

وأضاف:

يبدو أنك لا تستطيع أن تفعل أي شي، وينبغي أن أتدبر هذه المشكلة العويصة بنفسي.

خرج زاخار من الغرفة وبدأ أبلوموف بالتفكير، لكنه لم يستطع أن يقرّر بِمَ يفكّر أولًا: رسالة الوكيل أم إخلاء الشقة أم النظر في الحسابات! كان غارقًا في طوفان الهموم الحياتية. بقي مستلقيًا في الفراش يتقلب فيه من جانب إلى آخر. أحيانًا يسمع صيحات مفاجئة في الغرفة: «عزيزي، عزيزي إنّك لا تستطيع أن تهرب من الحياة إنها تلاحقك أينما كنت!».

من الصعب تقدير المدة التي سيبقى فيها على هذه الحال من التردد في اتخاذ القرار لولا سماعه طَرْقًا على الباب الأمامي.

قال أبلوموف ولفّ مبذلهُ حوله:

هناك شخص عند الباب، وأنا لحد الآن لم أنهضْ. أوه، أمرٌ مُخزٍ! مَنْ بمقدوره أن يأتي مبكرًا جدًا؟

ودون محاولة للنهوض نظر بفضول إلى الباب.

* * *

(2)

دخلَ الغرفة شابٌّ في الخامسة والعشرين، يبدو بصحة جيدة، ذو خدّين وعينين وشفتين ضاحكتين، فمن ينظر إليه يحسده.

كان يرتدي ثيابه بشكل أنيق كأنه عريس. بدا وجهه، وملابسه الكتان، وقفازاته، وسترته[3] الفراك ناضرة على نحو مدهش.

برزت سلسلة أنيقة تحتوي على عدد كبير من الحلي الصغيرة من صدرته. سحب منديلًا ناعمًا، وتنشق عطرًا شرقيًا، ثم مرّرهُ بشكل خفيف على وجهه وقبعته اللامعة، ومسحَ به حذاءيه الجلديين الطويلين.

قال أبلوموف:

فولكوف كيف حالك؟

قال الرجل النبيل المتألق:

كيف حالك يا أبلوموف؟

وسار نحوهُ.

صاح أبلوموف:

لا تقترب مني. لا تقترب مني. إنك آتٍ من الشارع البارد!

قال فولكوف:

آه، لقد أصابك الفساد يا عزيزي، أيّها المترف!

وبحث عن مكان ليضع فيه قبعته، لكن ما إن رأى الغبار في كل مكان حتى قرّر إبقاءها في يده. رفع حواف سترته الفراك لكي يجلس، لكن بعد نظرة متفحصة على الكرسي، ظلّ واقفًا.

إنك لم تنهض لحد الآن. يا له من مبذل قديم تلبسه. لم أرَه منذ مدة طويلة جدًا!

قال أبلوموف:

إنه مبذلٌ ملائم تمامًا.

3سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين م.

ولفّ طيّات الرداء الواسعة حوله برفق.
سأله فولكوف:
هل أنت على ما يرام؟
أجاب أبلوموف متثائبًا:
على ما يرام؟ يا إلهي، كلا. لم تبدُ الأمور أحسن. ضغط مرتفع جدًا كما تعلم. وكيف حالك أنت؟
أنا؟ أفضل. في صحة تامة.
وأضاف الشاب بحماس:
وأعيشُ وقتًا طيبًا بهيجًا.
سأله أبلوموف:
مِنْ أين أتيت مبكرًا؟
قال:
من خياطي الخاص. ألا تروق لك سترتي الفراك؟ رائعة، أليس كذلك؟
ودار وصار بمواجهة أبلوموف.
قال أبلوموف:
رائعة! ذوق رفيع. لكن لماذا هي واسعة من الخلف؟
إنها سترة ركوب الخيل.
فهمت. لكن هل تركبُ الخيل؟
أجاب فولكوف بحماس:
طبعًا! لديّ معطفٌ مصنوعٌ خصيصًا لهذا اليوم: الأول من أيار. أنا وغورينوف ذاهبان إلى «يكاترينهوف». ألا تعلم؟ ميشا غروينوف حصل على ترقية. سوف نحتفل اليوم.
قال أبلوموف:
حقًا؟
استمرّ فولكوف بالحديث:

لديه فرس أغبر[4]. كل الخيول في كتيبته غبراء. وحصاني أدهم. وأنت كيف ستذهب راجلًا أم راكبًا؟

قال أبلوموف:

أظنّ أني لن أذهب.

صاح فولكوف مندهشًا:

ألا تذهب إلى ياكاترينوف في الأول من أيار؟ يا إلهي! لماذا يا أبلوموف! الكل سوف يذهب هناك!

قال أبلوموف ببطء:

بالتأكيد لن يذهب الكل هناك.

تعالَ يا عزيزي. صوفيا نيكوليانيفا وليديا وحدهما في العربة، والمقعد المقابل تحت تصرفك تمامًا.

كلا هذا المقعد ضيق، بربّك! ماذا أفعل هناك؟

حسن جدًا. في هذه الحالة يستطيع ميشا أن يؤجر لك فرسًا.

حدّث أبلوموف نفسه: «أيّ أمور يفكّر بها!» وأضاف:

لماذا أنت مهتم بآل غورينوف؟

تورّد فولكوف بلون قرمزي وقال:

هل أخبرك؟

قُلْ.

استمرّ فولكوف بالحديث:

بشرفك. ألا تخبر أحدًا؟

وجلس على الأريكة خلفه.

لن أُخبرْ أحدًا.

همس:

4فرس أحمر مشوب ببياض م.

أنا مغرم بليديا.

مرحى! منذ متى؟ أعتقد أنها فاتنة.

قال فولكوف بحسرة عميقة:

قبل ثلاثة أسابيع. وميشا مُغرم بداشنكا.

مَنْ هي داشنكا؟

من أين أتيت يا أبلوموف؟ ألا تعرف داشنكا؟ آه، البلدة كلها مغرمة برقصها. الليلة سوف أذهب إلى الباليه معه: يريد أن يلقي باقة من الزهور على المسرح. يجب أن أقدمه للمجتمع. إنه خجول جدًا ومبتدئ. يا إلهي. يجب عليّ أن أذهب وأشتري بعضًا من أزهار الكاميليا.

لِمَنْ؟ من الأفضل أن تأتي وتشاركني الطعام. سوف نتحدث. أخشى أمرين مرعبين...

آسف. لا أستطيع. إني أتناول الغداء لدى الأمير تومينيف.

وأضاف هامسًا:

سيكون آل غورينوف هناك، وستكون حبيبتي ليديا أيضًا. لماذا هجرتَ بيت الأمير؟ يا له من بيت مرح! ثري جدًا! وكوخهم الريفي! مدفون بالزهور! لقد أضافوا شرفة له من الطراز القوطي. علمتُ أنهم مقبلون على تقديم حفلات الرقص في الصيف، لوحة حيّة، هل ستأتي؟

كلا. لا أعتقد.

يا لهُ من بيت رائع! في أيام الأربعاء الشتاء الماضي لم يكن هناك سوى خمسون فردًا، وأحيانًا كان العدد يبلغ المائة!

يا إلهي، أتصور أنها كانت مضجرة جدًا.

مضجرة! كيف لك أن تقول ذلك؟ إنها أكثر بهجة. اعتادت ليديا المجيء أيضًا، لكني لم أشاهدها هناك.

ثم أنشد فجأةً:

«أحاول أن أبعدها عن ذهني بلا فائدة وأروّض شغفي بالعقل» أنشأ يغنّي، وجلس على الكرسي مفكّرًا، لكنه قفز وبدأ ينفض ملابسه من الغبار.

قال:

كم هي مليئة بالغبار غرفتك!

شكا أبلوموف قائلًا:

إنها غلطة زاخار!

قال فولكوف:

يجب أن أذهب، يجب أن أجلب أزهار الكاميليا تلك وأضيفها إلى باقة زهور ميشا. وداعًا.

دعاه أبلوموف:

تعال واشرب الشاي معي في المساء، بعد عرض الباليه، وأخبرني عنه.

آسف. لقد وعدتُ بالذهاب إلى آل موسنسكي؛ اليوم هم في البيت. هل ستأتي معي؟ سوف أعرّفك بهم.

لا شكرًا. ماذا يجب أن أفعل هناك؟

لدى آل موسنسكي؟ آه، نصف المدينة هناك! ماذا يجب أن تفعل هناك؟ إنه بيت يدور الحديث فيه عن كل شيء.

قال أبلوموف:

ذلك ما أجده مضجرًا جدًا؛ الكلام حول كل شيء.

قاطعه فولكوف:

حسنٌ. لماذا لا تذهب إلى آل مزدروف؟ إنهم يتحدثون عن شيء واحد هو الفن. كل ما تسمعه هناك: مدرسة فينيسيا، وباخ وبيتهوفن، وليوناردو دافنشي.

قال أبلوموف متثائبًا:

دائمًا الشيء نفسه. كم هو مضجر! أفترض أنهم متحذلقون.

ختم فولكوف حديثه بعينين ساطعتين:

لا شيء يبعث السرور فيك. آه، هناك المئات من البيوت التي تستطيع الذهاب إليها. كل فرد له أيام زيارة محددة. آل سافينوف لديهم عشاء يوم الثلاثاء، آل مكلاشين في يوم الجمعة، آل فيازنيكوف يوم الأحد، الأمير تيومينيف يوم الأربعاء. وأنا مشغول طيلة أيام الأسبوع.

لكن ألا يُرهقك هذا التهافت اليومي؟

قال فولكوف مسرورًا:

يرهقني؟ يا إلهي، كلا! إنه متعة عظيمة! في الصباح أقرأ الصحف. يجب على المرء أن يتابع كل شيء ويعرف الأخبار. الحمد للهّ أن عملي في الخدمة المدنية لا يتطلب وجودي في المكتب. كل ما يفترض أن أعمله أن أتناول وجبة الطعام الرئيسة مرتين في الأسبوع مع رئيس القسم، ثم أذهب لأزور الناس الذين لم أرهم منذ زمن طويل. هناك دائمًا ممثلات جديدات في المسرح الروسي أو الفرنسي. سوف يفتتح فصل الأوبرا قريبًا، ويجب أن أحجز المقاعد لأجل ذلك، والآن أنا واقع في الغرام.

الصيف قادم، وميشا وعدَ بالرحيل. سوف نذهب لمدة شهر إلى عزبتهم من أجل التغيير. يمكننا القيام بالصيد هناك. جيران رائعون. أنا وليديا سوف نذهب لنتنزّه في الغابات، ونركب القارب، ونقطف الزهور». وراح يدور مسرورًا.

قال وحاول عبثًا أن ينظر بلطف إلى نفسه في المرآة المُغبرة:

يجب أن أذهب. إلى اللقاء.

حاول أبلوموف أن يوقفه قائلًا:

انتظر لحظة. أريد أن أتكلم معك حول مسألة.

ردّ فولكوف:

آسف. أنا في عجلة من أمري. المرّة القادمة! لكن ألا تأتي معي لتأكل بعض المحار؟ حينئذ سوف يكون بإمكانك أن تخبرني عنها بالتفصيل. تعال سوف يضيّفنا ميشا.

قال أبلوموف:

لا شكرًا.

إذن وداعًا.

سار إلى الباب وعاد.

سأله: «هل رأيت هذا؟» وأظهر له يده وفيها قفاز محكم وعجيب.

سأل أبلوموف وقد بدا مُربكًا: «ما هذا؟» القفازات الجديدة. انظر كم هي مضبوطة ومدهشة. لا يتوجب عليك أن تصارع لمدة ساعتين محاولًا أن تزرّر قفازك. مجرّد أن تسحب الرباط وينتهي الأمر. لقد وصل توًّا من باريس. هل تريد أن أجلب لك زوجًا منه؟

قال أبلوموف:

حسن، اجلب لي زوجًا.

سأل فولكوف والتقط حالًا إحدى الحلي الصغيرة:

انظر إلى هذه. رائعة جدًا أليست كذلك؟ بطاقة زيارة بزاوية مقلوبة.

هل تستطيع أن تعرف معنى الحروف المختصرة على النقش.

قال فولكوف:

أم: أمير. م: مايكل. لا مجال للقب تيومنيف. أعطاني إيّاها بدلًا من بيضة عيد الفصح. والآن إلى اللقاء، وداعًا. يجب عليّ أن ألبّي عشر دعوات أخرى. يا لها من حياة مرحة!

واختفى.

فكّر أبلوموف:

عشر زيارات في يوم واحد. البائس المسكين! وهذه تسمى حياة!» هزّ كتفيه استهجانًا وقال:

ماذا بقي للرجل؟ من أجل ماذا يضيّع نفسه ويبدّدها؟ لا شكّ أنه من الجميل مشاهدة المسرح، والوقوع في غرام ليديا إنها فاتنة جدًّا! وقطف الزهور معها في الريف والذهاب إلى الصيد. لا عيب في ذلك. لكن أن يقوم بعشر زيارات في اليوم يا له من بائس مسكين!

ختم حديثه وانقلب على ظهره، سعيدًا بأنه لم يمتلك مثل هذه الأفكار والرغبات الفارغة، إذ إنه لم يتهافت ويندفع بل يرتمي في الفراش، محافظًا على هدوئه وكرامته الإنسانية.

قطعَ طَرْقٌ على الباب أفكارَه. دخل زائرٌ جديد.

كان رجلًا يلبس سترة فراك خضراء غامقة ذات أزرار نحاسية مزخرفة، وجهه حليق ونظيف، وتظهر فيه علامات الإرهاق، يؤطرهُ بالتساوي زوج من الشوارب السود؛ وكانت عيناه مرهقتين، لكنهما هادئتان ومتأملتان مع ابتسامة كئيبة.

حيّاه أبلوموف مسرورًا:

صباح الخير سدبنسكي. وأخيرًا جئت لترى زميلك القديم! لا تقترب مني. لا تقترب لأنك قادم من الشارع البارد.

قال الزائر:

كيف حالك أبلوموف؟ كنتُ أنوي زيارتك، لكن تعرف كم أنا مشغول. انظرْ، أخذت معي عددًا من الأوراق الرسمية إلى المكتب لأكتب تقريرًا، ولقد أخبرت الساعي أن يحضر هنا حالًا إذا ما طلبته. ليس لديّ لحظة أخلو بها إلى نفسي.

سأل أبلوموف:

هل أنت ذاهب إلى دائرتك في هذه الساعة؟ لماذا أنت متأخر جدًا؟ تعوّدتَ أن تحضر هناك في الساعة العاشرة.

نعم تعودتُ. لكن الأمر مختلف الآن. أنا أقود العربة إلى هناك عند الساعة الثانية عشرة» وأكّد على كلمة «أقود».

أومأ أبلوموف برأسه بشكل ذي مغزى وقال:

فهمت. إنك مدير قسم! منذ متى؟

منذ عيد الفصح. لكن حجم العمل هائل! من الساعة الثامنة إلى الساعة الثانية عشرة في البيت، من الثانية عشرة إلى الخامسة في الدائرة، والمزيد من العمل في المساء، ولن أرى أحدًا.

قال أبلوموف:
حسنٌ! مدير قسم إذن! تهانينا، يا لك من زميل! اعتدنا أن نكون موظفي دائرة معًا. لا عجب إذا ما حصلتَ على رتبة مستشار عام في السنة القادمة.
يا إلهي! كلا. يجب أن أمنح أولًا «التاج». ظننتُ أني سأمنح رتبة «الخدمة المميزة». لكن الآن تسلمتُ مركزي الجديد. لا يمكنك أن تحصل على الترقية مرتين خلال سنتين.
قال أبلوموف:
تعالَ وتناول الطعام معي؛ سنشرب نخب الاحتفاء بترقيتك.
آسف، لكني سأتناول الطعام مع نائب المدير اليوم. يجب أن أحضّر تقريري ليوم الخميس. عمل شيطاني! لا يمكنك أن تعتمد على التقارير المحلية. يجب أن تدقق كل شيء بنفسك. نائب المدير دقيق جدًا ويصر على تدقيق كل شيء بنفسه. لذا سوف نجلس معًا من أجل ذلك بعد وجبة الطعام.
بدا أبلوموف ميالًا للشك فقال:
أليس بعد الغداء بالتأكيد؟
آه، ماذا تعتقد؟ سأكون محظوظًا لو أنّي رحلت مبكرًا. ستكون لديّ الفرصة للذهاب إلى «ياكترينهوف». في واقع الأمر، جئتُ لأسألك إن كنت لا تمانع في الذهاب معي إذا ما دعوتك.
قال أبلوموف عابسًا:
أخشى أني لا أشعر بصحة جيدة. إضافة إلى أنّ هناك الكثير من العمل للإنجاز. كلا، آسف لا أستطيع.
قال سدبنسكي:
يا للأسف. إنه يوم جميل. اليوم هو فرصتي الوحيدة لاستنشاق الهواء النقي.
سأل أبلوموف:
هل هناك أخبار جديدة في الدائرة؟

أمور كثيرة ومتنوعة. لم نعد نوقّع الكتب الرسمية الآن بعبارة «خادمكم المتواضع»، بل «وتقبلوا فائق احترامنا»، ولا نحتاج إلى أن نرسل قوائم الخدمة بنسختين.
يحتاج قسمنا إلى تخصيص ثلاث شعب أخرى واثنين من الموظفين أو أكثر للواجبات الخاصة. لقد تمّ إغلاق لجنتنا. لديّ الكثير من الأخبار.
وماذا عن الزملاء السابقين؟
لا شيء حتى الآن عدا أنّ سفنكين ضيّع ملفًا يحتوي على وثائق رسمية.
سأل أبلوموف بصوت مرتعش:
لا؟ ماذا فعل المدير؟». بدا وكأنه فعل ذلك رغمًا عن أنفه وقد أخافته قوة العادة.
أوقفَ ترقيته حتى يجري العثور على الملف. إنها مشكلة مهمة بالنظر إلى العقوبات.
وأضاف سدبنسكي هامسًا:
كما أنّ المدير يعتقد بأنه ضيّعه عن عمد».
لا أصدّق ذلك!
قال سدبنسكي بتأكيد منحه أهمية وبمسحة من التلطف:
أحيانًا يخلق الفوضى بأرقامه ويجعل كل مراجعه مختلطة. كانت لديّ مشكلة عويصة معه، لكني لم ألاحظ أي تعمّد لديه؛ أقصد فعلَ فعلته عن عمد. لن يفعلها. لا بدّ من أنه نسي أين وضع الوثائق. وسوف يتم العثور عليها في يوم من الأيام.
قال أبلوموف:
هكذا تقضي وقتك. دائمًا مشغول في العمل.
إنه أمر مروّع! لكن طبعًا من الممتع أن تعمل مع رجل هو نائب مديرنا. وهو لا يقصّر في مكافأة الموظف المخلص بسبب خدمته النزيهة، ولا ينسى أيضًا أولئك الذين لا يعملون شيئًا. وأولئك الذين أدّوا مدة خدمتهم فيوصي بترقيتهم. أما أولئك الذين لا يستحقون الترقية أو المنحة فإنه يحاول أن يحصل لهم على مكافأة.

ما مبلغ الراتب الذي تتقاضاه؟

ليس كثيرًا. ألفٌ ومئتان، إضافة لسبعمائة وخمسين للطعام، ستمائة للغرف المستأجرة، خمسمائة لتكاليف السفر، ولحد الألف للإضافات الأخرى.

هتف أبلوموف وقفز من فراشه:

يا إلهي! إنك لا تشتغل في الغناء أليس كذلك؟ فلماذا تأخذ راتبا أكثر من راتب مغني الأوبرا الإيطالي؟

إنه مبلغ قليل! بريسفيتوف يتسلم مكافأة إضافية وهو يعمل أقل مني. وهو عاجز عن فهم كل شيء. لكنه لا يمتلك المكانة نفسها. إنهم يقدرونني كثيرًا.

ثم أضاف وهو يخفض عينيه:

الوزير قال في اليوم التالي بأني موضع ثقة الوزارة.

قال أبلوموف وهزّ رأسه:

رجل جريء! لكن العمل من الساعة الثامنة إلى الثانية عشرة، ومن الثانية عشرة إلى الخامسة، وفي البيت أيضًا. حسنٌ.

سأله سدبنسكي:

لكن ماذا أعمل إن لم أكن في الخدمة؟

الكثير من الأعمال! تستطيع أن تقرأ وتكتب...

لكني لا أعمل شيئًا سوى أن أقرأ وأكتب.

لا أقصد ذلك. تستطيع أن تنشر كتاباتك.

أجاب سدبنسكي:

لا يمكن لأي شخص أن يكون كاتبًا. انظر لنفسك. إنك لا تكتب، أليس كذلك؟

قال أبلوموف وتنهّد:

لكني أملك عزبة. واقترحُ الآن خطة جديدة وأجري كل أنواع التحسينات. أجهد نفسي حد الموت. لكنك تعمل عمل الآخرين وليس عملك الخاص.

حسنٌ. ذلك لا ينفع. على المرء أن يعمل مقابل المال. سأرتاح في الصيف. وعدَني مديري بإيجاد عمل لي. سيأخذني إلى الريف. سوف أحصل على تكاليف السفر لكي أستأجر خمسة خيول، ثلاثة روبلات في اليوم لمصاريفي، ثم الترقية...

قال أبلوموف حاسدًا:

لديهم المال لكي يحرقوه!

ثم ندّت عنه حسرة واستغرق في التفكير.

أضاف سدبنسكي:

أحتاج إلى المال، لأني سوف أتزوج في الخريف.

صاح أبلوموف بحماس:

يا إلهي! حقًا؟ مَنْ ستتزوج؟

نعم حقًا، سأتزوج الآنسة موراشين. تتذكر أنهم كانوا يعيشون بالقرب مني في الريف أثناء عطلاتي الصيفية ويشربون الشاي عندي؟ أعتقد أنك قابلتها؟

قال أبلوموف:

كلا لا أتذكر. هل هي جميلة؟

نعم. إنها فتاة ساحرة. إذا ما رغبت نستطيع أن نذهب إليهم ونتناول الطعام معهم.

بدا أبلوموف مربكًا:

حسنٌ. فقط...

قال سدبنسكي:

الأسبوع القادم.

وافق أبلوموف وشعر بالارتياح:

نعم. نعم. الأسبوع القادم. بذلتي الجديدة ليست جاهزة الآن. أخبرني، هل هي مناسبة لك؟

نعم. أبوها موظف حكومي ذو رتبة عالية. يعطيها عشرة آلاف روبل، ولديه أحياء حكومية مجانية. سمح لنا بامتلاك اثنتي عشرة غرفة؛ أثاث، وتدفئة، والإضاءة كلها مجانية. ليست الأمور سيئة.

قال أبلوموف حاسدًا:

فعلًا ليست سيئة! إنك رجل محظوظ يا سدبنسكي.

يجب أن تكون إشبيني يا أبلوموف! لا تنسَ.

طبعًا. لكن ماذا عن كوزنتزوف، وفاسلييف، وماكوف؟

كوزنتزوف تزوج منذ عدّة سنوات، ماكوف يحلّ الآن مكاني، وفاسيلييف سافر إلى بولندا، وإيفان بتروفيتش حصل على رتبة القديس فلاديمير، أما أولشكين فهو الآن «صاحب السعادة».

قال أبلوموف:

إنه رجل لطيف.

نعم. نعم يستحق ذلك.

رجل لطيف جدًا حقًا. خُلُقٌ طيِّب، ومزاجٌ هادئ.

أضاف سدبنسكي:

ملتزم جدًا. أنت تعرف أنه لا يحاول أن يطلب الحظوة ولا يسبب الأذى ولا يتسقّط زلّات الآخرين، ولا يسبق أحدًا. إنه يقدِّم كل ما يمكنه إلى الناس.

ختم أبلوموف حديثه:

رجل رائع! أتذكّر أني حين أخلق فوضى ببعض التقارير الرسمية، وأترك بعض الأمور، وأعبّر عن فكرة خاطئة، أو أقتبس قانونًا خاطئًا في المذكّرة، فإنه لا يهتم لذلك؛ ونادرًا ما ينبّه الآخرين على أخطائهم. رجل رائع!

قال سدبنسكي:

لكن زميلنا سيميون سيميوفيتش فاسد. كل ما يجيدهُ هو ذر الرماد في عيون الناس. ماذا تعتقد أنه فعل في أحد الأيام؟ تسلمنا طلبًا من المحافظات بوضع وجار الكلاب بالقرب من أبنية الوزارة، لكي نحرسها من التعدّي على أملاك

الدولة؛ مهندسنا المعماري، وهو رجل نزيه صاحب خبرة ومتمكن، وضع تخمينًا متواضعًا للكلفة؛ لكن سيمون سيمونوفيتش ظنّ الكلفة التخمينية عالية جدًا، وبدأ يحقق ليكشف مبلغ الكلفة كي يجري بناء الوجار. جاء بشخص لبنائه بمبلغ أقل من ثلاثين كوبكًا، وأرسل حالًا مذكرة بذلك...

كان هناك طَرْقٌ آخر على الباب الأمامي.

قال الموظف الحكومي:

وداعًا. أخشى أني ثرثرت كثيرًا معك. ربما يطلبونني في الدائرة...

قال أبلوموف وحاول أن يحجزه:

ابقَ قليلًا. إضافة إلى أني أود أن أسألك النصيحة. هناك أمران مرعبان حدثا لي.

قال سدبنسكي:

كلا. أنا آسف أيها العجوز. سأراك بعد يومين.

وغادر الغرفة.

فكرّ أبلوموف وراقبه وهو يرحل:

عزيزي، إنك منغمر في العمل تمامًا. إنك تغلق عينيك وتسد أذنيك وفمك عن كل شيء في العالم. لكنه سيكون رجلًا مهمًا في يوم ما، ومسؤولًا عن أشياء مهمة، ويحصل على رتبة عالية في الخدمة. أعتقد أنّ هذا ما يسمّونه المهنة. ما أصغره من إنسان ذاك الذي يرغب بمثل هذه المهنة. الذكاء، والإرادة، والأحاسيس غير مرغوبة. لماذا؟ لأنها وسائل ترف. وهكذا يظل إلى أن يموت، وسينغمر في الحياة دون أن يعرف الكثير من الأمور. وهكذا يستمر في العمل من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الخامسة في دائرته، ومن الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشرة في بيته! يا له من رجل مسكين!

شعر بالرضا التام من فكرة أنه أستطاع أن يبقى في فراشه من الساعة التاسعة حتى الثالثة، ومن الساعة الثامنة حتى التاسعة، وكان فخورًا بأنّ ليس لديه تقارير ولا أوراق يكتبها، وكان هناك مدى واسع لمشاعره وخياله.

استغرق أبلوموف في أفكاره، ولم يلاحظ أن رجلًا أسمرَ نحيفا وقف عند فراشه. كان وجهه غير مرئي وراء سبلاته الجانبية وشاربيه، وذا لحية إمبراطورية[5].
وكانت ملابسه مهملة عن عمد.
صباح الخير أبلوموف!
ردّ أبلوموف:
صباح الخير بنكين. لا تقترب، لا تقترب. إنك آتٍ مباشرة من البرد!
قال بنكين:
آه، زميلي المرح! مازلتَ متكاسلًا وخالٍ من الهم! لا يمكن إصلاحك.
قال أبلوموف:
نعم خالٍ من الهم. دعني أريك الرسالة التي تلقيتها من وكيل البيت الليلة الماضية. أنا دماغي مُنهك وأنت تقول: خالٍ من الهم! من أين أتيت؟
من متجر الكتب. ذهبت لأتأكد من نفاد أعداد المجلة. هل قرأت مقالتي فيها؟
كلا.
سوف أرسلها إليك. اقرأها.
سأله أبلوموف متثائبًا:
ما موضوعها؟
تدور حول التجارة، وتحرير المرأة، وجوّ نيسان الجميل الذي نحن فيه، وعن الطرق الجديدة المخترعة لمكافحة الحرائق. كيف لا تقرأ الصحف؟ سوف تجد فيها كل ما يتعلق بالحياة اليومية. لكن ما يلهب مشاعري هي الحركة الواقعية في الأدب.
هل لديك الكثير من النتاجات؟
نعم الكثير. مقالتان في الأسبوع لصحيفتي، ومراجعة للروايات، وقد كتبت توًّا قصة قصيرة.

5لحية صغيرة مستدقة نامية تحت الشفة السفلى.

ما موضوعها؟

تدور حول مدير بلدة محلية سدد لكمات لآذان أصحاب المتاجر!

قال أبلوموف:

نعم. تلك هي الواقعية!

قال رجل الأدب النبيل وقد بدا عليه السرور:

هذه هي الفكرة الرئيسة لقصتي، إنها جديدة وجريئة. مسافرٌ صادف وأن رأى الضربة، ثم ذهب وقدّم شكوى إلى المحافظ. أمر المحافظ موظفا حكوميا قادمًا للبلدة في مهمة رسمية، أن ينظر في المشكلة. استطاع أن يجد كل ما يتعلق بشخصية مدير البلدة وسلوكه. دعا الموظف إلى اجتماع مع التجار المحليين من أجل مناقشة تجارتهم، وبدأ يحقق معهم حول تلك المشكلة أيضًا. حسن، ماذا تظن ما فعله أصحاب المتاجر؟ انحنوا وردوا أقدامهم للوراء احترامًا وقدموا المديح المفرط لمدير البلدة. قام الموظف بإجراء بعض التحقيقات السريّة واكتشف أنّ أصحاب المتاجر كانوا فاسقين جدًا يبيعون البضائع الفاسدة، ويمارسون الغش، ويخدعون الحكومة، وكانوا فاسدين جدًا، لذا فإنّ ضربهم كان عقابًا مستحقًا!» قال أبلوموف:

إذن لعبَتْ لَكَمات المدير دور القدر في المآسي القديمة؟

وافقه بنكين بسرعة:

نعم، حقا. لديك ذوق أدبي جميل! يجب أن تصبح كاتبًا. لقد نجحت، كما ترى، في إظهار عشوائية مدير البلدة في خرق القوانين، وأخلاق العوام الفاسدة، والطرق السيئة التي تبنَّاها الموظفون الثانويون، والحاجة إلى إجراءات قانونية صارمة. ألا تعتقد بأن فكرتي هذه جديدة؟

قال أبلوموف:

نعم، بالنسبة لي. قرأت القليل جدًا، كما تعلم.

قال بنكين:

في حقيقة الأمر، إنّ المرء لا يجد العديد من الكتب في غرفتك. لكن يجب أن تقرأ قصيدة رائعة، سوف تنشر بعد مدة قصيرة. حبّ موظف فاسد لامرأة ساقطة.
أستطيع أن أخبرك عن مؤلِّفها. إنها مازالت سرًّا.
ما موضوعها؟
تعرض الآلية الكلية لحياتنا الاجتماعية، وكلها بمسحة شعرية راقية. كل الخيوط الخفية مكشوفة. ودرجات السلّم الاجتماعية جرى تحرِّيها بشكل دقيق.
يستدعي المؤلفُ، وكأنّه في محاكمة، رجلَ الدولة الضعيف والفاسد وحشدَ الموظفين الفاسدين الذين يخدعونه؛ وكل امرأة ساقطة يجري تحرّيها بشكل محكم النساء الفرنسيات والألمانيات والفنلنديات وكل شيء واقعي قريب للحياة على نحو رائع ومثير. لقد سمعتُ مقتطفات منها. المؤلف رجل عظيم! يذكرنا بدانتي وشكسبير...
صاح أبلوموف مندهشًا وجلس:
يا إلهي لقد استطردتَ بعيدًا، أليس كذلك؟
صمت بنكين فجأةً، مدركًا بأنه فعلًا قد استطرد بعيدًا.
ثم قال ولم يزايله الحماس:
اقرأها واحكم بنفسك.
كلا، يا بنكين، لن أقرأها.
لماذا؟ إنها مليئة بالإثارة والناس تتحدث عنها.
دعهم! بعض الناس ليس لديهم شيء سوى الثرثرة. إنها مهنتهم في الحياة كما تعلم.
لكن لماذا لا تقرؤها وتطّلع على غرابتها؟
قال أبلوموف:
وأي غرابة فيها؟ لا أعلم السبب في استمرارهم بالكتابة. أفترض أنهم يسلّون أنفسهم فقط.

يسلّون أنفسهم، لماذا؟ إنها صادقة جدًا مع الحياة! صادقة على نحو مضحك! كأنها تمامًا صور شخصية حيّة. كائنًا من يكون تاجر، موظف حكومي، ضابط في الجيش، شرطي كأنّ الكتّاب يصطادونهم أحياءً!

لكن في هذه الحال لماذا يكون كل هذا مزعجًا؟ فهل من المسلّي التقاط رجل وتقديمه كما هو في الحياة؟ في حقيقة الأمر، لا توجد حياة في أي شيء يكتبونه لا يوجد فهم صادق له، ولا تعاطف حقيقي، لا شي مما يُطلق عليه الصدق الإنساني. مجرّد غرور تلك هي المسألة. إنهم يصفون اللصوص والنساء الساقطات كأنهم التقطوهم من الشارع وأخذوهم إلى السجن. إنّ ما تشعر به في قصصهم ليست «الدموع الخفية» بل الضحكة الواضحة الخشنة والحقد.

ماذا تريد بعد؟ ذلك أمرٌ رائع. لقد قلته بنفسك. حقدٌ حارق، حربٌ شديدة على الرذيلة، تهكمٌ حَقود على الكائنات البشرية الساقطة كل شيء هناك.

صاح أبلوموف وأثيرت عاطفته:

لا، لا، ليس كل شيء.

«يصفون اللص والبغي والأحمق المخادع كحثالة، لكن تذكّر أنهم بشر أيضًا. أين هو شعورك الإنساني؟ تريد أن تكتب برأسك فقط!» وتابع مستهجنًا:

أتعتقد أن التعبير عن الأفكار لا يتطلب حضور القلب؟ المرء بحاجة إليه إنهم يصفون الحب المثمر، ويمدُّون يد العون إلى الإنسان الساقط كي يرفعوه، أو تفيض أعينهم بالدمع وجعًا عليه، كأنه يواجه الدمار، لكن لا تسخرْ منه. امنحه الحبّ، تذكّر أنه إنسان مثلك. وتعاملْ معه كأنه نفسك، حينئذ سوف أقرأ لك وأعترف بك.

استلقى مرة أخرى مرتاحًا على السرير.

ثم استرسل في الحديث:

لكنهم ينسون الإنسان، أو أنهم عاجزون عن تصويره فأين الفن والمسحة الشعرية في ذلك؟ اعرض الرذيلة والبذاءة، لكن من فضلك لا تتظاهر بأن كشفكَ ذو علاقة بالشعر.

حسب رأيك، إذن، كل ما يجب أن نفعله هو أن نصف الطبيعة؛ الورود، العنادل، الصباحات الثلجية، بينما كل شيء حولنا في حالة مستمرة من الاضطراب والحركة؟ كل ما نريده هو تشريح المجتمع بشكل عارٍ. لا يوجد لدينا وقت للأغاني في هذه الأيام.

قال أبلوموف:

أعطني إنسانًا أحبّهُ!

قال بنكين منفعلًا:

هل هو حبُّ مقرض المال والمنافق والموظف السارق أو البليد؟ أكيد إنك لا تعني ذلك؟ يمكن للمرء أن يعرف حالًا أنك شخصية غير أدبية! كلا يا سيدي يجب عقابهم وطردهم من المجتمع والحياة المدنية.

صاح أبلوموف فجأة وكأن الإلهام جاءه، بينما قفز على قدميه مواجهًا بنكين:

أيطردون من المجتمع؟

ثم صاح وسطعت عيناه:

ذلك يعني نسيان أنّ هناك روحًا حيّة كانت تسكن في هذا الوعاء غير الفاضل؛ وإنه إنسان محروم، لكنه، مع ذلك، لا يقل شأنًا عنك. طرده! وكيف تقترح طريقة طرده من المجتمع الإنساني والطبيعة ورحمة الربّ!

بدوره قال بنكين مندهشًا:

استطردتَ بعيدًا، أليس كذلك؟

عرف أبلوموف أيضًا أنه تجاوز الحدّ. لفّه الصمت فجأةً ووقف جامدًا للحظة. تثاءب، وارتمى ببطء على السرير.

غرق كلاهما في الصمت.

قال بنكين:

إذن ماذا تقرأ؟

أنا؟ أقرأ كتب السفَر غالبًا.

ساد الصمت ثانيةً.

سأله بنكين:

لكنك ستقرأ القصيدة حين تكتمل، أليس كذلك؟ سوف أجلبها لك.

حرّك أبلوموف رأسه.

حسنٌ، هل أرسل لك قصتي؟

أومأ أبلوموف برأسه.

قال بنكين:

أخشى أني سأخرج إلى المطبعة. أتعرف لماذا زرتك؟ جئت لأطلب منك أن تأتي معي إلى «يكاترينهوف». لديّ عربة. عليّ أن أكتب مقالة غدًا عن المهرجان، ويمكننا أن نشاهده معًا. يمكنك أن تشير إلى كل ما لم أشاهده. ستكون متعة كبيرة. دعنا نذهب!

قال أبلوموف عابسًا ولفّ جسمه بالبطانية:

لا شكرًا. لا أشعر بأني على ما يرام. أخاف من الرطوبة. فالأرض لم تجف بعد. لكن لماذا لا تأتي معي لكي نأكل اليوم؟ يمكن أن نتحدث. أمران مرعبان وقعا لي...

آسف، لكن كل هيئة التحرير مجتمعة لتناول الطعام في مطعم سان جورج اليوم. يجب أن نذهب إلى المهرجان من هناك. ويجب أن أحضّر مقالتي أثناء الليل وأرسلها إلى المطبعة قبل الصباح. وداعًا.

وداعًا، بنكين.

قال أبلوموف متأملًا:

يكتب المقالات في الليل. متى يتسنى له أن ينام؟ من المحتمل أنه يتقاضى الآن خمسة آلاف روبل في السنة. إنه رزقه. لكن لكي يستمر في الكتابة، ضيّع عقله وروحه على التوافه، ولكي يغيّر قناعاته، باع ذكائه وخياله، ومارس العنف على طبيعته، وظلّ في حالة دائمة من الحماس والهياج، ولم يعرف الراحة، واندفع دائمًا...

يكتب ويكتب مثل عجلة أو ماكينة؛ يكتب غدًا، يكتب اليوم التالي، العطل، الصيف سيأتي؛ دائما يكتب، يكتب! متى يتوقف وينال الراحة؟ يا للرجل البائس المسكين!

أدار رأسه نحو المائدة، بدا كل شيء عاريًا، الحبر جفَّ، ولا يوجد قلم، وكان سعيدًا جدًا بأنه استلقى خالي البال كأنه مولود جديد، دون أن يحاول أن يعمل العديد من الأمور حالًا ودون أن يبيع أي شيء.

ورسالة وكيل المزرعة؟ والشقة؟

تذكّر فجأة وغرق في التفكير ثانيةً.

لكن الآن كان طَرْقٌ جديد على الباب الأمامي.

قال أبلوموف وانتظرَ ليرى مَنْ كان الزائر الجديد:

يبدو أنني اليوم لن أتوقف عن الاستقبال.

دخل الغرفة رجل بعمر ومظهر غير محددين؛ لقد بلغَ الشيخوخة لكن من الصعب تخمين عمره؛ لم يكن وسيما ولا قبيحًا، لا طويلًا ولا قصيرًا، لا أبيض ولا أسمرَ، لم تضفِ عليه الطبيعة أية ميزة مدهشة أو استثنائية، فلم يكن طيبا أو سيئًا، البعض يسميه إيفان إيفانيتش، والبعض الآخر يطلق عليه اسم إيفان فاسيليفتش، مع ذلك يطلق عليه آخرون إيفان ميخائيلوفيتش. الناس غير متأكدين من لقبه أيضًا. البعض يقول إيفانوف والآخر يسميه فاسيليف أو أندرييف، وآخرون يقولون ألكسييف. التقى به كغريب لأول مرة وأخبره حينها عن اسمه، لكنه سرعان ما نسيهُ فورًا، كما نسي وجهه، ولم ينتبه أبدًا لما تفوَّه به. لم يُضْفِ حضورُه شيئًا على المجتمع، وغيابه لم ينقص أي شيء منه. لم يمتلك عقله ظرفًا أو أصالة أو صفات مميزة. كما أنّ جسمه لا يحمل أي خصوصيات. قد يكون قادرًا على توضيح كل شيء رآه أو سمِعَهُ، وكان يمتّع الناس في الأقل بتلك الطريقة، لكنه لم يذهب إلى أي مكان؛ لقد وُلِدَ في بطرسبورغ، ولم يتركها، لذا فإنه نادرًا ما رأى أو سمع ما كان يعرفه الآخرون. هل يكون مثل هذا الرجل جذّابًا؟ هل يحبّ أو يكره أو يعاني؟ يبدو أنه يجب أن يحبّ ويكره ويعاني، لأنّ لا أحد

مُعفى من ذلك. لكنه نجح، بطريقة أو أخرى، في حبّ الجميع. هناك ناس لا تستطيع أن تُبدي نحوهم أي شعور بالعدوانية والانتقام... إلخ مهما حاولت. مهما فعلت لهم فإنهم يظلّون لطفاء معك. وكي لا تظلمهم، يكون من العدل القول إنهُ لو قسْتَ مدى حبّهم بالدرجات الحرارية فإنك لن تبلغ درجة الغليان. على الرغم من أنّ هؤلاء الناس يقال عنهم بأنهم يحبّون الكل، ولهذا السبب يفترض أن يكونوا من طينة طيبة، فإنهم في الواقع لا يحبّون كل فرد وهم ذوي طبيعة طيبة، والسبب ببساطة هو أنهم ليسوا من طينة سيئة. إذا ما أعطى الناس الصدقات إلى متسوِّل بحضور مثل هذا الرجل، فإنه يمنحهُ أيضًا مبلغًا من المال، ولو أنّهم نهروا السائل وأبعدوه وضحكوا عليه فإنه سوف ينهره أيضًا ويبعده ويضحك عليه. لا يمكن أن يوصف كونه غنيًا، لأنه بالأحرى فقير وليس غنيًا؛ لكن لا يمكن أن يوصف كونه فقيرًا لأنّ هناك الكثير من الناس أشدُّ فقرًا منه. لديه وارد يبلغ حوالي 3000 روبل في السنة إضافة إلى مركز غير مهم في الخدمة المدنية، والتي يتسلم منها راتبًا قليلًا؛ لم يكن أبدًا في فاقة ولا احتاج يومًا أن يستدين المال، ولم يحدث يومًا أن استدان منه أحد. ليست لديه مهنة خاصة ومنتظمة في الخدمة، لأنه لا مدراؤه ولا زملاؤه في العمل اكتشفوا يومًا فيما إذا أدّى عملًا أفضل أو أسوأ كي يقرروا المهنة التي يصلح لها. إذا ما أُعطي عملًا ليؤديه فإنه يؤديه بطريقة يعجز فيها مرؤوسوه أن يقرِّروا فيما إذا كان أداؤه ناجحًا أم فاشلًا. كان ينظر إلى عمله ويقرؤه عدة مرات ثم يقول: «دعه، سوف أفحصه فيما بعد، وعلى أية حال، فإنه يبدو على ما يرام ومثاليًا». لا أثر من القلق أو الرغبة القوية يمكن اكتشافها على وجهه، ولا أي شيء يوحي بأنه في تلك اللحظة كان يفكر بشيء؛ ولا تجده دائمًا يتحرَّى الأمر عن كثب، ليُظهر أنه يهتم به. إذا ما صادف والتقى بأحد معارفه في الشارع وسأله أين يذهب، فإنه سيجيب بأنه ذاهب إلى الدائرة أو الدكان للقاء صديق. لكن لو طلب منه قريبهُ أن يصحبهُ مثلًا إلى دائرة البريد أو خيّاطه أو من أجل النزهة فقط، فإنه سيذهب معه إلى دائرة البريد والخيّاط وللنزهة، على الرغم من أنّ ذلك يعني الذهاب بالاتجاه المعاكس.

من المشكوك في نظر الكثيرين أن تكون أمه قد لاحظت وجوده في العالم، وفعلًا هناك القلة من الناس يدركون أنه حي. ومن المؤكد تمامًا أنّ لا أحد سوف يفتقدهُ حين يرحل. لا أحد يسأل عليه، لا أحد سوف يأسف له، لا أحد يفرح بموته. لا أصدقاء لديه ولا أعداء، وإنما الكثير من المعارف. من المحتمل جدًا أنّ موكب جنازته فقط ما سيجذب انتباه العابرين الذين سوف يشرّفون هذا الشخص بإظهار الاحترام له، أعني انحناءة بسيطة. هذا الرجل المسمى أندرييف، وفاسلييف، أو مهما كان اسمه، يبدو نوعًا من التذكير الناقص والمجهول بالحشد الإنساني وصداه الرتيب وانعكاسه الشاحب. حتى زاخار في أحاديثه الصريحة مع أصدقائه الحميمين عند البوابة أو في المتاجر كان يعطي كل أنواع التشخيصات لزائري سيده، إلا أنه شعر بالإرباك حين تكلَّموا وذكروا اسم هذا، دعنا نسميه ألكسييف. سيظلّ يفكر طويلًا، محاولًا أن يلتقط بعض الملامح البارزة في الوجه، النظرات أو السلوكيات أو شخصية هذا الرجل، شيء ما ربما يكون قادرًا على إيقافه. وأخيرًا كان عليه أن يتخلى عن المهمة قائلًا: «هذا الرجل لا هو شخص ولا بشر ولا هو نوع من سمك الرنجة الأحمر الطيب!».

رحب به أبلوموف قائلًا:

هذا أنت ألكسييف؟ صباح الخير. من أين أتيت؟ لا تقترب مني، لا تقترب، لا أسلّم عليك. إنك قادم مباشرة من الشارع البارد.

قال ألكسييف:

يا إلهي، إن الجوّ غير بارد جدًا. لم أقصد زيارتك اليوم، لكني قابلتُ أوفتشينين وصحبني معه إلى بيته. جئتُ لآخذك يا أبلوموف.

إلى أين؟

إلى بيت أوفتشينين طبعًا. ماتفي أندريتش أليانوف وكاسيمير ألبرتوفيتش بخايلو وفاسيلي سفاسيتانيتش كولي. مياغن هناك.

ماذا يفعلون هناك وماذا يريدون منّي؟

أوفتشينين يدعوك إلى وليمة.

ردّ أبلوموف دون حماس:

آه، إلى وليمة.

ثم نذهب إلى يكاترينهوف؛ أخبروني لأطلب منك تأجير عربة.

وماذا سنعمل هناك؟

ماذا تعني؟ هناك مهرجان في الهواء الطلق اليوم. ألا تعلم؟ إنه اليوم الأول من أيار.

قال أبلوموف:

اجلس من فضلك. سنتحدّث عنهُ.

انهض. حان الوقت لتلبس ملابسك.

انتظرْ قليلًا. لدينا المزيد من الوقت!

المزيد من الوقت! إنهم ينتظروننا في الساعة الثانية عشرة، سوف نتناول الوجبة مبكرًا في الساعة الثانية، ثم نذهب إلى المهرجان. أسرعْ! هل أدعو زاخار لكي يساعدك في ارتداء ملابسك؟

ملابسي؟ إني لم أغتسل لحد الآن!

حسنٌ، اغتسل الآن؟

بدأ ألكسييف يخطو في الغرفة، ثم توقّف عند صورة رآها آلاف المرات سابقًا، وألقى نظرة سريعة من النافذة، التقط بعض الحلي الصغيرة من خزانة الكتب، ودوّرها في يده، فحصها بعناية، أعادها، وبدأ يخطو في الغرفة مرة أخرى، أطلق صفيرًا لنفسه كي ينشغل عن نهوض أبلوموف واغتساله.

مرّت عشر دقائق على هذا الوضع.

سأل ألكسييف فجأةً أبلوموف:

ماذا تعمل باللهّ عليك؟

ماذا؟

لكنك ما زلت مستلقيًا!

هل يتوجب عليّ أن أنهض إذن؟

طبعًا! إنهم ينتظروننا. ألا تريد أن تذهب؟

أذهب، إلى أين؟ لا أريد أن أذهب إلى أي مكان؟

لكن يا زميلي العزيز، لقد قلت توًا بأننا سوف نذهب إلى بيت أوفتشينين ثمّ منه إلى المهرجان.

قال أبلوموف بتكاسل:

نذهب في هذا الجو الرطب؟ ماذا تتوقع أن نرى هناك؟ سوف تمطر أيضًا، الجو ممل في الخارج.

لا توجد غيمة في السماء وأنت تتكلم عن المطر! تبدو الغرفة مملة جدًا لأن نوافذك لم يتم تنظيفها منذ أمد طويل! انظر إلى القذارة عليها! لا تستطيع أن ترى شيئًا هنا، وستارة واحدة مغلقة تقريبًا.

حاول أن تقول كلمة حولها لزاخار وسوف يقترح حالًا تشغيل خادمات نهاريات ويسوقني خارج البيت لمدة يوم كامل!

غرق أبلوموف في التفكير، وجلس ألكسييف عند المائدة ينقر عليها بأطراف أصابعه ويحدّق شارد الذهن في الجدران والسقف.

سأل بعد عدة دقائق:

ماذا سنفعل إذن؟ هل تذهب لتلبس أو تبقى كما أنت؟

لماذا؟

ماذا بشأن مهرجان ياكاترينهوف[6]؟

صاح أبلوموف مغيظًا:

كم أنت قلق جدًا حول ياكاترينهوف حقًا! ألا تستطيع أن تبقى هنا؟ هل أصابك البرد هنا أم هناك رائحة سيئة في الغرفة حتى تبدو قلقًا جدًا وتطلب الخروج؟

قال ألكسييف:

6ياكاترينهوف: قرية تقع في ضواحي بطرسبورغ وسمّيت تكريمًا للإمبراطورة كاترينا الأولى، وفيها قصر بطرس الأول وحدائق، وكان الناس يذهبون إلى هناك طلبًا للّهو والتسلية م.

كلا. أنا لا أشكو. أنا دائمًا سعيد هنا.

حسنٌ، إن كنت كذلك لماذا أنت قلق جدًا من وجودك في مكان آخر؟ لماذا لا تبقى اليوم معي؟ سوف نتناول الغداء، وفي المساء تذهب أينما تشاء. يا إلهي، لقد نسيت. لا أستطيع أن أخرج! تارانتييف سوف يأتي للغداء: إنه يوم السبت.

قال ألكسييف:

طبعًا أنا لا أكترث! سوف أفعل حسب ما تشاء.

سأله أبلوموف بسرعة:

ألم أخبرك شيئًا عن شؤوني؟

قال ألكسييف وحدّق فيه بدهشة:

أية شؤون؟ لا أعرف شيئًا ماذا تعتقد السبب في أني لم أنهض طوال هذا الوقت؟ ترى أنّي أستلقي هنا محاولًا أن أجد حلولًا لمشاكلي.

سأل ألكسييف وحاول أن يبدو وجلًا:

ما المشكلة؟

مصيبتان! لا أدري ماذا أفعل.

مصيبتان؟

سوف يخرجونني من شقتي. تصوّر، يجب أن أنتقل: الاضطراب، التحطيم، مجرّد التفكير فيهما يخيفني لقد عشت هنا لمدة ثماني سنوات كما تعلم. مالك الأرض لعب حيلة قذرة معي. قال لي، أسرِعْ وانتقلْ.

قال ألكسييف:

أسرِعْ! ذلك يعني أنه يريد شقتك على نحو مكشوف. الانتقال إزعاج كبير، شأن عسير جدًا. هل متأكدون من فقدان الأشياء وكسرِها؟ يا له من إزعاج لعين! كم هي جميلة شقتك... كم تدفع بدل إيجارها؟

واصل أبلوموف الكلام:

أين أجد شقة أخرى مثلها؟ وبسرعة أيضًا؟ جافة ودافئة؛ بيت هادئ لطيف؛ لقد حدثت عملية سطو واحدة فقط هنا. السقف، صحيح، لا يبدو أمينًا تمامًا؛ الجص ينتفخ، لكنه لم يسقط لحد الآن!

قال ألكسييف محركًا رأسه:

ذلك متقن!

استغرق أبلوموف في التفكير فبدا وكأنه يكلم نفسه:

أتساءل هل هناك شيء أستطيع عمله حتى أتجنب الانتقال؟

سأله ألكسييف وفحص الغرفة من الأرضية إلى السقف:

هل حصلت على شقتك بعقد إيجار؟

نعم لكن عقد الإيجار انتهى: كنتُ أدفع الإيجار شهريًا بعض الوقت. لا أتذكر كم المدة.

سأله ألكسييف بعد فترة قصيرة:

حسن. ماذا تنوي فعله؟ هل تنتقل أم لا؟

قال أبلوموف:

لا أنوي فعل شيء. لا أريد أن أفكر به. دع زاخار يفكر بحلّ.

قال ألكسييف:

لكن بعض الناس يحبون الانتقال كما تعلم. يبدو تغيير الشقق متعتهم الوحيدة في الحياة.

أجاب أبلوموف:

دعهم ينتقلون. من ناحيتي، لا أستطيع أن أتحمل أية تغييرات! لا أغادر الشقة، من الأفضل أن تلقي نظرة على ما كتبه وكيل المزرعة لي! سوف أريك رسالته. أين هي بحق الشيطان؟ زاخار! زاخار!

صفَرَ زاخار وقفز خارج موقده:

يا مريم العذراء! متى يضع الربّ حدًا لمشاكلي؟

دخل وألقى نظرة كليلة على سيده.

لماذا لم تعثر على الرسالة؟

وأين سأجدها يا سيدي؟ وأنا لا أعرف أية رسالة تريدها. فأنا لا أقرأ. أليس كذلك؟

قال أبلوموف:

لا يهمّ، ابحث عنها.

قال زاخار:

كنت تقرأ بعض الرسائل الليلة الماضية يا سيدي. لكني لم أرها منذ ذلك الحين.

سأل أبلوموف بحنق:

أين هي إذن، هل ابتلعْتَها؟ أتذكّر جيدًا بأنك أخذتها مني ووضعتها في مكان ما. ها هي انظر!

حرّك البطانية وسقطت الرسالة على الأرضية خارج طياتها.

دائمًا أتلقى اللوم بسبب كل شيء!

تبادل أبلوموف وزاخار الصيحات في الوقت نفسه:

حسنٌ، حسنٌ. اذهب، اذهب.

خرج زاخار وبدأ أبلوموف يقرأ الرسالة التي يبدو أنها كتبت بالكفاس[7] على ورقة رمادية وختمت بالشمع البني. حروف شاحبة ضخمة تلاحقت بسلسلة هادئة دون أن يمس أحدها الآخر، على طول خط مائل من أعلى زاوية الصفحة إلى أسفلها. وكانت السلسلة أحيانًا تقاطعها لطخة ضخمة شاحبة.

بدأ أبلوموف بقراءة الرسالة وأهمل التحيات العديدة، والتمنيات الطيبة، وواصل القراءة من الوسط: «سيدي العزيز، يسرني أن أعلمكم بأن كل شيء في مزرعتك يسير بنظام جيد. لم تمطر منذ خمسة أسابيع، وأعتقد يا سيدي بأن الرب غاضب علينا، لذا لم يرسل لنا المطر. الرجال من كبار السن لا يتذكرون جفافًا مثله سيدي. حصاد الربيع كله احترق كأن نارًا التهمته؛ حصاد الشتاء أصابه الدمار،

7شراب غير كحولي يصنع من الشوفان والخبز الأسود في روسيا.

بعضه بسبب الحر والآخر بسبب الجليد المبكر؛ لقد حرثناها من أجل حصاد الربيع لكننا غير متأكدين من أنه سيجدي نفعًا. دعنا نأمل يا سيدي بأن رحمة السماء سوف تصفح عنك؛ لا نهتم بما يحصل لنا فلنمت جوعًا. في ليلة القديس يوحنا الكثير من الفلاحين هربوا لابتيف وبالاتشوف وفاسكا، ابن الصائغ، الذي هرب بنفسه. أرسلت بعض النساء وراء أزواجهنّ، لكنهنّ لم يعُدنَ، وهم يعيشون في تشولكي كما أخبروني. ذهب قريبي إلى تشولكي من فرخليوفو، مدير العزبة أرسله هناك لكي يفحص محراثًا أجنبيًا. أخبرته بشأن الفلاحين الهاربين. قال بأنه عليه أن يرى مفتش الشرطة الذي أخبره أن يرسل بلاغًا مكتوبًا، بعده سوف ينتهي كل شيء بالقبض على الفلاحين وإرجاعهم إلى محل عملهم. لم يقل شيئًا سوى ذلك، ووقعتُ على قدميه ورجوته، والدموع في عينيّ، لكنه صاح بي بأعلى صوته: اللعنة! اللعنة عليك! لقد أخبرتك إن الأمر سينتهي ما إن ترسل بلاغًا موقعًّا!

لكني لم أرسل البلاغ أبدًا. لا يوجد أحد أستأجرهُ هنا؛ الكل ذهبوا إلى نهر الفولغا، للعمل على البوارج الناس هنا أصبحوا كلهم حمقى يا سيدي. لن يوجد كتان لنا في معرض هذه السنة: لقد أَغلقْتُ سقائف التجفيف والتبييض وعَيَّنتُ سايتشوغا لكي يراقبهم طوال الليل والنهار؛ لن يمس قطرة، وللتأكيد أنه لم يسرق أيًّا من بضائع سيده، فأنا أراقبه ليل نهار. الفلاحون الآخرون يشربون الكثير وهم ينزعجون من دفع إيجار أرضهم بدلًا من العمل في أرضك الخاصة دون دفع. العديد منهم لم يدفع متأخراته. هذه السنة سوف نرسل لك يا سيدي مبلغا أقل بألفين من السنة الماضية، إن لم يدمّرنا الجفاف كليا، وإلّا لن نرسل لك المال كما وعدناك».

ثم تبع ذلك تعبيرات الطاعة والتوقيع: «وكيلك وعبدك المتواضع سيدي، بروكوفي فتياكوشكين، شرع بالعمل بيده». لكونه أميًا وضع صليبًا تحت الرسالة.

«كُتبت من خلال إملاء الوكيل على شقيق زوجته دايومكا الأعور».

لمح أبلوموف طرف الرسالة، وقال:

غير مؤرخة بسنة أو شهر. أظنّ أن الرسالة قد ظلَّت لدى الوكيل منذ السنة الماضية ليلة القديس جورج والجفاف! يجب التيقظ لها!
انغمر في التفكير. «حسن؟» وواصل: «ماذا أعمل بها؟ وعد بإرسال أقل من ألفين. كم ستترك هذه؟ كم تعتقد أني تسلمت السنة الماضية؟»، سأل ونظر إلى ألكسييف: «لم أذكره لك وقتها، أليس كذلك؟».
رفع ألكسييف عينيه إلى السقف وفكّر.
واصل أبلوموف الحديث:
يجب أن أسأل شتولتس حين يأتي. أعتقد سبعة أو ثمانية آلاف يجب أن أدون ملاحظة عنها! الآن يسجل عليّ ستة آلاف! سوف أموت جوعًا! كيف لي أن أعيش منها؟!».
قال ألكسييف:
لماذا تقلق؟ الإنسان يجب ألّا يصيبه اليأس. إذ كل شيء سيكون بخير في النهاية».
لكن ألم تسمع ما قال؟ إنه لم يرسل لي المال أوه كلا! إنه لم يقل أي شيء يريح بالي. كل ما يفكّر به هو أن يسبب لي القلق، وهو يفعله عن عمد! في كل سنة القصة نفسها! ببساطة لا أعرف ماذا أعمل! أقل بألفين!
قال ألكسييف:
نعم، إنها خسارة كبيرة! ألفان ليس شيئًا هيّنًا! أعلم أن ألكسي لوغين حصل على اثني عشر ألفًا بدلًا من سبعة عشر ألفًا هذه السنة».
قاطعه أبلوموف:
اثنا عشر ألفًا غير ستة آلاف. لقد أزعجني الوكيل تمامًا! إن كان ذلك صحيح أعني المحصول الرديء والجفاف فلِمَ يزعجني قبل الوقت المناسب؟
قال ألكسييف:
طبعًا لا يجب أن يفعل ذلك. لا تتوقع من فلاّح أن يحمل أحاسيس لطيفة. ذلك النوع من الرجال لا يفهمون شيئًا.

راح أبلوموف ينظر إلى ألكسييف نظرة مدققة، متفحصة على أمل أن يفكّر بشيء يهدّئ مخاوفه.
قال ألكسييف:
يتطلب هذا تفكيرًا عميقًا. من المستحيل أن تقرر حالًا.
قال أبلوموف متأملًا:
هل يتوجب عليّ أن أكتب إلى المحافظ؟
سأله ألكسييف:
من هو محافظك؟
لم يُجِب أبلوموف وغرق في التفكير. وقع ألكسييف في الصمت والتأمل.
جعّد أبلوموف الرسالة بيديه وأسند رأسه عليها وجلس مسندًا كوعيه على ركبتيه بعض الوقت، وقد عذبه هجوم الأفكار التافهة.
قال:
أتمنى من شتولتس أن يسرع بالمجيء، لكنه في الوقت نفسه يندفع إلى المكان الذي لا يعرفه إلا الرب. سوف يحسم المسألة كليًا لو حضر!
حدّق في ألكسييف بحزن مرة أخرى. كان كلاهما صامتين لمدة طويلة. أخيرًا كان أبلوموف هو أول من أيقظ نفسه!
قال بعزم وخرج من السرير تقريبًا:
ذلك ما يجب عمله ويجب أن ينفّذ بقدر الإمكان. لا فائدة من ضياع المزيد من الوقت. أولًا...
في تلك اللحظة كانت هناك دَقَّة شديدة على الباب الأمامي. جفل أبلوموف وألكسييف وقفز زاخار خارج سطح الموقد.

* * *

(3)

سأل شخصٌ في الصالة بصوت عالٍ وفظّ:

هل هو في البيت؟

ردّ زاخار بشكل أشد فظاظة:

أين عساه يذهب في هذه الساعة؟

دخل الغرفة رجل في الأربعين من عمره. كان متين البنيان، طويلًا، عريض المنكبين، رأسه وهيئته كبيرتان، ورقبته قصيرة وثخينة، وعيناه واسعتان وجاحظتان وشفتاه ممتلئتان. النظر إليه يجعل المرء يفكر بشيء فظ وقذر. كان من الواضح أنه لم يحاول أن يرتدي ملابس أنيقة، ويظهر أحيانًا حليق الشعر تمامًا. لكن لا يبدو أنه يهتم. لم يكن خجلًا من ملابسه، ويلبسها بنوع من الوقار الذي يحمل معنى هازئًا.

كان اسمه ميخي أندريفيتش تارانتييف وهو جار أبلوموف في الريف.

لقد نظر تارانتييف بشكل كئيب إلى كل شيء، باحتقار مقنَّع سيء وعدوانيةٍ صريحة تجاه العالم بأكمله؛ كان على استعداد لتوجيه الإهانة إلى كل شيء كأنه عانى من الظلم أو جرى النيل من كرامته، أو مثل إنسان ذي شخصية قوية اضطهده القدر فخضع له محتجًا ومجبرًا. كانت إيماءاته صريحة وجارفة وهو يتكلم بصوت عال، وبشكل عفوي وغاضب دائمًا؛ فالإصغاء إليه من بعيد يمنح انطباعًا بمرور ثلاث عربات تقرقع فارغة على جسر. كان لا يبالي بوجود أي شخص، ولم يكن يقيّد نفسه بوعد مطلقًا، وهو فظّ مع الكل حتى مع أصدقائه، كأنه بذلك يمنح الشخص شرفًا كبيرًا حين يتكلم معه أو يتناول الغداء أو العشاء في بيته.

كان تارانتييف ذا ذكاء لّماح وبارع؛ لا يوجد شخص أفضل منه في حل المشاكل العملية وبعض المسائل القانونية العويصة؛ وفي الحال يبادر باقتراح نظريته عن كيفية التصرف بشكل أفضل لمواجهة الظروف ويقدم مناقشات دقيقة حولها، وبالنتيجة فإنه دائمًا ما يكون فظًا نحو الشخص الذي يسدي له النصيحة.

مع ذلك، حين حصل على مهنة موظف في إحدى الدوائر الحكومية قبل خمس وعشرين سنة، لبِث هناك في الدرجة نفسها إلى أن شاب رأسه. لم يحصل له أبدًا أو لأي موظف آخر أن أستطاع الترقّي في سُلّم الوظيفة.

كانت المشكلة أن تارانتييف يجيد الحديث فحسب؛ وخلاصة القول إنه كان يحسم كل شيء بشكل بسيط وسهل، وبالأخص حين يتعلق الأمر بالناس الآخرين؛ لكن حالما يحرّك إصبعًا أو يتحرك من مكانه أي يطبق نظريته ويظهر الكفاءة والسرعة يصبح شخصًا مختلفًا تمامًا؛ لم يكن قادرًا على انتهاز الفرص، إذ يغدو فجأة واهن العزيمة أو غير معافى أو أخرق، أو كأنما اكتشف أنّ هناك شيئًا آخر يجب أن يفعله ولم يفعله؛ وإن شرع به فإنه يخلق فوضى فظيعة. سالكًا سلوك الأطفال؛ متغاضيًا عن شيء ما، أو مبديًا جهلًا بالتوافه المجردة أو متأخرًا عن موعد، أو متخليًا عن العمل في منتصف الطريق، أو مبتدئًا عند الطرف الخاطئ، فلم يتقنه بطريقة تجعل من المستحيل تصحيحه وأخيرًا سوف يلوم كل شخص عدا نفسه بسبب عجزه.

كان أبوه محاميًا محليا قديمًا، وكان يأمل من ابنه أن يرث ذكاءه وتجربته في العناية بشؤون الناس الآخرين وقدرته المهنية في المحاماة؛ لكن حكم القدر جرى خلاف رغبته. لكنه لم يستطع أن يدفع من أجل تعليمه، ولم يرد لابنه أن يبقى خارج تطورات العصر، ورغب أن يتعلم شيئًا إضافة إلى العمل الدقيق في الممارسة القانونية، لذلك أرسلهُ إلى كاهن مدة ثلاث سنوات كي يتعلم اللاتينية.

كان الصبي موهوبًا بالفطرة، وفي ظرف السنوات الثلاث أجاد اللاتينية وقواعدها، وبدأ يترجم كتاب لكورنيلوس نيبوس[8]، حين ارتأى أبوه بأنه قد اكتسب معرفة كافية ومفيدة من الجيل الأكبر سنًا، وأنّ أي دراسات إضافية سوف تتقاطع مع ممارسته في المحكمة.

8مؤلف روماني.

لأنه لم يكن يعرف ماذا يفعل باللاتينية لأن (ميخي)، الذي بلغ حينئذ السادسة عشرة، بدأ ينساها في بيت أبيه، لكن في الوقت نفسه، وبينما كان ينتظر تشريفه بدخول محكمة الريف أو المقاطعة، فإنه رافق والده إلى كل الحفلات البهيجة التي ارتادها، وفي هذه المدرسة، وسط التبادل الصريح للأفكار، تطور عقله بشكل عميق. كان شابًا يمتلك قدرة تعبيرية ويصغي إلى قصص رواها أبوه وأصدقاؤه المقرَّبون عن كل الأفعال المتحضرة والإجرامية والقضايا الغريبة التي مرَّت على أولئك المحامين القدامى، مع أن كلّ هذا لم يؤدِّ إلى شيء. لم يصبح ميخي رجل أعمال ومحاميًا مبتدئًا على الرغم من جهود أبيه الحثيثة التي نجحت بالطبع في منع القدر من تحطيم كل خططه المتقنة. إن ميخي بالتأكيد قد أجاد النظرية بأكملها التي اعتمدت عليها أحاديث أبيه؛ كان يريد أن يضعها موضع التطبيق فحسب، لكن موت أبيه منعه من التأهل للمحاماة ثم حدث أن تبرع أحدهم بأخذه إلى بطرسبورغ وعثر له على وظيفة حكومية قبل أن ينصرف عنه وينسى أمره.

لذا بقي تارانتييف نظريًا طيلة حياته! في دائرته ببطرسبورغ. لم تكن هناك فائدة من إجادة اللاتينية، أو نظريته الذكية في لولبة كل القضايا، سواء ظلمًا أم عدلًا، كما يشاء؛ مع أنه كان مدركًا للقوة الساكنة داخله، المقفلة من خلال الظروف المعادية دون الأمل في فتحها، كأن أرواح الشيطان كما في الحكايات الخرافية مكثت محرومة من قواها في ارتكاب الأذى عن طريق سجنها في الحصون المسحورة.

من المحتمل جدًا أنّ ضياع الوعي بالقدرات هو ما جعل تارانتييف فظًا جدًا وحاقدًا وغاضبًا ومؤذيًا دائمًا. بدا له أنه التغيير الوحيد المفيد من المهنة التي ورثها عن أبيه ولم ينجح في الحصول عليها. وتطلعا لهذا الدور السعيد في وظيفته فإنّ النظرية الجاهزة للحياة العملية التي وضعها أبوه، نظرية الرشوة والتعامل غير النزيه، فشلت في العثور على مخرجها الرئيس والمناسب في المقاطعات، وقد طبقها على كل التفاصيل التافهة لوجوده الفاسد في بطرسبورغ، وزحفت، بسبب نقصها من أي تطبيق رسمي، إلى علاقاته مع أصدقائه.

كان متعاطيًا كبيرًا للرشوة، وخطط مبدئيًا إذ ليس له علاقة تجارية مع الناس أن يأخذ الرشوة من زملائه وأصدقائه، واللهَّ يعلم لأجل أية خدمات، أجبرهم، إما عن طريق التنمّر أو المكر، على تسليته متى وأين ما أمكنهم؛ طلب أن يتم التعامل معه باحترام غير مستحق وقد وجد الخطأ باطِّراد لدى الكل فاستغلهم. لم يكن خجلًا من ملابسه البالية، لكن القلق ينهشه إذا لم يستطع أن يتطلع طوال اليوم إلى عشاء ضخم مع كميات مناسبة من الخمور.

ذلك هو السبب في أنه كان يؤدي دور كلب الحراسة بين أصدقائه، فهو ينبح على الكل ولا يسمح لأحد بالحركة، لكنه في الوقت نفسه يتلقف قطعة اللحم في الهواء، مهما كان الاتجاه التي جاءت منه!

هكذا هو حال زائر أبلوموف الأكثر مواظبة. لماذا كان يأتي هؤلاء الشغيلة الروس إليه؟ إنهم يعرفون السبب جيدًا: لكي يأكلوا ويشربوا ويدخنوا أفخر السجائر. لقد وجدوا ملجأً دافئًا مريحًا في شقته وتلقوا دائمًا الاستقبال نفسه، إن لم يكن وديًا فهو حيادي.

لكن لماذا يسمح لهم أبلوموف بالمجيء؟ من الصعب أن يوضح لنفسه. من المحتمل تمامًا أنه للسبب نفسه وحتى هذا اليوم، في الأبلوموفيات البعيدة، يزدحم كل بيت ثري بالنوع نفسه من الرجال والنساء من ذوي العوز، الذين بلا تجارة ولا قدرات على أي عمل منتج، لكنهم مجرد أفواه جائعة ودائمًا لهم مكانة ومنزلة تقريبًا.

ما زال هناك مترفون يحتاجون إلى كماليات الحياة؛ يصيبهم الملل دون ناس زائدين. من سيسلمهم علبة السعوط التي أضاعوها أو يلتقط لهم المنديل من الأرضية؟ إلى من يشكون صداعهم؟ ومِمّن يتوقعون تعاطفًا؟ أو حين يحلمون حلمًا مشؤومًا فمن يفسِّره لهم؟ من يقرأ لهم الكتاب في الفراش ويساعدهم على الذهاب إلى النوم؟ وأحيانًا يُرسَل هؤلاء العمال إلى أقرب بلدة في رحلة قصيرة أو يُطلَبون لمساعدة إحدى الأسر لم يتوقعوا إزعاجًا بسبب هذه المهمات نفسها، أليس كذلك؟

خلق تارانتييف الكثير من الضجة وجعل أبلوموف يغادر سكونه وضجره. صاح وجادل كأنه أقام استعراضًا يؤديه فرد واحد ولم يسمح لمضيفه الكسول أن يتكلم أو يشاركه الأداء. جلب تارانتييف الحياة والحركة، وأحيانًا أخبار العالم الخارجي، إلى الغرفة التي يسودها السبات والهدوء. استطاع أبلوموف أن يصغي وينظر، دون أن يحرك إصبعًا، إلى شيء حي، يتحرك ويتكلم أمامه. إضافة إلى أن عقله كان من السذاجة بحيث صدّق بأن تارانتييف منحه حقًا نصيحة حقيقية.

سمح أبلوموف بزيارات ألكسييف لسبب آخر لا يقل أهمية. لو أراد أن يعيش بطريقته الخاصة، أي الاستلقاء دون النطق بكلمة، أو دون نعاس أو خطوة في الغرفة، فإن ألكسيي لن يظهر هناك مطلقًا؛ كان هو الآخر يلوذ بالصمت وقد غلبه النعاس بينما يتظاهر بقراءة كتاب، أو ينظر بشكل كسول إلى الصور والحلي الصغيرة، ويتثاءب إلى أن تنزل الدموع من عينيه. وهو يستطيع أن يبقى على هذه الحال ثلاثة أيام. من ناحية أخرى فإن تعب أبلوموف من وحدته يشعره بأنه يحتاج إلى التعبير عن أفكاره، عن طريق الكلام والقراءة والنقاش وإبداء العاطفة لذلك كان ثمة دائمًا إلى جانبه مستمع مطيع وجاهز يشاركه برغبة متساوية في صمته وكلامه وحماسه واتجاهاته الفكرية مهما كانت.

نادرًا ما يأتيه الضيوف ولمدة قصيرة، كما فعل الضيوف الثلاثة؛ كان معهم يصبح أكثر نقصًا في المعرفة. كان أبلوموف أحيانًا مهتمًا بالأخبار والحوار الذي يستمر لمدة خمس دقائق، ثم يهوي في الصمت ما إن يشبع فضوله. لكن كان يجب أن يستلّوا تباعًا توقّعَوا لهُ دورًا في ما يهمهم، وتمتعوا لكونهم بين حشد الناس. فهم كل منهم الحياة بطريقته الخاصة وليس كما فهمها أبلوموف، وظلوا يجرّونه إليها: بَغَضها وكرَهَها كليًا فبادلته الخصام.

كان هناك رجل واحد مولع به؛ لم يمنحه السلام أيضًا؛ أحبّ أحدث أخبار المجتمع والتعليم والحياة كلها، لكن بشكل عميق ومخلص إلى حدّ ما. وعلى الرغم من أن أبلوموف كان كريمًا مع الكل إلا أن هناك شخصًا ربما كان الوحيد

الذي أحبّه ووثق به، لأنهما تربَيا وتعلّما وعاشا معًا. كان اسم هذا الرجل أندريه كارلوفيتش شتولتس. كان غائبًا لكن أبلوموف توقّع منه أن يعود في أي لحظة.

***

(4)

قال تارانتييف بشكل مفاجئ ومدّ يدًا مُشعرة إلى أبلوموف:

صباح الخير يا صديقي. لماذا تستلقي هكذا مثل لوح الخشب في هذه الساعة؟

قال أبلوموف وغطى نفسه وتدثّر بالبطانية:

لا تقترب، لا تقترب، لقد جئتَ توًا من الشارع البارد.

جأر تارانتييف:

يا إلهي، من الشارع البارد! صافح يدي! ستكون الساعة الثانية عشرة وأنت ما زلت تتكاسل!

كان على وشك أن يسحب أبلوموف من سريره، لكن الأخير أحبطه بوضع قدميه بسرعة على الأرضية وأدخلهما في نعليه فورًا.

قال وهو يتثاءب:

كنتُ على وشك النهوض بنفسي. أعرف كيف أنهض! ستظل هناك حتى يحين موعد وجبة الطعام. زاخار! أين أنت أيها الشيخ الأحمق؟ ساعدْ سيّدك على ارتداء ملابسه وأسرعْ.

قال زاخار ودخل الغرفة ونظر بحقد إلى تارانتييف:

من الأفضل أن تكسب زاخار إلى صفك أولًا سيدي، ثم تطلق عليه الأسماء!

وأضاف:

انظر إلى الفوضى التي أحدثتها على الأرضية تمامًا مثل بائع جوّال.

قال تارانتييف ورفع قدمه لكي يركل زاخار بينما هو يمرّ به:

كفى ثرثرة يا رجل.

لكن زاخار توقف ودار وعبَسَ.

غضبَ وقال بصوت أجش:

حاول أن تلمسني فقط. ماذا تعتقد أنك فاعل؟ سوف أعود.

قال أبلوموف:

يا إلهي تارانتييف، يا لك من رجل مشاكس! لماذا لا تتركه؟ زاخار ناولني ملابسي.

رجع زاخار ونظر شزرًا إلى تارانتييف ومرّ به كالسهم.

اتكأ على زاخار ونهض مترددًا من فراشه مثل رجل مرهق، وسار على مضض إلى كرسيٍّ وغاص فيه، ثم جلس ساكنًا. أخذ زاخار دهنًا للشعر ومشطًا وفرشاة من على مائدة صغيرة، دهنَ شعر أبلوموف وفرّقه ثم مشّطه.

سأله:

هل تستحم الآن سيدي؟

ردّ أبلوموف:

سوف أنتظر قليلًا. تستطيع أن تذهب الآن.

قال تارانتييف فجأةً إلى ألكسييف بينما زاخار يمشّط شعر أبلوموف:

هل أنت هنا أيضًا؟ لم أركَ. لماذا أنت هنا؟ أيُّ خنزير هو نسيبك! أريد إخبارك...

ردّ ألكسيف بخوف، وحدّق في تارانتييف بدهشة:

أيُّ نسيب؟ ليس عندي نسيب.

آه، ذاك الرجل. ماذا تسميه؟ الرجل صاحب الوظيفة الحكومية؛ أفاناسييف. هل تقصد أن تقول إنه ليس نسيبك؟ طبعًا هو نسيبك!

قال ألكسييف:

لكني لست أفاناسييف. أنا ألكسييف. ليس لديّ أقرباء.

ماذا تعني ليس لديك قريب؟ آه، إنه مجرد شخص فقير مثلك، واسمه أيضًا فاسيلي نيكولايفيتش.

أقسم أني لا علاقة لي به. اسمي إيفان ألكسييفتش.

لا فرق. إنه يشبهك. لكنه خنزير. أخبره بذلك حين تراه!

قال ألكسييف وفتح علبة سعوطه:

لا أعرفه. ولم أره.

قال تارانتييف:

دعنا نستنشق قليلًا من علبة سعوطك.

وأخذ يستنشق:

آه، علبتك عادية وليست فرنسية! نعم هي كذلك.

وأضاف بشكل صارم:

لماذا هي ليست فرنسية؟

وواصل الكلام:

لم أقابل خنزيرًا مثل قريبك ذاك. أقرَضني خمسين روبلًا قبل سنتين. خمسون روبلًا ليس مبلغًا كبيرًا، أليس كذلك؟ توقعتهُ أن ينساه. لكن كلا، فقد تذكّره. بعد شهر بدأ يضايقني ويسألني حين أقابله: «ماذا عن قرضي؟» أصبحتُ مريضا ومرهقا من رؤيته. وكأنّ ذلك لم يكفِ فقد اقتحم مكتبي أمس وقال: «أتوقع أنك تسلمت راتبك اليوم وتستطيع أن تعيد لي قرضي الآن». راتبي، حقًا! أخبرته أن يخرج بشكل لائق أمام الكل، وكان سعيدًا بالخروج، أستطيع أن أخبرك بما قال: «أنا رجل فقير. أحتاج إلى المال» وكأني لم أكن بحاجة إليه! من يظنني؟ رجل غني، كي أعطيه خمسين روبلًا في كل مرة يطلبها؟ دعنا ندخّن السيجار، يا صديقي!

أجابَ أبلوموف وأشار إلى خزانة الكتب:

سوف تجد سيجارًا في الصندوق هناك.

كان يجلس كئيبًا على الكرسي، في وضع كسول مألوف كأنه يلتقط صورة، ولا يلاحظ ما يدور حوله ولا يصغي لما يقال. كان يفحص يديه البيضاوين الصغيرتين ويربتهما بلطف.

علّق تارانتييف بشكل صارم:

أعتقد أنها ما زالت نفسها.

واستلّ سيجارًا ونظر إلى أبلوموف.

أجاب أبلوموف شارد الذهن:

نعم، إنها مازالت نفسها.
تابعَ تارانتييف:
لكن ألم أخبرك أن تشتري الأخرى؛ الأجنبية؟ إذن هكذا تتذكر ما يقال لك! تذكر أن تحصل على بعضها السبت القادم وإلا لن تراني هنا لمدة طويلة. يا إلهي، يا له من هراء مريع!
وأشعل سيجارًا فطارت سحابة من الدخان ودخلت الغرفة ثم استنشق أخرى.
لا أستطيع أن أدخنه.
قال أبلوموف متثائبًا:
لقد جئت مبكرًا اليوم يا تارانييف.
لماذا؟ هل أصبحت تتضايق مني؟
كلا، فقط أشير للأمر. عادة ما تأتي بالوقت المضبوط لوجبة الطعام، والآن أصبحت الساعة الثانية عشرة.
جئتُ مبكرًا لغرض الاطلاع على ما تم طبخه لوجبة الطعام. طعامك شنيع جدًا عادةً، إذ إنني فكرت أن أطّلع على ما طلبته اليوم.
قال أبلوموف:
من الأفضل أن تسأل في المطبخ.
خرج تارانتييف.
حين رجع قال:
يا إلهي. لحم بقر ولحم عِجل! المشكلة معك يا صديقي أنك لا تعرف كيف تعيش مالك أطيان، حقًا! أيُّ رجل نبيل أنت؟ إنك تشبه صاحب متجر. ليس لديك فكرة كيف تُعامل صديقًا! هل اشتريت نبيذ ماديرا في الأقل؟
قال أبلوموف وهو بالكاد يصغي إليه:
لا أعلم، من الأفضل أن تسأل زاخار. أتوقع أنهم لا بد من أن يشربوا النبيذ هناك. تقصد نفس النبيذ السابق من الألماني؟ حقًا يا صديقي العزيز يجب أن تشتريه من المتجر الإنكليزي.

قال أبلوموف:

يجب شراؤه. إنك لا تريد أن ترسل لجلبه.

لكن انظر هنا، أعطني النقود لكي أجلبه. عليّ أن أمرّ بالمتجر على أية حال. مازلت عازمًا على القيام بزيارة أخرى.

نقّب أبلوموف في الدُرج وسحب ورقة حمراء من فئة عشرة روبلات.

قال أبلوموف:

نبيذماديرا يكلف سبعة روبلات وهذه عشرة. دعه يأخذها كلها ولا تخَفْ. سيعطونني الباقي في المتجر.

انتزع الورقة النقدية من يد أبلوموف وسرعان ما وضعها في جيبه.

قال تارانتييف ولبس قبعته:

حسنٌ. سوف أعود في الساعة الخامسة. لدي زيارة أقوم بها: لقد وُعِدتُ بعمل في مخزن الخمور وطلبوا مني أن أزورهم. بالمناسبة، يا صديقي العزيز، ألا تؤجر عربة للذهاب إلى ياكاترينهوف[9] اليوم؟ ربما تأخذني معك.

حرّك أبلوموف رأسه.

قال:

لِمَ لا؟ هل أنت كسول جدًا أم تضن علي بالمال؟ آه أيها الكسلان! حسنٌ. وداعًا مؤقتًا.

قاطعهُ أبلوموف:

مهلًا يا تارانتييف. أريد أن أسألك النصيحة.

ما الأمر؟ هيّا قلْ! أنا في عجلة من أمري.

«حسن، وقَعتْ لي مصيبتان في وقت واحد. عليّ أن أنتقل...

قال تارانتييف واستدار من أجل الرحيل:

إنه خطأك. لماذا لا تدفع إيجارك؟

9ياكاترينهوف: قرية تقع في ضواحي بطرسبورغ وسمّيت تكريمًا للإمبراطورة كاترينا الأولى، وفيها قصر بطرس الأول وحدائق، وكان الناس يذهبون إلى هناك طلبًا للَّهو والتسلية م.

يا ألهي، كلا! دائمًا أدفع مقدمًا. لا، إنهم قادمون على تحويل هذه الشقة. انتظر لحظة. أين أنت ذاهب؟ أخبرني ماذا أفعل. إنهم يهاجمونني. يريدونني أن أنتقل خلال أسبوع.

أي نصيحة تتوقع أن أسديها إليك؟ لا يحتاج إلى أن تتصور...

قال أبلوموف:

لا أتصور أي شيء. لا ترفع صوتك. من الأفضل أن تفكر فيما أنا فاعله. إنك رجل عملي.

لكن تارانتييف لم يعد يصغي له. كان يفكر بشيء ما.

قال ونزع قبعته وجلس:

حسن. ربما ستشكرني وتطلب شراب الشمبانيا من أجل وجبة الطعام. مسألتك تم حسمها.

سأله أبلوموف:

ماذا تعني؟

هل توجد الشمبانيا؟

ربما، لو تستحقها نصيحتك.

لكنك لا تستحق النصيحة. أتتصور أني سوف أنصحك من أجل لا شيء؟

وأشار إلى ألكسييف قائلًا:

تستطيع أن تسأله أو تسأل نسيبه.

رجاه أبلوموف:

حسن. أخبرني.

كلا. أصغ : يجب أن تنتقل غدًا.

يا إلهي! يا لَها من فكرة! عرفت ذلك بنفسي.

صاح تارانتييف:

مهلًا، لا تقاطعني. غدًا سوف تنتقل إلى شقة صديقي الطيب في فايبورغ[10].

يا له من هراء! فايبورغ! آه، يقولون إن الذئاب تتجول في الشوارع هناك أثناء الشتاء!

حسن. إنها تأتي هناك أحيانًا من الجزر، لكن ما علاقة ذلك بك؟

لكن يا له من مكان مضجر؛ بريّة، لا أحد يعيش هناك.

«هراء! تعيش صديقة طيبة هناك. لديها بيت خاص مع بساتين لزراعة الخضر. إنها امرأة أعمال، أرملة لها طفلان. يعيش أخوها الأعزب معها. إنه رجل ذكي يختلف عن ذلك الفتى عند الزاوية هناك». وأشار إلى ألكسييف.

إنه مجتهد جدًا وأكثر ذكاءً منك ومني.

قال أبلوموف بنفاد صبر:

ما علاقة ذلك بي؟ فأنا لا أنوي الانتقال هناك.

سنرى. كلا سيدي إذا ما سألت نصيحتي، فيجب أن تفعل ما أقوله لك.

قال أبلوموف مؤكدًا:

لن أذهب هناك.

ردّ تارانتييف وسحب قبعته فوق عينيه وسار إلى الباب:

إذن إلى الجحيم.

ثم التفت معاودًا الكلام:

إنك رجل مضحك. هل مكانك هذا يبعث على السرور؟

قال أبلوموف:

يبعث على السرور؟ إنه قريب جدًا من كل شيء. الدكاكين، المسرح، أصدقائي. إنه مركز المدينة، كل شيء...

قاطعه تارانتييف:

10مدينة تقع قريبة من الحدود الروسية الفنلندية شمال غرب مدينة بطرسبورغ بحوالي 130 كم.

ماذا؟ كم مرّ من الوقت منذ أن خرجتَ؟ أخبرني عن ذلك. كم مرّ من الوقت منذ أن ذهبتَ إلى المسرح؟ من هم أصدقاؤك الذين زرتهم؟ لماذا بحق الجحيم تريد أن تعيش بمركز المدينة؟

ماذا تعني؟ هناك الكثير من الأسباب.

«أترى؟ إنك أنت لا تعرف السبب. لكن فكّر بالأمر: هناك ستعيش بهدوء وسلام في بيت امرأة أعمال، صديقة طيبة لي. لن يزعجك أحد؛ لا ضجة والمكان نظيف ومرتّب. هنا كأنك تعيش في حانة. إنك رجل نبيل ومالك أراض! لكن هناك كل شيء نظيف وهادئ، وهناك دائمًا أحد ما تتكلم معه حين تشعر بالضجر. لن يزورك أحد عداي. ثمة طفلان. العبْ معهما لكي يشعر قلبك بالرِّضا. ما الذي تريده بعد؟ وفكّرْ بما توفره! كم تدفع هنا؟

ألف وخمسمائة روبل.

حسن، هناك ستدفع ألفًا للبيت كله تقريبًا! ويا لها من غرف وضّاءة محببة! إنها تنتظر ساكنًا هادئًا مرتّبًا. وها أنت ذا!

حرّك أبلوموف رأسه شارد الذهن.

قال تارانتييف:

هراء! سوف تنتقل! فكّر بالأمر: سوف يكلفك نصف ما تصرفه هنا: ستوفّر خمسمائة من الإيجار وحده. طعامك سيكون نظيفًا وطيبًا. طبّاخك وزاخار لن يستطيعا السرقة...

سُمِعَت دمدمة في مدخل الصالة.

تابع تارانتييف:

وسيكون هناك المزيد من الترتيب أيضًا. آه، من الموحش أن تجلس إلى الطعام في بيتك الآن. تريد الفلفل، لا يوجد هنا. الخل، لقد نسوا أن يشتروه. السكاكين لم يتم تنظيفها. تقول إنك تظل تفقد بياضاتك. الغبار في كل مكان. شيء مقرف! وهناك سوف توجد امرأة تعتني بالبيت، لا أنت ولا ذلك الأحمق زاخار!

أصبحت الدمدمة أعلى في المدخل.

أضاف تارانتييف:

ذلك الكلب العجوز لن ينزعج من أجل شيء. سيكون لك مائدة ومكان إقامة. لماذا تتردد؟ انتقل وانتهِ من المشكلة.

لكن كيف يمكنني الانتقال إلى مدينة فايبورغ فجأةً دون سبب أو منطق.

قال تارانتييف ومسح العَرق من وجهه:

ما فائدة الكلام معك؟ الآن وقت الصيف: آه، أمر طيب كأنك تعيش في بيت ريفي. لماذا العفن هنا في شارع غوروخوفايا؟ ستكون لك هناك حدائق في زبارودكين، وأوختا في الجوار، وعلى بعد بضعة ياردات يوجد نهر النيفا، حديقتك؛ لا غبار، لا ملل! لماذا تضيّع الوقت بالتفكير؟ سوف أذهب لها الآن قبل الغداء. ستدفع أنت أجرة السفر. وغدًا تستطيع أن تنتقل...

قال أبلوموف:

يا له من رجل! تنتابه فكرة مجنونة في رأسه وعليّ أن أنتقل إلى فايبورغ! أعني، ليس من الصعب التفكير بمثل هذه الخطة. كلا، سيدي، من الأفضل أن تفكر بشيء آخر يساعدني في البقاء هنا. لقد عشت هنا لمدة ثماني سنوات ولا أريد التغيير.

لقد حُسم الأمر: يجب أن تنتقل. سأذهب وأرى صديقتي حالًا وأذهب إلى عملي في وقت آخر.

كان على وشك أن يغادر إلَّا أن أبلوموف أوقفه.

انتظر، انتظر! أين أنت ذاهب؟ لديّ قضية يجب أن أحسمها. انظر في الرسالة التي تسلّمتها من وكيل المزرعة وأخبرني عما يجب فعله.

ردّ تارانتييف: «مع الأسف، لا شكّ أنك شخص غريب. أنا الذي يجب أن أرتّب الأمور لك. ما الفائدة من وجود إنسان مثلك؟ لكنك لست إنسانًا: إنك مجرد غبي تافه».

قال أبلوموف:

أين تلك الرسالة؟ زاخار، زاخار! لقد ضيّعها مرة أخرى!

قال ألكسييف والتقط الرسالة المجعدة:

ها هي رسالة الوكيل.

ردّد أبلوموف:

ها هي.

وبدأ يقرؤها بصوت عال.

سأل حين انتهى من قراءتها:

ماذا تقول؟ ماذا يتوجب علي فعله؟ جفاف، متأخرات...

قال تارانتييف:

أنت ميئوس منك!

لكن لماذا؟

لماذا أنت ميئوس منك؟

حسن، إذن أخبرني ماذا أفعل؟

وماذا أستفيد؟

لقد وعدتك بالشمبانيا. ما الذي تريده بعد؟

الشمبانيا كانت من أجل الحصول لك على شقة. أقدم لك خدمة وأنت لا تتقبلها، أنت تجادل حولها، إنك ناكر للجميل. حسن، حاول البحث عن شقة لك بنفسك! يا لها من شقة! الهدف الرئيس أن تحصل على سلام مطلق كأنك تعيش في بيت أختك الخاص. طفلان، أخ أعزب، سوف أزورك كل يوم...

قاطعهُ أبلوموف:

حسن، حسن. من الأفضل أن تخبرني الآن ماذا سأفعل للوكيل.

كلا يا سيدي، لن أفعل إذا لم تضف البيرة إلى الغداء. سوف أخبرك بعد ذلك.

يريد بيرة الآن! ألم يكفك ما شربت منها...

قال تارانتييف ولبس قبعته مرة أخرى:

وداعًا إذن!

يا إلهي! ها هو الوكيل يكتب بأن وارداتي ستكون أقل من ألفين، وأنت تريد البيرة، أيضًا! حسن، اشترِ بيرة.
قال تارانتييف:
أعطني نقودًا أخرى.
لكن ماذا بشأن المُتبقّي من ورقة العشرة روبلات؟
وأجور السفر إلى فايبورغ؟
سحب أبلوموف روبلًا آخر ورماه في يده بنزق.
قال تارانتييف ووضع الروبل في جيبه:
وكيلك شرير ذلك ما أعتقده، وأنت تقف هناك وتفغر فمك مصدقًا! أنت ترى القصة الطويلة التي رواها لك! الجفاف، المحصول الرديء، المتأخرات، هروب الفلاحين إنها حزمة من الأكاذيب! لقد سمعتُ بأنه في حيّنا، عند عزبة شوميلوف، كان محصول السنة الماضية جيدًا جدًا إذ إنهم دفعوا كل ديونهم. وشوميلوف على بعد خمسة وثلاثين ميلًا منك: لماذا احترقت المحاصيل هناك؟ ثمّ هناك شيء آخر اخترعه المتأخرات! لكن ماذا فعل؟ لماذا أهملها؟ لماذا يجب أن تكون هناك متأخرات؟ ألم يوجد عمل في منطقتنا ألم يوجد سوق لمنتوجات الفلاحين؟ آه، إنه لص سوف ألقّنهُ درسًا! وأخمّن أن الفلاحين هربوا لأنه حصل على بعض المال منهم ثم تركهم يهربون، ولم يرفع شكوى إلى الشرطة مطلقًا.
قال أبلوموف:
لا أصدق الأمر. آه، إنه يقتبس فعلًا جواب مفتش الشرطة وبشكل موثوق جدًا أيضًا.
«إنك ساذج! لا تعرف أي شيء. كل الأشرار يكتبون بشكل موثوق خذ وعدًا مني». تابع قوله وأشار إلى ألكسييف: «هنا مثلًا يجلس رجل نزيه لن يؤذي حشرة.
حسنٌ، هل سيكتب رسالة موثوق بها؟ أبدًا. لكن قريبهُ، رغم أنه شرير وخنزير، سيفعل! وأنت لن تكتب مثل هذه الرسالة أيضًا. لهذا السبب يكون وكيلك

وضيعًا لأنه كتب مثل هذه الرسالة الذكية التي تبدو موثوقة. أنت ترى كم اختار كلماته بعناية: لنرسلهم عائدين إلى أماكن إقامتهم».
سأله أبلوموف:
ماذا أفعل به؟
اصرفهُ حالًا من الخدمة.
ومَن أضعُ مكانه؟ ماذا أعرف عن الفلاحين؟ ربما يكون بديله أسوأ منه. لم أذهب هناك منذ اثنتي عشرة سنة.
اذهب إلى عزبتك بنفسك: يجب أن تحسم المسألة. اقضِ الصيف هناك، وفي الخريف تعالَ مباشرة إلى الشقة الجديدة. أرى أنّ كل الأمور جاهزة لك.
قال أبلوموف وقد بدا عليه القلق:
أنتقلْ إلى شقة جديدة. أذهبْ إلى الريف. وكل ذلك بنفسي! يا لها من إجراءات يائسة تقترحها! أما من شيء عن تجنب الإجراءات المتشددة واقتراح نوع من التسوية؟
حسن، صديقي العزيز، إنك انتهيت تقريبًا. آه، لو إني مكانك لرهنت العزبة منذ مدة طويلة، واشتريت أخرى أو بيتًا هناك في حي سكني جيد من المدينة. فهو أفضل مشهدًا من مكانك الريفي. ثم أرهنُ البيت وأشتري آخر. دع عزبتك لي وسوف أحييها.
أشار أبلوموف:
كفاك تفاخرًا وفكّر بشيء كي لا أضطر لمغادرة هذه الشقة أو الذهاب إلى الريف لكي يتم حسم الأمور على نحو مُرضٍ.
قال تارانتييف:
لكن هل ستعمل أي شيء؟ انظر إلى نفسك. آه، إنك لا تصلح لأي شيء. ما الفائدة التي تقدمها إلى وطنك؟ إنك لا تستطيع حتى الذهاب إلى عزبتك!
ردّ أبلوموف:

قريبًا جدًا سوف أذهب هناك. يجب أولًا أن أنهي خطة التغييرات التي أريد أقوم بها في عزبتي... لكن انظر يا تارانتييف.
قال أبلوموف فجأة:
لماذا لا تذهب بدلًا مني؟ أنت تعرف ماهية العمل ولديك فكرة جيدة جدًا عن الريف في تلك الأنحاء. سوف أدفع مصاريفك.
قال تارانتييف بشكل متغطرس:
هل أنا مديرك؟ إضافة إلى ذلك، لقد فقدتُ البراعة في التعامل مع الفلاحين.
قال أبلوموف مستغرقًا في التفكير:
ماذا عليّ أن أفعل؟ لا أعرف بالتأكيد.
نصحه تارانتييف:
حسنٌ، اكتب إلى مفتش الشرطة. اسأله إن كان الوكيل قد تكلم معه حول هروب الفلاحين. واطلب منه أن يزور العزبات أيضًا؛ ثم اكتب إلى المحافظ لكي يأمر مفتش الشرطة بكتابة بلاغ حول سلوك الوكيل. «ألا يتفضل سعادتكم بطيبته ويبدي اهتمامًا أبويًا بي ويلقي نظرة رحيمة على سوء الحظ الفظيع والمحتوم الذي يهدّد بسحقي نتيجة تصرّف الوكيل المهين والدمار الشامل الذي يتجه نحو مباغتتي مع زوجتي وأطفالي الاثني عشر الذين سيحرمون ويموتون من الجوع...» ضحك أبلوموف.
قال:
أين سأحصل على العديد من الأطفال إذ ما طُلب مني أن أجلبهم؟
هراء يا رجل! اكتب: «اثنا عشر طفلًا». لن ينتبه أحد ولن يجري تحقيقًا، لكن ستبدو «موثوقة». سوف يسلّم المحافظ الرسالة إلى سكرتيره، وستكتب إلى السكرتير في الوقت نفسه مع مغلّف طبعًا وسوف يتخذ الإجراء الضروري. واسأل جيرانك أيضًا: مَنْ وجدتم هناك؟
قال أبلوموف:
دوبرينين يعيش هناك. كثيرًا ما أعتدتُ رؤيته هنا. إنهُ في الريف الآن.

حسنٌ، اكتب له أيضًا. أسأله بلطف: «ستقدم لي خدمة كبيرة وتتفضل عليّ كمسيحي وجار وصديق»، وأضف هدية من بطرسبورغ إلى الرسالة؛ علبة سيجار مثلًا.

ذلك ما يجب أن تفعله، لكن لا تظهرْ وكأنك تمتلك إحساسًا مطلقًا. إنك يائس!

سأروّع ذلك الوكيل؛ سوف أريه! متى يُرسل البريد؟

قال أبلوموف:

بعد غد.

حسنٌ جدًا. اجلس واكتب حالًا.

علّق أبلوموف:

لكن إذا البريد يُرسل بعد غد، لماذا يجب أن أكتب الآن؟

وأضاف:

سوف أكتبها غدًا. وانظر هنا يا صديقي. ربما تُكافئ أيضًا على عملك الخيري، وسوف أضيف سمكة أو بعض الطيور للغداء.

والآن ماذا؟

اجلس واكتب لن تحتاج إلى وقت طويل لخربشة ثلاث رسائل. أنت تضع كل شيء بشكل «موثوق» جدًا.

وأضاف محاولًا أن يخفي ابتسامة:

ويمكن لألكسييف أن ينسخها.

ردّ تارانتييف:

يا إلهي! كم تحب ذلك! أنا أكتب رسائلك؟ لم أكتب أي شيء في الدائرة خلال اليومين الماضيين: في اللحظة التي أجلس فيها فإنّ عيني اليسرى تسيل دمعًا. لا بدّ أنّ بردًا أصابها، ورأسي أيضًا يبدأ بالصداع إذا ما انحنيت. إنك كسول يا عزيزي، كسول. يائس، يائس...

قال أبلوموف:

آه، ليت أندريه يسرع ويأتي! سيقوم بترتيب كل شيء!

قاطعه تارانتييف:

لا بدّ أن أقول إنك وجدت سامريًّا طيبًا. ألماني لعين. وغد مخادع!

كان لدى تارانتييف نوعٌ من البغض الغريزي للأجانب. كان الفرنسي والألماني والإنكليزي بالنسبة له مرادفًا للمخادع والدجَّال والشرير واللص. لا يفرّق بين الأمم:

فالكل كانوا متشابهين في نظره.

قال أبلوموف بشكل صارم:

انظر، سأكون مسرورًا لو سيطرت على لسانك، وبالأخص حين تتكلم عن صديق حميم لي...

أجاب تارانتييف بحنق:

صديق حميم! أي نوع من العلاقة بينكما؟ ألماني؛ كلنا يعلم ماذا يعني ذلك.

هو أقرب من أي قريب. لقد تربيت معه ودرسنا معًا ولن أسمح بأي تعدٍّ عليه...

أصبح لون تارانتييف أرجوانيًا بسبب الغضب.

قال:

حسنٌ. لو فضلت الألماني عليّ فلن أضع قدمًا في بيتك مرة أخرى.

لبس قبعته وسار إلى الباب. شعر أبلوموف حالًا بالأسف.

يجب أن تحترمه كونه صديقي وتتكلم عنه باحترام. ذلك ما أطلبه. إنه ليس تحيزًا، أليس كذلك؟

قال تارانتييف باحتقار شديد:

لماذا يجب أن أحترم ألمانيًا؟

لكني أخبرتك السبب توًّا؛ لا شيء سوى أننا تربينا معًا وذهبنا إلى المدرسة نفسها سوية.

بماذا يهم ذلك؟ كلنا نذهب إلى المدرسة مع شخص آخر.

قال أبلوموف:

حسنٌ، لو أنه موجود هنا لحلّ مشاكلي منذ مدة طويلة دون أن يطلب بيرة أو شمبانيا.

آه! إذن أنت تلومني، أليس كذلك؟ حسنٌ، إلى الجحيم أنت والبيرة والشمبانيا! هاك خذ نقودك! أين أضعها؟ إنك لا تتذكر ماذا فعلت بالورقة الملعونة!

سحب قصاصة من الورق زيتية الملمس مليئة بالكتابة.

قال:

كلا، ليست هي! أين وضعتها؟

راح ينقّب في جيوبه.

قال أبلوموف:

لا تزعج نفسك بالبحث عنها. أنا لا ألومك، لكن بالأحرى أسألك أن تتكلم بالاحترام عن رجل هو صديق حميم وقدَّم لي الكثير.

قال تارانتييف حانقًا:

الكثير! انتظر، سوف يفعل الكثير لك. أنت تنفذ ما يقول!

قال أبلوموف:

لماذا تقول لي هذا؟

أقول ذلك لكي تعلم أن ذلك الألماني حين يسرقك لآخر بنس، ما يعني أن تتخلى عن جارٍ لك، روسي أصيل، من أجل متسكع...

قال أبلوموف:

اسمع يا تارانتييف...

لن أستمع، لقد أصغيت بما فيه الكفاية، لقد أوقعتني في مشكلة. اللهّ يعلم كم تحملتُ من الإهانات. أظن أنّ أباه في ألمانيا كان يموت جوعًا وجاء هنا وها هو ينظر بازدراء إلينا!

اترك الموتى وحدهم! كيف تلوم أباه؟

وجم تارانتييف ثم لوّح بيديه قائلًا:

كلاهما يستحقان اللوم: الأب والابن. لم يكن أبي مخطئًا حين حذرني من الألمان. فهو يعرف كل أصناف الناس في زمانه.
سأل أبلوموف:
لكن هل تمتلك شيئًا ضد أبيه، أرجوك؟
ما يؤاخذ عليه أنه جاء إلى منطقتنا في أيلول وليس لديه شيء سوى ملابسه، وبعد ذلك ترك ثروة لابنه. ماذا يعني ذلك؟
لقد ترك لابنه حوالي أربعين ألف روبل. بعضها كان من مهر زوجته وحصل على الباقي بتعليم الدروس وإدارة عزبة: تسلّم راتبًا جيدًا. يجب أن تعترف بأن الأب لم يفعل أي شيء خاطئ. الآن ماذا بشأن الابن؟ ما الخطأ الذي ارتكبه؟
رجل لطيف! فجأة حصل على ثلاثمائة ألف من مبلغ الأربعين ألف الخاصة بأبيه ثم أصبح مستشارًا في المحكمة، رجل مثقف. وهو الآن مسافر بعيدًا! الشرير له إصبع في كل فطيرة! هل يفعل الروسي الطيب والأصيل كل ذلك؟ سوف يختار الروسي شيئًا واحدًا، دون سرعة أو اندفاع في زمنه الطيب، وينفّذه بطريقة أو أخرى.
لكن هذا الشخص، يا إلهي، إذا ما أصبح مقاولًا حكوميًا فعلى الأقل نستطيع أن نفهم كيف أصبح ثريًا، لكنه ليس من هذا النوع؛ فهو يجني الثروة من الخداع!
بالتأكيد ثمة خطأ! سوف أقاضي رجلًا من هذا النوع! والآن هو يهيم في مكان لا يعلمه إلا اللهّ!
وواصل تارانتييف الكلام:
ما الذي يطوف من أجله في البلدان الأجنبية؟
يريد أن يدرس، أن يرى كل شي، أن يعرف!
أن يدرس! ألا يكفيه ما حصّل من تعليم؟ ماذا يريد أن يتعلمه؟ إنه يخبرك بأكاذيب، لا تصدقه: إنه يخدعك كما يخدع طفلًا صغيرًا. أيُّ شيء يدرس الناس البالغون؟ اسمع ما يقول! هل سيرغب المستشار القضائي في الدراسة؟ أنت تعلمت في المدرسة، لكن هل تدرس الآن؟ وهل هذا يدرس؟

وأشار إلى ألكسييف.

هل يدرس ذلك النسيب؟ هل يمكن أن تفكر بأي رجل محتشم يدرس الآن؟ هل تتصور أنه يجلس في مدرسة ألمانية ويؤدي فروضه؟ هراء! لقد سمعتُ بأنه ذهب لينظر إلى بعض المكائن ويطلب واحدة يرغب بها: أعتقد أنها ماكينة لطبع النقود الروسية! سوف أضعه في السجن. نوع من الأسهم المالية. أوه، تلك الأسهم المالية، لقد أصابتني بالغثيان!

انفجر أبلوموف بالضحك.

قال تارانتييف:

لماذا تضحك؟ هل ما قلته خطأ؟

قاطعه أبلوموف:

دعنا ننتهي من الموضوع. من الأفضل أن تبدأ عملك وسوف أكتب الرسائل مع ألكسييف، وأحاول أن أدوِّن خططي على الورق بأسرع ما يمكن. ربما أنتهي منها كلها حالًا.

خرج تارانتييف ورجع فورًا.

قال وقد زايله الحنق:

لقد نسيت! جئت لك من أجل مشروع هذا الصباح. لقد تلقيت دعوة لزفاف غدًا: روكوتوف سوف يتزوج. أعرني معطفك الطويل يا صديقي. فسترتي كما ترى بالية.

تجهم أبلوموف لهذا الطلب الجديد وقال:

لكن كيف؟ فمعطفي لا يناسب جسمك.

قاطعه تارانتييف:

سيناسبني طبعًا! تذكَّر أني حاولت أن ألبسه في إحدى المرات: ربما هو مصنوع على قياسي! زاخار! زاخار! تعال إلى هنا أيتها البهيمة!

دمدم زاخار مثل الدب ورفض المجيء.

ناشدهُ تارانتييف:

استدعِه يا صديقي. يا له من رجل مضحك!
نادى أبلوموف:
زاخار!
يمكن سماع زاخار وهو يقول من غرفته، بينما هو يقفز من على سطح الموقد:
الشيطان يأخذك!
سأل مخاطبًا تارانتييف:
حسنٌ، ماذا تريد؟
أمره أبلوموف:
اجلب معطفي الأسود الطويل. يريد السيد تارانتييف أن يرى إن كان مناسبًا لقياسه: عليه أن يذهب إلى عرس غدًا.
قال زاخار بحزم:
لن أجلب المعطف سيدي.
صاح تارانتييف:
كيف تجرؤ على معارضة سيدك حين يأمرك؟ لماذا لا ترسله إلى دار التأديب يا صديقي.
قال أبلوموف:
أمر لطيف أن ترسل عجوزًا إلى دار التأديب! لا تكن عنيدًا، زاخار هات المعطف.
قال زاخار ببرود:
لن أجلبه. دعهُ أولًا يُرجع صدرتك وقميصك: لقد أخذهما قبل خمسة أشهر. استعارهما لكي يذهب إلى حفلة عيد ميلاد ولم نره بعد ذلك. صدرة مخملية، أيضًا، وقميص قطني ناعم؛ ثمنهما خمس وعشرون روبلًا. لن أعطيه المعطف.
غضب تارانتييف واستدار ليذهب وحرّك قبضته بوجه زاخار قائلًا:
حسنٌ، وداعًا وإلى الجحيم أنتما الاثنين!
وأضاف:

تذكّر يا صديقي أني سوف آخذ الشقة لأجلك. هل تسمع.

قال أبلوموف بنفاد صبر لكي يتخلص منه فحسب:

حسنٌ، حسنٌ.

تابع تارانتييف:

واكتب ما أخبرتك به. ولا تنسَ أن تخبر المحافظ بأنّ لديك اثني عشر طفلًا. وتذكّر بأن الحساء يجب أن يوضع على المائدة في الخامسة بالضبط. لماذا لا تطلب فطيرة؟

لكن أبلوموف لم يُجِب؛ ولم يكن يستمع وأغلق عينيه مفكرًا بشيء آخر.

بعد خروج تارانتييف ساد الصمت لمدة عشر دقائق. كان أبلوموف قلقا من رسالة وكيل المزرعة وتوقعه بأن ينتقل إلى شقة أخرى، وبدا مرهقا بسبب الثرثرة الصاخبة مع تارانتييف. أخيرًا ندّت عنه آهة.

سأله ألكسييف بهدوء:

لماذا لا تكتب؟ سوف أبري قلمًا لك.

قال أبلوموف:

افعل وابتعد من فضلك. سوف أكتبها بنفسي وتستطيع أن تنسخها بعد الغداء.

ردّ ألكسييف:

ممتاز، سيدي. أخشى أن أزعجك. سوف أذهب الآن وأخبرهم ألَّا ينتظرونك في ياكاترينهوف. وداعًا سيد أبلوموف.

لكن أبلوموف لم يكن يصغي له؛ فقد ارتمى على الكرسي، وقدماه ملتصقتان تحته، وكان يبدو مثبَّط الهمّة وغارقًا في الأفكار أو ربما غلبه النعاس.

❊❊❊

(5)

كان أبلوموف رجلًا نبيلًا بالفطرة، ترقّى إلى رتبة سكرتير[11]، وقد عاش في بطرسبورغ بشكل متواصل لمدة اثنتي عشرة سنة.

في البداية، وبينما كان والداه حيّين، عاش بشكل أكثر تواضعًا وشغل ثلاث غرف. كان مقتنعًا بخدمات زاخار الذي جلبه معه من الريف؛ لكن بعد موت والده ووالدته أصبح وحده يملك 350 قنًّا ورثهما من إحدى المناطق البعيدة على حدود آسيا. بدلًا من 5000 روبل، تسلم من 7000 إلى 10000 روبل في السنة، ومنذ ذلك الحين تبدل أسلوب حياته وأصبحت أكثر فخامة. اتخذ شقة أكبر وعيّن طباخًا في طاقم منزله، واحتفظ بعربة ذات حصانين. كان حينئذ ما يزال شابًا، وعلى الرغم مما يقال إنه كان حيويًا، إلا أنه أصبح أكثر نشاطًا في كل المناسبات. ما زالت لديه كل أنواع الطموحات، ويأمل بشيء ما، ويتوقع الكثير من المستقبل ومن نفسه؛ ما زال يتهيأ لمهنة معينة، من أجل الدور الذي سيؤديه في الحياة، والخدمة المدنية طبعًا، إذ كان السبب الرئيس في قدومه إلى بطرسبورغ. فكّر فيما بعد أيضا في الدور الذي سيؤديه في المجتمع؛ وأخيرًا في المستقبل البعيد، في منعطف الشباب وعمر النضوج، وقد ملأت فكرة السعادة العائلية خياله بالتطلعات المقبولة.

لكن الأيام والسنين مرت تحول الزغب الخفيف على ذقنه إلى لحية خشنة، فقدت عيناه بريقهما، وخصره ترهل، وبدأ رأسه ينحف بشكل قاس، دخل في الثلاثين ولم يتقدم خطوة للأمام، لكنه ما زال يقف على عتبة مهنته، تمامًا في المكان الذي شغله قبل عشر سنوات. مع ذلك ما زال يأمل أن يبدأ حياته، ما زال يتتبع في ذهنه نموذج المستقبل، لكن مع كل سنة تمرُّ، كان عليه أن يغيّر ويصقل شيئًا ما في ذلك النموذج.

11إحدى رتب الخدمة المدنية في العهد القيصري.

كانت الحياة في رأيه مقسمة إلى نصفين؛ الأول يتكون من العمل الممل تلكما الكلمتان مرادفتان له والثاني يتكون من الراحة والمتعة والهدوء. وكان هذا هو السبب في سعيه الرئيس في الحياة. دلّت مهنته في الخدمة المدنية على مفاجأة باعثة على القلق من البداية.

نشأ في برية الريف، وسط سلوكيات وعادات رقيقة وعطوفة لمنطقته التي ولد فيها، وظلّ لمدة عشرين سنة يتلقى قبلات أبويه وعناق أصدقائه وأقربائه. تشبّع كليًا بفكرة الحياة العائلية، إذ بدت له مهنته في الخدمة المدنية كنوع من التدوين البطيء للواردات والنفقات في دفتر الملاحظات، الذي اعتاد أبوه على استعماله. أعتقد بأن الموظفين الحكوميين المُعيَّنين في قسم واحد كانوا عائلة كبيرة سعيدة يهتم أحدهم بمتعة الآخر وطمأنينته. لم يكن الذهاب إلى الدائرة بالتأكيد واجبًا يجب أن يؤدِّيه يوميًا داخلًا وخارجًا؛ وذلك الجو الممطر والحرارة أو مجرد النفور قد يعطي مبررًا شرعيًا وكافيًا لعدم الذهاب إلى الدائرة. بإمكان المرء أن يتصور بسهولة خيبة أمله حين يكتشف بعدم وجود شيء أقل من هزة أرضية ينجح في منع موظف حكومي بصحة جيدة من الوصول إلى دائرته، ولسوء الحظ لم تكن هناك هزَّات أرضية في سان بطرسبورغ؛ وبمقدور الفيضان أيضا أن يوفِّر عذرًا، لكن حتى الفيضانات نادرة الحدوث. نشأ أبلوموف أكثر قلقا حين برقت كلمات منقوشة مثل»مهم» و«مهم جدًا» أمام عينيه، حين كان يطلب منه أن يقوم بتحقيقات مختلفة وينقل مقتبسات من الوثائق الرسمية، والنظر في الأوراق، وكتابة التقارير التي سمكها بوصتان والتي يعنونها وكأنها مزحة ب «ملاحظات»، وما كان أسوأ أيضًا، أن كل شيء يجب أن ينتهي بسرعة. بدا الكل يندفعون دون توقف لالتقاط الأنفاس. وحالما تنتهي القضية كانوا يرتمون على بعضهم بشكل غاضب، كأنّ ذلك هو الشيء الوحيد المهم، وحين ينتهون من ذلك الأمر كانوا ينسونه ويقفزون إلى أمر آخر. وهكذا دواليك تستمر الأمور. لقد استيقظ مرتين في الليل وراح يكتب ال «ملاحظات»؛ كان الساعي يجرّهُ مرارًا من زيارة أصدقائه، بسبب تلك الملاحظات.

كل ذلك أفزعه وأصابه بالملل على نحو فظيع. فراح يكرر: «لكني أنا متى سأعيش؟ متى أعيش؟» لقد سمعَ في البيت بأن رئيس أحد الأقسام كان بمثابة أب للمرؤوسين، ولهذا السبب كوّن فكرة غريبة وبسيطة عن مثل هذا الشخص. تصورهُ أبا ثانيًا ينصب اهتمامه على مكافأة مرؤوسيه سواء استحقوا ذلك أم لا، وأن يلبي لا حاجاتهم فحسب بل ومتعهم. فكّر أبلوموف بأن الرئيس متعطش جدًا ليضع نفسه محل المرؤوس، إذ يتحقق بعناية كيف ينام، ولماذا كان أعمشَ، وإن كان مصابًا بالصداع! لكنَّ أمله خاب بشدة في أول يوم له بالدائرة. مع وصول رئيس القسم سادت الفوضى المكتب فبدأ الموظفون بالتدافع، وبدوا متضايقين، وهرع واستنجد كل واحد منهم بالآخر، البعض عدّل من بذلته الرسمية النظامية خشية أن تكون غير مرتبة حين الظهور أمام رئيسه. حدث هذا كما لاحظ أبلوموف فيما بعد لأن رؤساء معينين للأقسام كانوا يميلون إلى تفضيل الوجه الأحمق الخائف للمرؤوس وهو يندفع للقائهم كعلامة على احترامه لهم فضلًا عن حماسه وبراعته في الوظيفة أحيانًا. (لم يكن أبلوموف ملزمًا بإبداء مشاعر الخوف من رئيسه الذي كان شخصًا عطوفا ومقبولًا، لم يرتكب أذىً بحق أي شخص وكان مرؤوسوه قانعين جدًا ولا يرغبون بشيء. لم يسمعه أحد منهم يتلفَّظ بكلمة مزعجة أو يرفع صوته؛ فهو يؤثر السؤال على الطلب. فإذا كان شأنًا يتعلق ببعض الأعمال، يسأل أحد مرؤوسيه أن ينجزه. وإذا أراد أن يدعو أحدًا إلى بيته سأله. وإذا أراد أن يعاقب أحدًا بالإيقاف سأله. كان غير رسمي مع أي شخص؛ عاملَ الأفراد والجماعات بتوقير شديد. على أن أسلوبه المهذب زرع الخشية في مرؤوسيه؛ أجابوا على أسئلته الوديّة بصوت مختلف عمّا اعتادوا عليه في أحاديثهم العامة. باغت الخوف أبلوموف هو الآخر دون أن يعرف السبب، حين دخل رئيسه مكتبه ففقد صوته وتكلم بنبرة مختلفة رنّانة ورهيبة حالما خاطبه رئيسه.

كان أبلوموف مرهقًا من الخوف والألم المبرح وهو يعمل تحت إمرة رئيس طيّب ومتساهل؛ والله وحده يعلم ماذا يحصل له لو كان لديه رئيسٌ صارمٌ ومضبوط!

نجح بطريقة أو أخرى في الاستمرار بالوظيفة لمدة سنتين؛ ربما كان يتحمل البقاء عامًا ثالثًا ويحصل على ترفيع، ولم يكن هناك حادثٌ معيّن أجبره على أن يقدِّم استقالته. في أحد الأيام أرسل وثيقة مهمة إلى أرخانغلسك بدلًا من أستراخان.
اكتُشِفَت الغلطة وتم البحث عن المتّهم. كلهم انتظروا الرئيس باهتمام كي يستدعي أبلوموف ويسأله ببرود وهدوء إن كان قد أرسل الوثيقة إلى أرخانغلسك، وتساءلوا بأي نوع من الأصوات سوف يجيب أبلوموف. خمّن البعض بأنه لن يجيب مطلقًا، وأنه لن يكون قادرًا على ذلك. تملك الخوف أبلوموف بعد أن راقبَ زملاءه، على الرغم من أنه عرف، مثل الآخرين، بأن الرئيس سوف يؤنّبه.
لكن ضميره كان أكثر صرامة من أي تأنيب. لم ينتظر أبلوموف العقاب الذي يستحقه، ذهب إلى البيت وأرسل شهادة طبية.
كانت الشهادة كالآتي: «أنا الموقّع أدناه، أشهد وأضع ختمي في هذه الوثيقة بأن السكرتير إيليا أبلوموف يعاني من تضخم القلب وتوسع في البطين الأيسر ومن ألم الكبد المزمن الذي ربما يسبب الخطر على صحة المريض وحياته، وهذه النوبات، كما يفترض، سببها الدوام اليومي في الدائرة. لهذا السبب، ولكي نمنع تكرار واشتداد هذه النوبات المرضية أجد من الضروري أن يتوقف السيد أبلوموف عن الذهاب إلى الدائرة لبعض الوقت، وبصورة عامة أنصحه بالامتناع عن أي نشاط ذهني أو جسدي آخر».
لكن هذه الشهادة ساعدته مرة واحدة؛ فعاجلًا أم آجلًا عليه أن يشفى ثانيةً ويعاود الدوام في الدائرة مرة أخرى. لم يتحمل أبلوموف الأمر، فأرسل استقالته.
كانت تلك نهاية عمله في الدولة ولم يعد مرة أخرى أبدًا.
بدت سيرته الاجتماعية أكثر نجاحًا في البداية. خلال سنواته المبكرة في بطرسبورغ كانت ملامح وجهه الهادئة أكثر حيوية بصورة مطَّردة، لم تبرح عيناه تلمعان بنار الحياة، وهما تشرقان بالضوء والأمل والقوة. كان نشطًا كالناس الآخرين ومفعمًا بالأمل، مبتهجًا بالأشياء التافهة التي سبَّبت له المعاناة في الوقت نفسه.

لكن ذلك حدَثَ منذ وقت طويل، حين لم يزل بعمر غضٍّ رقيق، إذ يقدّر إنسانٌ إنسانًا آخر كونه أفضل أصدقائه، ويقع في غرام كل امرأة تقريبًا، مستعدة لتقديم يدها وقلبها إذ ينجح البعض حقًا في ذلك، ما يكون باعثًا على الأسف العميق لبقية حياته. في تلك الأيام السعيدة كان لأبلوموف أيضًا حصته من النظرات القليلة الرقيقة والمتحمسة من الحشد الجميل، الكثير من الابتسامات الواعدة، اثنتان أو ثلاث قبلات مسروقة، والعديد من المصافحات الودية، تجعله يعاني وتسقط الدموع من عينيه. مع ذلك، فهو لم يستسلم تمامًا إلى المرأة الجميلة ولم يصبح أبدًا عبدها أو معجبًا مخلصًا لها، لأن الصداقة الحميمة مع امرأة تتضمن مشاكل كثيرة. كان أبلوموف يكتفي غالبًا بالتعبير عن إعجابه من بعيد، ومن مسافة جديرة بالاعتبار. نادرًا ما قذفه القدر مع امرأة بشكل قريب حميم، إذ يستطيع أن يمسك بالنار لبضعة أيام ويتصور نفسه واقعًا في الحب. كان ذلك السبب في أن مغامراته لم تتطور أبدًا إلى علاقات غرامية؛ فتوقفت بعد فترة قصيرة من بدايتها، وفي بساطتها وبراءتها وطهارتها تساوت مع غراميات طالبات المدارس.

تجنّبَ الفتيات الشاحبات الكئيبات ذوات العيون السود غالبًا، التي انعكست فيها «الأيام المعذِّبة والليالي المجحفة»، فتيات ذوات متع وأحزان سريّة، لديهنّ دائمًا شيءٌ يثقنَ به، وشيءٌ يسررن به، وحين يبحن به يرتعدنَ وينخرطنَ في البكاء، ثم فجأة يلفنّ أذرعهنّ حول عنق الصديق ويحدقنَ إلى عينيه، ثم يرفعنَ نظرهنّ إلى السماء، ويُعلِنَّ أنّ هناك لعنة في حياتهنّ، وأحيانًا يُغمى عليهنّ!

تَجنَّبَهنّ خائفًا. كانت روحهُ ما زالت نقية وطاهرة؛ لعله انتظر الحب الحقيقي، من أجل الدعم، من أجل هزيمة العاطفة، ثم، حين مرَّت السنون، بدا يائسًا من الانتظار. تخلّى أبلوموف ببرود عن العديد من أصدقائه. بعد تسلّمه رسالته الأولى مباشرة من الوكيل التي تحمل أخبار المتأخرات وفشل المحاصيل، بدّل أفضل صديق له، وهو الطاهي، بامرأة طباخة، ثم اشترى خيولًا وأخيرًا، تخلَّى عن بقية «أصدقائه». كان من الصعب أن يجذبه أي شيء في المدينة، وأصبح متشبّثًا بثبات

أكثر بشقته. وجد في البداية أنه من الصعب البقاء مرتديًا ملابسه طوال اليوم، ثم شعر أيضًا بالكسل في تناول الطعام في الخارج عدا مع أصدقاء حميمين، على الأغلب عزّاب لم يعارضوا نزعه لرباط عنقه أو فتح أزرار صدرته، وحتى إمكانية الاستلقاء كي ينام لمدة ساعة. سرعان ما أصبح مرهقًا من الحفلات أيضًا: على المرء أن يلبس بذلته ويحلق يوميًا. قرأ في مكان ما بأنّ ضباب الصباح فقط كان جيدًا وضباب المساء كان سيئًا، وبدأ يخشى الرطوبة. على الرغم من هذه الأشياء الغريبة إلا أن صديقه شتولتس نجح في جعله يخرج ويزور الناس؛ لكن شتولتس ترك بطرسبورغ ورحل إلى موسكو ونزني نوفغورد والقرم، وقبل فترة ذهب إلى الخارج، ودونهُ انغمر أبلوموف كليًا في العزلة التي يمكن أن يُسحب منها فقط عن طريق شيء غريب يأتي من خارج الأحداث اليومية؛ لكن هذا النوع من الأمور لم يقع ومن غير المحتمل أنه سيقع.

إضافة إلى أن أبلوموف حين كبر في العمر عاد إلى نوع من الجُبن الطفولي، توقَّعَ الخطر والشر من كل شيء خارج دائرة تجربته اليومية، نتيجة عدم الاتصال بالحياة. لم يكن خائفًا، مثلًا، من التشققات في سقف غرفة نومه، فقد تعوّد عليها؛ ولم يخطر في باله أن الهواء الفاسد في الغرفة والجلوس الطويل في الداخل كان أكثر خطرًا على صحته من الرطوبة في الليل، إذ إن انغماسه اليومي المفرط في الوجبات هو نوع من الانتحار البطيء لأنه اعتاد عليه ولم يشعر بخوف منه. لم يعتد على الحركة والحياة والزحام والنشاط الصاخب. شعر بالاختناق في الزحام؛ وعندما ركب قاربًا خشي من أنه لن يصل الضفة الأخرى بسلام؛ وحين استقل عربة خاف أن يكبو الفرس ويحطمها. أحيانًا كانت تحصل له نوبة من هياج الأعصاب، فيشعر بالخوف من السكون حوله، ولسبب لم يفهمه تسري رعدة باردة في عموده الفقري. وأحيانًا أخرى يتجمد نظره بقلق مفزع في زاوية مظلمة معتقدًا أنَّ خياله يخدعه، فيتصوَّر أنّ شبحًا يكمن هناك.

تلك هي الطريقة التي كان يعيش بها حياته الاجتماعية. لقد تخلّى بكسل عن كل آمال الشباب التي خدعته أو خدعها هو، كل الذكريات الحلوة والمرّة واللامعة التي تجعل قلب الرجل المُسنّ يدقُّ بسرعة في غالب الأحيان.

* * *

(6)

ماذا كان يعمل في بيته إذن؟ هل قرأ أو كتب أو دَرَسَ؟ نعم، إذا صادف أن التقط كتابًا أو صحيفة قام بقراءتها. إذا ما سمع عن كتاب رائع سيلحُّ في طلبه ليقتنيه ويطَّلِع عليه. وحين يتم جلبه له يبدأ بقراءته ويكوّن فكرة عنه.

خطوة أخرى وسوف ينهيه، لكن بدلًا من ذلك فهو يستلقي محدّقًا في السقف بلا مبالاة، مع كتابٍ ملقى بجانبه لم ينتهِ بعد من قراءته، ولم يفهمه بشكل صحيح.

نشأ لا مباليًا بشكل أسرع مما نشأ مهتمًا: لم يرجع إلى كتاب تخلَّى عن قراءته. ومع ذلك فقد تعلّم كسائر الناس. في الحقيقة، كان في الخامسة عشرة من عمره في مدرسة داخلية، ثم قرر والداه العجوزان، بعد مماطلات،، أن يرسلا ابنهما العزيز إلى موسكو، فكان عليه، شاء أم أبى، أن يتبع سير تحصيل دروسه حتى النهاية.

منعته طبيعته الخائفة واللا مبالية من إظهار كسله ونزواته بين الغرباء في المدرسة، فلم توجد استثناءات بالنسبة للأطفال المدلَّلين. كان عليه أن يجلس مباشرة في صفّه المدرسي، ويصغي إلى ما يقوله الأساتذة، لأنه ليس لديه شيء آخر يعمله، وتعلّم دروسه بكدح وحسرات، وبعرق جبينه. وعدّ ذلك عقابًا أرسلته السماء.

لم ينظر أبدًا إلى الخط الذي أشّره المعلّم بظفرهِ في وضع الدرس؛ لم يسأل أية أسئلة ولم يكن يحتاج أبدًا لأية تفسيرات. كان راضيًا جدًا بما يكتب في دفتره، ولم يظهر أي فضول مرهِق، حتى حين أخفق، فشل في فهم كل ما سمعه وتعلمه. فإذا ما نجح بطريقة أو أخرى في إنهاء كتاب في إدارة الدولة والتاريخ أو الاقتصاد السياسي، بات قانعًا تمامًا.

حين جلب له شتولتس كتبًا لكي يقرأها كإضافة إلى ما تعلّمه، طفق ينظر إليه بصمت مدة طويلة.

قال بحسرة بينما جلس ليقرأها:

حتى أنت يا بروتس ضدي؟

بدت مثل تلك القراءة المفرطة صعبة وغير طبيعية بالنسبة له. ما هي فائدة كل تلك الدفاتر التي تأخذ الكثير من الوقت والورق والحبر؟ ما فائدة الكتب المنهجية؟

وأخيرًا وليس آخرًا، لماذا تضيّع ست أو سبع سنوات من حياتك مسجونًا في مدرسة؟ لماذا وُضِعَت كل تلك الضوابط الصارمة، والتأنيب القاسي، والضجر من الجلوس في الدرس، والحظر على الجري واللعب والتسلية، حين تكون الحياة مازالت أمامه؟

سأل نفسه مرة أخرى: «متى أعيش؟ متى أنشر أخيرًا رأسمال المعرفة هذا، وسيكون أغلبه بلا فائدة لي في الحياة على أية حال؟ الاقتصاد السياسي مثلًا، الجبر، الهندسة ماذا سأفعل بهما في أبلوموفكا؟» أصابه التاريخ بالكآبة الشديدة أيضًا: أنت تتعلم وتقرأ بأنه في زمن معين كانت أنواع الكوارث تستبد بالناس وكانوا تعساء، ثم استجمعوا قوتهم وعملوا وأبدوا عناية مطلقة، وتحمَّلوا المشقَّات الكبيرة، وكدحوا في التحضير لأيام أفضل. ثم أخيرًا جاءت. سيفكر المرء بأنّ التاريخ قد يأخذ قسطًا من الراحة، لكن لا، الغيوم تجمعت ثانية، الصرح انهدم، ومرة أخرى كان على الناس أن يكدحوا. الأيام المشرقة لا تبقى، إنها تطير، والحياة تجري، أزمة تتبع أخرى.

أرهقتهُ القراءة الجادة. لم ينجح الفلاسفة في إيقاظ حبه للتفكير التأملي. من جهة أخرى أثاره الشعراء في الصميم: أصبح شابًا مرة أخرى مثل أي شخص آخر.

وصل أيضًا إلى زمن الحياة السعيد الذي لن يخذل أحدًا، الذي يبتسم للكل، حين تكون قوى المرء على أشدها، ويكون واعيًا بالحياة ومفعمًا بالأمل والرغبة في عمل الخير، لكي يظهر شجاعته ويعمل، حين يدق قلب المرء بوتيرة أسرع والنبضات تنشط، فتثير المرء العاطفة، ويتكلم بحماس مريقًا الدموع العذبة.

نشأ قلبه وعقله صافيين: تخلَّص من نعاسه وتاقَ إلى النشاط. ساعده شتولتس على إطالة تلك اللحظة، طالما أن طبيعة بلوموف تشبه طبيعة أصدقائه. استفاد من حبه للشعراء، وأبقاه لمدة ستة عشر شهرًا تحت سحر فكرة التعلّم. استفاد من التحليق

المبتهج لنزوة الشباب في صديقه لتقديم أهداف بدلًا من السرور الخالص في قراءة الشعر، مشيرًا إلى الغايات البعيدة لحياتهما لينقله بقوة داخل المستقبل. نشأ كلاهما متحمسًا. بكَيَا وتبادلا الوعود المقدسة كي يتعقَّبا مسرى العقل والضوء. كان أبلوموف ملوَّثًا بحماسة شتولتس الشبابية، وكان يلتهب بالرغبة في العمل والوصول إلى هدفه الساحر البعيد.

لكن وردة الحياة تبدَّت للعيان دون ثمار. صحا أبلوموف، وأحيانًا بفضل نصيحة شتولتس قرأ كتابًا أو اثنين، ليس في الحال، وبلا عجالة أو لهفة، وهو ينظر في السطور بكسل. ومهما كانت الفقرة التي جلبت انتباهه ممتعة، فهي لم تمنعه من قلب الكتاب والذهاب لتناول الطعام ومن ثم إطفاء الشمعة والنوم. أُعطِيَ له المجلد الأول من كتاب فلم يطلب المجلد الثاني بعد الانتهاء من الأول، لكن حين جُلِب له قرأه كله ببطء. فيما بعد وجد حتى المجلد الأول طويلًا، وقضى معظم وقت فراغه ومرفقه فوق المنضدة ورأسه فوق مرفقه؛ أحيانًا كان يستعمل الكتاب الذي أجبره شتولتس على قراءته بدلًا من مرفقه.

هكذا انتهت مهنة أبلوموف كطالب. التاريخ الذي استمع فيه لآخر محاضرة كان الحد الأقصى لتعليمه. توقيع المدير على شهادته، مثل علامة الظِفر التي رسمها المعلم على كتابه في الأيام الماضية، الخط الذي لم يفكر بطلنا بضرورة تجاوزه وتوسيع مجال معرفته. رأسه كان مستودعًا معقَّدًا لأفعال الماضي والأشخاص والعصور والأرقام والأديان والحقائق السياسية والاقتصادية والرياضية المفككة، والمشاكل والمبادئ وغيرها. الأمر يشبه مكتبة مكوَّنة كليًا من مجلدات قديمة في مختلف فروع المعرفة. لدراساته تأثير غريب عليه؛ كانت هناك هاوية ما بين الحياة والتعلّم لم يحاول أبدًا عبورها، فالحياة بالنسبة له شيء والتعلّم شيء آخر.

لقد درس كل أنظمة القانون الموجودة وغير الموجودة، لقد مرّ خلال مسار التشريع العملي، لكن بعد حادثة سطو في بيته كان عليه أن يكتب إلى الشرطة، أخذ ورقة وقلمًا، قضى وقتًا طويلًا يفكر في المسألة، وفي النهاية أرسل بطلب

كاتب. إذا كانت حسابات المزرعة يقوم عليها الوكيل فقد سأل نفسه بارتباك: «ما علاقة التعلّم بالمسألة؟».

عاد إلى عزلته دون أي خزين من المعرفة، ربما أعطى اتجاهًا لأفكاره الهائمة والهاجعة بكسل. ماذا فعل؟ آه، لقد استمرّ برسم طراز حياته الخاصة. وجد فيها، دونما سبب، الكثير من الحكمة والشعر، إذ أتاح له مصدرًا لا ينفد لتعلم مهنة دون كتب أو تعليم. بعد أن تخلى عن الوظيفة والمجتمع شرع يحل مشاكل الوجود بطريقة أخرى؛ متأملًا في هدف حياته، واكتشف أخيرًا بأنه يجب عليه أن ينظر داخل نفسه بحثًا عن السرّ. فهمَ أن السعادة العائلية والعناية بالعزبة كانت مهنته الوحيدة في الحياة. حتى ذلك الوقت لم تكن لديه فكرة عن موضع شؤونه: كان شتولتس أحيانًا يعتني بها لمصلحته. لم يعرف بالضبط ما هي وارداته ونفقاته فهو لم يخطط لأي ميزانية. ولم يفعل شيئًا.

ترك أبلوموف الأب العزبة لابنه. على الرغم من أنه قضى حياته في الريف إلا أنه لم يحاول أن يجهد عقله من أجل تغييرات مختلفة، كما يفعل مالكو الأراضي في هذه الأيام: كيف يكتشف مصدرًا جديدًا لإنتاجية الأرض أو توسيع وزيادة المصادر القديمة وغيرها. كانت الحقول محروثة بالطريقة نفسها التي شاعت في زمن جدّهِ، ولم تختلف طرق تسويق المحصول الزراعي. أكيد أن الرجل العجوز سيبدو في غاية السرور لو أن حصادًا جيدًا أو ارتفاعًا في الأسعار أتاح له واردًا أكبر مما في السنة الماضية: ما يدعوها نعمة إلهية. نادرًا ما كرِه جمع المال بكل أنواع الطرق الحديثة الملتوية.

اعتاد أن يقول جوابًا على ما كان يعدّها نصيحة مُضرّة: «آباؤنا وأسلافنا ليسوا أشد حماقة منا. مع ذلك عاشوا بسعادة، ويجب أن نعيش كذلك: وبإرادة اللهّ لن نموت من الجوع».

تسلم، دون تحايل أو مكر، واردًا من العزبة كانت كافية لتجهيز عشاء وغداء جيِّدَين لعائلته وضيوفه، شكر الرب وفكّر بأنّ محاولة الحصول على أكثر من ذلك هو بمثابة خطيئة. لو أنّ وكيله المالي جلب له 2000 روبل، وقد وضع في جيبه

1000 روبل، وجاء دامعًا وموجهًا اللوم إلى البَرَد أو الجفاف أو المحصول الرديء سببًا لذلك، لرسم أبلوموف العجوز الصليب وقال أيضًا والدموع تسيل من عينيه: «لا بدّ أن تجري إرادة الربّ. لن أجادل الربّ. يجب أن نشكره على نعمته».

لم تتحسنْ شؤون العزبة منذ موت والدَي أبلوموف؛ على العكس، كما هو واضح من رسالة الوكيل، فقد باتت أسوأ. كان من الواضح أنّ عليه الذهاب إلى هناك بنفسه واكتشاف السبب وراء التدهور التدريجي في وارداته. عزم على أن يفعل ذلك، وتأخَّر دائمًا، لأن تلك الرحلة كانت تعني له تقريبًا مغامرة جديدة ومجهولة. طوال حياته لم يقم سوى برحلة واحدة؛ في مركبة كبيرة قديمة الطراز وسط أفرشة الريش وصناديق الثياب وأفخاذ الخنازير والأرغفة وكل أنواع اللحم البقري المشوي والمطبوخ والطيور الداخنة، بصحبة العديد من الخَدَم. تلك هي الطريقة التي قام بها برحلته الوحيدة من العزبة إلى موسكو، وكان يتخذ منها مقياسًا لكل الرحلات. أخبروه بأنّ لا أحد الآن يتنقل بمثل هذه الطريقة، فالسفر يجري اليوم بسرعة خطرة. أجّل أبلوموف رحلته مرة أخرى لأنه لم يكن جاهزًا لترتيب شؤونه.

كان بالتأكيد لا يحمل أفكار أبيه وجدّه. لقد درس وعاش في العالم: كل ذلك أوحى له بأنواع الأفكار التي لم تكن جديدة بالنسبة له. فهم بأن الاكتساب لم يكن خطيئة، لكنه واجب كل مواطن كي يساعد في زيادة الرفاهية العامة عن طريق العمل النزيه. وقد كرس الجزء الأكبر من طراز الحياة الذي رسمه في عزلته لخطة جديدة في إعادة تنظيم العزبة والتعامل مع الفلاحين وفقًا لحاجات الزمن. فكرة الخطة الأساسية، تنظيمها وأجزاؤها الرئيسة كانت جاهزة مدة طويلة في رأسه؛ بقيت التفاصيل والتخمينات والأرقام فحسب. عمل بلا كلل على الخطة لعدة سنوات، مفكرًا باستمرار بينما هو يخطو في غرفته أو يستلقي أو يزور أصدقاءه؛ ما انفك يضيف لها أو يعدّل فقرات مختلفة، متذكّرًا ما فكّر به في اليوم السابق وما نسيه في أثناء الليل؛ وأحيانًا تومض فكرة مفاجئة كالبرق عبر عقله وتجعله

مهتاجًا، فتدفعه للعمل من جديد. لم يكن الوصي التافه على أفكار الآخرين الجاهزة؛ لقد خلق بنفسه أفكاره الخاصة وكان على وشك تنفيذها.

حالما نهض في الصباح وتناول فطوره، استلقى حالًا على الأريكة، مسندًا رأسه على يده ومستغرقًا في التفكير دون أن يتهاون، حتى أصبح رأسه أخيرًا مرهقًا من العمل المجهد، وأشعره وعيه بأنه قد فعل ما يكفي من أجل الرفاهية العامة. حينئذ سمح لنفسه ببعض الراحة من الكدح، وغيَّر من وضعه الفكري من أجل عمل أقل صرامة، وأكثر راحة لأجل حلم يقظة باعث على الوهن. بعد أن تخلَّص من هموم العمل ودّ أبلوموف أن ينسحب داخل نفسه ويعيش في عالم إبداعه الخاص. لم يكن معتادًا على متع الأفكار السامية؛ إنما على الأحزان البشرية. أحيانًا كان يبكي بكاءً مريرًا على المحن الإنسانية، وعانى معاناة غامضة مجهولة، وألمًا مبرحًا وتوقًا إلى شيء بعيد، ربما للعالم الذي اعتاد شتولتس أن ينقلهُ إليه... فسالت الدموع الحلوة من عينيه.

أحيانًا يمتلئ بالاحتقار للرذيلة الإنسانية والكذب والافتراء والشر المنتشر في العالم، وكانت تلفت انتباهه الرغبة في الإشارة إلى بلايا الإنسان، وفجأة تتلاطم الأفكار، وتندفع داخل رأسه مثل أمواج البحر؛ تتحول إلى أهداف، وتجعل دمه يغلي، فتثني عضلاته وتنفخ عروقه ثم تتحول أهدافه إلى كفاح. وبعد أن تثيره قوة روحية يغيّر من موقعه مرة أو مرتين في دقيقة واحدة، وينهض قليلًا على سريره محملقا بعينين ساطعتين، ويمدّ رأسه للأمام ثم ينظر حوله كأنه شخص أصابه الإلهام... وفي لحظة أخرى يتحول الكفاح إلى فعل بطولي. ثم، يا إلهي! يا للعجب! يا لها من عواقب مفيدة ربما لا يتوقعها المرء من مثل هذا الجهد النبيل!

لكنّ الصباح مرّ، وأشرف النهار على نهايته، وكانت طاقة أبلوموف المستهلكة تنادي من أجل الراحة: ماتت العواصف والعواطف، شفي رأسه من سحر حلم اليقظة، وجرى دمه ببطء في عروقه. أدار ظهره بهدوء وحزن، وبعد أن ألقى نظرة حزينة عبر النافذة على السماء، راقب الشمس ورَثَاها وهي تغرب على نحو بهي

وراء البيت المكون من أربعة طوابق. كم من المرات راقب الشمس وهي تغرب هكذا!
كانت هناك حياة أخرى في الصباح التالي، أمور مثيرة وأحلام! ودّ أن يتصور نفسه أحيانًا جنرالًا غير مرئي، إذ إنه يُعَدُّ تافهًا مقارنة بنابليون ويوروسلاو لازارافيتش؛ اخترع حربًا وسببًا لها؛ غزو أوروبا من قبل شعوب أفريقيا، أو نظّم حروبًا صليبية جديدة، وكافح ليسوّي مصير الأمم، مدمرًا المدن، مبديًا الرحمة، وممارسًا القتل، ومؤديا أفعال الطيبة والشهامة. أو قد يختار أن يكون مفكرًا أو فنانًا عظيما: الكل يبتهل له، متوَّجا بالغار، والجمهور يركض خلفه وينادي: «انظروا، انظروا، ها قد جاء أبلوموف، أيليا أليتش المشهور!». عانى كثيرًا من لحظات مُرّة، متقلبا من جانب إلى آخر، وممدّدًا ووجهه للأسفل، وأحيانًا كان قلبهُ يضلّ تمامًا؛ ثم ينهض من فراشه، يسجد ويبدأ الصلاة بحماس مناشدًا السماء أن تجنّبه العاصفة التي هددته. وبعد أن يودِع الاهتمام بالمستقبل إلى العناية الإلهية يغدو هادئًا غير مبالٍ بأي شيء في العالم، تاركًا العاصفة تنذر بالأسوأ!
تلك هي الطريقة التي استعمل بها قواه الروحية، بعد أن قضّى الأيام في حالة من الإثارة، وبعد أن تعافى، بحسرة عميقة، من الحلم الساحر أو القلق المبرّح، حين كانت الأيام تشرف على الانتهاء والشمس تغرب حزينة على شكل كرة ضخمة خلف البيت ذي الطوابق الأربعة. ثم راقبها مرة أخرى بنظرة توّاقة وابتسامة حزينة واستراح بهدوء من انفعالاته.
لم يرَ أحدٌ حياة أبلوموف الداخلية أو عرفها؛ كلهم اعتقدوا بأنه لم يكن لديه شيءٌ خاص، إذ إنه كان يستلقي فحسب ويتمتع بوجباته، وذلك كل ما كان يتوقعه المرء منه؛ فمن المشكوك به إن كان قادرًا على تشكيل أية أفكار متماسكة في رأسه. ذلك ما قاله عنه الناس الذين عرفوه. شتولتس وحده من يمكنه البرهان على قابلياته والعمل البركاني المستمر داخل رأسه المتوهج وقلبه الرحيم؛ لكن من الصعب لشتولتس أن يمكث دائمًا في بطرسبورغ.

كان زاخار الوحيد الذي يعرف حياته الداخلية أفضل من شتولتس، لأنّ وجوده بأكمله مركّز حول سيده. لكن كان مقتنعًا بأنه وسيده كانا يمارسان العمل المفيد ويعيشان حياة عادية، كما يجب، وأنهما من غير الممكن أن يعيشا بطريقة أخرى.

❊ ❊ ❊

(7)

تجاوز عُمر زاخار خمسين سنة؛ لم يعد ينتمي إلى الأسلاف المباشرين لأولئك الكالبيين الروس[12] ، فرسان ردهة الخَدم الذين لا يخافون ولا يوجّه لهم التأنيب. إذ كانوا يظهرون الولاء المطلق لساداتهم، ويملكون الفضائل كلها ويبتعدون عن الرذائل جميعًا. كان هذا الفارس عرضة للخوف واللوم. انتمى إلى عهدين مختلفين، وكل منهما ترك أثره عليه. ورث من الأول الطاعة العمياء لعائلة أبلوموف وورث من الثاني التهذيب والأخلاق الفاسدة. كان مخلصًا بحماس لسيده، إذ لم يمر يوم دون أن يخبره بكذبة. في الأيام الغابرة كان الخادم يمنع سيده من المبالغة والإفراط، لكن زاخار كان نفسه مولعًا بمعاقرة الخمرة مع أصدقائه الحميمين على حساب سيّده؛ يوصف الخادم القديم بالعفّة كونه مخصيًا، لكن هذا الخادم ظل يجري وراء سيّدة صديقة ذات شخصية مشكوك بها. كان الخادم يحفظ مال سيده أفضل من أي خزينة، لكن زاخار حاول دائمًا أن يخدع سيّده بعشرة كوبيكات عند الشراء، ولم يكفَّ عن الاستيلاء على قطع النقود النحاسية المتروكة على المنضدة. بالطريقة نفسها، إذا ما نسي أبلوموف أن يسأل زاخار عن فكّة النقود فلن يراها ثانيةً. لم يسرق مبالغ كبيرة لأنه راح يقيس حاجاته بقطع النقود النحاسية، والأخرى من فئة عشرة كوبيكات، أو لأنه كان خائفًا من أن يُكتشف بالتأكيد لم يكن السبب أنه كان نزيهًا جدًا. إنّ الخادم الكالبي القديم، مثل كلب الصيد المدرّب جيدًا، يموت ولا يمسُّ الطعام الذي بعهدته؛ لكن زاخار كان دائمًا يتحيّن الفرصة لكي يأكل ويشرب شيئًا مُنعَ من مسّه؛ فالأول كان قلقًا لأن سيّده يجب أن يأكل كثيرًا ما أمكن، ويشعر بالانزعاج حين لا يأكل؛ أما الآخر فقد شعر بالانزعاج لأن سيّده التهم كل الطعام في طبقه. إضافة إلى أنّ زاخار كان ينشر الإشاعات في المطبخ والمتجر وكل اللقاءات عند البوابة. كان يشكو يوميًا من حياته الصعبة. زعم أنّه لا يوجد سيدٌ أسوأ منه، إذ إن أبلوموف كان متقلب

Caleb12 نسبة إلى كالب بن يوفنا أحد أصحاب النبي موسى ورد ذكره في الكتاب المقدّس. وتشير نسبة اسمه هنا إلى الإخلاص والولاء.

الأهواء وبخيلًا وغضوبًا، إذ لا شيء يبعث فيه السرور أي باختصار، هو يتمنى الموت أكثر مما يتمنى الاستمرار في العيش معه. لم يفعل زاخار تلك الأمور بداعي الحقد أو الرغبة في جرح سيّده، بل بسبب أنه ورث من أبيه وجدّه عادة إيذاء سيده في كل فرصة سانحة. كان يروي أحيانًا حكاية غير قابلة للتصديق عن أبلوموف بداعي الملل الشديد أو الحاجة إلى موضوع للحديث أو بداعي الرغبة في التأثير على مستمعيه.

كان يَصفر بهدوء ويهمس بثقة: «أخذوا سيدي ليزور تلك الأرملة. كتب مذكرة لها أمس». أو سيعلن بأنّ سيده كان أكبر مقامر وسكير في العالم، إذ إنه كان يلعب الورق ويشرب طوال الليل. لم يكن في هذه الأقوال أي كلمة صدق: لم يقم أبلوموف بزيارة الأرملة، إذ قضّى لياليه نائمًا بهدوء، ولم يمارس لعب الورق.

كان زاخار قذرًا. نادرًا ما حلق ذقنه، وعلى الرغم من أنه كان يغسل يديه ووجهه إلا أنه كان يفعل ذلك من أجل المظهر؛ إضافة إلى أنّ الصابون لا ينفع في غسل قذارته؛ فبعد زيارة إلى الحمام العمومي تحوّل لون يديه إلى الأحمر بدلًا من القاتم الأسود لمدة ساعتين، ثم سرعان ما عاد لونهما الأسود المعتاد. كان أخرق جدًا؛ حين يفتح الأبواب أو البوابات فإن نصفها سوف ينغلق بينما هو يفتح الأخرى، وحين يجري لفتح النصف الآخر فإن الأبواب الأولى تنغلق. لم يستطع أن يلتقط منديلًا أو أي شيء آخر من الأرضية حالًا، بل يضطر أن ينحني للأسفل ثلاث مرات ويحاول أن يمسك به، ويمكنه أن يحمله في المحاولة الرابعة. إذا ما نقل عددًا من الأطباق أو بعض الأواني الفخارية عبر الغرفة، فإن تلك التي فوق تبدأ بالسقوط على الأرضية عند أول خطوة له. فإذا سقط أول طبق؛ سيحاول متأخرًا وبلا فائدة منع سقوطها، لأنه في الأثناء أسقط اثنين آخرين. بينما يقف متفرجا ومندهشا من تهاوي الأطباق، دون أن يحفل بالتي ما زالت في يديه وقد أمال الصينية، فاستمرت الأطباق تنزلق إلى الأرضية؛ وحين بلغ الطرف الآخر للغرفة لم يعد هناك عدا طبق واحد أو كأس نبيذ متروك على الصينية، وبعد أن يلعن ويشتم، فإنه في الغالب يقذف متعمدًا آخر الأشياء التي ظلت في يديه؛ أثناء سيره

في الغرفة كان جنبهُ وقدماه تَعلقُ بشكل ثابت بمائدة أو كرسي؛ نادرًا ما مشى عبر النصف المفتوح للباب دون أن يصطدم كتفه بالنصف الآخر، شاتمًا مالك الأراضي والنجّار اللذين صنعاه. في مكتب أبلوموف، كل الأشياء تقريبًا، وبالأخص الصغيرة منها التي تحتاج إلى حذر في حملها، كانت إما مكسورة أو تالفة، وكل ذلك بسبب زاخار. موهبة حمل الأشياء هذه التي طبّقها على كل الأشياء على حد سواء، لا تختلف عن طريقته في التعامل معها. مثلًا، حين طُلِبَ منه أن يزيل المحترق من فتيل الشمعة، ويصب كأسًا من الماء فإنه استعمل قوة كبيرة كتلك التي يحتاج إليها لفتح البوابات. لكن الخطر الحقيقي جاء حين أثارته حماسة مفاجئة في أن يبعث السرور في سيّده، ففكّر أن يرتّب كل شيء، وينظف ويضع كل شيء في مكانه الصحيح بسرعة وفورًا! لا توجد نهاية للمشاكل والأشياء المكسورة؛ إن جنديًا معاديًا، يندفع بهياج إلى البيت، لا يمكن أن يرتكب مثل هذا الأذى. سقطت الأشياء وانكسرت، تحطمت الأواني الفخارية، انقلبت الكراسي. في النهاية كان عليه أن يندفع خارج الغرفة أو يبتعد أو يشتم ويلعن، لمصلحته الخاصة. ومن حسن الحظ أنه نادرًا ما تثيره مثل تلك الحماسة.

حدث كل ذلك بالطبع لأن زاخار لم ينشأ ويكتسب عاداته في غرف الاستقبال والمكاتب المظلمة والضيقة والمجهزة بالأثاث الخاص، إذ تتكوّم كل أنواع الأشياء المزخرفة، بل نشأ في الريف، إذ كان يوجد متسّعٌ كافٍ للحركة. هناك كان معتادًا على العمل دون قيود، إذا حمل أشياء ذات حجوم صلدة ووزن ثقيل، مثل المجارف والعتلات وأقفال الباب الحديدية، وكراسٍ ذات حجم كبير لم يتمكن من نقلها إلا بصعوبة.

بعض الأشياء، مثل الشمعدان والمصباح، والصورة المرسومة على الزجاج، والمثقلة، بقيت غير متضررة لمدة ثلاث أو أربع سنين، لكن حالما التقطها زاخار انكسرت.

اعتاد أن يقول لأبلوموف حين كان يحدث ذلك:

أوه، انظر يا سيدي يا له من شيء رائع: التقطته توًّا وتحول إلى قطع في يديّ.

أو لا يقول كلمة البتة، وسيعيده بشكل سرّي وبعد ذلك يؤكد لسيده بأنه قد انكسر من تلقاء نفسه؛ وأحيانًا يبرر لنفسه قائلًا إنه حتى الشيء الحديد يجب أن ينكسر عاجلًا أم آجلًا لأنه لا يمكن أن يستمر للأبد. ممكن للمرء أن يجادله في بعض الأحيان، لكنه حين يُحصر في زاوية، فإنه يسلّح نفسه بالبرهان الأخير، كل اعتراض لم تكن له فائدة، ولا شيء في العالم يمكن أن يقنعه أنه على خطأ.

لقد وضع زاخار برنامجًا محددًا للنشاط، ولم يغيِّره أبدًا إذا ما وجد فيه فائدة. كان في الصباح يضع السماور وينظف الأحذية والملابس التي طلبها سيّده، لكن تلك التي لم يطلبها، ظلَّت معلَّقة في خزانة الثياب لمدة عشر سنوات. ثم كان يكنس لكن ليس بشكل يومي منتصف الغرفة دون أن يمسّ الزوايا، وينظف المائدة فقط من الغبار ولم يكن شيء عليها، ليجنب نفسه معضلة تحريك أي شيء. بعد ذلك اعتبر أنّ له الحق في أن يأخذ غفوة على سطح الموقد أو يثرثر مع أنيسيا في المطبخ أو مع الخدم عند البوابات. إذا ما تلقى أمرًا بعمل شيء إضافي فإنه ينفذه بتردد بعد مناقشات طويلة ليُظهر أنّ مثل هذا الطلب لا فائدة منه ومستحيل.

إن من غير الممكن الطلب منه تقديم أي فقرة جديدة في برنامج مهماته اليومية. إذا ما طُلب منه أن ينظف أو يغسل بعض الأشياء أو يجلب شيئًا أو يبعده، فهو ينفذ الأمر بدمدمته المألوفة، لكن أبلوموف لم يتمكن من دفعه لتنفيذ الأوامر بصورة منتظمة ودون إخباره. كان عليه إخباره في اليوم التالي أو الذي يليه لكي ينفذه مرة أخرى مع تكرار المناقشات الكريهة نفسها.

على الرغم من أنّ زاخار أحبّ الشرب والإشاعات، واستولى على نقود أبلوموف النحاسية وقطعه الفضية من فئة العشرة كوبيكات، وهشّم الأواني النحاسية وأضرّ بالأثاث وتهرّب من عمله، إلا أنه كان مع ذلك مخلصًا كليًا لسيّده. كان سيقفز سعيدًا داخل النار أو الماء من أجله دون أي تردّد أو تفكير بأنه أمر بطولي أو يستحق الإعجاب أو المكافأة. فكّر به كأمر طبيعي، كأنّ شيئًا لم يكن بطريقة مختلفة، أو بالأحرى لم يفكّر مطلقًا، لكنه تصرّف دون أي تفكير. لم يكن له أية نظريات حول الموضوع. لم يحدث له أن حلّل مشاعره تجاه أبلوموف؛ لم يخترعها؛

لقد ورثها من أبيه وجدّه وإخوانه، والخدم الذين نشأ بينهم، وأصبحوا جزءًا من لحمه ودمه. كان زاخار سيموت مكان سيده، بما أنه يعدّ الأمر واجبًا ملزمًا، وحتى دون التفكير به كان سيندفع إلى حتفه كما يندفع كلبٌ إلى حيوان برّي في الغابة، دون أن يفكّر لماذا يجب أن يندفع هو وليس سيده. لكن من ناحية أخرى لو أنه قد ظلّ يقظًا عند فراش سيّده طوال الليل، لأن صحة سيّده وحتى حياته كانت تعتمد عليه، فإن زاخار بالتأكيد سوف يخمد نائمًا.

لم يكن ليُظهر في الخارج أي خضوع لسيّده، وأحيانًا عامله بطريقة فظة تخلو من اللياقة، بدا حانقًا عليه جديًّا بسبب كل شيء تافه حتى أنه، كما قلنا سابقًا، لفَّق حكايات عنه عند البوابة؛ لكن كل ذلك جرى دفعهُ إلى الخلفية لمدة من الوقت فحسب، لكن ليس بوسائل ضعيفة، شعوره الفطري والحميم بالإخلاص ليس لأبلوموف بحد ذاته، بل لكل شيء يحمل اسم أبلوموف، وكان ذلك عزيزًا وحميمًا وثمينًا بالنسبة له. من الممكن أيضًا أن ذلك الشعور كان نقيضًا لرأي زاخار الخاص عن أبلوموف شخصيًا؛ من الممكن أن الدراسة المحكمة لشخصية سيّده تمنح زاخار رأيًا بعيدًا عن المداهنة له. من المحتمل تمامًا أن زاخار كان سيعترض لو أن درجة الإخلاص لأبلوموف قد جرى توضيحها له.

كان زاخار يكنّ الحبّ لأبلوموف مثل قطة تحبّ علّيتها، وحصان يحبّ إسطبله، وكلب يحبّ الوجار الذي ولِدَ وتربّى فيه. ضمن دائرة هذا الارتباط طوّر انطباعات شخصية محددة. مثلًا، أحبَّ حوذيَّ أبلوموف أكثر من طبَّاخه، والخادمةَ اليومية فارفارا أكثرَ منهما، وأبلوموف نفسه أقلَّ من الكل. لكن مع ذلك، كان الطباخ الأبلوموفي في نظره أفضل من أي طباخ في العالم، وأبلوموف أفضل من كل مُلَّاك الأراضي.

لم يكن يتحمل تاراس كبير الخدم، لكنه لن يستبدل به أفضل رجل في العالم لأنّ تاراس كان ببساطة خادم أبلوموف. عامل أبلوموف بشكل فظّ كما يعامل عرّافٌ وثَنَهُ: يوسّخه، يقذفه وأحيانًا يضربه بداعي الغيظ، لكن مع ذلك فهو في الواقع دائمًا يدرك سمو معبوده عليه.

كانت المناسبة التافهة كافية لاستدعاء هذا الشعور من أعماق روح زاخار وجعله ينظر إلى سيّده نظرة تبجيل، وأحيانًا ينخرط بالبكاء أيضًا بسبب الانفعال. لم يحلم أبدًا باحترام أي رجل نبيل كونه أفضل بطريقة ما من سيّده أو حتى مساويًا له. وكان الربّ بعون الرجل الذي يجرؤ على تقييم سيّده وفقًا للأضرار التي يلحقها بالآخرين!

لم يتمالك زاخار من ازدراء الرجال النبلاء الذين جاؤوا لزيارة أبلوموف؛ خدمهم وقدم لهم الشاي وغيره، مع نوع من التلطّف، كأنهُ جعلهم يشعرون بالشرف الذي أضفاه سيدُهُ عليهم باستقبالهم. صرفهم بطريقة فظّة قائلًا لهم: «السيّد نائم»، وناظرًا للزائر من الأعلى للأسفل بصورة متغطرسة. أحيانًا بدلًا من أن يروي الحكايات عن أبلوموف ويشتمه فإنه يمجِّدُهُ بإفراط في المتاجر واللقاءات عند البوابة، ولم يكن ثمة نهاية لحماسته. كان سيبدأ فجأة تعداد فضائل سيده، ذكاءه وبراعته وكرمه وطبيعته الطيبة؛ وإذا لم تكن ميزات سيّده اللطيفة غير كافية لتستحق المديح، فإنه كان يستعيرها من الآخرين ويُعلن أبلوموف شخصًا ذا رتبة سامية، وثروة وتأثير رائعين. كان يذكّر الوكيل وعامل ملّاك الأرض أو الملّاك نفسه بمخافة الرب ويحذرهم من أبلوموف.

سيقول مهددًا:

انتظروا، سوف أخبر سيّدي وستدركون الأمر.

لم يتوقع أنّ هناك سلطة أعلى منه في العالم بأكمله.

ظاهريًا كانت علاقة أبلوموف بزاخار عدائية. عاشا معًا مشحونين ضد بعضهما. إن العلاقة اليومية الحميمة بين شخصين يجب أن تدفع الثمن: فهي تحتاج إلى مقدار كبير من تجربة الحياة والمنطق ودفء القلب من كلا الطرفين كي يتمتعا أحدهما بمزايا الآخر الطيّبة دون إثارة عيوبه وتبادل اللوم. عرف أبلوموف في الأقل فضيلة واحدة في زاخار إخلاصه له واعتاد عليها، مصدقًا أيضًا بأنه لا يمكن أن تكون ويجب ألا تكون بطريقة أخرى. لكن بما أنه نشأ معتادًا على الفضيلة مرة واحدة وللكل، لم يستطع أن يتمتع بها؛ غير أنه في الوقت نفسه لم

يستطع، على الرغم من لا مبالاته بأي شيء، أن يتحمل بصبر عيوب زاخار التي لا تعد ولا تحصى. إذا ما اختلف زاخار، بينما هو يخلص بشكل كبير لسيده، عن الخَدَم القدماء بعيوبه الحديثة، فإنّ أبلوموف أيضًا، بينما أعجبته طاعة خادمه، اختلف عن سادة العهود السابقة في عدم التعلق بالمشاعر الودية والرقيقة نفسها نحو زاخار التي حملوها لخَدَمهم. في الواقع، كانت له، أحيانًا، مشاجرات مع زاخار.

كثيرًا ما بدا زاخار مرهقًا من سيّده أيضًا. لقد أمضى فترة شبابه خادمًا، وعُيّن لكي يعتني بالسيّد الصغير؛ بدأ منذ ذلك اليوم يعتبر نفسه كوسيلة ترف، وملحق أرستقراطي بالبيت، واجبه أن يحافظ على هيبة العائلة القديمة وروعتها دون أن تكون له أية فائدة حقيقية. وذلك هو السبب في قضائه بقية أيامه لا يعمل أي شيء على الإطلاق سوى مساعدة سيّده الشاب في ارتداء ملابسه في الصباح وخلعها في المساء. لأنه كسول بالفطرة، وقد ازداد أكثر بسبب تربيته كخادم. أعطى لنفسه كبرياء مصطنعة أمام الخدم، ولم يخلق مشكلة حين يرتّبُ السماور أو يكنس الأرضيات. كان يضيّع الوقت في الفناء أو يذهب ليثرثر في قاعة الخدَم أو المطبخ؛ أو أنهُ لم يفعل شيئًا سوى الوقوف فقط لعدة ساعات عند البوابات، وذراعاه متقاطعتان ينظر بشكل حالم فيما حوله. وبعد هذه الحياة حمل على عاتقه مهمة ثقيلة فجأة في أداء أعمال المنزل بأكمله دون معين! كان عليه أن يعتني بسيده، وينظف ويكنس، ويؤدي المهمات! لا عجب أنه أصبح كئيبا ذا مزاج عكِرٍ وفظًّا؛ لا عجب أنه كان يدمدم كل مرة يجبره صوت سيّده على مغادرة الموقد. على الرغم من عبوسه وعدم اجتماعيته إلا أن زاخار امتلك قلبًا رقيقًا وطيبًا. رغب أيضًا في قضاء وقته مع الأطفال. كثيرًا ما يمكن رؤيته مع حشد من الأطفال في الريف أو عند البوابة. حسم خلافاتهم، ضايقهم، نظم ألعابهم أو ببساطة أجلس كل طفل على ركبته، بينما وغد صغير آخر تجده يرمي ذراعيه حول رقبته أو يسحب شعر لحيته.

وهكذا تداخل أبلوموف مع حياة زاخار بالطلبات الدائمة لخدماته وحضوره، بينما قلبُ زاخار وطبيعته الثرثارة وحبّه للكسل وحاجته الدائمة لأن يمضغ شيئًا ساقتهُ إلى البوابة أو إلى صديقته السيدة، أو الدكان، أو المطبخ.

عرف أحدهما الآخر وعاشا معًا مدة طويلة. لقد كان زاخار يؤرجح أبلوموف الصغير بذراعيه، وتذكّره أبلوموف شابًا ذكيًا بارعًا ذا شهية مذهلة. لا يمكن لأي شيء في العالم أن يفصل الرابطة بينهما. مثلما كان أبلوموف لا يستطيع أن ينهض أو يذهب إلى الفراش أو يمشط شعره أو يلبس حذاءه أو يتناول عشاءه دون زاخار، فإن زاخار لم يكن يمكنه أن يتصور سيّدًا غير أبلوموف، وأنّ وجوده لم يكن إلا من أجل أن يُلبسه ويُطعمه، ويكون فظًّا معه، ويخدعه ويكذب عليه، وفي الوقت نفسه يوقّره سرًّا.

***

(8)

بعد أن أغلق الباب وراء تارانتييف وألكسييف لم يجلس زاخار على الموقد، لكنه انتظر سيّده كي يدعوه في أي وقت، لأنه سمع أن أبلوموف كان على وشك أن يكتب الرسائل. لكن كل شيء في مكتب أبلوموف استمر صامتًا كالقبر.

تلصّص زاخار عبر شق في الجدار وماذا رأى؟ كان أبلوموف يستلقي بهدوء على الأريكة، ورأسُهُ مستندٌ على يده؛ وثمة كتاب مفتوح أمامه. فتح زاخار الباب. سأله:

لماذا تستلقي مرة أخرى يا سيدي؟

قال أبلوموف باقتضاب:

لا تزعجني، أنت ترى أني أقرأ.

قال زاخار بشكل فظّ:

حان وقت الغسل والكتابة.

ثاب أبلوموف إلى نفسه وقال:

طيب. سأكون جاهزًا حالًا. اذهبْ الآن. سوف أفكّر.

دمدم زاخار وقفز على سطح الموقد:

كيف نجح في الاستلقاء مرة أخرى؟ إنه سريع جدًا!».

غير أن أبلوموف نجح في قراءة الصفحة التي تحوَّلت إلى صفراء خلال شهر منذ أن قرأ الكتاب لآخر مرة. وضع الكتاب وتثاءب ثم بدأ يفكّر ب»محنتيه».

همس: «يا للضجر!» ومدّ ساقيه ولصقهما تحته مرة أخرى. شعر أنّه يحب الاستلقاء مثلما يحبّ الراحة والحلم. نظر إلى السماء، باحثًا عن الشمس التي أحبها كثيرًا، لكنها كانت مباشرة فوق رأسه، إذ أشرقت بصورة مدهشة على الحائط الأبيض للبيت ثم راقبها أبلوموف من ورائه وهي تغرب في المساء.

حدّث نفسه بشكل صارم: «كلا. أولًا أتوجه إلى العمل ثم...» كان الصباح في الريف قد مضى منذ مدة طويلة، لكنه في بطرسبورغ تلاشى توًا. كان صوتُ إنسان ممزوجٌ بضجيج حيوانات يصل أسماع أبلوموف من الفناء، ظهر أنه غناء

بعض الفرق الموسيقية الجوالة، يصاحبه عواء الكلاب. وثمة وحش بحري قد جرى جلبه للعرض، وكان الباعة الجوالون يصيحون مروّجين لبضاعتهم بأعلى الأصوات. استلقى على ظهره ووضع يديه تحت رأسه. كان مشغولًا بخطته من أجل تنظيم عزبته. ألقى نظرة سريعة على عدة نقاط مهمة فعالة حول الثمن المطلوب الذي سوف يضعه من أجل إيجار أرضه، والحقول التي حرثها، مفكّرًا بإجراء جديد وصارم ضد كسل الفلاحين وتشرّدهم، ومراجعة موضوع ترتيب حياته الخاصة في الريف.

كان مشغولًا بمشكلة بناء بيته الريفي الجديد؛ أمعن النظر بمتعة لبضع دقائق في ترتيب الغرف، وقرّر أبعاد غرفة الطعام وغرفة البليارد، وفكّر على أي جانب ستطل نوافذ مكتبه، وتذكّر أيضًا الأثاث والسجّاد. قرّر بعد ذلك أين يضع المباني الإضافية، آخذًا في الاعتبار عدد الضيوف الذين ينوي تسليتهم، وخصّص مكانًا للإسطبلات والحظائر وسكَن الخدَم وغيرها.

انتبه أخيرًا إلى الحديقة: قرّر أن يترك كل أشجار الليمون والبلّوط القديمة، ويقطع أشجار التفاح والإجاص ويزرع الأكاسيا في مكانها؛ فكّر بامتلاك حديقة، لكنه خمّن كلفتها التقريبية ووجد أنها ستكلف الكثير، فتركها حتى تحين الفرصة، وخصَّصها للمزهريات والمستنبتات الزجاجية. في هذه اللحظة، برقت في ذهنه بصورة نشطة الفكرة المغرية عن الثمار التي سيجمعها، إذ نقل نفسه فجأة إلى الريف كما كان سيبدو الأمر بعد عدة سنوات من الآن، حين ستكون عزبته مرتَّبة طِبقًا لخطته ويعيش هناك بشكل دائم. تصوّر نفسه يجلس في مساء صيفي عند مائدة الشاي على الشرفة تحت ظلّة الأشجار التي لا يمكن اختراقها، يستنشق الدخان بكسل من غليون طويل، ويتمتع بشكل حالم وراء غابة البتولا وينشر وهجًا أحمر فوق سطح الينبوع الشبيه بالمرآة، ارتفع الضباب من الحقول، أصبح الجوُّ باردًا وهبط الغروب، ورجع الفلاحون إلى بيوتهم بمجموعة كبيرة.

جلس الخدَم عند البوابة؛ جاءت أصوات مبتهجة من هناك، ضاحكة، مع صوت آلة البالالايكا. لعبت الفتيات لعبة الإمساك بالكرة. كان أطفاله يلعبون حوله،

ويتسلقون على ركبتيه، واضعين أذرعهم حول رقبته. عند السماور جلست ملكة الجميع سيدته، امرأته زوجته! في الوقت نفسه، في غرفة الطعام المؤثثة بشكل أنيق وبسيط، أُضيئت أنوار محبّبة ساطعة، ونُصِبت مائدة كبيرة مدوّرة؛ تمت ترقية زاخار إلى رتبة رئيس الخدَم، أصبحت لحيته بيضاء تمامًا الآن، كان جالسًا عند المائدة، يضع الكؤوس الزجاجية والأطباق الفضية عليها، فيصدر رنين لطيف، وبين فترة وأخرى كان يُسقط كأسًا أو شوكة على الأرضية. جلسا ليتناولا غداءً وافرًا. كان شتولتس صديق طفولته المخلص يجلس بالقرب منه، إضافة إلى الوجوه المألوفة الأخرى. ثم ذهبوا للنوم.

برَقَ وجه أبلوموف فجأة بالسعادة؛ كان حلمه حيويًا ومميزًا جدًا، وفي منتهى الرومانسية بحيث إنه دفن نفسه في الوسادة. شعر فجأة بتوق غامض إلى الحب والسعادة الهادئة، ورغبة شديدة للحقول والتلال الطبيعية، وإلى بيت مع زوجة وأطفال.

بعد أن استلقى لمدة خمس دقائق، ووجهه مدفونٌ في الوسادة، انقلب أبلوموف ببطء على ظهره مرّة أخرى. أشرق وجهه بالرقة والعاطفة الدافئة؛ كان سعيدًا.

مدَّ ساقيه ببطء وبسرور، مما جعل بنطاله يدور قليلًا، لكنه لم يلاحظ هذا الاضطراب الخفيف. حمله خياله اللطيف بخفة وانطلاق إلى المستقبل البعيد.

أصبح الآن مستغرقًا في فكرته المفضلة: كان يفكّر بجماعة صغيرة من الأصدقاء المستقرِّين في القرى والحقول على بعد عشرة أو خمس عشرة ميلًا من عزبته، الذين سوف يتبادلون الزيارات يوميًا، تباعًا، ويتناولون العشاء والغداء والرقص معًا. لم يرَ شيئًا سوى الأيام الوضاءة، والناس المبتهجين الضاحكين، دون همّ أو نقيصة، بوجوه مدوّرة وخدود وردية، ولغود ومشهّيات نهمة؛ كان على وشك أن يحلّ الصيف الدائم والابتهاج السرمدي والطعام اللذيذ ووقت الفراغ الجميل...

غمغم «يا إلهي، يا إلهي»، وجرفته السعادة، ورجع إلى الواقع. سمع خمسة أشخاص ينادون على بضاعتهم في الساحة: «بطاطا! من يريد رملًا؟ فحم! فحم!

وفِّروا قليلًا من النقود النحاسية من أجل بناء معبد الربّ، سيداتي وسادتي!».
ومن البيت الذي جرى بناؤه في الجوار جاء صوت الفؤوس وصيحات العمال.
أطلق أبلوموف حسرة عالية حزينة: «يا لها من حياة! كم هو مريع ضجيج البلدة! متى ستأتي الحياة السماوية التي أتوق إليها؟ متى أعود إلى حقولي وغاباتي الطبيعية؟» فكّر: «آه ليتني أضطجع تحت شجرة على العشب الآن، وأنظر إلى الشمس من خلال الأغصان وأُحصي عدد الطيور عليها. الخادمة ذات الخدين الورديين والذراعين الرقيقين المدورين العاريين والجِيد الذي لوّحته الشمس سوف تجلب لي غدائي وعشائي، تخفض عينيها، المهرة الجميلة، وتبتسم... آه، متى سيأتي هذا الزمن أخيرًا؟».
وفجأة سمع صوتًا داخله يقول: «وماذا عن خطتي، والوكيل، والشقة؟».
قال أبلوموف بسرعة:
نعم، نعم! حالًا! حالًا نهض بسرعة وجلس على الأريكة، ثم أنزل قدميه إلى الأرضية، وأدخلهما في نعليه فورًا، وجلس على هذا الوضع لعدة دقائق. ثم نهض ووقف مفكرًا لدقيقة أو دقيقتين.
نادى بصوتٍ عال:
زاخار! زاخار!
ونظر إلى المنضدة والمحبرة.
دمدم زاخار بينما قفز من الموقد:
آه، ما الذي يجري الآن؟
وأضاف هامسًا بصوت أجش:
أتساءل هل ما زالت لديّ قوة لأسحب قدميّ.
كرّر أبلوموف نداءه باهتمام شديد، دون أن يرفع عينيه من المنضدة: «زاخار!»، ثم قال:
انظر هنا، رفيقي القديم...
وبدأ يشير إلى المحبرة، لكنه غرق في التفكير مرة أخرى، دون أن ينهي الجملة.

ثم رفع ذراعيه ببطء، تراجعت ركبتاه، بينما بدأ يتمطّى ويتثاءب.
قال بكسل وما زال يتمطّى:
ما زالت لدينا جبنة متروكة، نعم، اجلب لي خمرة ماديرا؛ الغداء غير جاهز حتى الآن، لذا أعتقد أني سوف أتناول وجبة خفيفة...
قال زاخار:
أين تُرِكت الجبنة، يا سيدي. لم يكن هناك شيء متروك.
قاطعه أبلوموف:
ماذا تعني؟ أتذكر جيدًا؛ كانت قطعة كبيرة مثل تلك.
أصرّ زاخار بشكل عنيد:
كلا يا سيدي. لم تكن هناك أي قطعة متروكة مطلقًا.
قال أبلوموف:
بل كانت!
ردّ زاخار:
لم تكن!
حسنٌ، اذهب واشترِ واحدة.
أعطني نقودًا من فضلك سيدي.
هناك بعض الفكّة على المنضدة، خذها.
هناك روبل واحد وأربعون كوبيكًا فقط يا سيدي، والجبنة تكلّف روبلًا وستين كوبيكًا.
هناك بعض النقود النحاسية.
قال زاخار وانتقل من قدم إلى أخرى:
لم أرَها أبدًا يا سيدي. كان هناك بعض النقود الفضية وما زالت هناك، لكنْ لم تكن هناك نقود نحاسية.
كانت هناك. البائع الجوّال أعطاني إيّاها بنفسه أمس.
قال زاخار:

نعم سيدي، رأيته يعطيك الفكّة، لكنّي لم أرَ قطع نقود نحاسية.
فكّر أبلوموف بدون عزم:
أتساءل إن كان تارانتييف أخذها. لكن لا، كان سيأخذ الفكّة كلها.
سأله:
ما هي الأشياء الأخرى المتروكة هناك.
قال زاخار:
لا شيء سيدي. ثمة بعض لحم الخنزير متروك منذ الأمس. سوف أذهب وأسأل أنيسيا. هل أجلبها؟
اجلبْها. لكن كيف لم تُترَك جبنة هناك؟
حسنٌ، إنها ليست هناك.
سار أبلوموف حول المكتبة ببطء متفكّرًا.
قال برقَّة: «نعم. هناك المزيد من العمل. خذ الخطة وحدها الكثير من العمل ما زال قيد التنفيذ!». ثم أضاف متأملًا: «أنا متأكد أن الجبنة كانت متروكة هناك».
واصل الكلام ونقّب المنضدة: «إنه زاخار الذي أكلها ويقول إنه لم يتبق منها شيء. وأين يمكن لقطع النقود النحاسية أن تذهب؟»
بعد ربع ساعة فتح زاخار الباب حاملًا صينية بكلتا يديه. وحين دخل الغرفة أراد أن يغلق الباب بقدمِه، لكنه فشل وكان على وشك أن يقع؛ فسقط على الأرضية كأس نبيذ وسدادة مصفاة الشراب وقرص رغيف.
قال أبلوموف:
إنّك لا تخطو خطوة واحدة إلّا وتُسقط شيئًا. حسنٌ، التقطْ ما أسقطتهُ!
نظرَ إليه وهو يقف هناك معجبًا بعمله اليدوي. انحنى زاخار، الذي مازال يحمل الصينية، لالتقاط الرغيف، لكنه حين جَثَمَ أدركَ أنّ كلتا يديه ما زالتا مشغولتين ولم تقدرا على التقاطه.
قال أبلوموف بتهكّم: «حسنٌ، التقطهُ. لماذا لا تلتقطهُ؟ ما المشكلة؟».
وانفجر غاضبًا وهو يتجه نحو الأشياء التي سقطت على الأرضية:

آه، اللعنة عليكم جميعكم! مَنْ سمعَ أحدًا من قبل يأكل وجبة خفيفة قبل الوجبة الرئيسة؟

التقطَ الأشياء من الأرضية بعد أن وضع الصينية؛ أخذ الرغيف وبعد أن نفخ عليه وضعه على المائدة. بدأ أبلوموف وجبته الخفيفة، وبقي زاخار واقفًا بعيدًا عنه، ينظر إليه جانبيًا، وكان واضحًا أنه يريد أن يقول شيئًا. لكن أبلوموف استمرّ بالأكل دون أن يلاحظه. سَعَلَ زاخار مرّة أو مرّتين. ما زال أبلوموف لم ينتبه إليه.

قال زاخار متوجسًا:

وكيل مالك الأرض، سيدي، حضر مرة أخرى. كان على البنّاء أن يراه ويسأله إن كان باستطاعته أن يلقي نظرة على شقتنا. كل الأمر يتعلق بانتقالنا، سيدي...

استمرّ أبلوموف بالأكل دون أن يجيب بكلمة.

قال زاخار بعد تردّد، بشكل أهدأ مما مضى:

سيدي.

تظاهرَ أبلوموف بعدم سماعه.

قال زاخار بصوت أجش:

يقولون إننا يجب أن نخلي الشقة الأسبوع القادم سيدي.

شرب أبلوموف كأسًا من النبيذ ولم يقل كلمة.

سأله زاخار هامسًا:

ماذا سنفعل يا سيدي؟

قال أبلوموف بشكل صارم وقد نهض واتجه إلى زاخار:

أخبرتك ألّا تذكر الأمر أمامي مرة أخرى.

انسحب زاخار إلى الوراء عنه.

قال أبلوموف منفعلًا:

يا لك من شخص حقود يا زاخار!

كان زاخار متألمًا.

قال:

أنا سيدي؟ أنا حقود؟ لم أقتلْ أي إنسان.

كرّر أبلوموف:

طبعًا إنّك حقود جدًا. لقد سمّمت حياتي.

أصرّ زاخار:

كلا يا سيدي. لست حقودًا يا سيدي!

لماذا إذن تزعجني حول الشقة؟

لكن ماذا بوسعي أن أفعل يا سيدي؟

ماذا بوسعي أن أفعل؟

لكن ألا تكتب إلى ملّاك الأراضي سيدي؟

طبعًا سوف أكتب. لكن يجب أن تصبر. فالمرء لا يمكن أن يفعل الأمر كله فورًا.

يجب أن تكتب له الآن يا سيدي.

قال أبلوموف وغمسَ قلمًا جفّ حبره في المحبرة:

الآن، الآن! لديّ شؤون مهمة أخرى يجب أن أنكبّ عليها. أتظن الأمر مثل قطع الغابات؟ ضربة، وينتهي الأمر؟ انظرْ. لا يوجد حبر في المحبرة أيضًا. كيف بوسعي أن أكتب؟

قال زاخار:

سوف أخففه بشراب الكفاس فورًا.

والتقط المحبرة وسار سريعًا خارج الغرفة بينما بدأ أبلوموف يبحث عن ورق الرسائل.

قال منقّبًا في الدُرج وناشرًا أصابعه فوق المنضدة:

كلا، لا توجد! آه يا زاخار، يا لك من رفيق ملعون مزعج!

قال أبلوموف لزاخار حين عاد:

حسنٌ، ألستَ إنسانًا حقودًا؟ إنك لا تبحث عن أي شيء أبدًا! لماذا لا يوجد أي ورق للرسائل في البيت؟

لكن حقا يا سيدي، كيف بوسعك أن تقول ذلك؟ أنا مسيحي. لماذا تدعوني حقودًا؟ حقود فعلًا! ولدتُ ونشأتُ في زمن السيّد أبيك. يمكن أن يدعوني جروًا، ويصفع أذنيَّ، لكني لم أسمعه أبدًا يناديني بالحقود! لم ولن يفكّر أبدًا بمثل هذه الكلمة! لا أعرف ما ستفعلهُ بي لاحقًا! ها هي الورقة يا سيدي.

التقط نصف صفحة من ورقة رسائل رمادية من حافظة الكتب وأعطاها إلى أبلوموف.

سأله أبلوموف ورمى الورقة:

وهل تظنّ بأني أستطيع كتابة رسالة على هذه القصاصة؟ كنتُ أستعملها كي أغطّي كأسي في الليل من أجل لا شيء، فربما سقط الحقود داخله!

دار زاخار مبتعدًا ونظر إلى الحائط.

آه، لا تهتم، أعطني إيّاها وسوف أكتب مسودة سريعة وينسخها ألكسييف.

جلس أبلوموف عند المنضدة وكتب بسرعة: «سيدي العزيز...» قال:

يا له من حبرٍ رديء. المرة القادمة من الأفضل أن تنتبه يا زاخار وترى أنَّ كل شيء منجزٌ بصورة صحيحة.

فكَّرَ قليلًا وبدأ يكتب:

«الشقة التي أشغلها في الطابق الثاني من البيت الذي تقترح أن تقوم بتحسينات عليه، تتناسب تمامًا مع مزاجي في الحياة وعاداتي التي اكتسبتها من سكني الطويل في هذا المكان. وبعد أن أخبرني خادمي زاخار تروفيموف أنّك طلبتَ منه أن يخبرني أنّ الشقة التي أشغلها...» توقف وقرأ ما كتبه.

قال: «ذلك أمر أخرق! ثمة ضميرًا (التي) في البداية وحرفا (أنّ) في النهاية!

قرأها بتمعّن هامسا واستبدل الكلمتين: (التي) بدت الآن تشير إلى الأرضية؛ مرة أخرى اختيار أخرق. صحَّحَها بطريقة ما وبدأ يفكّر كيف بوسعه أن يتجنب استعمال (أنّ) مرتين. شطب كلمة ووضعها مرة أخرى. حوّل حرف (أنّ) ثلاث مرات، لكن ذلك لا معنى له أو كان قريبًا جدًا من (أنّ) الأخرى.

قال بنفاد صبر:

من غير الممكن التخلص من (أنّ) الثانية! إلى الجحيم أيتها الرسالة! تجهدين دماغي بمثل تلك الأمور التافهة! لقد خسرتُ موهبة كتابة الرسائل العملية. يا إلهي، إنها الساعة الثالثة تقريبًا!

حسنٌ يا زاخار، ها أنت هنا!

مزّق الرسالة إلى أربع قطع ورماها على الأرضية.

سأل:

هل رأيتها؟

أجاب زاخار:

رأيتها.

والتقط مِزَق الورقة.

إذن لا تزعجني مرة أخرى بشأن الشقة، يا رفيقي الطيب. وماذا وجدت هناك؟

الفواتير يا سيدي.

آه يا إلهي، سوف تتسبب في هلاكي! حسنٌ، كم مبلغها؟ أخبرني بسرعة؟

ستّةٌ وثمانون روبلًا وأربعةٌ وخمسون كوبيكًا؛ للقصّاب سيدي.

قذف أبلوموف يديه مرعوبًا.

هل جُنِنتْ؟ هذا المبلغ الكبير للقصاب فقط؟

إذا لم تدفع لمدة ثلاثة أشهر يا سيدي يكون عرضة للزيادة. كل ذلك مدوّن هنا. لا أحد سرقه!

قال أبلوموف:

هل ما زلت تقول إنك غير حقود؟ صرفت هذا المبلغ الكبير على لحم البقر! أي خير يرجى منك؟ لا شيء مطلقًا بقدر ما أرى.

دمدم زاخار غاضبًا:

لم آكلهُ.

لم تأكلهُ، أليس كذلك؟

قدّمَ الفواتير إلى أبلوموف وقال:

إذن هل تحسدني على طعامي الآن سيدي؟ هاك، ألقِ نظرة عليها بنفسك؟
قال أبلوموف:
إذن مَنْ يكون؟
ودفع الكتب الصغيرة زيتية الملمس بعيدًا بعد أن تملكه الغضب.
هناك مئة وواحد وعشرون روبلًا وعشرون كوبيكًا دَينًا إلى الخبَّاز والبقَّال.
قال أبلوموف وفقد أعصابه:
هذا دمار هائل! يا له من جنون! هل أنت بقرة حتى تمضغ كل هذه الخضراوات؟
قال زاخار بمرارة واستدار مبتعدًا تمامًا عن سيده:
كلا، سيدي، أنا لست إنسانًا حقودًا!
وأضاف:
إذا لم تسمح للسيد تارانتييف بالقدوم فلن تحتاج إلى أن تدفع الكثير.
قال أبلوموف وبدأ يحصي بنفسه:
حسنٌ، ما المبلغ الإجمالي؟ احسب!
كان زاخار يحصي بأصابعه.
قال أبلوموف:
الربّ وحده يعرف مقدار المبلغ: في كل مرة يختلف. حسنٌ ما الذي تحصيه؟ مئتان، أليس كذلك؟
قال زاخار وضيّق عينيه ودمدم:
نصف دقيقة سيدي! أعطني وقتًا! ثماني عشرات وعشر عشرات. ثماني عشرة وعشرتان أخريان...» قال أبلوموف:
لن تُنهي الحساب. من الأفضل أن تعود إلى غرفتك وتدعني آخذ الفواتير غدًا، وانظرْ إلى الورق والحبر أيضا... يا لها من نقود كثيرة! أخبرتك أن تدفع القليل وقتها، لكن لا! هو يفضّل أن يدفعها كلها فورًا، يا لهم من بشر!
قال زاخار:
مئتان وخمس روبلات واثنان وسبعون كوبكًا. هل ستُعطيني المال سيدي؟

هل تريده فورًا؟ أخشى أن تنتظر مدة أطول قليلًا. سوف أدققها غدًا.
كما تريد يا سيدي، إنهم فقط يسألون عنها...
حسنٌ، حسنٌ، هلَّا تركتني وحدي؟ قلتُ غدًا، سوف تتسلّمها غدًا. ارجع إلى غرفتك وسوف أنجز قليلًا من العمل. لديّ شيء أهمّ هو مصدر قلق لي.
استقرّ أبلوموف في كرسيّه وثنى قدميه تحته، لكن قبل أن يكون لديه الوقت للتفكير، رنّ جرس الباب.
دخل الغرفة رجل قصير ذو بطن صغير ومظهر لطيف، وخدَّين حمراوين ورأس أصلع، تغطيه من الخلف خصلة كثيفة من الشعر الأسود. كانت الرقعة الصلعاء في رأسه مدوّرة، ونظيفة، ولامعة كأنها نُحِتت من العاج. كان وجه الزائر استثنائيًا بسبب نظرته اليقِظة والحذِرة التي قدّر بها كلّ شيء رآه؛ كان ثمة سيماء من التحفظ في عينيه والتعقّل في ابتسامته؛ يتميز سلوكه باللباقة الرسمية المتواضعة.
كان يرتدي سترة فراك مريحة تنفتح مثل بوابة بشكل واسع وبلمسة واحدة. كانت ملابسه الكتانية بيضاء باهرة، كأنها تتوافق مع رأسه الأصلع. ولبس في سبابة يده اليمنى خاتمًا كبيرًا يحتوي على حجر غامق.
صاح أبلوموف:
دكتور، كم جميل أن أراك!
وأمسك الزائر بإحدى يديه وسحب باليد الأخرى كرسيًا.
ردّ الطبيب مازحًا:
لقد تعبت من قولك إنك على ما يرام دائمًا ولا تزورني، لذا قمت بزيارتك دون أن تطلب مني.
ثمّ أضاف بشكل جدّي:
حسنٌ، كلا. كنتُ في الطابق الأعلى مع جيرانك وزرتك لأرى كيف حالك.
شكرًا، وكيف حال المريض؟

ليس بحالة جيدة. أخشى أنه سيبقى لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع أو ربما حتى الخريف. ثم لديه استسقاء في الصدر. أخشى أنّ لا أمل هناك. حسنٌ كيف حالك؟

حرّك أبلوموف رأسه بحزن.

قال وبدا بائسًا:

لا أشعر بصحة جيدة يا دكتور. كنتُ أفكّر بزيارتك. لا أعرف ماذا أفعل. هضمي مخيف. أشعر بثقل شديد في بطني، وحرقة في معدتي ونوبات من ضيق التنفس.

قال الطبيب:

أعطني يدك وأغلق عينيه دقيقة وتحسّس نبضه.

سأله:

هل هناك سعال؟

في الليل وبالأخص بعد العشاء فهمت. هل هناك خفقان في القلب أو صداع؟

سأل الطبيب أسئلة أخرى من النوع نفسه، ثم أحنى رأسه الأصلع وفكّر عميقًا.

بعد دقيقتين رفع رأسه فجأةً وقال بصوت راسخ:

إذا ما أمضيت اثنتين أو ثلاث سنين في هذا الجو، وبقيت تستلقي وتأكل طعامًا ثقيلًا ودسِمًا فإنك ستموت بالسكتة القلبية.

جَفلَ أبلوموف وصاح:

ماذا أفعل؟ أخبرني، باللهّ عليك!

افعل ما يفعله الآخرون واذهب إلى خارج البلاد.

ردّ أبلوموف مندهشًا:

إلى الخارج؟

نعم، ولِمَ لا؟

لكن! يا إلهي، دكتور، إلى الخارج! كيف بوسعي؟

لماذا ليس بوسعك؟

نظر أبلوموف بصمت لنفسه في مكتبه، وكرّر بصورة آلية:

إلى الخارج!

ما الذي يمنعك؟

آه، كل شيء.

كل شيء؟ ألا تمتلك المال؟

قال أبلوموف بسرعة:

حسنٌ، في واقع الأمر إني لا أمتلك نقودًا مطلقًا.

وكان سعيدًا بهذا التبرير الطبيعي المثالي.

انظر فقط إلى ما يكتبه وكيل المزرعة لي. أين الرسالة يا زاخار؟ أين وضعتها؟ زاخار!

قال الطبيب:

حسنًا، حسنًا. ذلك ليس شأني. إنه واجبي أن أخبرك بأنك يجب أن تغيّر طريقة حياتك ومكانك وجوّك وعملك كل شيء، كل شيء.

قال أبلوموف:

حسنٌ جدًا، سأفكّر بالأمر. أين يجب أن أذهب وماذا يتوجب عليّ فعله؟

قال الطبيب:

اذهب إلى كيسينجين أو إيمس[13]. اقضِ شهري حزيران وتموز هناك، اشرب المياه المعدنية، ثم اذهب إلى سويسرا أو إلى التيرول[14] من أجل العلاج بالعنب.

اقضِ شهري سبتمبر وأكتوبر هناك...

همس أبلوموف بصوت من الصعب سماعه:

يا إلهي، التيرول!

ثم اذهب إلى مكان جاف، مثلًا إلى مصر...

فكرّ أبلوموف:

13بلدتان ألمانيتان.

14إقليم في النمسا.

يا إلهي!

تجنّب القلق والغيظ.

قال أبلوموف:

حسنٌ جدًا بالنسبة لك لتتكلم هكذا. فأنت لا تتسلم مثل هذه الرسائل من الوكيل.

واصل الطبيب الكلام:

يجب أن تتجنب التفكير أيضًا.

التفكير؟

نعم، التوتر الذهني.

وماذا بشأن خطتي في إعادة تنظيم العزبة؟ يا إلهي، دكتور، هل أنا قطعة من الخشب؟

حسنٌ، افعل كما تشاء. واجبي أن أحذّرك. هذا كل ما في الأمر. يجب أن تتجنب التعقيدات العاطفية؛ إنها تتعارض مع العلاج. يجب أن تحاول وتشغل نفسك بركوب الخيل والرقص والتمرين البسيط في الهواء النقي، والحديث الباعث على السرور، بالأخص مع السيدات، لكي يتوجب على قلبك أن يتحرك بخفة عن طريق الأحاسيس البهيجة فقط.

أصغى أبلوموف إليه واهن العزيمة.

سأله:

وبعد ذلك؟

ثم تبتعد عن القراءة والكتابة، ذلك شيء مهم! استأجرْ شقّة بواجهة جنوبية، بها الكثير من الأزهار، وسترى أن هناك نساءً حولك وموسيقى...

أي طعام يجب أن أتناول؟

تجنّب اللحم والطعام الحيواني بصورة عامة، واللحم المشوي وهلام اللحوم. ربما يفيدك الحساء الخفيف والخضراوات، لكن احذر فهناك ينتشر مرض الكوليرا،

لذا يجب أن تكون حذرًا. يجب أن تمشي لمدة ثماني ساعات في اليوم. واحصل على بندقية شوزن[15] دمدم أبلوموف: «يا إلهي!» ختم الطبيب كلامه:

وأخيرًا اذهب إلى باريس في الشتاء ومتّع نفسك هناك في دوّامة الحياة وحاول أن لا تفكّر؛ من المسرح إلى الرقص، إلى الحفلة التنكرية، ثم قمْ بزيارات إلى الأصدقاء في الريف، احرص أن يكون لديك أصدقاء وثرثرة وضحك حولك.

سأل أبلوموف ولم يستطع إخفاء غيظه:

هل هناك شيء آخر؟

فكّر الطبيب.

ربما تجرب هواء البحر؛ اركب باخرة من إنكلترا وقم برحلة إلى أميركا.

نهض ليغادر.

قال:

ليتك نفذت كل هذه الأمور بالضبط...

ردّ أبلوموف متهكّمًا:

حسنٌ جدًا، حسنٌ جدًا. بالتأكيد سوف أنفذها.

غادر الطبيب تاركًا أبلوموف في حالة يرثى لها. أغلق عينيه ووضع يديه خلف رأسه وربض في الكرسي وجلس هكذا، وهو لا يرى أو يشعر بشيء.

تردّد صوت خائف من ورائه:

سيدي!

أجابَ:

حسنٌ. ماذا تريد؟

ماذا سأقول لوكيل مالك الأراضي؟

عن ماذا؟

عن انتقالنا؟

15بندقية تطلق من الكتف.

سأله أبلوموف مندهشًا:

هل رجعت إلى الموضوع ثانيةً؟

لكن يا سيدي، ماذا أفعل؟ يجب أن تعترف بأنّ حياتنا ليست سهلة كما يجب. إنّي في منتهى القلق...

قال أبلوموف:

أنا الذي قلق جدًا بسبب حديثك عن انتقالنا. من الأفضل لك أن تستمع لما قاله الطبيب لي توًّا.

لم يعرف زاخار ماذا يقول، واكتفى بإطلاق حسرة عميقة جدًا بحيث تحرّكت أطراف الوشاح الذي حول رقبته على صدره.

سأله أبلوموف:

هل عزمتَ على قتلي؟ هل أنت متضايق مني؟ حسنٌ، تكلّم!

دمدم زاخار وكان منزعجًا تمامًا بسبب التحول المأساوي الذي اتخذه الحديث:

يا إلهي، سيدي، عِشْ كما تحب! أنا متأكد أنّ لا أحد يتمنى لك المرض يا سيدي.

قال أبلوموف:

لقد منعتك من ذكر مسألة الانتقال، وها أنت تذكّرني بها عدة مرات في اليوم. إنك تزعجني ألا تدرك ذلك؟ يسوءني حين تفعل ذلك.

قال زاخار بصوت مرتعش منفعل:

فكّرتُ يا سيدي بذلك فكّرتُ لماذا لا ننتقل؟

قال أبلوموف ودار مع كرسيّه نحو زاخار:

لماذا لا ننتقل؟ هل تعتقد أن الأمر سهل جدًا؟ ألا يا رفيقي العزيز، أخذت في نظر الاعتبار ماذا يعني الانتقال؟ ألم تأخذه في الاعتبار؟

أجاب زاخار بتواضع:

لا أعتقد أني أخذته في الاعتبار يا سيدي.

وكان جاهزًا للاتفاق مع سيّده على كل شيء، طالما لم تكن هناك مشاهد مثيرة للشفقة، لا يستطع تحمّلها.

قال أبلوموف:

إن لم تأخذها في الاعتبار فاستمع إذن وانظر إلى نفسك إن كان بوسعنا أن ننتقل أم لا. ماذا يعني الانتقال؟ إنه يعني أنّ سيّدك سوف يتوجب عليه مغادرة المنزل اليوم كله، ويتجوّل بأفضل ثيابه منذ الصباح الباكر.

علّق زاخار قائلًا:

حسنٌ، سيدي، لماذا لا تغادر المنزل؟ لماذا لا تذهب بعيدًا اليوم كله؟ من غير الصحّي أن تجلس في البيت. إنك تبدو مريضًا سيدي! قبلها كنت تبدو مثالًا للصحة، لكن الآن بما أنك تجلس دائمًا في البيت فإنك تبدو عدَمًا على الأرض. ليتك أخذت فقط نزهة في الشوارع، ونظرت إلى الناس أو إلى شيء ما...

قال أبلوموف:

استمعْ! آخذ نزهة في الشوارع! كفى هراءً.

واصل زاخار كلامه برقّة:

ولِمَ لا يا سيّدي؟ أخبروني يا سيدي أنّ هناك وحشًا مريعًا في الاستعراض. لماذا لا تذهب وتلقي نظرة عليه؟ أو ربما تذهب إلى المسرح أو حفلة تنكرية، وسوف نقوم بالانتقال دون وجودك.

لا تتكلم هراءً! إذن تلك هي الطريقة التي تعتني بها براحة سيّدك! وهل يهمّك إذا ما تجولتُ في الشوارع طوال اليوم؟ ماذا سيهمك لو أني تناولت الغداء في جحر صغير ضيّق ولم أستطع أن أستلقي بعدها؟ سوف يقومون بالانتقال دون وجودي! إذا لم أكن هنا لأحرس الأشياء، فسوف تتحول إلى كسرات وقطع أثناء انتقالنا.

أنا أعرف.

واصل أبلوموف الكلام باقتناع متزايد:

ماذا يعني نقل الأثاث! يعني الكسَر والضجة، وكل شيء سوف يتكوم معا على الأرضية: صناديق الثياب، ظهر الأريكة، الصور، الكتب، الغليونات، كل أنواع القناني التي لم يرها أحد في أي وقت مضى والتي فجأة تظهر من مكان لا يعرفهُ إلا

الربّ! وعليك أن تعتني بها كلها كي لا تتعرض للكسر أو الفقدان؛ نصف هنا، ونصف آخر على العربة، أو في الشقّة الجديدة! تريد أن تدخّن، تلتقط غليونك، لكن غليون التبغ اختفى مسبقًا. تريد أن تجلس، لكن لا شيء تجلس عليه، لا تستطيع أن تمسّ شيئًا دون أن تتوسّخ أو يغطيك الغبار. لا شيء تغسل به وعليك أن تتجول بيدين قذرتين مثل يديك...

علّق زاخار:

يداي نظيفتان وأظهر ما يشبه نعلَين بدلًا من يدين.

قال أبلوموف مبتعدًا:

آه، من الأفضل ألا تظهرهما لي. إذا ما أردتَ أن تشربَ فهناك دورق الفودكا، لكن لا يوجد كأس.

قال زاخار طلق المحيَّا:

تستطيع أن تشرب من الدورق أيضًا.

واصل أبلوموف الكلام تجرفه الصورة الحيّة للانتقال التي استحضرها:

مثلك تمامًا: يستطيع المرء أيضا ألّا يكنس الأرضية ولا ينظف الغبار ولا يضرب السجّاد. وفي الشقة الجديدة، الأشياء ستظل على حالها، في الأقل ثلاثة أيام، وسيكون كل شيء بالتأكيد في مكانه الخطأ: الصور على الأرضية أمام الجدران، الأحذية المطاطية على الفراش، الأحذية الطويلة في رزمة الشاي والمرهم العطري. هناك كرسيّ بساق مكسورة، صورة زجاجها مكسور، أريكة مغطاة بالبقع. أي شيء تسأل عنه لن تجده، لا أحد يعرف أين هو قد يكون مفقودًا أو متروكا في الشقة القديمة اذهب وارجع به.

قاطعه زاخار:

آه، على المرء أن يَجري إلى هناك ويرجع عدّة مرات.

تابع أبلوموف:

وهناك أمور أخرى! النهوض في الصباح في الشقة الجديدة. يا للضجر! لا ماء، لا فحم للسماور، وفي الشتاء ستتأكد من انجمادك حد الموت، الغرف باردة ولا يوجد حطب للموقد؛ عليك أن تجري وتطلب بعضًا منه.

علّق زاخار مرّة أخرى:

ذلك يعتمد على نوع جيرانك. بعضهم لن يُعيروك إبريقًا من الماء فما بالك بحطب للنار.

قال أبلوموف:

نعم بالفعل! تنتقل وتفترض أنّ كل شيء سوف ينتهي عند المساء، لكن كلا، لن تُحسم الأمور إلا بعد أسبوعين في الأقل. كل شيء يبدو في مكانه، لكن هناك ما تزال أكوام من الأشياء التي يجب ترتيبها: تعليق الستائر، وضع الصور سوف تمرض وتتعب منها كلها، وتتمنى لو كنت ميتًا. والتكاليف!» أكّد زاخار:

آخر مرة انتقلنا فيها قبل ثماني سنوات. كلفتنا مئتي روبل. أتذكَّرُها كأنها حصلت اليوم.

قال أبلوموف:

حسنٌ، ألا تكون نكتة؟ وكم هي الحياة في الشقة الجديدة غريبة في البداية! كم يحتاج الأمر كي تتعود عليها؟ آه، لن أكون قادرًا على النوم في الأقل لمدة أسبوع في المكان الجديد. سيأكلني البؤس حين أنهض ولا أرى لافتة خرّاط الخشب قبالتي؛ إذا لم تطل المرأة ذات الشعر القصير من النافذة قبل الغداء فإني أشعر بالتعاسة.

سأله مؤنّبًا:

هل فهمت الآن ما تحاول أن تُقحم سيّدك فيه؟

همس زاخار بتواضع:

فهمت يا سيدي.

قال أبلوموف:

إذن لماذا تحاول أن تقنعني بالانتقال؟ هل تعتقد أنّي قوي بما فيه الكفاية لأتحمل الأمر.

أعتقد سيّدي أنّ الناس الآخرين ليسوا أفضل منّا، وإذا ما انتقلوا فلماذا لا ننتقل نحن؟

سأله أبلوموف باندهاش ورفع كرسّيه:

ماذا؟ ماذا؟ ماذا قلتَ؟

بدا الاضطراب على زاخار، غير عارف بما قالهُ ليثير كلمات سيّده وإشاراته المثيرة للشفقة، فالتزم الصمت.

كرّر أبلوموف خائفًا:

الناس الآخرون ليسوا أفضل! ذلك ما مهّدت السبيل إليه! الآن علمتُ بأني لا أختلف عن «الناس الآخرين» بالنسبة لك!

انحنى أبلوموف بشكل ساخر إلى زاخار وبدا منزعجًا جدًا.

يا إلهي. سيدي، لم أقل إنك كنت لا تختلف عن أي شخص آخر. أليس كذلك؟

صاح أبلوموف بإلحاح مشيرًا إلى الباب:

«توارَ عن أنظاري، سيدي! لا أتحمل أن أنظر إليك. «الناس الآخرون» ذلك أمر لطيف!» أطلق زاخار حسرة عميقة وانسحب إلى غرفته.

دمدم وجلس على الموقد:

يا لها من حياة!

غمغم أبلوموف:

يا إلهي. سوف أكرّس الصباح لبعض الأعمال المهذّبة، والآن سأبقى مضطربًا اليوم كله. من ينجزها؟ خادمي المخلص والمجرّب! والأمور التي قالها! كيف يمكنه أن يقولها؟

لم يستطع أن يهدّئ نفسه لمدة طويلة؛ استلقى، نهض، خطا في الغرفة، ثم استلقى مرة أخرى. في محاولة زاخار لتحويله إلى مستوى الناس الآخرين رأى خرقًا لحقوقه في تفضيل زاخار الخاص لسيّده. حاول أن يفهم المعنى الكامل لتلك المقارنة والتحليل بينه وبين الآخرين، وإلى أي مدى أمكن تبرير التماثل بينه وبين الآخرين وما مدى الخطورة التي رافقت إهانة زاخار له. أخيرًا تساءل إن كان

زاخار أهانه بشكل متعمَّد. أي إن كان مقتنعًا بأنه، أبلوموف، هو «الآخر» نفسه، أو أنّ الكلمات قد أفلتت منه دون تفكير. كل هذا أزعج كبرياء أبلوموف وقرّر أن يظهر لزاخار الفرق بينه وبين «الآخرين»، وأن يجعله يشعر بالأساس الكامل لفعلته.

نادى بهدوء وبصوت متطاول: «زاخار».

بعد سماعهِ للنداء لم يدمدم زاخار أو يقفز من موقده كالعادة، مثيرًا ضجة بقدميه، لكنه هبط ببطء، ومسّ برفق كل شيء بذراعيه وأطرافه، سار خارج غرفته بهدوء وتردد مثل كلب يعرف من خلال صوت سيّده أنّ حيلتَهُ قد جرى اكتشافها وأنه اُستُدعيَ لكي ينال العقاب. فتح زاخار الباب جزئيًا لكنه لم يغامر بالدخول.

قال أبلوموف:

ادخل.

على الرغم من أنّ الباب يمكن أن يفتح بسهولة إلا أن زاخار فتحه فقط إنشًا واحدًا ومكث في المدخل بدلًا من أن يدخل.

كان أبلوموف جالسًا على حافة السرير.

فأمرهُ:

تعال هنا!

خلّص زاخار نفسه من الباب بصعوبة، لكنه أغلقه حالًا خلفه واتكأ عليه بثبات.

قال أبلوموف:

هنا.

وأشار إلى مكان بجانبه.

خطا زاخار نصف خطوة، ووقف على بعد خمس ياردات من المكان المشار إليه.

قال أبلوموف:

أقرب!

تظاهر زاخار باتخاذ خطوة أخرى، لكنه ترنّح فحسب إلى الأمام، داس قدمه بقوة، وبقي حيثما كان. بعد أن رأى أبلوموف أنّ زاخار هذه المرة لم يستطع أن يقترب

سمح له أن يبقى في مكانه، وينظر إليه لبعض الوقت مؤنّبًا إيّاه بصمت. بعد أن ارتبك زاخار بهذا التأمل الصامت لشخصه، تظاهر بعدم ملاحظته لسيده ووقف مبتعدًا عنه أكثر من المألوف، حتى أنه لم ينظر في تلك اللحظة إلى أبلوموف خارج زاوية عينه. نظر بشكل صارم إلى اليسار، إلى المكان الذي كان يرى فيه منظرًا مألوفًا منذ وقت طويل: أهداب شبكة العنكبوت حول الصور، فوجود العنكبوت يمثل تأنيبًا حيًا لإهماله.

قال أبلوموف بهدوء ووقار:

زاخار!

لم يُجبْ زاخار.

بدا أنه يفكّر: «حسنٌ، ماذا تريد؟ زاخار آخر؟ ألا ترى أني هنا؟». نقل نظره من اليسار إلى اليمين، مارًا بسيّده؛ هناك أيضًا شيء ذكّره بنفسه وهو المرآة التي غطتها طبقة كثيفة من الغبار فبدت مثل نسيج القطن ظهر وجهه العابس وغير الجذّاب فيها حزينًا ووحشيًا كأنه أطلّ من خلال ضباب خفيف. انصرف قلقًا عن ذلك الشيء الكئيب والمألوف جدًا، وقرّر أن يلقي نظرة على أبلوموف للحظة. فالتقت عيناهما.

لم يستطع زاخار أن يتحمل اللوم في عيني سيّده، وخفض عينيه. هناك مرة أخرى، على البساط، المليء بالغبار والمغطّى بالبقع، قرأ الشهادة الحزينة على حماسته في خدمة سيده.

كرّر أبلوموف بانفعال:

زاخار!

سأله زاخار بهمس لا يكاد يسمع:

ما الأمر يا سيدي؟

وصدرت منه رعدة خفيفة سبقت كلماته المشفقة.

قال أبلوموف:

أعطني بعض شراب الكفاس.

تنفس زاخار الصعداء؛ شعرَ بمنتهى السعادة إذ اندفع مثل صبي إلى الخوان وجلب شراب الكفاس.

سأله أبلوموف برفق وارتشف من الكأس وحملها بيديه:

حسنٌ، كيف تشعر؟ هل أنت حزين؟

كان التعبير الكئيب في وجه زاخار قد بهت فورا بسبب شعاع التوبة التي ظهرت على ملامحه. شعر بالأعراض الأولى من التوقير الشديد لسيّده وفجأة بدأ ينظر مباشرة في عينيه.

سألهُ أبلوموف:

هل أنت آسف بسبب جُنحتك؟

فكّر زاخار بمرارة: آه، أية «جنحة» هذه؟ شيء شنيع، سوف أكون مقيّدًا. سوف تفيض عيناي بالدموع إذا ما استمرّ على توبيخي بهذه الطريقة.

بدأ زاخار بنغمة خفيضة من صوته:

حسنٌ، سيّدي، لم أقل شيئًا عدا أنّ...

قاطعه أبلوموف:

كلا، انتظرْ. هل تعرف ماذا فعلت؟ هنا، ضع الكأس على المنضدة وأخبرني.

لم يقل زاخار شيئًا، وكان في حالة جهل تام بما فعله، لكن ذلك لم يمنعه من النظر بتوقير لسيّده؛ حتى أنّ رأسه تدلّى قليلًا واعيًا بذنبه.

قال أبلوموف:

حسنٌ، هل أنت إنسان حقود؟

لم يقل زاخار شيئًا، وأطرفَ عينيه بضعة مرات.

أعلن أبلوموف ببطء وثبت ناظريه على زاخار وشعر بالمتعة من ارتباكه:

لقد أحزنتَ سيّدك!

شعر زاخار بالبؤس إذ إنه رغب لو تبتلعه الأرض.

سأل أبلوموف:

ألم تُسبّب له الحزن؟

همس زاخار:

الحزن!

وانبهرَ بشدّة بتلك الكلمة الجديدة المثيرة للشفقة. ألقى نظرة مستسلمة من اليمين إلى اليسار، باحثًا بلا فائدة عن بعض الخلاص، فلاحظَ مرّة أخرى شبكة العنكبوت، والغبار، وانعكاسات صورته وصورة سيّده في المرآة.

فكّر: «آه، أرغب لو أني دفنت في الأرض! آه، لماذا لا أموت؟». وبعد أن رأى ذلك حاول، كما ينبغي، أن يتجنب المشهد المثير للحزن. شعرَ بأنّ عينيه تطرفان أكثر فأكثر، وفي أي لحظة سوف تبدأ الدموع تسيل منهما. أخيرًا أمتع سيّده بأغنيته المألوفة ما عدا أنها كانت نثرًا.

سأله والدموع في عينيه تقريبًا:

كيف لي أن أحزنكَ يا سيدي؟ آه، هل حدثَ لك وأن فكرت من هم الناس الآخرون؟

توقّفَ، وما زال ينظر إلى زاخار.

هل أُخبرك مَنْ هم؟

دار زاخار مثل دبّ في وجاره وأطلق حسرة عميقة.

الناس الآخرون الذين تفكّر بهم هم البائسون الفقراء، هم الناس القساة وغير المتحضرين الذين يعيشون في القذارة والفقر عند العلّية؛ يمكنهم أن يناموا براحة على حصيرة من اللبّاد في مكان ما من الساحة. ما الذي يمكن أن يحدث لمثل هؤلاء الناس؟ لا شيء. يسرفون في أكل البطاطا وسمك الرنجة المملّح. يسوقهم الفقر من مكان إلى آخر، لذلك فهم يندفعون طوال اليوم. أنا متأكّد من أنهم لا يهتمون بالانتقال إلى شقة جديدة. لياغاييف مثلًا. سوف يضع مسطرته تحت ذراعه، ويربط قميصيه بمنديل، ويرحل. «أين أنت ذاهب؟»، سيقول»أنا أنتقل».

هكذا هم الناس الآخرون. أليس كذلك؟

نظرَ زاخار إلى سيّده، ونقل إحدى قدميه إلى الأخرى ولم يقل كلمة.

واصل أبلوموف الكلام:

مَنْ هُمْ الناس الآخرون؟ إنهم الناس الذين لا يهتمون بنظافة أحذيتهم وملابسهم بأنفسهم على الرغم من أنهم أحيانًا يشبهون السادة النبلاء، إنه عرض مُدبّر؛ لا يعرفون ماذا يشبه الخَدَم. إذا لم يكن لديهم أحد يرسلونه في مهمّة، فإنهم يهرعون بأنفسهم. لا يهتمون بتحريك النار في الموقد أو تنظيف أثاثهم من الغبار...» قال زاخار عابسًا:

هناك الكثير من الألمان الذين يعملون بهذه الطريقة.

لا شكّ أنهم كذلك! وأنا؟ ما رأيك بي؟ هل أشبههم؟

قال زاخار بشكل مثير للشفقة:

أنت مختلف تمامًا يا سيدي. ما الذي أصابك، سيدي؟

وما زال في حيرة من معرفة ماذا كان يقصد سيده.

تابع أبلوموف الكلام:

هل أنا مختلف تمامًا؟ مهلًا، فكّرْ بدقة بما تقول. خذ في الاعتبار كيف يعيش «الآخرون». «الآخرون» يعملون باجتهاد، إنهم يندفعون، إنهم دائمًا مشغولون. إذا لم يعملوا لن يأكلوا. ينحني «الآخرون» ويتراجعون للتحية، يتوسلون، ويتذللون، وأنا؟ حسنٌ أخبرني، ماذا تعتقد: هل أشبه «الناس الآخرين»؟

ناشده زاخار:

من فضلك يا سيدي، لا تستمر بتعذيبي بكلمات مثيرة للشفقة. يا إلهي، يا إلهي.

هل أنا مثل «الآخرين»؟ هل أنا مندفع؟ هل أعمل؟ ألا يوجد لديّ ما يكفي من الأكل؟ هل أبدو نحيفًا وبائسًا؟ هل ينقصني شيء؟ يبدو لي أنّ أحدًا ما ينتظرني ليفعل الأشياء لي! الحمد للهّ لم يتوجب عليّ أبدًا في حياتي أن أسحب الجورب في قدمي بنفسي! لماذا عليّ أن أقلق؟ ولِمَ؟ ولِمَنْ أقول هذا؟ أنت تعرف كل ذلك؛ لقد رأيتَ كيف نشأتُ بحنان؛ أنت تعرفُ بأني لم أعانِ أبدًا من الجوع أو البرد، ولم ينقصني شيء، ولم يتوجب عليّ أن أكسب رزقي ولم أعمل أبدًا عملًا باهظًا. إذن كيف تكون لديك الجرأة لتقارنّي مع «الآخرين»؟ هل تعتقد بأني قويٌّ مثل «الآخرين»؟ هل أفعل وأتحمل ما يستطيعون فعله وتحمله؟

لم يعُدْ زاخار قادرًا على فهم ما يتحدث عنه سيده. لكن شفتيه كانتا تتفجران بالعاطفة: المشهد المُحزن راح يفور مثل غيمة عاصفة فوق رأسه. مكث صامتًا.
كرّر أبلوموف صيحته:
زاخار!
همس زاخار بصوت بالكاد يمكن سماعه:
نعم سيدي؟
أعطني المزيد من شراب الكفاس.
جلب زاخار شراب الكفاس، وحين شرب أبلوموف منه وأعاد إليه الكأس، ضرب الباب بقوة.
قال أبلوموف:
لا، لا مهلًا! إني أسأل كيف يتسنى لك أن تهين سيدك بشدة، وقد حملته بين يديك حين كان رضيعًا، وخدَمْته طوال حياتك، وكان المُعين لك؟
لم يعد زاخار يتحمل الأمر أكثر من ذلك. كلمة «المُعين» قضت عليه! بدأت عيناه تطرفان أكثر فأكثر. كلما قلّ فهمه لما قال له أبلوموف في كلامه المُحزن، غدا أكثر حزنًا.
قال نادمًا بصوت أجش:
أنا آسف جدًا سيدي. بسبب الحماقة، سيدي، بسبب الحماقة إنّي...
لم يعرف زاخار الفعل الذي يستعمله لكي ينهي حديثه لأنه لم يفهم ما فعله.
تابعَ أبلوموف الكلام بصوت رجل قد جرت إهانته ولم يتم تقدير حسناته بشكل كاف:
وأنا مستمرٌّ في العمل وقلقٌ ليلًا ونهارًا، وأحيانًا برأسٍ متقّد وقلب كسير أستلقي مستيقظًا في الليل وأتقلب في فراشي، مفكّرًا دائمًا كيف أحسّن الأمور ولِمَنْ؟ مَنْ الذي أقلق عليه؟ كلّه من أجلكم، ومن أجل الفلاحين، ويعني هذا أنتَ أيضًا... أجرؤ على القول إنك حين تراني أسحب البطانيات على رأسي تعتقد بأني أستلقي هناك نائمًا مثل خشبة. لكن كلا، أنا لا أنام، أبقى أفكرّ طوال الوقت بما يمكنني

فعله للفلاحين كي لا يعانوا من شظف العيش، إذ إنهم يجب أن لا يحسدوا الفلاحين المنتمين إلى الناس الآخرين، ولا يقدموا الشكوى ضدّي إلى الرب ساعة الحساب، بل أن يصلّوا من أجلي ويتذكروني بسبب الخير الذي فعلتهُ لهم.

وختم حديثه بمرارة:

ناكرو جميل!

كان زاخار قد غلبتهُ تمامًا الكلمات الأخيرة المثيرة للشفقة.

بدأ ينشج بهدوء.

ناشده:

من فضلك سيدي. لا تتصرف بحماقة بهذا الشكل! ماذا تقول سيدي؟ آه أيتها العذراء المباركة، يا لها من كارثة وقعت علينا!

واصل أبلوموف الكلام دون أن يستمع له:

يجب أن تخجل وأنت تقول أمورًا مثل: الثعبان الذي كنتُ أدفّئهُ في صدري!

كرّر زاخار:

ثعبان!

ورمى بيديه وانفجر بالنحيب العالي الذي تردّد كأنّ العشرات من الخنافس قد طارت في الغرفة وبدأت تئز.

وأضاف وسط نحيبه:

متى ذكرتُ الثعبان؟ آه، أنا لا أحلم بالأشياء التي حلت عليها اللعنة!

توقف كل منهما عن فهم الآخر، أو حتى عن فهم نفسيهما.

واصل أبلوموف الكلام:

كيف تسنَّى لك أن تقول شيئًا مثل ذلك؟ وقد خصصت لك في خطتي بيتا خاصا بك، وحديقة لزراعة الخضر، وكمية من الحبوب، وأجرًا منتظما! عينت لك قهرماني، وكبير خدمي، ومدير أعمالي! سوف ينحني الفلاحون لك، ويدعونك كلهم «زاخار تروفيمتش، زاخار تروفيمتش!»، وأنت ما زلت غير مقتنع،

تضعني في المستوى نفسه مع «الآخرين»! تلك هي الطريقة التي تجزيني بها! ذلك هو الأسلوب الذي تهين به سيّدك!

استمرّ زاخار بالنحيب، وتأثّر أبلوموف نفسه. وبينما كان يذكّر زاخار شعر بضخامة المنافع التي منحها للفلاحين، وتلفَّظ بآخر توبيخاته بصوت مرتعش والدموع تملأ عينيه.

أخيرًا قال بنغمة استرضاء:

حسنٌ، بوسعك الذهاب الآن. انتظر، أعطني المزيد من شراب الكفاس! تيبس بلعومي! لدي أمل! ربما تفكّر بالأمر بنفسك ألا تسمع صوت سيّدك الأجشّ؟ ذلك ما جلبته لي!

وتابع حين كان زاخار يجلب له شراب الكفاس:

لقد فهمتَ جُنحتك فلن تقارن مرة أخرى سيدك مع «الناس الآخرين»! لكي تكفّر عن ذنبك يجب أن تقوم ببعض الترتيبات مع مالك الأرض كي لا نحتاج إلى الانتقال. تلك هي طريقة العناية بهدوء بال سيدك: لقد أزعجتني تمامًا، ومن المحال بالنسبة لي أن أفكّر بأي فكرة جديدة ونافعة. ومن سيعاني منها؟ أنت ستعاني. لقد كرّست كل حياتي إلى فلاحي عزبتي. من أجلكم قدمت استقالتي من وظيفتي الحكومية وجلست مسجونًا في غرفتي. حسنٌ، لا تهتم! إنها تدق تمام الثالثة. بقيت ساعتان قبل الوجبة الرئيسة، وماذا يمكن للمرء أن يفعله خلال ساعتين؟ لا شيء. وهناك الكثير مما يجب إنجازه. آه حسنٌ، عليّ أن أؤجل رسالتي حتى البريد القادم وأدوّن خطتي غدًا. والآن سوف أستلقي لمدة ساعة. إني متعب. اسحب الستائر، أغلق الباب وتأكّد من عدم إزعاجي. أيقظني في الساعة الرابعة والنصف.

بدأ زاخار يرتب نوم سيده في المكتب؛ في البداية غطّاهُ بالبطانية وثناها تحته، ثمّ سحب الستائر، وأغلق الأبواب بإحكام وعاد إلى غرفته.

غمغمَ زاخار ومسح آثار الدموع وصعد على سطح الموقد:

ربما لن تنهض أبدًا أيّها الشيطان.

دمدم وقد فهم الكلمات الأخيرة فقط:
إنه شيطان بلا شك! بيت خاص بك، حديقة، أجور!
قال وضرب الموقد بعنف:
يعرف كيف يتكلم، ويفعل ذلك كأنهُ يقطع قلبك بسكّين! هذا بيتي وحديقتي، وهذا هو المكان الذي سأموت فيه! الأجور! إذا لم ألتقط بضع قطع نحاسية بين فترة وأخرى فلن أحصل على شيء اشتري به التبغ أو أستضيف أصدقائي. اللعنة عليك! أتمنى أن أموت وأُدفَن!
استلقى أبلوموف على ظهره، لكنه لم ينمْ حالًا. ظلّ يفكّر ويفكّر، وأصبح أكثر قلقًا.
سحب البطانية فوق رأسه وقال:
مصيبتان معًا! كيف يتسنى للمرء أن يتحملهما؟
لكن في حقيقة الأمر إنّ تلكما المحنتين رسالة الوكيل المشؤومة والانتقال لم تقلقا أبلوموف وأصبحتا مجرد ذكريات مزعجة.
فكّر: «مشاكل الوكيل التي يهددني بها ما زالت بعيدة. كل أنواع الأمور يمكن أن تحدث قبل ذلك: الأمطار يمكن أن تنقذ المحاصيل، الوكيل ربما ينجح في جمع المتأخرات، الفلاحون الهاربون ربما يعودون إلى (أماكن سكناهم) كما يكتب... وأين سيذهب أولئك الفلاحون؟».
فكّر وأصبح أكثر استغراقًا في تحرّي تلك الظروف: «لا يمكن أن يرحلوا في الليل والرطوبة ودون مؤن. أين سينامون؟ بالتأكيد لا ينامون في الغابات؟ إنهم لا يستطيعون أن يمكثوا هناك! ربما تكون هناك رائحة نتنة في كوخ الفلاح لكنه دافئ على الأقل... وما الأمر الذي يصيبني بالقلق؟
فكّر: «ستكون خطتي جاهزة فورًا. لماذا أنا خائف قبل أن أنفذها؟ آه، أنت...».
كان مضطربًا قليلًا من فكرة الانتقال. كانت تلك هي المحنة الجديدة والأحدث. لكن في حضور مزاجه المبشّر بالأمل فإن تلك الحقيقة كانت أيضًا قد انسحبت إلى الخلفية. على الرغم من أنه أدرك بصورة غامضة أن عليه الانتقال، وبالأخص أنّ

تارانتييف قد وضع يدًا في هذا الشأن، فإنه أجّلها في ذهنه لمدة أسبوع في الأقل، وحصل على أسبوع كامل من السلام! وربما ينجح زاخار في اتخاذ بعض الإجراءات لذا لن تكون ثمة حاجة للانتقال مطلقًا. ربما بالوسع ترتيب الأمر بطريقة ما!
ربما يوافقون على تأجيله إلى الصيف القادم أو يتخلون عن فكرة التحوّل. حسن، نرتب الأمر بطريقة أو أخرى! مع ذلك، ليس بوسعي أن أنتقل!».
لذا ظلّ يناقش ويهدّئ نفسه تباعًا، ودائمًا عثر في الكلمات المهدئة والمُريحة مثل (ربما، بطريقة ما، بطريقة أو أخرى) مأمنًا تامًا يبشر بالأمل والعزاء، كما كان تابوت العهد القديم، ونجح بمساعدتها في احتواء المحنتين في الوقت الحاضر.
رويدا رويدا انتشر خدَرٌ خفيف ممتع فوق جسده وبدأ يصبُّ غشاوة على إحساساته بالنوم، تمامًا مثل سطح الماء حين يغشّيه الصقيع الأول. لحظة أخرى وسوف ينسلُّ وعيهُ يعلم اللهّ إلى أين، حين أفاق وفتح عينيه.
همس:
لكن يا إلهي، إني لم أغتسل ولا عملت شيئًا. كنت أنوي وضع خطتي على الورق، ولم أفعل. لم أكتب إلى مفتش الشرطة أو المحافظ. بدأتُ الرسالة إلى مالك الأراضي، لكني لم أنهِها. لم أدقّقْ الفواتير، أو أعطِ زاخار النقود، لقد ضاع الصباح بأكمله سدىً!
غرَقَ في التفكير: ماذا أصابني؟ وهل سيفعل «الآخرون» مثلما فعلت؟ وبرقت في ذهنه فكرة: «الآخرون، الآخرون، مَنْ هُم؟»
استغرق في المقارنة بينه وبين أولئك «الآخرين». فّكر وفكّر، والآن تشكلت في ذهنه فكرة تختلف تمامًا عن تلك التي شرحها لزاخار. كان عليه أن يعترف بأنّ شخصًا ما سوف ينجح في كتابة كل الرسائل كي لا تتضارب كلمتا «الذي» و«التي» مع بعضهما، وأنّ آخرَ سوف ينتقل إلى شقة جديدة وينفذ الخطّة ويذهب إلى الريف...

فكّر: «آه، بوسعي أن أنفذها. أستطيع أن أكتب بها فيه الكفاية. لقد كتبتُ أشياءً أكثر تعقيدًا من الرسائل العادية في زمني! ماذا حصل لها كلها؟ وما الشيء الفظيع جدًا في الانتقال؟ إنها مسألة تتعلق بقرار المرء!

أضاف ميزة أخرى إلى أولئك الناس الآخرين قائلًا:

الآخرون لا يلبسون المبذل.

ثمّ تثاءب وقال:

إنهم بالكاد ينامون، ويتمتعون بالحياة، ويذهبون إلى كل مكان، ويرون كل شيء، ويهتمون بأصغر الأشياء...

وأضاف بحزن:

وأنا أختلف عنهم!

واستغرق في تفكير عميق، ثمّ مدّ رأسه أيضًا من تحت البطانية.

كانت إحدى اللحظات البصيرة والجريئة في حياة أبلوموف. آه، كم شعر بالوحشة حين لمعت في ذهنه فكرة واضحة ونشطة عن المصير الإنساني وهدف الحياة الإنسانية، وحين قارن هذا الهدف مع حياته الخاصة، وحين نهضت العديد من المشاكل الجوهرية تباعًا في ذهنه وبدأت تدوّم بشكل مضطرب، مثل طيور خائفة أيقظها فجأةً شعاع من ضوء الشمس في بعض الخرائب المظلمة. شعر بالحزن والأسف من فكرة نقص تعليمه، وعرقلة تطور قواه الروحية، والشعور بالبطء، إذ تعارضت هذه الأمور مع كل شيء خطّط لعمله؛ وسيطر عليه حسد لأولئك الذين يعيشون حياتهم بغنىً وامتلاء، بينما واجهته كصخرة هائلة قد جرى إلقاؤها عبر ممر حياته الضيق المثير للشفقة. وبدأ يتكون في ذهنه إدراكٌ مفاجئٌ بأنّ العديد من جوانب حياته لم تستيقظ أبدًا، وبأنّ الآخرين بالكاد تتحرَّك مشاعرهم، وأنّ لا أحدَ تطوّر تمامًا. ومع ذلك فهو واعٍ بشكل مؤلم بأن شيئًا طيبًا ولطيفًا ظلّ مدفونًا فيه كما في قبر، وأنّه ربما كان ميتًا منً قبل أو مخفيًا مثل الذهب في قلب الجبل، وقد حان الوقت المناسب للترويج لذلك الذهب. لكن الكنز مدفون عميقًا تحت كومة من النفاية والطين. كأنّه سرق نفسه ودفن في روحه

الكنوز الممنوحة له هديةً من العالم والحياة. شيءٌ ما منعهُ من الاندفاع بجرأة في محيط الحياة وتكريس كل قواه لعقله وإرادته، كي يبحر عبره وينشر أشرعته بالكامل. عدوٌ خفيّ بدا أنه وضع يدًا ثقيلة عليه عند بداية رحلته ورماه في طريقٍ طويلة بعيدًا عن الغرض المباشر للوجود الإنساني. ويبدو أنهُ لن يجد أبدًا طريقه إلى المسار المباشر عبر الغابة البرية التي لا يمكن اختراقها. أصبحت الغابة أكثف وأشد ظلامًا في روحه وحوله؛ وغدا المسار متناميًا أكثر فأكثر. نادرًا ما أصبح الوعي الصافي أكثر تيقظًّا، بينما هبّت القوى النائمة للحظة واحدة فقط. كان عقله وإرادته مشلولين منذ مدة طويلة بشكل متعذر علاجه. تضاءلت أحداث حياته إلى أبعاد مجهرية ولكن حتى بهذا الحال لم يستطع أن يتحملها. لم يقدر على العبور من حدث إلى آخر، إذ راحت تتقاذفه ذهابًا وإيابًا كالأمواج. لم تكن لديه القدرة على معارضة أحد عن طريق إرادته المرنة أو اتّباع آخرَ بوساطة قوة عقله. شعر بالمرارة من الاعتراف بكل ذلك لنفسه. الندم غير المجدي على الماضي، ولوم ضميره الحارق يلسعانِه كالإبر، فحاول مجهدًا أن يتخلص من وطأة ذلك الشعور، لكي يعثر على شخصٍ آخر يوجّه له اللوم ويحوّل الإبرة ضده. لكن مَنْ؟

همس:

كلها بسبب غلطة زاخار!

تذكّرَ تفاصيل المشهد مع زاخار، واكتوى وجهه بالخجل. شعر بالقشعريرة من الفكرة وتساءل: «ماذا لو أنّ أحدًا سمعها مصادفة؟ شكرًا للربّ أن زاخار لن يكون قادرًا على تكرارها على مسمع أحد أو أنّ أحدًا سوف يصدّقهُ».

تحسّر ولعن نفسه، ودار من جانب إلى آخر، باحثًا عن شخص يوجّه له اللوم ولم يجد أحدًا. آهاته وتأوهاته وصلت أسماع زاخار.

فقال باستياء:

لا بد أنّ شراب الكفاس هو الذي أطلق ريح بطنه!

سأل أبلوموف نفسه: «لماذا أنا بمثل هذه الحال؟ لماذا؟»، وأوشكت الدموع أن تطفر من عينيه، فأخفى رأسه تحت البطانية مرة أخرى.

بعد البحث دون جدوى عن المصدر العِدائي الذي منعهُ من العيش كما ينبغي، مثلما يعيش «الآخرون»، أطلق حسرة، وأغلق عينيه، وبعد بضع دقائق بدأ النعاس مرة أخرى يخدّر أحاسيسه.

غمغم وأطرفَ بعينيه بصعوبة: «أنا أيضًا وددتُ شيئًا مثل ذلك رغم أنه ذو طبيعة معادية لي، كلا الحمد للهّ ليس عندي شيء لأشتكي منه...».

ثم استسلم وأطلق حسرة. كان يمر بحالة من الإثارة ويعود إلى حالته العادية من الهدوء واللا مبالاة. همسَ بصعوبة إذ غلبهُ النعاس:

إنه القدر، كما افترض. لا أستطيع شيئًا أمامه.

وقال بصوت عالٍ كأنه في هذيان الحمّى:

المحصول أقلُّ بألفين من السنة الأخيرة. مهلًا، مهلًا...

واستيقظ جزئيًا ثم همس ثانية:

مع ذلك سيكون الأمر ممتعًا لو عُرِف السبب. أنا على تلك الشاكلة!

سدّ جفنيه بقوّة. حاول أن يلفظ الكلمات لكنه لم يستطع:

نعم، لماذا؟ ربما السبب...

وهكذا، دون أن يبلغ السبب، مع ذلك. توقف لسانه وشفتاه في وسط الجملة، وبقي فمه نصف مفتوح. بدلًا من الكلمة سُمِعَتْ حسرة أخرى، تبعها صوت شخير لرجل كان ينام بهدوء.

أوقف النوم الجريان البطيء والممل لأفكاره، وسرعان ما نقله إلى عصر آخر وناس آخرين، وإلى مكان آخر، حيث سنتبعهُ نحن أيضًا، أيها القرّاء الكرام، في الفصل القادم.

* * *

(٩)

حلم أبلوموف أين نحنُ؟ في أية زاوية مباركة صغيرة من الأرض نقلَنا حلمُ أبلوموف؟ يا لها من بقعة جميلة!

حقيقةً أنه لا يوجد بحر هناك، ولا جبال شاهقة، لا جُرُف أو منحدرات، لا غابات عذراء، لا شيء مهيبًا ومظلمًا ووحشيًا. لكن ما فائدة المهيب والوحشي؟ البحر مثلًا؟ دعنا نمكث أينما وُجِدَ! إنه يجعلك كئيبًا فحسب: انظر إليه، تشعر كأنك تبكي. القلب يرتعد لمنظر الاتساع الشاسع للمياه، والأعين تصبح مرهقة من الرتابة المستمرة للمشهد. الهدير والأمواج التي تضرب بعنف فلا تلاطف أذنيك الضعيفتين: إنها تستمر بتكرار أغنيتها القديمة جدًا، الكئيبة والغامضة، الشيء نفسه منذ أن بدأ العالم والأنين القديم نفسه يمكن سماعه فيها، الشكاوى نفسها كأنها من وحش حُكِمَ عليه بالتعذيب والأصوات الثاقبة والمشؤومة. لا طير يغرّد، فقط النوارس مثل مخلوقات مشؤومة، تحلّق بحزن ذهابًا وإيابًا بالقرب من الساحل وتدور فوق الماء.

هدير ضعيف لوحش إضافة إلى مناحات الطبيعة، والصوت البشري أيضا خافت، والإنسان نفسه صغيرٌ وضعيفٌ جدًا، وضائعٌ جدًا بين التفاصيل الصغيرة للصورة الشاسعة! ربما بسبب هذا يشعر بمنتهى الكآبة حين ينظر إلى البحر. نعم، البحر يمكن أن يمكث حيثما يكون! هدوؤهُ وسكونه لا يجلب الراحة إلى قلب الإنسان؛ في ارتفاع المياه الذي يمكن إدراكه بشقّ الأنفس لا يزال الإنسان يرى القوة اللا محدودة الهاجعة التي يمكن أن تسخَر بشكل قاسٍ من إرادة كبريائه وتدفن عميقًا مخططاته الجريئة وكل عمله الشاق وكدحه.

الجبال والأجراف أيضا لم تُخلق من أجل متعة الإنسان. إنها في روعها وخطرها تشبه أسنان ومخالب وحش برّي تندفع نحوه؛ إنها تذكرنا أيضا بصورة حيّة بهشاشتنا وتبقينا بصورة مستمرة في حالة خوف على حياتنا. والسماء فوق القمم والأجراف تبدو بعيدة جدًا ولا يمكن بلوغها، وكأنها تراجعت عن الجبال.

البقعة الهادئة التي وجد بطلنا نفسه فيها كانت لا تشبه تلك. تبدو السماء هناك تعانق الأرض، لا لكي تقذف بصواعقها عليها، بل لكي تعانقها بشدة وحنان؛ إنها معلّقة مثل سقف خفيض، كما سقف بيت الأبوين الجدير بالثقة، للحفاظ، كما يبدو، على البقعة المنتدبة من كل الكوارث. تشرق الشمس هناك ساطعة ودافئة لمدة ستة أشهر من السنة وتنسحب تدريجيًا، على مضض، كأنها ترجع لكي تلقي نظرة أخرى على المكان الذي تحبه، وتمنحه يومًا دافئًا وصافيًا في الخريف، وسط المطر والوحل.

تبدو الجبال هناك نماذج صغيرة للجبال المفزعة البعيدة التي تروّع الخيال. إنها تكوّن سلسلة من الروابي المنحدرة بوداعة إذ في سفحها يكون من الممتع الانزلاق على الظهر عند اللعب، أو الجلوس لمشاهدة الغروب بشكل حالم.

يجري النهر مرِحًا، ويلهو ويلعب؛ أحيانًا ينتشر على شكل ينبوع واسع وأحيانًا يندفع طويلًا في جدول سريع، أو يظهر هادئًا، كأنه يستغرق في التأمل، ويزحف ببطء على طول الحصى ويتفرع إلى جداول نشطة على كل الجهات، إذ تهدهدك موجاته بلطف كي تنام.

المكان برمّته، بمحيطه الذي يبلغ عشرة أميال أو خمسة عشر ميلًا، يتكون من سلسلة من المشاهد الطبيعية الرائعة والباسمة والمرحة. الضفاف الرملية المنحدرة للجدول الصافي، الأدغال الصغيرة التي تنسل منحدرة نحو المياه من التلال، الوادي الصغير ذو الجدول الذي يلتوي ويجري عند الأسفل، وأيكة البتولا كلها تبدو وقد جرى اختيارها بعناية وشكلتها يد سيّد.

إن قلبا مزَّقتْهُ المحن، أو لم يتعوّد عليها تمامًا، ينادي كي يخفي نفسه في تلك البقعة المعزولة، ويعيش هناك بسعادة وصفاء. كلُّ شيء هناك يشي بالهدوء والحياة الطويلة، حتى يتحول لون الشعر إلى الأبيض مع الشيخوخة ويأتي الموت على حين غرّة مثل النوم.

تتبع السنة مسارًا منتظمًا وهادئًا هناك. يأتي الربيع في آذار، حسب التقويم، الجداول الغرينية تجري أسفل التلال، تَدْفَأ الأرض، ويرتفع ضباب دافئ منها؛

يخلع الفلاح جلد الغنم ويظهر في الهواء الطلق بقميصه، ويحمي عينيه بيده، ويقف هناك يتمتع بالشمس المشرقة ويهزّ أكتافه مبتهجًا. ثم يسحب العربة المقلوبة؛ أولًا من عمود واحد، ثم من الآخر، أو يفحص ويضرب بقدمه على المحراث الذي يستلقي بلا فائدة في السقيفة، ويكون جاهزًا لأعماله المألوفة. لا تعود العواصف المفاجئة في الربيع، مغطية الحقول أو تسبب سقوط الأشجار بفعل الثلج. مثل جمال بارد لا يمكن الاقتراب منه يبقى الشتاء مخلصًا لشخصيته حتى يأتي الوقت المخصص للدفء. إنه لا يتضايق من ذوبان الثلوج المفاجئ أو يخضع للصقيع الجديد؛ كل شيء يستمر بطريقته المعتادة التي رسمتها الطبيعة. يبدأ الثلج والصقيع بالهطول في تشرين الثاني. وفي اليوم الثاني عشر يصبح الجوّ باردًا جدًا إذ إن الفلّاح الذي يغادر كوخه لمدة دقيقة يرجع والصقيع يملأ لحيته؛ وفي شباط يشعر الأنف الحسّاس مسبقًا بالنَفَس الرقيق لاقتراب الربيع في الهواء. لكن في الصيف الصيف بالأخص يكون ساحرًا في ذلك الجزء من الريف الهواء هناك نقي وجاف؛ وهو ليس مضمّخًا بعطر الليمون والغار فحسب، بل بعبير الأفسنتين، والصنوبر، والكرز البرّي. الأيام ساطعة مع شروق الشمس المحرقة بشكل خفيف، وبالنسبة للأشهر الثلاثة لا توجد غيمة في السماء تقريبًا. ما إن تأتي الأيام الصافية حتى تستمر لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع؛ أوقات المساء دافئة والليالي حميمة؛ النجوم تومض بطريقة لطيفة ومحببة من السماء. إذا ما هطل المطر، فيا له من مطر صيف سخي! إنه يهطل برشاقة ووفرة ويرش بمرح، مثل الدموع الكبيرة الدافئة لرجل غلبهُ الفرحُ المفاجئ. وما إن يتوقف حتى تطلّ الشمس ثانية بابتسامة الحب المشرقة على التلال والحقول وتجففها، ويستجيب الريف بأكمله إلى الشمس بابتسامة سعيدة. يرحّب الفلّاح بالمطر فرِحًا ويقول: «المطر سوف يبللني والشمس سوف تجففني» عارضًا بسرور وجهه وكتفيه وظهره إلى الوابل الدافئ.
العواصف الرعدية غير خطرة بل مباركة هناك؛ إنها تحدث دائمًا في الأوقات المحدّدة، من الصعب تفويت يوم القديس إليجا في الثاني من آب كأنّه تأكيد للأسطورة المعروفة بين الناس. يبدو أنّ قوة الصواعق الرعدية وعددها تتكرر في

كل سنة، كأنّ الكمية المحددة من الكهرباء قد خُصّصت سنويًا للمكان بأكمله. العواصف الرهيبة تسبب التدمير في أثناء يقظتها، ولم يُسمع بها في تلك الأنحاء، ولا تظهر بلاغات عنها في الصحف. ولم ينشر أي شيء فيما مضى عن تلك البقعة المباركة كثيرًا وكأنها لم تسكنها أرملة الفلاح، مارينا كولكوف، البالغة ثمانية وعشرين عامًا، والتي ولدت أربعة توائم، وهو الخبر الذي لم تغفله الصحافة.

لم يزُرْ الربّ هذه الأنحاء عن طريق الأوبئة المصرية[16] أو العادية. لم يرَ ساكنوها فيما مضى أو يذكروا أية علامات سماوية رهيبة، وكرات ملتهبة، أو ظلام مفاجئ؛ لا توجد أفاعٍ سامّة هناك، الجراد لا يأتي، لا توجد أسود تزأر، ولا نمور تهدر، ولا دببة ولا ذئابٍ، لأنّه لا توجد غابات هناك. توجد فقط الأبقار المجترّة والأغنام التي تثغو، والدجاج الذي يقوقئ ويجول في القرى والحقول بأعداد هائلة.

من الصعب القول إن كان الشاعر أو الحالم سوف يشعر بالسرور مع الطبيعة في هذه البقعة المفعمة بالسلام. هؤلاء السادة النبلاء، كما يعلم الكلّ، يحبّون أن يحدّقوا في القمر ويصغوا إلى أغنية العندليب. إنهم يحبّون القمر المغناج حين يكتسي بالغيوم الصُفر الضاربة إلى الحمرة ويتلصص بشكل سرّي عبر الأغصان أو يقذف بحِزَم الأشعة الفضية داخل عيون مُعجبيه. لكن في ذلك الريف لم يسمع أحد بقمر آخر سوى القمر العادي. إنه يحدّق بهيجًا جدًا بالقرى والحقول، ويبدو مثل حوض نحاسي مصقول. سينظر الشاعر له عبثا بعين البهجة؛ إنه ينظر بودّ إلى الشاعر كما تفعل حسناء القرية المدورة الوجه استجابة للنظرات البليغة والمحمومة للمُغازل.

لا توجد عنادل في تلك الأنحاء أيضًا ربما بسبب عدم وجود منعزل مظللّ وورود هناك. لكن يا لوفرة طيور السُمانَى! في وقت الحصاد الصيفي يمسك الصبيان بها بأيديهم. غير أنك لا تتصّور بأن طيور السُمانَى تعد هناك وسيلة للترف والذوق المرهف كلا، أخلاق الساكنين لم تُفسد إلى ذلك الحدّ؛ السُمانَى طائر لم يُشر إليه في

16عشر كوارث سلطها يهوه على مصر لكي يقنع الفرعون بتحرير الإسرائيليين من العبودية كما ذكر في سفر الخروج.

قوانين الحِميَة. في ذلك الجزء من الريف تسرّ الأذن بغنائه؛ ذلك هو السبب تقريبًا في أنّ كل بيت لديه طائر سُمانَى في قفص سلكي تحت السقف.

سيبقى الشاعر والحالم غير قانعين بالمظهر العام لتلك المنطقة المتواضعة. لم ينجحا في رؤية مساءٍ وفق الأسلوب السويسري أو الاسكتلندي، حين تكون الطبيعة برمتها الغابات، النهر، حيطان الكوخ، والتلال الرملية مغمورة بالوهج الأحمر للغروب الذي ينطلق أمامه موكب من الرجال النبلاء، إذ يجتازون وهم راكبون طريقًا رملية ملتوية بعد أن صحبوا سيّدة في رحلة إلى بعض الأماكن المقفرة المظلمة، وهم يعودون الآن بخطىً سريعة إلى قلعة قوية إذ سيحكي لهم المواطنون الأصليون القدماء قصة عن «حروب الورود»[17]، ثم بعد تناولهم للحم العنزة البريّة في العشاء سوف تغنّي لهم فتاة شابة أغنية شعبية بمصاحبة العود إنها مشاهد ملأ بها قلم والتر سكوت[18] خيالنا بشكل غني. كلا، لا يوجد مثل ذلك في أنحاء ريفنا.

كم هو هادئ وغافٍ كل شيء في القرى الثلاث أو الأربع التي تشكّل هذه القطعة الصغيرة من الأرض! إنها تستلقي الواحدة قرب الأخرى وتبدو وكأنها قد قذفتها للأسفل بالصدفة يدُ عملاقٍ وتناثرت في كل الاتجاهات، إذ إنها بقيت إلى يومنا هذا. أحد الأكواخ الواقع على حافة وادٍ صغير، ظلّ معلقًا هناك منذ أمدٍ سحيق، وبقي نصفه معلقًا في الهواء مسندًا على ثلاثة أعمدة. عاش الناس بهدوء وسعادة هناك لمدة ثلاثة أو أربعة أجيال. سيفكّر المرء بأنّ دجاجة ستخاف أن تدخله، مع ذلك عاش فيه أونيسيم سوسلوف مع زوجته، وهو رجل مثابر حجمه كبير بالكاد يسعه كوخه. لن يكون كل شخص قادرًا على دخول كوخ أونيسيم، إن لم يقنعه الزائر بالوقوف وخلفيته للغابة وواجهته أمامه. لأن عتباته الأمامية معلقة فوق الوادي، ولكي تدخله عليك أن تمسك بالعشب بإحدى يديك وتمسك سقفه بالأخرى، ثمّ ترفع قدمًا وتضعها بثبات على العتبات.

17حروب نشبت بين...
18روائي إسكتلندي.

كوخ آخر يتشبث بشكل خطر بمنحدر التل مثل عش السنونو؛ ثلاثة أكواخ مرمية معًا بشكل عارض وليست بعيدة، وأكثر من كوخين ينتصبان على سفح الوادي ذاته.

كلٌّ شيء في القرية هادئٌ وهاجع: أبواب الأكواخ الصامتة مفتوحة على سعتها؛ لن ترى أحد؛ الذباب وحده يحتشد في أسراب ويئز في الهواء الفاسد. عند دخولك الكوخ ستصيح عبثًا صيحة عالية: الصمت الميت سيكون جوابك؛ من النادر جدًا أن تجيب امرأة عجوز تقضي سنواتها المتبقية على الموقد، بحسرة مؤلمة أو سعال موحش. أو أن طفلًا عمره ثلاث سنين، ذا شعر طويل، حافي القدمين، وبقميص ممزَّق سوف يظهر من وراء حاجز ويحدِّق فيك بصمت، ويخفي نفسه ثانية.

يسود الصمت العميق والهدوء في الحقول أيضًا؛ يمكن ملاحظة رجل يحرث هنا وهناك فقط وهو يتحرّك مثل نملة على الأرض السوداء. تلفحه الحرارة ويسبح في العرق، وهو يدفع بمحراثه للأمام. السلام نفسه والهدوء يسودان بين ناس تلك المنطقة.

لا سرقات ولا جرائم ولا حوادث مميتة وقعت هناك في أي وقت مضى. وأية عواطف قوية أو مغامرات جريئة يمكن أن تصيبهم فعلًا بالقلق؟ كل شخص هناك عرف قدرته. ساكنو تلك القرى عاشوا بعيدًا عن الناس الآخرين. القرى الأقرب ومركز المدينة على بعد عشرين ميلًا أو خمس وعشرين ميلًا. كان الفلاحون يحملون محصول الذرة بالعربة لأقرب منصة إرساء على نهر الفولغا الذي هو بمثابة كوليكيس[19] أو أعمدة هرقل بالنسبة لهم، وبعضهم ذهب إلى السوق مرة واحدة فقط؛ وذلك هو الاتصال الوحيد لهم مع العالم الخارجي.

تركزت اهتماماتهم على أنفسهم ولم يقوموا بأي اتصال مع آخر أو يقسوا معه. عرفوا بأن المدينة الإدارية للمقاطعة كانت على بعد ستين ميلًا، لكن القلة منهم

19مرسى قديم على ساحل البحر الأسود.

ذهبوا هناك؛ عرفوا أيضا بأن المدن الأبعد في الاتجاه نفسه كانت ساراتوف أو نيجيني نوفغورود؛ لقد سمعوا ببطرسبورغ وموسكو، وبأنّ الفرنسيين والألمان عاشوا ما وراء بطرسبورغ، والعالم الأبعد كان بالنسبة لهم غامضًا كأنه كان لناس من الزمن الغابر؛ بلدان مجهولة، تسكنها الوحوش، وناس برأسين وعمالقة.
وهناك في الأبعد ما زال الظلام، وفي نهايته كان الشخص الذي حمل العالم على ظهره. ولأنّ الجزء الذي يسكنونه في الريف كان بالكاد يزوره المسافرون، لذا لم تكن لديهم الفرصة للعلم بما يجري في العالم: الفلاحون الذين يجهزونهم بقواربهم الخشبية عاشوا على بعد خمسة عشر ميلًا من قراهم وكانوا جهلة مثلهم.
لم يكن يوجد شيء يمكن مقارنته بطريقتهم في العيش واكتشاف إن كانوا يعيشون بشكل أفضل أم لا، وإن كانوا أغنياء أم فقراء، أو إن كان لدى الآخرين شيء يرغبون هم فيه أيضًا.
تصوّر هؤلاء الناس المحظوظون كل شيء كما يجب أن يكون، واقتنعوا بأنّ كل إنسان آخر عاش مثلهم، فأن تعيش بطريقة مختلفة يعني أن ترتكب إثما. لن يصدقوا الأمر لو أنّ أحدًا أخبرهم بأنّ هناك أناسًا لديهم طرقٌ مختلفة في الحراثة، والخياطة، والحصاد، والبيع. هل يمكن أن تكون لديهم عواطف وأمور مثيرة؟
مثل أي شخص آخر، كان لديهم قلقهم وضعفهم، الإيجار والضرائب، الكسل والنوم؛ لكن كل ذلك لم يبلغ مقدارًا كبيرًا ولم يحرّك دمهم. خلال السنوات الخمس الأخيرة لم يمت أحدٌ من مئات الفلاحين من تلك المنطقة ميتة طبيعية إذا تجاوزنا عن ذكر الموت غير الطبيعي. وحين يرحل شخصٌ ما إلى نومته الأبدية، إما بسبب التقدم في العمر أو بسبب مرض مزمن، فإن الناس هناك يندهشون من مثل هذا الحدث الاستثنائي لعدة أشهر. مع ذلك لا يفاجئهم على الإطلاق بأنّ تاراتس الحدّاد، مثلًا، قد بخّر نفسه حد الموت في كوخه الطيني لكي تجري إعادته للحياة بالماء البارد. الجريمة الوحيدة التي تفشَّت بشكل كبير كانت سرقة البازلاء والجزر واللفت من بستان زراعة الخضر، وفي إحدى الحوادث اختفى فجأة خنزيران رضيعان ودجاجة وهو الحدث الذي أثار الجوار بأكمله، وجرت نسبتها

إلى حقيقة أنّ العربات المحملة بالسلع الخشبية مرّت عبر القرية في طريقها إلى المعرض. لكن بصورة عامة، كانت الحوادث من أي نوع نادرة جدًا.

في إحدى المرات عُثِرَ على رجل يستلقي في خندق أمام الجسر خارج القرية، فمن الواضح أنه عضو في مجموعة تعاونية من العمال الذين مرّوا في طريقهم إلى البلدة. كان الصبية أول من اكتشفه، ورجعوا راكضين وخائفين إلى القرية ناقلين الخبر بأنّ ثمة ثعبانًا فظيعًا أو إنسانًا مُسِخَ ذئبًا يستلقي في الخندق، ومضيفين بأنه قد طاردهم وكان على وشك أن يأكل كوزكا. سلّح الأفراد الشجعان من الفلاحين أنفسهم بالمذاري والفؤوس وذهبوا جماعات إلى الخندق. حاول الرجال من كبار السن منعهم: «هل فكّرتم بأنفسكم أيها الرفاق الشجعان؟ ماذا تريدون هناك؟ دعوه وحده، لا أحد يجبركم». لكن الفلاحين ذهبوا، وعلى بعد مئة ياردة من البقعة بدؤوا ينادون على الوحش بأصوات مختلفة، ولأنّ لا جواب هنا، فقد توقفوا، ثم تحركوا ثانية. استلقى فلّاح في الخندق، متكئًا برأسه على جانبه؛ كانت تستلقي جنبه حزمة وعصا مع زوجين من أحذية الليف مربوطان بهما. لم يغامروا بالاقتراب منه أو ملامسته. صاحوا تباعًا وحكّوا رؤوسهم أو ظهورهم: «يا هذا! ما اسمك؟ أنتَ! ماذا تريد هنا؟». حاول الغريب أن يرفع رأسه لكنه لم يستطع، من الواضح أنه إما كان مريضا أو مرهقا جدًا. واقترب أحد الفلاحين منه لكي يلمسه بمذراته.

صاح العديد منهم: «لا تلمسه! لا تلمسه! كيف تعرف أي نوع من الرجال هو؟ إنه لم يقل كلمة. ربما يكون واحدًا منهم. لا تلمسوه يا رجال!» قال البعض: «فلنذهب. تعالوا الآن: إنه واحدٌ منا، أليس كذلك؟ سوف يجلب لنا المشاكل!» ورجعوا كلهم إلى القرية، مخبرين الرجال كبيري السن بأن الغريب كان يستلقي هناك لا يتكلم ويعلم الرب وحده ما الذي كان مشغولًا به.

قال كبار السن: «لا تفعلوا له شيئًا إن كان غريبا». وجلسوا على رابية من الأرض بالقرب من الأكواخ، ومرافقهم على ركبهم. «دعوه يفعل ما يشاء! ليتكم لم تذهبوا إطلاقًا».

هكذا كانت البقعة التي وجد فيها أبلوموف فجأةً نفسه في حلمه. كانت ثلاث أو أربع قرى منتشرة هناك، إحداها سوسنوفكا والأخرى فافيلوفكا، كل منهما على بعد ميل عن الأخرى. كانت سوسنوفكا وفافيلوفكا مملوكتين بالوراثة لعائلة أبلوموف، ولهذا السبب كانتا معروفتين باسم عام هو أبلوموفكا. كان مقر أبلوموف الريفي في سوسنوفكا. وعلى بعد حوالي ثلاثة أميال ونصف الميل من سوسنوفكا تمتد قرية صغيرة هي فرخليوفو، التي كانت تعود إلى عائلة أبلوموف لكن مرّ وقت طويل منذ أن انتقلت إلى أيادٍ أخرى، وذهبت معها بضع قرى أخرى منتشرة.

هذه القرية كانت تعود إلى مَلَّاك أراضٍ غني كان من النادر رؤيته في عزبته، إذ كان يديرها قهرمان ألماني.

تلك كانت الجغرافية الكاملة للمكان.

استيقظ أبلوموف في الصباح من فراشه الصغير. كان في السابعة من عمره. شعر بالجذل والمرح. كم كان صبيًا جميلًا أحمر الخدين وممتلئ الجسم! امتلك خدين حلوين مدوَّرين أصبحا موضع حسد العديد من الشريرين الصغار الذين يصفعون خديه عن عمد، لكنهم لا يستطيعون أن يمتلكوا خدَّين مثلهما. كانت مربيته تنتظر لكي يستيقظ. بدأت تلبسهُ جوربيه، إلا أنه لم يسمح لها؛ لعب مُدلّيًا ساقيه. أمسكت به مربيته، وضحكا كلاهما. نجحت أخيرًا في جعله ينهض.

غسلت وجهه ومشطت شعره وأخذته إلى أمّه. بعد أن رأى أمّه، التي ماتت منذ عدة سنوات، أثارته المتعة في نومه وحبّه المتحمس لها؛ نزلت دمعتان ببطء من تحت أهداب الجفن وبقيتا ساكنتين. غطَّتهُ أمّه بقبلات محمومة، ثمّ نظرت إليه بقلق لترى إن كانت عيناه صافيتين، أو أصابه الألم، وسألت المربية إن كان قد نام جيدًا، أو استيقظ في الليل أو تقلّب في نومه، أو أصابته حُمَّى. ثم أخذته بيدها وقادتهُ إلى أيقونة. جثت على ركبتيها ووضعت ذراعها حوله، وجعلته يكرّر الكلمات من أجل الصلاة. كرّرها الصبي بعد أن حدَّقت شاردة الذهن إلى النافذة، التي من خلالها سالت برودة الصباح وعبير أزهار الليلك داخل الغرفة.

سألها فجأة في منتصف الصلاة: «هل سنذهب في نزهة يا أمّاه؟» ردّت بسرعة دون أن تنتزع عينيها من الأيقونة: «نعم يا حبيبي» وأسرعت في إنهاء الكلمات المقدسة. ردّدها الصبي بكسل، لكن أمّه وضعت روحها بأكملها فيها. ثم ذهبا لرؤية أبيه، حينئذ تناولا الفطور.

عند مائدة الفطور رأى أبلوموف عمته، وهي سيدة عجوز في الثمانين؛ كانت تدمدم بصورة مطّردة على خادمتها، التي وقفت وراء الكرسي تنتظرها، وقد اهتزّ رأسها من الشيخوخة. كانت هناك أيضا ثلاث عوانس كبيرات السن، وأقرباء أبيه البعيدين، إضافة إلى أخ لأبيه مجنون قليلًا، ومَلَّاك أراضٍ فقير يدعى تشيكمنيف، وهو يملك سبعة من عبيد الأرض كان يمكث معهم، والعديد من السيدات العجائز والنبلاء كبار السن. كل هؤلاء الأعضاء في حاشية أبلوموف ومؤسسته التقطوا الصبي الصغير وشرعوا يرمونه بوابل من الملاطفات والمدائح. كان وقت صعب مرّ عليه وهو يمسح آثار القُبل التلقائية. وبعد ذلك بدؤوا يطعمونه الخبز والبسكويت والكريمة. ثم عانقته أمّه وقبلته ثانيةً وأرسلته ليمشي في الحديقة والفناء والمرج، مع تعليمات صارمة لمربيته لكي لا تترك الطفل وحده، ولا تدعه يقترب من الخيول، والكلاب والمعزى أو يبتعد جدًا عن البيت، وعلاوة على ذلك، لا تدعه يذهب إلى الوادي الصغير، والذي حمل اسمًا سيئًا كونه أفظع مكان في الجوار. مرّة وجدوا كلبًا هناك اعتبروه مجنونًا لأنه هرب واختفى وراء التلال حين هجموا عليه بالمذاري والفؤوس؛ كانت الجثث تُلقى في الوادي، ويُعتقد أن الذئاب واللصوص وبقية المخلوقات التي لم توجد في تلك الأنحاء أو أي مكان آخر، قد عاشت هناك.

لم ينتظر الطفل أمه لكي تنهي تحذيراتها: كان قد خرج إلى الفناء. فحص بيت أبيه وركض حوله بدهشة الفرح، كأنه لم يرهُ من قبل: البوابات التي اتكأت على جانب واحد؛ السقف الخشبي الذي استقرّ في الوسط ونمت عليه الطحالب الخضر الرقيقة؛ العتبات الأمامية المترنّحة؛ المباني الإضافية والملحقات التي جرى بناؤها عليه، والحديقة المهملة. كان يتحرَّق شوقًا في الصعود إلى الشرفة الناتئة

التي تحيط بالبيت لكي يلقي نظرة على الجدول من هناك؛ لكن الشرفة كانت قديمة جدًا وغير أمينة، ولم يسمح لأحد سوى الخدم في الذهاب إلى هناك، ولا أحد استعملها. لم ينتبه إلى تحذير أمّه وقد جرى إلى العتبات المُغرية حين ظهرت مربّيتهُ ونجحت في الإمساك به. اندفع منها إلى مخزن التبن بقصد صعود السلم المرتفع جدًا الذي يؤدي إليه، ولم تصل بسرعة إلى المخزن أكثر من سرعتها في منعه من تسلّق برج الحمام، والدخول إلى فناء الماشية ثم لا سمح اللهّ إلى الوادي.

قالت مربيته: «وا أسفاه، يا له من ولد مخيف! يا له من نزِق، بلا ريب! ألا تستطيع أن تجلس ولو دقيقة سيدي؟ تبًا لك!» كانت أيام المربيّة ولياليها تنطلق بشكل مستمر مخيبة للآمال: لحظة في ألم مبرّح ولحظة أخرى في فرح تام، خائفة من أن يسقط ويؤذي نفسه، متأثرة عميقًا بوجدانه الطفولي الصادق، أو تكون قلقة بشكل مبهم بشأن مستقبله البعيد. هذا كل ما عاشت من أجله، تلك الإثارة دفأت دم المرأة كبيرة السن وحافظت على وجودها الراكد، الذي كان يمكن أن يبلغ نهاية ما بطريقة أخرى قبل مدة طويلة.

غير أنّ الطفل لم يكن دائمًا عابثًا جدًا؛ كان يصبح أحيانًا هادئًا ويلقي نظرة مركّزة على كل شيء بينما يجلس بالقرب من مربيته. راقب عقله الطفولي عن كثب كل ما جرى حوله. غاصت تلك الانطباعات عميقًا داخل روحه، ونشأت ونضجت معه.

كان صباحًا متألقًا؛ الجو معتدل، والشمس ما زالت منخفضة. سقطت ظلال طويلة من البيت، والأشجار، وبرج الحمام، والشرفة. امتلأت الحديقة والفناء بالأماكن الرائعة، التي تبعث على النوم وأحلام اليقظة. وتوهجت حقول الشوفان والتمعت، وتألق الجدول وومض في الشمس على نحو يؤلم عيني الناظر إليه.

يا مربيتي، لماذا الظلام هنا والضوء هناك، ولماذا الضوء هنا قريبًا أيضًا؟

لأن الشمس على وشك أن تلتقي بالقمر، يا عزيزي، وتعبس إن لم تجده، لكن ما إن تلمحه من بعيد حتى تزداد إشراقًا.

نشأ الولد الصغير مستغرقًا في التفكير واستمرّ في النظر إلى كل شيء حوله: رأى أنتيب ذاهبًا ليحصل على الماء وكان أنتيب آخر، أكبر من الحقيقي بعشر مرات، يمشي بالقرب منه على طول الأرضية، وبدا برميل الماء كبيرًا كالبيت، وظِلُّ الحصان غطّى المرج بأكمله، وبعد أن اتخذ خطوتين فقط عبر المرج، تحرّك فجأةً عبر التل، ولم يكن لدى أنتيب الوقت لكي يغادر الفناء. اتخذ الطفل أيضًا خطوتين. خطوة أخرى وسوف يكون على الجانب الآخر من التل. كان يرغب في الذهاب هناك ليرى أين اختفى الحصان. ركض إلى البوابة، لكن صوت أمّه يمكن سماعه من النافذة:

«أيتها المربية، ألا ترين أن الطفل قد جرى في الشمس! خذيه إلى المكان البارد. إذا ما أصبح رأسه حارًا سيمرض ويفقد شهيته. إذا لم تنتبهي فسيجري إلى الوادي».

دمدمت المربيّة بشكل رقيق بينما أخذتهُ عائدة به إلى البيت: «آه، أيها الولد النزق!». راقب الولد بعينين حادتين وحساستين ماذا يفعل البالغون وكيف يقضّون الصباح. لم يفلت أي تفصيل، مهما كان تافهًا، من انتباه الطفل الفضولي؛ كانت صورة حياته في البيت محفورة بشكل يتعذر محوه من ذاكرته. تشرّب عقله المطواع بأهداف العيش قبل أن يعي ذلك وصاغ بصورة لا واعية برنامج حياته بالتوافق مع الحياة حوله.

لا يمكن أن يقال إن الصباح انقضى في بيت أبلوموف. صليل السكاكين وهي تقطّع اللحم والخضراوات في المطبخ يمكن سماعه من بعيد في القرية. جاء من قاعة الخَدَم طنين المغزل والصوت الرقيق الواهن لامرأة من الصعوبة القول إن كانت تبكي أم ترتجل أغنية حزينة دون كلمات. حالما رجع أنتيب إلى الفناء مع برميل الماء جاءت المرأة مع الحوذي تسير مُجهدة نحوه من كل اتجاه مع الدلاء والأجران والأباريق. ثم حملت امرأة كبيرة السن حوضًا مليئًا بالطحين وعددًا كبيرًا من البيض من مخزن البيت إلى المطبخ. فجأة رمى الطباخ بعض الماء عبر النافذة وبلّل أرابكا الذي جلس الصباح كله وعيناه مثبتتان على النافذة وهو يهزّ ذيله ويلحس شِرَح اللحم.

لم يكن أبلوموف الأب كسولًا. جلس عند النافذة الصباح كله، ملقيًا نظرة حذرة على كل ما كان يجري في الساحة.

كان يسأل خادمًا يسير عبر الساحة: «أنتَ، إغناشكا، ماذا تحمل هناك، أيها الأحمق؟» أجاب الرجل دون النظر إلى سيده: «أنا أحمل السكاكين لكي أشحذها سيدي».

«حسن جدًا، وتذكّر أن تشحذها جيدًا» ثم يوقف امرأة فلّاحة.

«أنتِ، امرأتي الطيبة، أين تذهبين؟» وقفت وردّت حاجبة عينيها ومحدّقة إلى النافذة: «إلى القبو، سيدي. لكي أجلب بعض الحليب لوجبة الطعام».

ردّ عليها سيّدها: «حسنٌ، اذهبي، اذهبي، وأذكّركِ أن لا تريقي الحليب. وأنت، زاخاركا، أين ذاهب مرة أخرى أنت أيها الشرير؟» ثم صاح: «سأريك كيف تجري!

إنها المرة الثالثة التي أراك فيها. عُدْ إلى القاعة!».

وعاد زاخاركا إلى القاعة لكي ينام نومًا خفيفًا.

لو عادت البقرات من الحقول لكان أبلوموف الأب هو أول من يراها وهي تنضح ماءً؛ إذا ما رأى من النافذة بأن الكلب طارد دجاجة فإنه يتخذ إجراءات صارمة حالًا لكي يستعيد النظام.

كانت زوجته أيضا مشغولة جدًا: قضت ثلاث ساعات في الشرح لأفيركا الخياطة كيفية عمل سترة قصيرة لأبلوموف من جاكيتة زوجها، ورسمت النموذج بالطباشير وراقبت الغرفة لكي تروي كل فتاة مهمتها اليومية في صنع التخريم؛ ثم دعت ناستازيا إيفانوفنا، أو ستيبانديا أغابوفنا أو امرأة أخرى من حاشيتها للنزهة في الحديقة لغرض عملي في رؤية كيفية نضج التفاح، وفيما إذا كان التفاح الذي نضج أمس قد سحب الشجرة؛ ولتطعيم النباتات وتشذيبها وغيرها. غير أنّ اهتمام الطاهي كان المطبخ ووجبة الطعام. كانت الأسرة كلها تتشاور حول الوجبة الرئيسة. العمة العجوز أيضًا مدعوة إلى الجلسة. كل واحد اقترح نوعًا من الطعام: حساء كبدة الدجاج، شرائط المعكرونة، لحم الخنزير، كرشة، صلصة

حمراء أو بيضاء. كل نصيحة كانت تؤخذ في الاعتبار، وتجري مناقشتها بعمق، ثم يتم قبولها أو رفضها وفقًا للقرار الأخير لربّة البيت.

كانت ناستازيا بتروفنا أو ستيبانيدا إيفانوفنا تُرسلان بصورة مطّردة إلى المطبخ ليذكّرا الطباخ بأمرٍ أو آخر، وليضيف طبقًا أو يلغي آخر، وليأخذ السكّر أو العسل أو النبيذ من أجل الطبخ، ولكي يدققنَ إن كان الطباخ قد استعمل كل الذي أُعطيَ إليه.

كان الطعام الشأن الأول والأخير في أبلوموفكا. يا لها من عجول تسمّن هناك كل سنة من أجل أيام المهرجان! ويا لها من طيور تُربّى هناك! ويا له من فهم عميق، ويا له من عمل شاق ويا لها من عناية ضرورية للبحث عنها! الدجاج الرومي والدجاج العادي في أعياد الشفيع وبقية المناسبات الدينية كلها تُسمّن على حبات الجوز. الأوز يُحرم من التمرين ويعلّق ساكنًا في كيس بضعة أيام قبل المهرجان لكي يسمن. يا لها من مخازن تضم المربَّيات والمخلّلات والبسكويت! يا له من شراب مخمّر، يا له من كفاس[20] يجري جمعه، ويا لها من بازلاء تُحمّص في أبلوموفكا.

لذا انشغل الكلّ حتى منتصف النهار، وعاشوا حياة ممتلئة رائعة مثل النمل. هذا النمل الكادح ليس كسولًا في أيام الآحاد والعطل أيضًا؛ في تلك الأيام كان صليل السكاكين في المطبخ أعلى من أي وقت مضى. تقوم خادمة المطبخ برحلة عدة مرات من الحظيرة إلى المطبخ مع كمية مضاعفة من الطحين والبيض. كان هناك في ساحة الطيور الداجنة ضجيجٌ أعلى، وسفكٌ للدم أكثر من أي وقت مضى. يجري تحميص كمية ضخمة من الفطيرة لكي تقدم في وجبة الطعام لليوم التالي، وفي اليوم الثالث أو الرابع تُرسل البقايا إلى غرفة الخادمات. وإذا تبقى شيء حتى الجمعة القادمة، فسيؤول أحد أطرافها رديئة المذاق بلا حشوة لمصلحة أنتيب، الذي طالما رسم علامة الصليب، ودمّر بكل فخر وجرأة هذه البقايا المتحجرة

20الكفاس: شراب رخيص مستخرج من الخبز الأسود المخمّر أو من الفاكهة.

المثيرة للاهتمام، وهو يدرك بمتعة أنها كانت فطيرة سيده أكثر من كونها فطيرته، مثل متخصص بعلم الآثار يتمتع بشرب نبيذ رديء متبقٍ في دنّ عمره آلاف السنين.
ما زال الطفل يراقب ويشاهد بكل عقله الطفولي ولم يفوّت أي شيء. رأى كيف أنّ الصباح الذي انقضى بشكل مفيد ونشط في كثير من الأحيان لحقهُ منتصف النهار ثم حلّ وقت الغداء.
كان الجوُّ حارًا عند منتصف النهار. انتصبت الشمس ساكنة فوق الرأس تحرق العشب. لم يكن هناك نسيم رقيق في الهواء الساكن. لم تتحرك الأشجار ولا الماء.
السكون هبط فوق القرية والحقول، كأنّ كل شيء كان ميتًا. تردّد الصوت البشري عاليًا وواضحًا في الهواء الفارغ. طيران وأزيز خنفساء يمكن أن يسمع من على بعد مئات الياردات، ومن العشب الكثيف جاء صوت شخير، كأنّ أحدًا نام سريعًا هناك. ساد الصمتُ تمامًا في البيت أيضًا. كانت ساعة النوم بعد الغداء.
رأى الطفل بأن الجميع الأب، الأم، العمة العجوز وحاشيتهم قد استقالوا إلى غرفهم؛ وأولئك الذين ليس لديهم غرفٌ خاصة ذهبوا إلى مخزن التبن والحديقة، أو بحثوا عن الدفء في القاعة، بينما البعض، وقد غطوا وجوههم من الذباب بالمناديل، ارتموا نائمين إذ غلبتهم الحرارة ووجبة الطعام الثقيلة. مدّد البستاني نفسه تحت أيكة في الحديقة جنب المِعول، وكان الحوذي نائمًا في الإسطبل. نظر أبلوموف داخل أحياء الخدم: كان الكل مستلقيًا وممددًا جنبًا إلى جنب على الأرضية، وعلى الطاولات، وفي الممر، وكان الأطفال، الذين تركوا مع أدواتهم، يزحفون ويلعبون في الرمل. الكلاب أيضًا انسلّت إلى وجارها، إذ لا يوجد أحد كي تنبح عليه.
يمكن للمرء أن يمشي عبر البيت من زاوية إلى أخرى دون اللقاء بأي أحد؛ سيكون من السهل سرقة كل شيء وأخذه بعيدًا في العربات، لو كان هناك أي لصوص في تلك الأجزاء، لأنّ لا أحد سوف يعترضهم. إنه نوع من النوم العميق الذي لا يُقهر، شبيه حقيقي للموت. كل شيء كان ميتًا، عدا الشخير الذي تعالى

بكل أنواع النغمات والتنويعات من كل ركن من البيت. في غالب الأحيان كان أحدهم سيرفع رأسه، وينظر ما حوله بشكل لا شعوري، ومفاجئ، وينقلب، أو يبصق دون أن يفتح عينيه، ويلمظ بشفتيه أو يتذمر من شيء في نَفَسهِ، ثم يعود إلى النوم ثانية. وآخر سوف يقفز من سريره، فجأةً ودون أي تحضيرات أولية، كأنه خائف من فقدان لحظة ثمينة، ويمسك بكأس من الكفاس، وينفخ طاردًا الذباب الذي يطفو فيه، وذلك يجعل الذباب الساكن يبدأ بالحركة على أمل تحسين موقعه، ثم يشرب، وينطرح ثانية على الفراش كأنه أطلق عليه النار ميتًا.

ظلّ الطفل يراقب مرارًا. ركض في الهواء الطلق مع مربيته ثانيةً بعد وجبة الطعام. لكن على الرغم من الأوامر الصارمة لسيدتها وعزمها، إلا أن المربية لم تستطع أن تقاوم فتنة النوم. لقد أصابها أيضًا الوباء الذي انتشر في أبلوموفكا. في البداية بدت تعتني بالطفل بشكل مواظب، ولم تدعهُ يذهب بعيدًا عنها، ووبختهُ بسبب سوء سلوكه؛ ثم بعد أن شعرت بأعراض الوباء، رجتهُ ألَّا يخرج من البوابة، وألَّا يضايق العنزة، وألَّا يصعد إلى برج الحمام أو الشرفة. جلست بنفسها في زاوية مظللة على العتبات الأمامية في مدخل القبو أو على العشب، لغاية واضحة هي حبك الجورب والعناية بالطفل. لكن سرعان ما أصبحت تحذيراتها بليدة جدًا وبدأت تدلي برأسها بفعل النعاس. فكّرت وكانت على وشك النوم: «يا إلهي. ذلك النزق بالتأكيد سوف يتسلق الشرفة أو يفرُّ إلى الوادي...». عند هذه النقطة هبط رأس المرأة العجوز للأمام وسقط الجورب من يديها. غاب الطفل عن ناظريها وبعد أن فتحت فمها قليلًا بدأت تشخر بهدوء.

انتظر الطفل بفارغ الصبر تلك اللحظة التي بدأت فيها حياته المستقلة. بدا وحيدًا في العالم بأكمله؛ مشى على أطراف أصابعه وفرّ ليرى أين نام الجميع؛ وقف وراقب عن قصد إن كان ثمة أحد مستيقظ لدقيقة، بصقَ وغمغم في نومته، ثم، بقلبٍ غائص، هرع إلى الشرفة، وانطلق بسرعة على الألواح التي تصدر الصرير، وارتقى برج الحمام، وتوغلَ داخل أركان الحديقة البعيدة، إذ استمع إلى أزيز خنفساء وراقب طيرانها في الهواء لمدة طويلة. استمعَ إلى صرير الجنادب في

العشب، وحاول أن يمسك بمعكّري الهدوء؛ أمسك بيعسوب وخلع جناحيه ليرى ماذا سيفعل، أو ألصق قشة خلاله وراقبه يطير بتلك اللاحقة. حابسًا أنفاسه، راقب مبتهجًا عنكبوتًا يمتص ذبابة والضحية المسكينة تصارع وتئز بين براثنه. في النهاية قتل الطفل الضحية والجلاد. ثم ذهب إلى خندق، حفر بعض الجذور، قشرها، وتمتع بأكلها أكثر مما تمتع بأكل المربى والتفاح الذي أعطته له أمه. ركض إلى البوابة أيضًا: رغب بالذهاب إلى غابة البتولا التي بدت له قريبة جدًا إذ كان متأكدًا من أنه سيصل هناك في خمس دقائق، لا عبر الطريق، بل مباشرة عبر الخندق وأسيجة القضبان والحفر، لكنه كان خائفًا، لأنه سمع أخبارًا بأنّ هناك سكنت شياطين الغابة واللصوص والوحوش المرعبة. أراد الذهاب إلى الوادي أيضًا لأنّه يبعد حوالي مئة ياردة عن الحديقة؛ ركض إلى حافته، كي ينظر داخله وكأنه ينظر داخل فوهة بركان، حين نهضت أمام عين عقله فجأةً كل قصص الوادي وأساطيره. أصابته نوبة من الهلع، واندفع ميتًا لا حيًا وهو يعود إلى مربيته راجفًا من الخوف.

واستيقظت المرأة العجوز، استيقظت وجفلت، وشدّت المنديل حول رأسها، ودفعت إلى الخلف بخصلات من شعرها الرمادي تحته بأصبعها، وتظاهرت بأنها لم تنم إطلاقًا، ألقت نظرة شك على أبلوموف وفي نوافذ بيت سيّدها، بدأت بأصابع مرتجفة تطقطق بإبر حبك الجوارب التي استلقت في حضنها.

في الوقت نفسه بدأت الحرارة تهبط قليلًا؛ كل شيء في الطبيعة أصبح أكثر حركة، تحركت الشمس نحو الغابات. في البيت أيضًا كان الصمت قد انكسر تدريجيًا؛ صرّ الباب في مكان ما، يمكن سماع صوت أحد يمشي في الساحة، آخر يعطس في مخزن التبن. حالًا حمل خادمٌ بسرعة سماورًا ضخمًا من المطبخ منحنيًا تحت ثقله. بدأ الأصحاب يتجمعون لغرض شرب الشاي. كان وجه أحدهم مجعدًا وأجفانه منتفخة، وآخر له بقعة حمراء على خدّه وصدغه، ثالث ما زال نعسانًا جدًا فلم يستطع أن يتكلم بصوته الطبيعي. كانوا يصفرون ويتأوهون ويتثاءبون ويحكّون رؤوسهم، ويمددون أنفسهم، وبشق الأنفس يستيقظون. الأكل والنوم جعل

منهم شديدي العطش. جفّت حناجرهم؛ شربوا اثني عشر كوبًا من الشاي لكل منهم، لكن لا فائدة؛ ظلوا يئنون ويتأوهون. حاولوا شرب ماء التوت البرّي، وماء الإجاص، وشراب الكفاس، وبعض المشروبات الطبية كي يطفئوا عطشهم. الكل نشدوا الخلاص منه كأنه كان عقابًا سلَّطه عليهم الربّ. الكل اندفعوا يلهثون لكي يحصلوا على شراب، مثل قافلة من المسافرين في الصحراء العربية يبحثون بلا فائدة عن ينبوع ماء.

كان الولد الصغير هناك بجانب أمّه، يراقب الوجوه الغريبة حوله ويصغي إلى حديثهم الناعس. تمتع بالنظر إليهم، وفكّر أن أي ملاحظة حمقاء يبدونها مهمة.

بعد الشاي وجدوا شيئًا ليعملونه: أحدهم نزل إلى النهر ومشى ببطء على طول الضفة، قاذفًا الحصى في الماء؛ آخر جلس أمام النافذة يراقب كل شيء يجري في الخارج؛ إذا ما جرت قطة عبر الساحة أو إذا ما طار عقعق[21]، تبعهُ بعينيه وأرنبة أنفه مديرًا رأسه إلى اليمين وإلى اليسار. لهذا تحب الكلاب أن تجلس اليوم بأكمله على عتبة النافذة تستدفئ في الشمس وتتفحص بعناية كل المارّين. ستضع أم أبلوموف رأسه في حضنها وتمشط شعره ببطء، مبدية إعجابها برقَّته وجاعلة ناستاسيا إيفانوفنا وستيبانيدا تيخونوفا تعجبان به أيضًا. تكلمت معهما عن مستقبله، وتوصلت إلى رؤية عنه كونه بطلًا لبعض المآثر اللامعة بينما توقَّعن ثروة كبيرة له.

لكن في الوقت الحاضر عمّ الظلام، ومرة أخرى كانت النار تهسهس في المطبخ، وثانية ارتفع صليل السكاكين؛ جرى تحضير العشاء. تجمع الخدم عند البوابات؛ وكانت أنغام البلالايكا[22] والضحك تسمع هناك. وكانوا يلعبون لعبة التقاط الكرة.

غربت الشمس وراء الغابات؛ سلكت مسارًا مباشرًا عبر الغابات مثل أعمدة من نار، وموّهت بشكل ساطع هامات أشجار الصنوبر. ثم انطفأت الأشعة الواحدة

21غراب طويل الذيل م.
22آلة موسيقية روسية شبيهة بالقيثار.

بعد الأخرى، وظلّ الشعاع الأخير متريّثا لمدة طويلة ومخترقا كثافة الغصون مثل ريشة خفيفة. لكنه انطفأ أيضا. فقدت الأشياء أشكالها: بداية كان كل شيء ممزوجًا بالرمادي، ثم بالأسود إجمالًا. توقفت الطيور تدريجيًا عن الغناء؛ وحالًا صمتت معًا، ما عدا طير واحد، كأنه يتحدّى البقية، ظل يسقسق بشكل رتيب وسط الصمت الكلي وعلى فترات، أصبحت أطول فأطول، إلى أن أصدر أخيرًا صفيرًا خافتًا، أحدث حفيفًا في الأوراق حوله وغطّ في النوم. ارتفع الضباب الأبيض من الأرض وانتشر فوق المروج والنهر. أصبح النهر أكثر هدوءًا أيضًا. مرت لحظات قليلة وطرطش شيءٌ ما فيه للمرة الأخيرة، وأصبح ساكنًا. كانت ثمة رائحة الرطوبة في الهواء. أصبح الجوّ أشد إظلامًا. بدأت الأشجار تشبه مجاميع من المسوخ؛ كانت الغابات مليئة بالأشياء المرعبة المجهولة؛ تحرّك أحدهم فجأةً بضجة وصرير، كأنّ أحدًا من المسوخ انتقل من مكان إلى آخر، وتكسرّ غصن صغير تحت قدمه. وَمَضَت النجمة التي تشبه عينا حيّة، ساطعةً في السماء، وظهرت الأضواء في نوافذ البيت.

كان وقت السكون الكوني المهيب في الطبيعة، وقت يكون فيه العقل المبدع أكثر نشاطًا، حين تهفهف الأفكار وتتحول إلى مشاعل، وحين يحترق الحبّ بشكل ساطع، ويبدو الألم المبرّح أكثر حدّة في القلب، حين تنضج بذرة الخطة الإجرامية بهدوء وأشد قوة في القلب القاسي، وحين يكون الكل في أبلوموفكا ثانيةً يغطّون بهدوء في النوم العميق.

قال أبلوموف:

دعينا نتمشَّ يا أمّاه.

ردّت:

يا إلهي، نتمشَّى في هذه الساعة! سوف تتبلل رجليك بسبب الرطوبة، والمكان يبعث على الخوف: شيطان الغابة يتجول في الأيكات الآن، يحمل أطفالًا صغارًا.

سأل الطفل:

إلى أين؟ ماذا يشبه؟ أين يعيش؟

وسيطرت أمُّهُ على نزواتها سيطرة كاملة. استمع الصبي إليها وهي تفتح وتغلق عينيها، حتى غلبه النوم أخيرًا. جاءت المربيّة وأخذته من حضن أمّه، وحملتهُ إلى الفراش نائمًا، يتدلى رأسه فوق كتفها.

قال ساكنو أبلوموفكا ودخلوا إلى أفرِشَتهم، وتأوَّهوا ورسموا إشارات الصليب: لقد عشنا فيها بسلام، منحة الرب ربما تكون نفسها غدًا! الحمد لك يا ربّنا!

حينئذ حلمَ أبلوموف بمناسبة أخرى: في مساء شتوي طويل كان يضغط بشكل خائف وبإحكام على مربّيته، التي كانت تهمس له حكاية خرافية حول بعض البلدان العجيبة التي لم يوجد فيها ليل ولا برد، إذ وقعت كل أنواع المعجزات، وجرت الأنهار مع الحليب والعسل، ولم ينجز أحدٌ عملًا طوال السنة كلها، والرجال الرائعون، مثل أبلوموف، والعذراوات اللاتي لا تقدر الكلمات على وصف جمالهنّ، لا يفعلون شيئًا سوى التمتع طوال اليوم كله. عاشت هناك جنية عجوز، اتخذت أحيانًا شكل الرمح واختارت لها رجلًا مفضلًا هادئًا غير مؤذٍ أي أحد المتسكعين الذي يعامله الكل بالسوء، ودون سبب مقنع منحوه كل أنواع الكنوز، بينما هو لم يعمل شيئًا سوى أن يأكل ويشرب ويلبس ملابس ثمينة، ثم يتزوّج ميليتريسا كربتييفنا ذات الجمال الفائق. أصغى الصبي الصغير لاهث الأنفاس إلى القصة، وهو يتلع أذنيه وعيناه ملتصقتان بوجه مربيته. تجنبت حكاية المربية أو الحكاية التقليدية بكل براعة كل إشارة إلى الواقع، إذ ظلّ خيال الطفل وعقله، المشبعين بالقَصص الخيالي، متعلقين بها طوال حياته. روت له المربية بابتهاج قصة يميليا الحمقاء التي شنّت هجاءً شريرًا ماكرًا على أسلافنا وربما علينا أيضًا. غير أنّ أبلوموف حين كبرَ اكتشف عدم وجود أنهار هناك تجري مع الحليب والعسل ولا جنيات عجائز، وعلى الرغم من أنه ابتسم من حكايات المربية إلا أنّ ابتسامتهُ لم تكن صادقة، وكانت مصحوبة بحسرة عميقة: أصبحت حكاية الجن ممزوجة بالحياة الواقعية في عقله، وأحيانًا كان يأسف بأن حكاية الجن لم تكن الحياة وأنّ الحياة ليست حكاية جن. لم يكن بوسعه أن يداري الحلم بميليتريسا كربتييفنا؛ كان دائمًا ينسحب إلى الأرض إذ لا يعمل الناس شيئًا سوى

التمتع بالوقت الجميل الذي لا تعكّر صفوه الأحزان والقلق. احتفظ لحياته الباقية بالقابلية على تجنب أي عمل، والتجوال بالملابس التي جُهِّزت له، والأكل على حساب الجنية العجوز.
استمع أبلوموف الأب والجدّ أيضًا، حين كانا طفلين، لحكايات الجن نفسها، التي ظلت مربياتهم تنقلها لعدة قرون وأجيال بشكل متكرر.
كانت المربية في الوقت نفسه ترسم صورة أخرى في خيال الطفل الصغير. حكتْ له عن المآثر البطولية لأخيل ويوليسيس الخاصين بنا، وعن الشجاعة الكبيرة لإيليا موروموتس، ودوبرينا تيكيتش، وأليوشا ببوفيتش، وبولكان العملاق، وكولتشيش المسافر، وحول كيفية رحلتهم في كل أنحاء روسيا، وهم يغلبون عدد لا حصر له من الكفّار، وكيف تنافسوا بينهم في شرب كؤوس النبيذ الكبيرة بجرعة واحدة دون النطق بصوت. ثم أخبرته عن اللصوص الأشرار، والأميرات النائمات، والمدن والناس الذين تحوَّلوا إلى صخر. وأخيرًا مرّت على شياطيننا وموتانا ومسوخنا وبالأخص الأشخاص الذين تحوَّلوا ذئابًا.
ملأت بساطة هوميروس وظرفه ونظره في التفصيل الحيّ والخيال الملموس، ذاكرة الطفل وخياله بإلياذة الحياة الروسية، التي خلقها مؤلفونا الهوميروسيون في الأيام الغابرة، حين لم يكن الإنسان قادرًا بعد على مقاومة المخاطر وأسرار الحياة والطبيعة، حين ارتعش من فكرة مسوخ الذئاب وشياطين الغابة وبحث عن مساعدة أليوشا بوبوفيتش ضد المحن التي تهدده من كل النواحي، وحين كان الهواء والماء والغابات والوديان مليئة بالعجائب. كان الإنسان في تلك الأيام يعيش في مشقة وخطر؛ إذ من الخطر عليه أن يذهب ما وراء تخمهِ؛ فالوحوش البريّة ربما تهجم عليه في أي لحظة، واللصوص قد يقتلونه، أو يسلبه التتري الشرير كل ممتلكاته، أو ربما يختفي دون أثر. أو ربما تظهر علامات من السماء؛ أعمدة أو كرات من النار أو ضوء قد يومض فوق قبر جديد، أو بعض المخلوقات قد تتجول في الغابة كأنها فانوس متأرجح، وتضحك ببشاعة وتومض بأعينها في الظلام. لذا وقعت الكثير من الحوادث للناس أيضًا: ربما يعيش

الإنسان سنين عديدة بسعادة دون حوادث مؤسفة، وفجأة يبدأ بالكلام الغريب أو يصرخ بصوت وحشي، أو يمشي في نومه؛ آخر يبدأ بلا سبب يتلوى على الأرض متشنجًا. وحدث سابقًا أن دجاجة صاحت مثل الديك أو أنّ غرابًا نعبَ فوق السقف. الإنسان مخلوق ضعيف، حين شعرَ بالحيرة حاول أن يجد في خياله حلًا لوجوده الخاص وللألغاز التي تحيط به. ربما كان الهدوء الدائم للحياة البليدة الراكدة وغياب الحركة أو أي أهوال أو مغامرات أو مخاطر جعلت من الإنسان يخلق وسط الحياة الواقعية حياة خيالية جامحة، ربما يجد فيها التسلية والغرض الحقيقي لخياله المعطّل أو تفسيرًا للحوادث العادية ومسبباتها خارج الحوادث نفسها. تلمّس أسلافنا طريقهم عبر الحياة، فهم لم يسيطروا على إرادتهم ولم يتركوها كي تكون مُلهِمة، ثم وبشكل ساذج يصابون بالدهشة والرعب من القلق وشرور الحياة، ويبحثون عن تفسير لها في هيروغليفية الطبيعة الغامضة. اعتقدوا بأنّ الموت سببه حقيقة أنّ جثة، قبل مدة قصيرة، قد هدّدت البيت من أعلاه وليس أسفله أولًا، وأنّ حريقًا شبّ لأنّ كلبًا نبح ثلاث ليال تحت النافذة؛ أصابهم قلقٌ كبير لأنّ الجثة يجب أن تهدّد أسفل البيت أولًا، لكنهم ظلّوا يأكلون الطعام نفسه وينامون على العشب العاري كما في السابق. جرى ضرب الكلب أو طُرِدَ، لكنهم ما زالوا يضرمون النيران من شظايا محترقة أسفل شقوق الأرضية العفنة. إلى هذا اليوم يفضل الشعب الروسي، وسط حقائق الحياة الصارمة والشائعة، الاعتقاد بالأساطير المغرية للأيام الغابرة وسيمر وقت طويل جدًا حتى يتخلّوا عن هذا الاعتقاد.

بعد الاستماع إلى قصص المربية عن «الصوف الذهبي»[23] وعصفور النار والعوائق والممرات السريّة في القلعة المسحورة، استجمع الصبي شجاعته، متصورًا نفسه بطل بعض المآثر الكبرى. وسرت رجفة في أسفل ظهره، أو أصابه الحزن بسبب

23الصوف الذهبي هو صوف خيالي لكبش طائر خيالي تناقلته الأساطير اليونانية. كان هذا الصوف موضوع بحث مشهور قام به البطل اليوناني الخرافي جاسون ومجموعة من الرجال تدعى بحارو الأرغو.

محِن بطل الحكاية الشجاع. قصص تجري تباعًا، روت المربية قصصها على نحوٍ رائع، بحماسة وتوهّج، وأحيانًا بشكل مثير، لأنها كانت تصدّق بها جزئيًا.
اتقدت عيناها، تحرّك رأسها من الإثارة، ارتفع صوتها إلى نغمات غير معتادة. بعد أن سيطر عليه الرعب الغامض، تشبث الصبي بها والدموع تملأ عينيه. سواء تكلمت عن الرجال الناهضين من قبورهم في منتصف الليل، أو ضحايا بعض المسوخ، الذين يصيبهم الهزال في الأسر، أو عن الدب ذي الساق الخشبية وهو يمشي عبر القرى الكبيرة والصغيرة بحثًا عن ساقه المبتورة، فإنّ شعر الصبي يقف رعبًا. كان خياله الطفولي مشلولًا ثم نشطَ بشكل محموم. كان داخلًا في تجربة أثيرة مؤلمة، وأصبحت أعصابه مشدودة مثل الأوتار، حين كرّرت المربية كلمات الدب بشكل مخيف: «صرّي، صرّي، يا ساقًا من خشب الزيزفون، لقد تجولتُ عبر القرى الكبيرة، ومشيت عبر القرى الصغيرة، كل النساء سريعات في النوم، لكن إحداهنّ لا تنام، إنها تجلس على جلدي، وتطبخ لحمي، وتغزل وبري...».
حين دخل الدب إلى الكوخ وكان على وشك أن يمسك بالمرأة التي سرقت ساقه، لم يعد بوسع الصبي الصغير أن يتحمل: اندفع بقوة زاعقا إلى ذراعي مربيته، وجسمه يرتعش كله؛ بكى من الخوف وضحك من الفرح لأنه لم يقع في مخالب الحيوان الوحشي، بل على الموقد بجانب مربيته. كان خيال الصبي الصغير معبأً بالأطياف الغريبة؛ الخوف والألم المبرّح ضربا جذرًا في روحه لعدة سنوات، وربما للأبد. نظر بحزن حوله، ولأنّهُ يرى الشر والمحنة في كل مكان من الحياة، فقد حلم بصورة مستمرة بذلك البلد الساحر الذي لا توجد فيه شرور ولا مشاكل ولا أحزان، إذ عاشت مليتريسا كربتييفنا، حيث يمكن الحصول على الطعام الرائع والملابس الجيدة دون مقابل...
سيطرت حكايات الجن، لا على الأطفال في أبلوموفكا فحسب، بل على البالغين أيضا إلى نهاية حياتهم. الكل في البيت والقرية، من السيّد والسيدة نزولًا إلى الحداد القوي تاراس، كانوا يخافون من شيء في ليلة مظلمة: تحولت كل شجرة إلى عملاق وكل أجمة إلى وكرٍ للصوص. صرير مصراع باب وعويل الريح في المدخنة

جعل الرجال والنساء والأطفال يلفهم الشحوب. في عيد الغطّاس لم يخرج أحد من البوابة بنفسه في الساعة العاشرة ليلًا؛ في ليلة عيد الفصح لا أحد غامر بالدخول إلى الإسطبل، خوفا من ملاقاة شيطان البيت هناك. اعتقدوا بكل شيء في أبلوموفكا: بالأشباح ومسوخ الذئاب. إذا ما أخبرهم أحد بأن كدس القش تحوّل في الحقل، صدّقوه بشكل مطلق. إذا ما نشر أحدهم إشاعة بأن مارفا أو ستيبانيدا كانتا ساحرتين، كانوا يخافون كل من الكبش ومارفا. لم يحدث لهم أن سألوا لماذا الكبش لم يكن كبشًا أو السبب في أنّ مارفا أصبحت ساحرة. وفعلًا، سوف يهاجمون أي أحد يجرؤ على الشك بذلك كان اعتقادهم قويًا جدًا بالمعجزات في أبلوموفكا!

أدرك أبلوموف فيما بعد أنّ العالم كان شأنًا بسيطًا جدًا، وأنّ الرجال الميتين لم يقوموا من قبورهم، طالما هناك مَرَدة حولهم، لقد وُضِعوا في الاستعراض، ووُضِعَ اللصوص في السجن؛ لكن لو تلاشى اعتقاده بالأطياف، لبقي نوعٌ من الخوف المترسّب والشعور الغامض بالألم المبرّح. اكتشف أبلوموف بأن المِحن لم تسببها المسوخ، وبالكاد عرف أيَّ محنٍ كانت هناك، ومع ذلك توقّع شيئًا مفزعًا قد يحدث في أية لحظة ولم يكن يداري خوفه. حتى الآن، لو تُرِكَ في غرفة مظلمة أو رأى جثة، فإنه سوف يظل خائفًا بسبب الشعور المشؤوم بالألم المبرّح المزروع في عقله حين كان طفلًا؛ كان يضحك على المخاوف في الصباح ولم يكن بوسعه أن يداري امتقاع وجهه ثانيةً في المساء.

رأى أبلوموف نفسه كصبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. كان يذهب إلى المدرسة في فرخليوفو، على بعد ثلاثة أميال من أبلوموفكا. قهرمان العزبة، وهو ألماني اسمه شتولتس، أنشأ مدرسة داخلية للأطفال من الأرستقراطية المحلية. كان لديه ابن هو أندريه، بنفس عمر أبلوموف، وكان هناك صبيٌّ آخر، بالكاد نجح على الإطلاق. كان شريرًا وقضى كل طفولته وعيناه وأذناه مربوطة بالضمادات، وكان دائمًا يبكي بشكل مكتوم لأنه عاش مع الغرباء الأشرار وليس

مع جدته، ولم يكن هناك أحد يلاطفه ويكون فطيرته المفضلة. حتى الآن لم يكن ثمة أطفال في المدرسة.

قرّر أبو أبلوموف وأمّه أن يرسلا طفلهما المحبوب إلى المدرسة. احتجّ الطفل بشكل عنيف في البداية، زاعقا وصارخًا، وأصبح الأمر غير معقول بالنسبة له ولم يتحمله، لكن في النهاية أُرسِلَ إلى فرخليوفو. كان الألماني صارمًا وشبيهًا برجل أعمال مثل جميع الألمان. ربما علِمَ أبلوموف منه بأنّ أبلوموفكا كانت تبعد 300 ميل عن فرخليوفو. لكن في ظروف معينة كيف أمكنهُ أن يتعلم أي شيء؟ سِحرُ جوّ أبلوموفكا، وطريقة الحياة، والعادات التي امتدت إلى فرخليوفو كانت تعود سابقًا إلى آل أبلوموف: عدا بيت شتولتس، كل شيء كان هناك مشرّبًا بالكسل البدائي، وبساطة الأعراف، والسلام، والعطالة. كان قلب الطفل وعقله مليئين بالمشاهد، والصور، وعادات تلك الحياة الطويلة قبل أن يضع عينيه على كتابه الأول. ومَنْ يستطيع أن يؤكد متى يبدأ عقل الطفل بالتطور؟ كيف يمكن للمرء أن يتتبّع ولادة الأفكار والانطباعات الأولى لعقل الطفل؟ ربما حين يبدأ الطفل بالكلام، أو حتى قبل أن يتحدث أو يمشي، لكنه يحدّق بكل شيء، بتلك النظرة الخرساء والمركّزة التي تبدو عقيمة بالنسبة للناس البالغين، إنها تمسك وتحمل مسبقًا معنى أحداث حياته وارتباطاتها، لكنه غير قادر على إبلاغها لنفسه وللآخرين. ربما لاحظ أبلوموف وفهمَ منذ مدة طويلة ما قد قيل وجرى فعله في حضوره: إذ إن أباه، الذي ارتدى بنطالًا من المُخمل ومعطفًا بُنيًّا قطنيًا مُضطربًا، لا يفعل شيئًا سوى المشي ذهابًا وإيابًا في غرفته طوال اليوم ويداه خلف ظهره، يتنشّق السعوط، ثم يتمخّط، بينما أمه تنتقل من القهوة إلى الشاي، ومن الشاي إلى وجبة الطعام. إذ لم يدخل في رأس أبيه أن يدقّق كيف أن العديد من أكداس القشّ أو الذرة قد جرى جزّها أو حصدها، ودعا إلى تشخيص المذنبين في إهمال واجباتهم، لكن لو لم يُسلّم له منديله حالًا لانفجر غاضبًا وقلب البيت بأكمله رأسًا على عقب. ربما قرّر عقله الطفولي منذ مدة طويلة بأن الطريقة الوحيدة للعيش كانت كيفية عيش الناس الراشدين حوله. ما هو القرار الآخر الذي

وصل إليه؟ وكيف يعيش البالغون في أبلوموفكا؟ هل سألوا يومًا أنفسهم لماذا مُنِحَتْ لهم الحياة؟ الربّ وحده يعلم. وكيف كانت إجابتهم؟ من المحتمل جدًا أنهم لم يجيبوا عنهُ مطلقًا: كلُّ شيء بدا واضحًا جدًا وبسيطًا لهم. لم يسمعوا أبدًا بما يسمى الحياة الصعبة، بالنسبة للناس الذين كانوا قلقين دائما، الذين يندفعون من مكان إلى آخر، أو الذين كرَّسوا حياتهم للعمل الدائم الذي لا ينتهي. لم يصدّقوا فعلًا بالإجهاد العقلي أيضًا؛ لم يظنوا أن الحياة وُجِدت لكي يتوجب على الإنسان دائمًا أن يكافح من أجل أهداف بالكاد يمكن فهمها؛ كانوا في خوف شديد من العواطف القويّة، وكما هو الحال مع الناس الآخرين فإنّ الأجساد يجب أن تستنفد بوساطة حدث بركاني يشتمل على نار روحية داخلية، لذا فإن أرواحهم تمرغت بهدوء وبدون انزعاج في أبدانهم الرقيقة. لم تترك الحياة فيهم، كما فعلت مع الناس الآخرين، التجاعيدَ المبتسرة والكوارث الأخلاقية المدمّرة والأمراض. تصور الناس الطيبون الحياة فحسب كونها مثالًا للسلام والسكون، منزعجين بين فترة وأخرى من كل أنواع الحوادث غير السارّة، مثل المرض وخسارة المال، والنزاعات، وعرضيًا، العمل. عانوا من العمل كعقاب مسلّط على أسلافهم، لكنهم لم يستطيعوا أن يحبّوه وتجنّبوه متى وأين ما استطاعوا، معتقدين أن من الواجب والضروري فعل ذلك. لم يزعجوا أنفسهم بأي أخلاق ملتبسة ومشاكل فكرية، وكان ذلك هو السبب في أنهم كانوا دائمًا موسرين وسعيدين فعاشوا مدة طويلة جدًا.

كان الرجال في الأربعين يشبهون الصبيان؛ لم يصارع كبار السن الموت القاسي والموجع، لكنهم عاشوا عمرًا طويلًا بشكل لا يصدّق، كأنهم ماتوا خلسةً وأصبحوا باردين هادئين، ولفظوا بشكل تدريجي آخر أنفاسهم. ذلك هو السبب لما يقال بأنّ الناس كانوا أقوى في الأيام الغابرة. نعم حقًا كانوا كذلك؛ في تلك الأيام لم يتعجلوا في توضيح معنى الحياة لصبي ويهيِّئوه له كأنه شأنٌ معقّد وخطير. لم يزعجوه بالكتب المثيرة لكل الأسئلة، التي تُصدئ قلبك وعقلك وتقصّر الحياة. كانت طريقتهم في الحياة جاهزة وجرى تلقينها لهم عن طريق والديهم، الذين

تسلموها تباعًا جاهزة من أجدادهم، وجداتهم، الذين وصلتهم من أسلافهم، وحرصوا على الاحتفاظ بها كاملة وغير مدنّسة مثل نار فيستا[24]. مهما جرى فعله في زمن أبلوموف الأب، فقد تمّ فعله في أزمان جدّه، وجدّه الأعلى، وربما ما زال يجري فعله في أبلوموفكا.

إذن ما الذي كان يجب أن يقلقوا حوله أو يتحمسوا له أو يتعلموه؟ ما الأهداف التي سعوا إليها؟ لم يرغبوا بشيء؛ الحياة، مثل النهر الهادئ، جرت مارّة بهم، وكل ما بقي لهم أن يجلسوا على ضفة ذلك النهر ويراقبوا الأحداث المحتومة التي قدّمت نفسها بلا مبرر لكل فرد منهم تباعًا. وهكذا أيضًا، مثل الصور الحيّة، كشفوا عن أنفسهم تباعًا قبل أن يتخيّل أبلوموف في نومه الأحداث الثلاثة الرئيسة في الحياة، كما وقعت في عائلته وبين أقربائه وأصدقائه: الولادات، الزيجات، الجنائز. ثم تبعَها موكبٌ متعدد الألوان من التنويعات الفرعية المرحة والحزينة: حفلات التعميد، أعياد الشفيع، احتفالات العائلة، أيام الصوم والوليمة، حفلات الطعام الصاخبة، تجمعات الأقارب، الترحيبات، التهاني، الدموع والابتسامات العادية. كل شيء كان يُنفّذ بالدقة والوقار والرزانة القصوى. رأى أيضا الوجوه المألوفة وتعبيراتها في تلك المناسبات المختلفة، ونظراتها المنهمكة والصخب التي تحدثه. قدّم لهم كل مشكلة حسّاسة تتعلق بصنع الزيجات؛ إن كنت ترغب بأيّ زفاف مهيب أو عيد شفيع فسوف يرتبونه لك وفقًا لكل القواعد المقبولة ودون أي إهمال. لم يرتكب أحدٌ في أبلوموفكا ولو خطأً ضئيلًا حول المكان الصحيح للضيف على المائدة، وما هي الأطباق التي يجب تقديمها، ومَنْ الذي يُنقل بالعربة إلى مناسبة رسمية، وما هي الطقوس التي يجب إقامتها. ألم يعلموا كيف يربّون طفلًا؟

24ربّة نار الموقد عند الرومان.

آه، وجب عليك فقط أن تنظر إلى الأحباء المتوردين ذوي التغذية الجيدة الذين حملتهم أمهاتهم أو أمسكْنَهم باليد! كان طموحهم أن يكون أولادهم ريّانين وبيض البشرة ومعافين.

سيفعلون دون أن يثبوا سويةً مفضلين الفشل في تحميص كعكة على شكل قبّرة في بدايتها. لم ينتسبوا إلى أولئك الذين لم يعلموا أهمية ذلك، ولم يقوموا بفعله. كل حياتهم وتعليمهم، كل متعهم وأحزانهم كانت في تلك الأمور، وكان ذلك هو السبب الرئيس في إبعادهم لكل الأحزان والهموم الأخرى ولم يعرفوا متعًا غيرها. كانت حياتهم مليئة بتلك الأحداث الأساسية والمحتومة التي أتاحت قوتًا دائمًا لقلوبهم وعقولهم. انتظروا بقلوب نابضة احتفالًا أو طقسًا أو وليمة.

ثمّ، وقد جرى تعميدهم وزواجهم أو دفنوا إنسانًا، فقد نسوه تمامًا وغرقوا في اللا مبالاة، التي سيثيرهم منها ثانيةً حدثٌ مشابه عيد الشفيع، زفاف... إلخ حالما يولد طفل، فإنّ الهمّ الأول لوالديه هو التنفيذ بكل دقة ودون أي إغفال لكل الطقوس المعتادة التي تطلبتها اللياقة، أي إقامة وليمة بعد التعميد؛ ثم البدء بتربية الطفل والعناية به. ترتّبُ أمهُ نفسها وللمربية مهمة تربية طفل مُعافى، وحمايته من البرد وعين الشر، وبقية المؤثرات العدائية. يقدمنَ عناية كبيرة لكي يكون الطفل دائمًا سعيدًا ويأكل الكثير. وما إن يقف الطفل بثبات على قدميه أي، حين لم يعد يحتاج إلى مربية تتعلق الأم بشكل سرّي بالرغبة في العثور على زوجة له، متوردة ومعافاة أيضًا. حان الوقت ثانيةً للطقوس والولائم وأخيرًا الزفاف. ذلك كل ما عاشوا من أجله.

ثم تكررت الأحداث: ميلاد الأطفال، الطقوس، الولائم، إلى أن تتسبب جنازة في تغيير المشهد، لكن ليس لمدة طويلة: مجموعة من الناس تفسح الطريق لأخرى، الأطفال أصبحوا شبانًا واستحقوا الزواج وصار لديهم أطفال. هكذا الحياة، وفقًا لهذا البرنامج، استمرت بمتتالية مستمرة ورتيبة من الأحداث، وتتعطل تدريجيًا عند حافة القبر ذاتها.

صحيح أن الهموم هجمت عليهم أحيانًا، لكنّ ساكني أبلوموفكا واجهوها غالبًا بالرزانة والهدوء، وبعد أن دارت فوق رؤوسهم جرت المشاكل مارة بهم، مثل الطيور التي تحط على حائط أملس ولا تجد ملجأً هناك، فترفرف بأجنحتها عبثًا قرب الأحجار الصلبة وتطير بعيدًا. هكذا، مثلًا، انهار فجأةً جزءٌ من الشرفة في أحد الأيام، ودُفنتْ تحت ركامه دجاجة مع فراخها، وجُرحت أكسينيا، زوجة أنتيب، جرحًا بليغًا، وكانت تجلس تحت الشرفة بمغزلها، لذا لم تستطع بعد ذلك أن تصنع خيوط الكتان.

كانت هناك فوضى كبيرة في البيت؛ اندفع الجميع، كبيرًا وصغيرًا، نحو مكان الحادث، وعبّروا عن فزعهم بعد أن ظنوا أن السيدة ربما كانت تمشي مع أبلوموف تحت الشرفة بدلًا من الدجاجة وفراخها. الكل لهثَ بالرعب، وتبادلوا اللوم لأنه لم يحدث لهم ذلك سابقًا، وراحوا يتداولون لتعيين شخص كي يصلح الشرفة.

كانوا مندهشين من أنه لا بدّ أن ينهار، على الرغم من أنهم تفاجؤوا في اليوم السابق من بقائه واقفًا طوال هذه المدة! بدؤوا يناقشون كيفية تصليح الضرر؛ عبروا عن أسفهم بشأن الدجاجة وفراخها، ثمّ تفرقوا ببطء إلى المكان الذي جاؤوا منه، ومُنِعوا بشكل صارم من أخذ أبلوموف إلى أي مكان قريب من الشرفة. صدرت الأوامر، بعد ثلاثة أسابيع، إلى أندروشكا وبتروشكا وفاسكا أن يرفعوا ألواح الخشب وأعمدة الدرابزين الساقطة على الطريق ووضعها قرب الحظيرة، إذ ظلت حتى الربيع. حين أبصرهم أبلوموف الأب من النافذة، فكّر في تصليح الشرفة؛ سوف يستدعي النجّار ويستشيره إن كان يفضل بناء شرفة جديدة أو تهديم ما تبقى من الشرفة القديمة، ثم يأمره بالرجوع إلى البيت، قائلًا: «تستطيع أن تذهب الآن وسوف أفكرّ بالأمر». استمرّ الأمر إلى أن أخبرَ فاسكا أو موتكا سيّده بأنه تسلق إلى ما تبقى من الشرفة ذلك الصباح، ولاحظ بأن الأركان قد انفصلت عن الجدران وربما تنهار في أية لحظة. ثم استدعي النجّار من أجل الاستشارة النهائية، نتيجة لذلك اتخذ قرارًا بإسناد جزء الشرفة الذي ما زال قائمًا ببقايا الكِسَر القديمة، وقد تم إنجاز ذلك في نهاية الشهر.

قال أبلوموف الأب لزوجته:
آه، الشرفة جيدة كأنها جديدة. انظري كيف أنّ فيودور قد ركّب الألواح بشكل جميل، تمامًا مثل أعمدة بيت مارشال! الآن أصبحت جيدة تمامًا. سوف تدوم عدة سنوات!
ذكّرهُ أحدهم بأنّ الفرصة سانحة لتصليح البوابة والعتبات الأمامية، لأنّ الفتحات فيها باتت كبيرة، إذ دخلت من خلالها الخنازير والقطط وعبرت إلى القبو.
ردّ أبلوموف الأب:
أجل، أجل بالتأكيد.
ونظر قلقًا، وذهب حالًا لفحص العتبات الأمامية.
قال:
نعم، انظر كم هي ضعيفة.
وحرّك العتبات بقدمه مثل المهد.
علّق أحد الأشخاص:
لكنها اهتزّت مثل اهتزازها حينما صُنعت.
ردّ أبلوموف الأب:
حسنٌ، وماذا يهم؟ إنها لم تسقط على الرغم من أنها ظلت منتصبة لمدة ستة عشر عامًا دون ترميم. لقد أجاد لوقا بناءها.
كان لوقا نجارًا ماهرًا! إنه ميت، فلترقد روحه بسلام. لقد أصبحت تالفة الآن. لم يستطع نجّار إنجاز مثل هذا العمل حتى الآن!
حوّل عينيه بعيدًا، ومع أنّ العتبات ما زالت تهتز كما يقولون لكنها لم تسقط وتتكسر لحد الآن. ويبدو أنّ لوقا كان فعلًا نجارًا ماهرًا!
مع ذلك يجب على المرء أن ينصف آل أبلوموف: حين تسير الأمور بشكل خاطئ أحيانًا سيقعون في مشاكل كثيرة ويصيبهم الانفعال والغضب. كيف يمكن إهمال الأمور لمدة طويلة؟ يجب اتخاذ إجراء بشأنها فورًا! وظلّوا يتبادلون الحديث حول

ترميم الجسر الصغير عبر الخندق أو بناء جزء من سياج الحديقة لمنع قطيع الأغنام من إتلاف الأشجار لأنّ سياج الوَتل[25] قد انهار في أحد الأماكن.

في إحدى الأيام، كان أبلوموف الأب يمشي في الحديقة وقد ابتعد جدًا، وكان يتأوه ويئن وهو يرفع السياج من الأرض بيديه ويخبر البستاني أن يسندهُ حالًا بعمودين. وبفضل جهوده، بقي السياج منتصبًا على هذا الوضع طوال الصيف، وحين حلّ الشتاء تسبب الثلج في سقوطه ثانية. أخيرًا حتى الجسر تمّ تعزيزه بثلاثة ألواح خشبية جديدة بعد أن سقط منه أنتيب مع حصانه وبرميل الماء. لم يتح له الوقت كي يبلّ من جروحه ليرى الجسر وقد أمسى جيدًا كأنه جديد. لم تستفد البقرات ولا العنزات كثيرًا من السقوط الجديد لسياج الوتل في الحديقة: كان لديهن الوقت كي يأكلن من أجمة الكشمش والبدء بتقطيع اللحاء من شجرة الزيزفون العاشرة، ولم يصلن أبدًا إلى أشجار التفاح، حين أُعطيت الأوامر لبناء السياج فورًا وحفر خندق حوله. لقد تلقّت بقرتان وعنزة قُبِض عليهنّ متلبسات ضربًا مبرّحًا!

حلمَ أبلوموف أيضًا بغرفة الاستقبال الكبيرة المظلمة في بيت أبيه، بكراسيها القديمة المصنوعة من خشب الدردار والمغطاة دائمًا، وأريكة كبيرة غير متقنة الصنع وصلبة، مُنجّدة بالنسيج الأزرق الباهت والمبقّع، وكرسيّ جلد كبير. كان مساءً شتائيًا طويلًا، جلست أمهُ على الأريكة بقدمها المثنية تحتها، وهي تحبك بكسل جورب الطفل، وتتثاءب وغالبًا ما تحك رأسها بصنّارة الحبك. جلست ناستاسيا إيفانوفنا وبلاغيا أغناتييفنا قربها، وهما منهمكتان في عملهما منحنيتين، تخيطان بسرور شيئًا ما لأبلوموف في عطلته، أو لأبيه أو لأنفسهما. مشى أبوه في الغرفة ويداه وراء ظهره، وبدا راضيًا عن نفسه، أو جلس على الكرسي، وبعد فترة مشى ثانيةً ذهابًا وإيابًا في الغرفة، وهو يصغي بانتباه إلى صوت خطواته. حينئذٍ استنشق قبضة من السعوط وتمخّط، ثم أخذ قبضة أخرى. كانت إحدى شمعات

25قضبان تُضفر مع الأغصان والقصب تستخدم في إنشاء الأسيجة.

الوَدَك[26] تشتعل بشكل معتم، وكان هذا متاحًا في المساءات الخريفية والشتوية. أما في أشهر الصيف فكان الجميع ينهضون ويذهبون إلى الفراش في ضوء النهار. وحصل هذا بداعي العادة والاقتصاد إلى حدٍّ ما. كان والدا أبلوموف يستغنيان عن أي شيء لم يُنتج محليًا لكن يجب شراؤه. لقد ذبحا وهما مسرورَين ديكًا روميًا رائعًا وعشرات الدجاجات لكي يسلّيا ضيفًا، لكنهما لم يضعا زبيبًا إضافيًا في طبق، وأصبحا شاحبَين حين غامر ضيفهما وصبَّ لنفسه كأسًا أخرى من النبيذ.

غير أن مثل هذا الفساد كان حدثًا نادرًا في أبلوموفكا: ذلك النوع من الأمور يفعلها فقط الشخص اليائس والمنبوذ من المجتمع الذي لن تتم دعوته إلى البيت مرة أخرى. كلا، كانت لديهم شِفرة مختلفة من السلوك هناك: لن يحلم الزائر بمسّ أي شيء قبل أن يسأل ثلاث مرات. كان يعرف جيدًا أنه لو طلب مرة واحدة تذوُّقَ طبق أو شُربَ كأس نبيذ، لتوقَّعَ الرفض حقًا. ليس من أجل كل زائر توقد شمعتان؛ تُشترى الشموع من المدينة مقابل النقود، ومثل كل المواد التي يجري شراؤها، تضعها سيدة البيت في صندوق مقفل. كانت أطراف الشموع تُحصى وتوضع في مكان أمين. بصورة عامة، لم يرغبوا بصرف النقود في أبلوموفكا، ومهما كان الشراء ضروريًا فإن النقود المخصصة له تُصرف بندم كبير، حتى لو كان المبلغ صغيرًا. أي نفقة كبيرة إنما ترافقها التأوهات والصرخات والإهانات. في أبلوموفكا فضّلوا الصبر على كل أنواع العقبات، حتى أنهم توقفوا عن أخذها في الاعتبار، مفضلين ذلك على صرف المال. ذلك هو السبب في أن الأريكة في غرفة الاستقبال ظلت ملطّخة عدة سنين، وأنّ الكرسي الجلدي الذي يجلس عليه أبلوموف الأب كان جلديًا بالاسم فقط، إذ أصبح كله كتلة متمعّجة، وبقيت فقط قطعة من الجلد في الظهر، وتقشّر الباقي قبل خمس سنوات، وأنّ البوابة كانت مائلة إلى الجانب والعتبة الأمامية متداعية. إذا ما تم دفع مبلغ 200 أو 300 أو 500 روبل من أجل شيء ضروري، لبدا بمثابة انتحار لهم تقريبًا.

26مصنوعة من الشحم الحيواني م.

حين سمع أبلوموف الأب بأن شابًا من مَلَّاكي الأراضي ذهب إلى موسكو واشترى عشرات القمصان ب 300 روبل، وزوجًا من الأحذية الطويلة بقيمة خمسة وعشرين روبلًا، وصدرة لزفافه بأربعين روبلًا، رسمَ علامة الصليب وقال ونظرة الرعب في وجهه بأنّ «مثل هذا الوغد يجب أن يُسجنَ». كانوا عموما لا يتقبلون الحقائق الاقتصادية حول الرغبة في التبدّل السريع لرأس المال، والإنتاج المتزايد، وتبادل السلع. فقد فهموا وطبقوا، بسبب بساطتهم، طريقة واحدة في استعمال رأس المال: الاحتفاظ به بالقفل والمفتاح في خزانة.

جلس ساكنو البيت الآخرون والزوار المعتادون على كراسي غرفة الاستقبال في مواقع مختلفة، وهم يلهثون. كان الصمت يسود بينهم كقانون. رأى أحدهم الآخر كل يوم، وتحرّوا منذ مدة طويلة واستنفدوا كل مغامراتهم الفكرية، وكان هناك القليل من الأخبار القادمة من العالم الخارجي. كل شيء هادئ، سوى صوت حذاء أبلوموف الأب الثقيل المصنوع محليًا، كانت تكتكة الساعة المكتومة في حافظتها على الحائط، وطقطقة الخيط في أسنان أو أيدي بيلاغيا أغناتييفنا وناستاسيا إيفانوفنا تكسر الصمت من وقت إلى آخر. أحيانًا كان الوضع يستمر هكذا لمدة نصف ساعة، إلا إذا قطعهُ تثاؤبٌ بصوت عال لشخص أو دمدمته وهو يرسم علامة الصليب ويقول: «ارحمنا يا ربّ!» فيتثاءب جيرانه بعده، ثم يفتح شخص آخر فمه ببطء، كأنّه تلقى أمرًا، ولذا انتشرت بينهم لعبة الشهيق والزفير المُعدية وتأثر بعضهم حد البكاء.

من عادة أبلوموف الأب أن يصعد إلى النافذة وينظر ويقول مندهشًا: «يا إلهي، إنها الساعة الخامسة، وكم الجو مظلم في الخارج!»، وسوف يردّ عليه شخص: «نعم، دائمًا الجو مظلم في هذا الوقت من السنة: فالمساء يصبح قصيرًا».

ومن عادتهم في الربيع أن يكونوا مندهشين وسعيدين بأن النهار يطول. لكنهم لو سُئِلوا لماذا يرغبون في أن يطول النهار لما عرفوا الإجابة.

وصمتوا مرة أخرى. ثم أزال شخص فتيل الشمعة المحترق فانطفأت، وجفلوا جميعًا.

قال آخر مؤكِّدًا:

ضيف غير متوقع!

أحيانًا سينفعهم هذا القول كموضوع للحديث.

ستسأل السيدة:

من سيكون؟ أليست ناستاسيا فادييفنا؟ أتمنى لو أنها هي! لكن لا، لن تأتي قبل العطلة. سيكون ذلك شيئًا جميلًا! كم سنتعانق ونبكي! ويجب أن نذهب إلى قداس الصباح والمساء سويةً... لكنني أخشى من عدم قدرتي على البقاء معها! على الرغم من أني أصغر منها إلا أنني لا أستطيع التحمل مثلها.

سأل أبلوموف الأب:

متى غادرت؟ أظنها بعد عيد القديس إلياس.

صححت له زوجته قائلة:

دائمًا تخلط التواريخ. غادرت قبل عيد العَنْصرة.

تذكر أبلوموف الأب:

أعتقد أنها كانت هنا في ليلة صوم القديس بطرس.

قالت زوجته مؤنّبه:

أنت دائمًا هكذا. سوف تناقش وتجعل من نفسك مسخرة.

بالتأكيد كانت هنا. ألا تتذكرين بأننا عمِلنا فطائر من الفطْر لأنها كانت تحبها.

تلك ماريا أونيسيموفنا: تحبّ فطائر الفُطر أتذكّرُ ذلك! ولم تزرنا ماريا أونيسيموفنا في عيد القديس إلياس، بل في عيد القديسين بروخوف ونيكانور.

قاسوا الزمن وفقًا للأعياد الدينية وفصول السنة والمناسبات العائلية والمنزلية المختلفة، ولم يذكروا الأيام والأشهر. ربما كان السبب، عدا بالنسبة لأبلوموف الأب، أنهم جميعًا خلطوا بين الأيام والأشهر. لمْ يعطِ أبلوموف الأب جوابًا بسبب إحباطه، وغرقت الصُحبة بأكملها في النعاس. كان أبلوموف يلتمس الدفء وراء ظهر أمّه، وكان أيضًا نعسانًا وبين فترة وأخرى يغلبه النوم.

قال زائر بحسرة عميقة:

آه، زوج ماريا أونيسيموفنا، الراحل فاسيلي فوميتش، كان رجلًا مُعافى، مع ذلك مات! قبل أن يبلغ الخمسين أيضًا! كان يجب أن يعيش ليبلغ المائة!

قالت بلاغييا أغناتييفنا بحسرة:

كلنا سنموت حين يحين أجلنا، إنها إرادة الربّ. بعض الناس يموتون، لكن عائلة خلوبوف يعمّدون أطفالهم بشكل متتالٍ. قالوا لي بأنّ آنّا أندرييفنا قد ولدت توًّا طفلًا آخر، إنه السادس لها.

قالت سيدة البيت:

ليست آنّا أندرييفنا فحسب. انتظرْ حتى يتزوج أخوها، سيكون هناك طفلٌ بعد آخر، ستحصل العديد من المشاكل في هذه العائلة! الصبيان الصغار بلغوا سن الرشد وسوف يصلون إلى سن الزواج. ثم لا بدّ للبنات من أن يتزوجن، وأين الشخص الذي سيعثر على زوج لهنّ؟ اليوم الكل يطلب مهرًا، وبالنَقْد أيضًا.

سأل أبلوموف الأب وصعد لهم:

ماذا تقولون؟

حسنٌ، نحن نقول...

وأخبروه عمّ يتحدثون.

قال أبلوموف الأب بالمختصر المفيد:

نعم، تلك هي الحياة بالنسبة لكم! واحد يموت، وآخر يولد، وثالث يتزوج، ونحن نتقدم في العمر. لا يوجد يومان متشابهان، ولا سنتان. لماذا كانت الأمور هكذا؟

ألا يكون من الأفضل لو أن اليوم يشابه اليوم الذي سبقه، وأنّ الأمس يشبه الغد؟ أنه أمرٌ يبعث على الحزن حين تفكّر به.

دمدم أحدهم وكان ينعس في زاوية الغرفة:

الشيوخ يتقدمون في العمر والشباب يكبرون.

قالت سيّدة البيت بشكل صارم:

على الإنسان أن يصلّي أكثر ويحاول ألّا يفكّر بأي شيء.

علّق أبلوموف الأب قلقًا:
حقًا، حقًا.
وكان ذلك يعني الانغماس في شيء من الفلسفة، وبدأ يخطو في الغرفة ثانيةً.
وامتد صمت طويل آخر؛ يمكن سماع الصوت الواهن الذي يثيره النسيج الصوفي حينما يُسحب بصنّارة الحبك. أحيانًا كانت سيدة البيت تكسر الصمت قائلة:
نعم، الظلام يعمّ في الخارج. حين يأتي الناس إلينا في عيد الميلاد ليمكثوا، يكون الأمر أكثر بهجة، فلا نحسّ بمرور المساء. أما لو جاءت مالانيا بتروفنا، فلن يكون هناك نهاية للمزاح! نتيجة الأمور التي تقوم بها! تقرأ البخت عن طريق إذابة الصفيح أو الشمع، أو تركض خارج البوابة؛ لا تعرف خادماتي مكانهنّ حين تكون هنا.
سوف تنظّم كل أنواع الألعاب إنها امرأة نادرة!
علّق أحدهم:
نعم، سيدة مجتمع! قبل سنتين فكّرت بالذهاب إلى التزلج. حدث ذلك حين جرح لوقا سافيتش جبهته.
وفجأة انخرطوا في الضحك حين نظروا إلى لوقا سافيتش.
قال أبلوموف الأب وغرق في الضحك:
كيف فعلتَ ذلك؟ هيّا أخبرنا.
ظلّوا جميعهم يضحكون، وصحا أبلوموف وضحك أيضًا.
قال لوقا سافيتش وبدا مربكًا:
حسنٌ، ماذا أقول؟ ألكسي نوميتش اخترع المسألة كلها. لم يحدث الأمر على هذا النحو مطلقًا.
صاحوا في آن واحد:
أوه! ماذا تعني لم يحدث شيء مطلقًا؟ هل نحن موتى؟ وماذا عن تلك الندبة في وجهك؟ بوسعك أن تراها.

واهتزّت أجسامهم من الضحك.
حاول لوقا ستافيتش أن يتكلم بين نوبات الضحك:
علامَ تضحكون؟ كنتُ سأكون على ما يرام لو أنّ فاسكا النذل ذاك لم يعطني تلك الزلاجة القديمة؛ لقد تقطَّعَتْ أوصالًا تحتي... أنا...
كان صوته قد اختفى في الضحك الجماعي. حاول بلا فائدة أن ينتهي من قصة السقوط. انتشر الضحك إلى القاعة وغرفة الخادمات، إلى أن امتلأ البيت به بأكمله؛ كلهم تذكّروا الحادث الظريف، وكلهم ضحكوا كثيرًا بنغمات متساوقة، بشكل يفوق الوصف، مثل آلهة الأولمب. حين أوشك الضحك على التلاشي، بدأهُ أحدهم من جديد، فانخرطوا فيه ثانيةً.
أخيرًا نجحوا إلى حدٍّ ما في تهدئة أنفسهم.
سأل لوقا سافيتش أبلوموف الأب بعد فترة توقف:
هل تذهب للتزلج في عيد الميلاد هذا؟
وانفجر الجميع بضحك جديد استمرّ لمدة عشر دقائق.
قال أبلوموف الأب بشكل مفاجئ:
هل لي أن أسأل أنتيب أن يهيئ التلّ قبل حلول العطلة؟ فلوقا سافيتش يتلهف للذهاب، ولا يستطيع تحمّل الانتظار...
قاطعتهُ ضحكات الصُحبة.
سأل أحدهم:
لكن هل تلك الزلاجة ما زالت تعمل؟
ضحك وكاد يختنق.
وكان هناك المزيد من الضحك.
ظلوا يضحكون كلهم لمدة طويلة، ثم بدؤوا يهدؤون تدريجيًا: أحدهم كان يمسح دموعه، وآخر يتمخّط، وثالث يسعل بشدة ويتنحنح، قائلًا بصعوبة:
عجبًا! سأموت من هذا! يا للدهشة! الطريقة التي تزحلق بها على ظهره وحواف معطفه تطير...

تبعَت ذلك نوبة أخرى من الضحك، وهي الأخيرة والأطول، ثمّ هدأ كل شيء.
أطلقَ رجلٌ حسرة، وتثاءب آخر بصوتٍ عال، متذمرًا من شيء في نَفسَه، ثم صمت الجميع.
وكما سبق، فالأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها هي تكتكة الساعة، وخطوات أبلوموف الأب، وطقطقة خيط قطعته فجأة إحدى السيدات. فجأة وقف أبلوموف الأب وسط الغرفة، ناظرًا بفزع وهو يحك طرف أنفه. قال:
يا إلهي، ماذا يعني هذا؟ أحدهم سوف يموت، لقد حكّني طرف أنفي.
صاحت زوجته ومدّت يديها:
يا إلهي. لن يموت أحدٌ إذا حكَّكَ طرف الأنف بل قصبته. حقًا، إنك يا عزيزي لن تتذكر أي شيء! ستقول مثل هذا الشيء بوجود غرباء وزائرين في البيت، وسوف تلحق العار بنفسك!
سأل أبلوموف الأب:
لكن ماذا يعني أن يحكَّكِ أنفك؟
وبدا مرتبكًا.
يعني النظر في كأس نبيذ! كيف يمكن أن تقول شيئًا مثل ذلك! فعلًا سيموت شخصٌ ما!
قال أبلوموف الأب:
دائمًا أخلطُ الأمور! كيف للمرء أن يتذكر؛ الأنف يحكّ من الجانب أو من الطرف، أو من حاجب العين...
قاطعت بيلاغيا إيفانوفنا حديثه موضحة:
من الجانب يعني أخبار جديدة، ولو حكّت الحواجب فيعني الدموع. الجبين يعني انحناءة، إذا من ناحية اليمين: لرجُل، ومن ناحية اليسار: لامرأة. إذا الحكّة في الأذنين يعني أنها ستمطر. الشفاه: تقبيل، الشارب: أكل حلويات، المِرفق: نوم في مكان جديد، كعوب الأقدام: رحلة...
قال أبلوموف الأب:

أحسنتِ يا بيلاغيا إيفانوفنا. وأظنّ أنّ الزبدة حين تصبح غالية فإنّ رقبتك سوف تحكّك...
ضحكت السيدات وهمسن الواحدة للأخرى. ابتسم بعض الرجال. بدا الأمر كما لو أنهم سينفجرون في الضحك ثانية، لكن في تلك اللحظة جاء صوت مثل هرير الكلب ومواء القطّة حين كانوا على وشك أن يرتموا أحدهم على الآخر. كان ذلك الصوت هو دقات الساعة.
صاح أبلوموف الأب بدهشة جذلة:
يا إلهي، إنها الساعة التاسعة! عجبًا! لم ألاحظ كيف مرّ الوقت. أنتَ! فاسكا، فاسكا! موتكا!
ظهرت ثلاثة وجوه ناعسة عند الباب.
سأل أبلوموف الأب بتعجب وغضب:
لماذا لا ترتبون المائدة؟ لا تفكروا بأسيادكم! حسنٌ، لماذا تقفون هناك؟ هيّا، اجلبوا الفودكا!
قالت بيلاغيا إيفانوفنا بسرعة:
ذلك السبب في أنّ أنفك يحكّك. حين تشرب الفودكا، سوف تنظر في كأسك.
بعد العشاء تبادلا القُبل، ورسما علامة الصليب، وذهبا للفراش، فتسلّل النوم إلى رأسيهما الخاليين من الهمّ. لم يرَ أبلوموف في حلمه مساءً واحدًا أو مساءين، بل أسابيع وأشهر وسنينًا من النهار والليل مرّت بتلك الطريقة. لا شيء تقاطع مع رتابة حياتهم وكان ساكنو أبلوموفكا غير مرهقين منها، فلم يكن بوسعهم أن يتصوروا أي نوع من الوجود؛ ولو استطاعوا لارتدّوا على أعقابهم مرعوبين. لم يرغبوا بأي حياة أخرى، وسوف يكرهونها. سيبدون أسفهم لو أن الظروف قد أتاحت تغييرًا لنمط عيشهم، مهما كانت طبيعته. سيكونون تعساء لو أن الغد لا يشبه الأمس، ولو أنّ اليوم الذي يعقبه لا يشبه الأمس، ماذا أرادوا من التنوع والتغيير أو المصادفات غير المتوقعة، التي كان الناس الآخرون يتلهفون إليها؟ دع الآخرين يصنعون ما هو أفضل منها لو استطاعوا. لم يرغبوا أن يمتلكوا أي شيء

في أبلوموفكا. دع الآخرين يعيشوا كما شاؤوا. بالنسبة للمصادفات غير المتوقعة، على الرغم من أنها يمكن أن تتحول إلى الأفضل في النهاية، إلا أنها مزعجة: فقد اشتملت على قلق وإزعاج متواصل، التجوال، عدم الراحة، الشراء والبيع أو الكتابة؛ أي، العمل بسرعة، وذلك ليس بالموضوع الهازل: استمرّوا لعدة سنين يتنشقون ويتثاءبون، أو يضحكون مبتهجين على نوادر الريف أو يتجمعون في حلقة، ويتبادلون الحديث عن أحلامهم.

لو كان الحلم مفزعًا لبدوا مكتئبين وخائفين جديًا. ولو كان تنبؤيًا لكانوا سعيدين حقًا أو حزينين، وفقًا لنوع الحلم سواء أكان مريحًا أم مشؤومًا. لو تطلب الحلم مراقبة بعض الطقوس لاتخذوا الخطوات الضرورية على الفور. أو لعبوا الورق ألعاب اعتيادية في أيام الأسبوع، ولعبة بُسطُن[27] مع زائريهم في الأعياد الدينية أو أنهم لعبوا لعبة الصبر[28]، وقراءة البخت لملك القلوب أو ملكة السباتي متنبئين لهما بالزواج.

كانت نتاليا فدييفنا تأتي أحيانًا لتبقى لمدة أسبوع أو أسبوعين. في البداية تتبادل السيدتان آخر الأخبار في الجوار، ماذا فعل كل شخص وكيف عاش؛ لم تناقشا كل تفاصيل الحياة العائلية وما يجري وراء الكواليس فحسب بل أيضًا الأفكار السريّة لكل شخص وغاياته؛ كما قامتا بتحرّي أرواحهم ذاتها، وانتقدتا وشجبتا أولئك التافهين، بالأخص الأزواج غير الأوفياء، ثم تناولتا الأحداث المهمة: أعياد الشفيع، التعميدات، الولادات، ومن تدعوان ومن لا تدعوان، وكيف تجري تسلية أولئك الذين تتم دعوتهم. وبعد أن أصابهما التعب من جرّاء هذا، بدأت إحداهنّ بعرض ملابسها الجديدة للأخرى: الثياب، المعاطف، حتى التنورات والجوارب. تفاخرت سيدة البيت بملابس الكتان الخاصة بها التي غزلها وزركشها صانع محلي. لكن حتى هذا الموضوع سوف يستنفد أيضًا. حينئذ سوف تقنعان نفسيهما بشرب القهوة والشاي والمربّى. بعد ذلك ستغرقان في الصمت.

27لعبة من ألعاب الورق.

28ضرب من لعب الورق يلعبه شخص واحد فقط م.

وقد جلستا تتبادلان النظرات، وبين فترة وأخرى كانتا تتحسران عميقًا. وفي أحيان كثيرة تنخرط أحداهما في البكاء.

سألتها المرأة الأخرى بقلق: «ما الأمر يا عزيزتي؟» أجابت الزائرة بحسرة ثقيلة: «لقد أغضبنا الربّ الطيب، إننا مذنبون. لن يأتي الخير منه».

قاطعتها سيدة البيت: «أوه، لا تخافي يا عزيزتي، وتفزعيني».

واصلت ناتاليا فاديفنا الكلام: «أوه، نعم، نعم. يوم القيامة آتٍ: ستقوم أمةّ ضد أخرى ومملكة ضد أخرى نهاية العالم قريبة!». هتفت أخيرًا وانخرطت السيدتان في بكاءٍ مرير.

لم يكن لناتاليا فايديفنا أي أساس لاستنتاجها الأخير، لن يقوم أحد ضد آخر ولم يظهر أي مذنَّب هذه السنة، لكن لدى السيدات العجوزات أحيانًا نذير شؤم.

من النادر جدًا أن هذه الطريقة في قضاء الوقت تقاطعها بعض الأحداث المفاجئة، مثل الدخان القادم من المواقد الذي يغلب على منزل الأسرة. لم تكن الأمراض الأخرى معروفة عمليًا في البيت والقرية، عدا أنّ رجلًا سيتعثر في الظلام أمام طرف حاد لكدس، أو يسقط خارج مخزن التبن، أو يضربه لوح سقط من السقف.

لكن هذا يحدث نادرًا، ومقابل هذه الحوادث كانت هناك جملة من العلاجات المنزلية الجيدة: سوف يتم مسح الكدمة بإسفنجة منقَّعة بالماء الصافي أو الغار، أو يُعطى الرجل الجريح ماءً مقدسًا ليشربه أو تُتلى بهمسٍ رُقية فوقه، وسوف يكون بأحسن حال ثانيةً. لكن التسمم بدخان الفحم كان حدثًا يتكرر دائمًا. فإذا ما حدث ذلك، يُؤخذ المصابون كلهم إلى أفرشتهم، وأصوات تأوهاتهم وأنينهم تسمع في كل أنحاء البيت، فكان المريض إما أن يربط بعض الخيار المخلل حول رأسه، أو يضع التوت البرّي في أذنيه، أو يستنشق الفجل الحار، أو يخرج إلى الغابة وليس على جسمه شيءٌ سوى قميصه، أو يستلقي فاقد الوعي على الأرض.

كان ذلك يحدث بصورة دورية مرة أو مرتين في الشهر، لأنهم لم يرغبوا في أن يضيّعوا الحرارة من المدخنة ويغلقوا الأنابيب بينها اللَّهب، كالذي في قصة

«روبرت الشيطان»، ما زال يخفق في المواقد. من المستحيل مسّ موقد دون أن تقرّح يديك.

ذات مرّة كسرَ روتين حياتهم حادث مفاجئ. بعد أن ارتاحوا من وجبة الطعام الثقيلة تجمَّعوا حول مائدة الشاي، حين جاء فجأة أحد فلاحي أبلوموف، العائد لتوّه من المدينة، ودخل الغرفة؛ بعد عناء كبير، سحبَ من داخل معطفه رسالة مجعّدة موجهة إلى أبلوموف الأب. نظر الجميع مشدوهين، شحب لون السيدة أبلوموف، اشرأبّوا بأعناقهم نحو الرسالة وثبّتوا أنظارهم عليها.

ثم قالت وقد غمرتها الدهشة:

يا له من أمر عجيب! مِن أينَ يمكن أن تكون؟

أخذ السيد أبلوموف الرسالة وقلّبها ذاهلًا، غير عارف بما يفعل بها.

سأل الفلاح:

من أينَ أتيت بها؟ من أعطاك إيّاها؟

ردّ الفلاح:

آه يا سيدي، في الحانة حين توقفتُ في البلدة. جاء جندي مرتين من مكتب البريد يا سيدي، وسأل إن كان هناك فلاح من أبلوموفكا. لقد أعطاه الرسالة سيّدٌ آخر كما يبدو.

حسنٌ.

حسنٌ يا سيدي، في البداية أخفيت نفسي، فغادر الجندي يا سيدي والرسالة هذه معه. لكنَّ قَندَلَفْتًا من فرخليوفو شاهدني وأخبره. لذا رجع مرة أخرى، الجندي يا سيدي. بدأ يحلّفني وأعطاني الرسالة. طلب خمس كوبيكات ثمنًا لها. سألته ماذا أفعل بالرسالة فأجابني أنْ أسلّمها لك يا سيدي.

علّقت السيدة أبلوموف غاضبة:

كان عليك ألَّا تأخذها.

لم أتسلّمها يا سيدتي. قلت له: «لم أؤمر أن أتسلّم الرسائل. خذ رسالتك واذهبْ». لكنهُ بدأ يلعنني بشكل مروّع وهددني أن يذهب إلى الشرطة، لذا أخذت منه الرسالة.

قالت السيدة أبلوموف:

أحمق!

قال السيّد أبلوموف متعجبًا:

مَنْ يكون صاحب الرسالة؟ يبدو خطُّها مألوفًا!

مرّرها على الكل وبدؤوا يناقشون مَن يمكن أن يكون صاحب الرسالة وما شأنها. كانوا جميعهم مرتبكين تمامًا. طلب السيد أبلوموف نظاراته وظلوا يبحثون عنها لمدة ساعة ونصف. لبس النظارات وكان على وشك أن يفتح الرسالة لكن زوجته منعته.

قالت متوجسة شرًّا:

لا تفتحها. من يدري. لعلّها تحمل أمرًا مروّعًا... مشكلة مخيفة. تعرف الناس هذه الأيام. لديهم وافر من الوقت. تستطيع أن تفتحها غدًا أو في اليوم التالي. إنها لن تهرب.

وُضِعت الرسالة مع النظارات في دُرج مغلق، وربما بقيت فيه عدة سنين. جلسوا لارتشاف الشاي، ولم يكونوا كلهم متحمّسين لهذا الحدث الاستثنائي. تكلموا عن الرسالة طوال اليوم التالي، وهم يشربون الشاي. أخيرًا لم يعد بوسعهم التحمّل، ففي اليوم الرابع تجمعوا بزمرة كبيرة، وفتحوا الرسالة بشكل عصبي. لمحَ السيد أبلوموف التوقيع.

قرأ الاسم:

راديشتشيف. آه، ذلك هو فيليب ماتيفيتش.

صاحوا من كل جانب:

أوه، إذن هو الذي أرسل الرسالة! هل ما زال حيًا؟ يا ربّنا، من العجيب أنه غير ميّت! الحمد للهّ! ماذا يقول؟

أنشأ السيد أبلوموف يقرأ الرسالة بصوت عال. من الواضح أن راديشتشيف كان يسأل عن وصفة صنع البيرة التي كانت تخمّر بصورة جيدة بالأخص في أبلوموفكا.

مرّ أسبوعان.

ظلّ السيد أبلوموف يقول لزوجته:

نعم، يجب أن أكتب له. أين الوصفة؟

ردّت زوجته:

أين هي؟ يجب أن أعثر عليها. لكن لِمَ كل هذه العجلة؟ لننتظر حتى حلول الأعياد الدينية. سينتهي الأمر سريعًا، ثم تستطيع أن تكتب إليه. هناك الكثير من الوقت...

قال السيّد أبلوموف:

نعم فعلًا. أفضل أن أكتبها في أثناء الأعياد الدينية.

أثيرت مسألة الرسالة مرة أخرى في أثناء الأعياد الدينية. قرّر السيد أبلوموف أن يكتب الرسالة. انسحب إلى مكتبه، لبس نظارته، جلس إلى المائدة. ساد الصمت تمامًا في البيت. أعطيت الأوامر للخدم أن لا يضربوا بأقدامهم ويثيروا الضجة. قال الكل: «رسالة السيّد» وتكلموا بصوت متوجّس ودال على الاحترام كأنّ أحدًا يلفظ أنفاسه الأخيرة في البيت. كان لديه وقت مناسب للكتابة. «سيدي العزيز» كتب بيد مرتعشة، ببطء، بشكل منحنٍ، وباعتناء كأنّه يُجري عملية خطرة، حين دخلت زوجته إلى الغرفة.

قالت:

أنا آسفة جدًا، لكني لم أستطع أن أعثر على الوصفة. يجب أن ألقي نظرة على الخزانة في غرفة النوم. ربما تكون هناك. لكن كيف سترسل الرسالة؟

أجاب السيّد أبلوموف:

أظن سأرسلها بالبريد.

وكم ستكون أجرة البريد؟

أخرج السيد أبلوموف مفكرة قديمة.
قال:
أربعون كوبيكًا.
علّقت:
تصرف أربعين كوبيكًا على مثل هذا الهُراء! دعنا ننتظر أحدًا كي نرسلها بيده.
قلْ للفلاحين أن يعثروا عليه.
قال السيد أبلوموف:
نعم، بالتأكيد سيكون من الأفضل إرسالها باليد.
ونقر بالقلم على المنضدة عدّة مرات، ووضعه مرة أخرى في المحبرة، وخلع نظارته.
ختم حديثه:
نعم، فعلًا. لن تهرب الوصفة؛ هناك وفرة من الوقت للبحث عنها.
من غير المؤكد أنّ فيليب ماتفيتش تسلمّ الوصفة في أيِّها وقت مضى.
أحيانًا كان أبلوموف الأب يلتقط كتابًا. لا فرق لديه ماذا يكون الكتاب. لم يشعر بأي حاجة للقراءة، لكنه عدّها ترفًا، مثل شيء يستطيع المرء العمل بسهوله دونه، تمامًا مثلما يستطيع أحد أن يعمل دون صورة على الحائط، أو دون القيام بنزهة. ذلك السبب في أنه لا يهمّهُ أيّ كتاب يختار: كان ينظر إليه مثلما ينظر إلى شيء يجلب التسلية، شيء سيفيد في تسليته حين يصيبه الضجر أو لا يوجد شيء ليفعله.
سيقول: «لم أقرأ كتابًا منذ مدة طويلة جدًا»، وأحيانًا يغيّر العبارة إلى: «الآن، إذن، دعنا نقرأ كتابًا». أو يصدف أن يرى كومة صغيرة من الكتب تركها أخوه فيلتقط كتابًا بصورة عشوائية. سواء كان كتابًا لغوليكوف أو آخر طبعة من «كتاب الأحلام»، أو «روسيادا» لخيراسكوف، أو تراجيديات سوماركوف، أو صحيفة «أنباء موسكو» قبل سنتين. فإنه يقرأها كلها بمتعة متساوية، معلقًا أحيانًا: «أيَّها سيفكّر بالقادم! يا له من وغد! يا للرجل اللعين!». علامات التعجّب هذه كانت

تشير إلى مؤلفين لم يحمل احترامًا لهتافاتهم مهما كانت. لقد تبنى أيضًا موقف الازدراء المتسامح جزئيًا لكاتب مميز جدًا في وصف الناس المحافظين. اعتقدَ، مثل بقية الناس في زمنه، بأن المؤلف يجب أن يكون رجلًا مرِحًا، خليعًا، سكّيرًا، مشعوذًا، أو أشبه بالمهرّج. كان يقرأ أحيانًا أوراقًا عمرها سنتان بصوت عال من أجل تنوير الكل أو يخبرهم بعيّنة من أخبارها.

سيقول:

كتبوا من الهاغ[29] بأنّ سعادة الملك قد عاد سالمًا إلى قصره بعد رحلة قصيرة. وبينما كان يتكلم نظر إلى مستمعيه من فوق نظاراته.

أو يقرأ:

سفير البلد الفلاني قدّم أوراق اعتماده في فيينا.

وواصل الكلام:

وهنا يكتبون بأن أعمال مدام «غنليس» جرت ترجمتها إلى اللغة الروسية.

علّق أحد مستمعيه وهو من مُلَّاك الأراضي الصغار:

أظنّ أنهم سيقومون بكل هذه الترجمات لكي ينتزعوا المال منّا، نحن أفراد الطبقة الأرستقراطية.

في الوقت نفسه وجب على أبلوموف المسكين أن يذهب إلى شتولتس لكي يدرّسه. ما إن استيقظ في صباح يوم الاثنين حتى شعر بالاكتئاب الشديد. سمع صوت فاسكا الأجشّ يصيح من العتبات الأمامية:

أنتيب، جهّز عدة الفرس الأبقع لكي يأخذ السيّد الشاب إلى الألماني!

غاص قلبه. ذهب إلى أمّه حزينًا. عرفت ما كان شأنه، وبدأت تضفي على الأمر البغيض مظهرًا سائغًا، وعاهدت نفسها بشكل سرّي على عدم ذهابه إلى شتولتس لمدة أسبوع كامل.

29مدينة في هولندا.

لم يطِب له شيءٌ ليأكله هذا الصباح. خبزوا له رغيفا بأشكال مختلفة، وحمّلوه بالمخللات، والبسكويت، والمربيات، وكل أنواع الحلويات، والأطعمة اللذيذة، المطبوخة وغير المطبوخة، وحتى المؤونة. وقد أعطوه كل ذلك على افتراض أنه لا يجد ما يأكله في بيت الألماني.

قالوا له في أبلوموفكا:

لن تجد أي شيء لائق لكي تأكله هناك. للوجبة الرئيسة لن يعطوك سوى الحساء واللحم المشوي والبطاطا، والخبز والزبد والشاي في الأصيل. أما العشاء، ولا كسرة يا صديقنا!

غير أنّ أبلوموف حلم في الغالب بأيام الإثنين التي لم يسمع فيها صوت فاسكا وهو يصيح من أجل تحضير عدّة الحصان الأبقع، لكن أمّهُ رحّبت في الفطور مبتسمة ووعدته بأخبار مفرحة.

لن تذهب يا عزيزي اليوم؛ خميس الصعود عيد ديني كبير ولا يجدر بك أن ترحل هناك وترجع خلال ثلاثة أيام.

أو ستعلن له شيئًا ما فجأة:

اليوم بداية أسبوع الآلام[30] لا وقت للدروس، يجب أن نخبز الفطائر المحلاة.

أو أنها سترمقه بنظرة مقصودة في صباح الإثنين وتقول:

تبدو عيناك مرهقتين هذا الصباح يا حبيبي. هل أنت على ما يرام.

وتهزّ رأسها.

كان الصبي الصغير المتكتم بحال أفضل تمامًا، لكنه لم يقل شيئًا.

قالت:

من الأفضل أن تبقى في البيت هذا الأسبوع وسوف نرى كيف تشعر.

30الأسبوع الذي شهد آلام السيد المسيح ويسبق عيد الفصح، ومن أيامه سبت النور وخميس الصعود.

كانوا كلّهم مقتنعين في البيت بأنّ الدروس وسبت النور يجب ألّا يتقاطعا، وأنّ خميس الصعود كان عقبة كأداء للدروس خلال الأسبوع بأكمله. ومن وقت لآخر كان خادم أو خادمة، عوقِبا بسبب السيّد الشاب، يدمدمان:
أوه، أنت أيّها الطفل المدلّل! متى تنصرف إلى معلّمك الألماني؟
في بعض الأوقات كان أنتيب يحلّ فجأةً في بيت الألماني راكبًا الحصان الأبقع في وسط الأسبوع أو بدايته ليجلب أبلوموف.
ماريا سافيشنا أو ناتاليا فاديفنا أو آل كوزوفكوف جاؤوا مع أطفالهم في زيارة للبيت وأنت تريد أن تعود له.
ومكث أبلوموف في البيت لمدة ثلاثة أسابيع ثم لم يكن أسبوع الآلام الذي يلحقه عيد الفصح ببعيد؛ أو قرّر أحد في البيت لسببٍ أو آخر ألّا يدرس في الأسبوع الذي يلي عيد الفصح؛ سيكون هناك أسبوعان فقط حتى يحلّ الصيف، ولا يستحق الأمر العودة إلى المدرسة، لأنّ الألماني نفسه يرتاح في الصيف، فكان من الأفضل تأجيل الدروس حتى يحلّ الخريف.
قضّى أبلوموف الأشهر الستة بشكل أكثر إمتاعًا. كم أصبح مديد القامة خلال ذلك الوقت! وكم أصبح بدينًا! كم نام عميقًا! لم يُظهروا إعجابًا كافيًا به في البيت، ولا استطاعوا أن يلاحظوا بأن الطفل المدلل حين رجع إلى البيت من الألماني في أيام السبت، كان يبدو شاحبًا ونحيفًا. أشارت أمه:
يمكن أن يلحقه الأذى بسهولة. سيكون له الوقت الكافي لكي يدرس، لكنك لا تستطيع أن تشتري الصحة مقابل المال؛ الصحة أغلى شيء في الحياة. يعود الصبي المسكين من المدرسة كما لو جاء من المستشفى. كل بدانته تتلاشى، ويبدو نحيفًا، ويا له من ولد شيطان: فهو دائم التجوال!
علّق أبوه:
نعم، التعليم ليس نكتة؛ سينتزع من كل إنسان!
واصل الوالدان اختلاق الأعذار لإبقاء ولدهما في البيت. لم تكن ثمة صعوبة في العثور على الأعذار إضافة إلى حلول الأعياد الدينية. اعتقدوا أن الجو قارس في

الشتاء، ولاهب في الصيف للذهاب بالعربة إلى القرية المجاورة، وأحيانًا يهطل المطر. باتت الطرقات تمتلئ بالطين في الخريف. أحيانًا كانت شكوك أنتيب تتزايد؛ لم يبدُ عليه أنه ثمل، لكن امتلك نوعًا من النظرة الوحشية في عينيه. قد تكون هناك مشكلة، ربما التصق بالطين أو سقط في حفرة. غير أنّ عائلة أبلوموف حاولت أن تجعل من أعذارها شرعية ما أمكن لها، وبالأخص في نظر شتولتس الذي لم يحجم سرًا وعلانية عن رفض تدليلهما الطفل.
لقد مضت منذ مدة طويلة أيام الأبطال في كوميديا فونيفيسين «القاصر» آل بروستاكوف وسكوتينين. كان المثل القائل: «المعرفة نور والجهل ظلام» نافذًا في القرى الصغيرة والكبيرة سويةً مع الكتب التي يجلبها الباعة الجوالون. فهِمَ والدا أبلوموف فوائد التعليم المادية فحسب. رؤوا بأن التعليم هو الوحيد القادر على جعل الناس يحصلون على مهنة، أي، يكتسبون درجة، وأوسمة، ونقود؛ أولئك المحامون من الطراز القديم، والموظفون الحكوميون الفاسدون وقساة الأرواح، الذين أصبحت وسائلهم المحتالة ومغالطاتهم قديمة، كانوا يعيشون وقتًا سيئًا. انتشرت إشاعات مشؤومة في الخارج بأن القراءة والكتابة ليست ضرورية فحسب بل أيضًا كل أنواع المواضيع التي لم يُسمع بها حتى الآن. ازدادت الفجوة بين الدرجات العليا والدنيا للموظفين المدنيين التي يمكن الربط بينها فقط بوساطة ما يسمى بالدبلوم. موظفو المدرسة القديمة، وأطفال العادة ومرضعو الرشوات، بدؤوا يختفون. العديد منهم ممن بقوا جرى رفضهم كونهم غير جديرين بالثقة، والآخرون قُدِّموا للمحكمة؛ كان الأكثر حظًا هم الذين تخلوا عن النظام الجديد للأشياء كونه سيئًا، واستقالوا إلى أعشاشهم المكسوة بالريش بينما كان التقدم جيدًا. فهِمَ والدا أبلوموف كل هذا وأدركا حسنات التعليم، إنما الحسنات الواضحة فقط. كانوا يمتلكون الفكرة الأكثر غموضا والأبعد عن الحاجة الحقيقية للتعليم، وكان ذلك هو السبب في أنهما أرادا أن يحققا لابنهما بعض الميزات اللامعة. حَلِما بزيٍّ مكسوٍّ بالذهب له؛ تصوَّراه مستشارًا في المحكمة، حتى أنّ أمه تصوَّرته محافظًا.

لكنهما أرادا أن يحققا كل هذا بأرخص ما يمكن، باستعمال جميع أنواع الحيل، بتفادي جميع العوائق والمعرقلات المنتشرة على مسار التعليم والمناهج الدراسية، دون الانزعاج من القفز فوقها مثلًا، بالعمل القليل، وليس الاستهلاك الجسدي أو خسارة امتلاء الجسم المبارك الذي اكتسبهُ منذ الطفولة. كل ما أراداه هو أن يذعن ابنهما للقوانين والأنظمة المفروضة، والحصول بطريقة أو بأخرى على شهادة تعلن بأن ابنهم الحبيب إيليا «قد برعَ في كل الفنون والعلوم». كل هذا النظام الأبلوموفي في التعليم تعارض بشدّة مع نظام شتولتس. كلٌّ من النظامين ناضل بثبات من أجل أفكاره. ضرب شتولتس منافسيه مباشرة وبشكل جريء وبإصرار، وتجنبا ضرباته بكل أنواع الأدوات البارعة، ومن ضمنها تلك التي وصفت سابقًا. ولم ينتصر أي طرف؛ ربما تغلّب العناد الألماني على صلابة آل أبلوموف وقسوتهم.

ولم تكن هناك معارضة في مخيم الألماني. الحقيقة أنّ ابن شتولتس أفسد أبلوموف، إذ كان يلقّنهُ في الدروس، ويكتب ترجماته له.

لقد رأى أبلوموف الحياة بشكل واضح في بيتهم وفي بيت شتولتس. ما إن استيقظ في البيت حتى رأى زاخار تروفيميتش، الذي أصبح فيما بعد خادمه الخصوصي المعروف، واقفًا أمام سريره. كان زاخار مثل مربيته العجوز، يُلبسه جواربه وحذاءيه، بينما أبلوموف، وكان في الرابعة عشرة من عمره، يمدّ له ساقه الأولى، ثم الأخرى، بينما هو يستلقي على السرير. وإذا ما لاحظ شيئًا مفقودًا يعود له، فإنه يضرب زاخار على أنفه بقدمه. وإذا ما امتعض زاخار وامتلك الجرأة في الشكوى فإنه يُجلد بالسوط من الكبار أيضا. ثم أن زاخار يمشط شعره، ويساعدهُ على ارتداء معطفه، ويدخل ذراعيه بعناية في كمّيه كأنه يحاذر إزعاجه مذكِّرًا إياه بالأشياء التي يجب أن يفعلها حالما ينهض، وهلّم جرا. إذا ما أراد أبلوموف شيئًا، فما عليه إلا أن يغمز بعينه حتى يتقاطر عليه ثلاثة أو أربعة من الخدم لكي ينفذوا رغبته. إذا ما أسقط شيئًا أو أراد أن يحصل عليه فإنّ شخصًا آخر سيلتقطهُ له. إذا ما أراد أن يجلب شيئًا أو يجري خارج البيت من أجل شيء، ويود أن يكون ولدًا

نشطًا ويهرع للخارج ويفعل الشيء بنفسه، فإنّ أباه وأمّه وعماته الثلاث يطلقون الصيحات حالًا: «لماذا؟ أين تخرج؟ وأين فاسكا وفانكا وزاخاركا؟ أنت، فاسكا! فانكا! زاخاركا، علام تفغرون أفواهكم أيّها الحمقى! سوف نريكم!»
راح أبلوموف يجرّب إصدار الأوامر، فلم يستطع أن يفعل أي شيء بنفسه. ووجد فيما بعد أنّ الأمر لم يكن صعبًا وتعلّم أن ينادي:
أنت، فاسكا! فانكا! زاخاركا! اجلبوا لي هذا! اجلبوا لي ذاك! لا أريد هذا، أريد ذاك! اركضوا واجلبوه لي!
أحيانًا كان يرهقهُ إفراط والديه بالعناية به. لو أنه ركض على السلّم أو عبر الفناء، لصاحت عليه عدة أصوات يائسة: «أوه، أمسكه! أوقفه! سوف يسقط ويؤذي نفسه! أوقفه!». لو حاول أن يجري داخل الردهة في الشتاء، أو فتح نافذة، لكانت ثمة صيحات مرة أخرى: «أين أنت ذاهب؟ لا يمكن أن تفعل ذلك! لا تركضْ، لا تذهبْ، لا تفتحْهَا، ستؤذي نفسك، سوف يصيبك البرد...!». وبقي أبلوموف حزينا داخل البيت، مدللًا مثل زهرة غريبة في مستنبت زجاجي، ونما مثلها ببطء ووهن. لم يجد لطاقاته مخرجًا، فتحوّل للداخل وذبل مبتئسًا. أحيانًا كان ينهض تغمره أحاسيس البهجة والمرح والعذوبة، شاعرًا بشيء داخله يمتلئ بالحياة وصيرورتها كأنّ عفريتا احتلّ أحياءها هناك، وشجّعهُ على الصعود على سقوفها، أو ركوب الفرس الرمادية إلى المروج حيث كانوا يصنعون التبن، أو الجلوس منفرج الساقين على السياج، أو مضايقة كلاب القرية. أو أنه أراد فجأةً أن يجري مثل المجنون عبر القرية، ثم عبر الحقل والأخاديد داخل غابة البتولا، وأخيرًا نزل إلى سفح الوادي في ثلاث قفزات، أو جعل صبيان القرية يلعبون بكرات الثلج معه وحاول أن يبدي قوته. حثّهُ العفريت الصغير. قاوم طويلًا ما أمكن، وفي النهاية قفز من العتبات الأمامية إلى الفناء في الشتاء، دون قبعته، وعَبرَ البوابة راكضًا، وأمسك بكرة من الثلج في كل يد وجرى باتجاه مجموعة من الصبيان. ضربت الريح المنعشة وجهه، والصقيع قرص أذنيه، والهواء البارد دخل فمه

وحنجرته، وامتلأ صدره بالفرح. جرى أسرع وأسرع، ضاحكًا وصارخًا. كان هناك الأولاد.

قذف كرة ثلج عليهم لكنها أخطأتهم. لم يعتد عليها. كان على وشك أن يلتقط كرة أخرى حين اختنق وجهه بكتلة من الثلج: سقط، آلمهُ وجهه من الإحساس الجديد، كان مستمتعًا كليًا، ويضحك، وبرزت الدموع في عينيه.

في الوقت نفسه كان هناك صخب في البيت. تعالت الأصوات: اختفى الحبيب إيليا! اندفع زاخار إلى الفناء، تبعه فايكا وميتكا وفانكا كلهم هرعوا مضطربين. ركض كلبان بشكل مسعور خلفهما، وأمسكاهما من الكعبين، إذ كما يعرف الجميع أن الكلاب لا تستطيع أن تتحمل رؤية إنسان راكض. تسابق الخدم عبر القرية وهم يصيحون ويصرخون، ثم تبعتهم الكلاب النابحة. والتقوا أخيرًا بالصبية وبدؤوا بتوزيع العقوبات: سحبهم من الشعر والآذان، ضربهم على الظهر، وتوبيخ آبائهم.

ثم أمسكوا السيّد الصغير، ولفّوه بجلد الخروف الذي جلبوه، ثمّ بمعطف أبيه الفرو وبطانيتين، وحملوه إلى البيت مبتهجين. لقد يئسوا في البيت من رؤيته ثانية، وتركه للضياع؛ ليس بالوسع وصف فرح والديه حين رؤيته حيًّا وسليمًا. حمدا الربّ كثيرًا، ثم أعطياه نعناعًا وشاي البلسان لكي يشربه، ثم شاي الفريز في المساء، وأبقياه في الفراش لمدة ثلاثة أيام، ولم يكن هناك شيء يجعله معافى سوى اللعب بكرات الثلج مرة أخرى.

❊ ❊ ❊

(10)

حالما وصل شخير أبلوموف إلى أذني زاخار، قفز بهدوء وبحذر خارج الموقد، ومشى على طرف قدميه في الممر، وأغلق الباب على سيّده، ثم ذهب إلى البوابة.

صاح الحوذيون والخدم والنساء والسُعاة أمام البوابة بأصوات مختلفة:

أوه، زاخار تروفيميتش كيف حالك؟ لم نرَك منذ مدة طويلة!

وأضاف الوكيل:

ماذا يعمل سيّدك؟ هل خرَجَ؟

قال زاخار عابسًا:

نائم كالعادة.

سأل حوذي:

هل هو نائم الآن؟ أليس مبكرًا جدًا؟ هل هو مريض؟

قال زاخار باقتناع تام بأنه ربما عرف الأمر حقًا:

مريض فعلًا! ثمل مثل لورد! هل ستصدّق بذلك؟ شرِبَ قنينة ونصف من نبيذ الماديرا بنفسه، وربع غالون من شراب الكفاس، لذا فهو نائم الآن.

قال الحوذي بحسَد:

استمرْ!

قالت إحدى النساء:

ما الذي جعله يشرب كثيرًا اليوم؟

أجاب زاخار وهو يلقي نظرة جانبية عليها:

لم يشرب اليوم فحسب يا تاتيانا إيفانوفنا. إنه تجاوز الحدود وجعلني مشمئزًا من الحديث معه!

علّقت متحسرة:

تمامًا مثل سيدتي.

سأل الحوذي:

هل ستذهب سيدتكِ اليوم إلى مكان ما، يا تاتيانا إيفانوفنا؟ أودُّ الذهاب إلى مكان غير بعيد من هنا.

ردّت تاتيانا:

كلا! إنها جالسة هناك مع حبيبها، تتبادل النظرات معه.

قال الوكيل:

غالبًا ما يحضر في وقت متأخر جدًا. ينبغي القول إنه مزعجٌ جدًا ليلًا. كل واحد ينال نصيبه، الزوار غادروا، لكنه آخر من يذهب دائمًا، ويتشاجر إذا ما كان المدخل مغلقًا. كان يبقيني من أجل أن أحرس الباب الأمامي له!

قالت تاتيانا:

ما أغباه أيّها الأعزاء. لن تجدوا مثيلًا له، أنا متأكدة! الهدايا التي يغدقها عليها! كانت تلبس كل حليها المبهرجة مثل طاووس، وتختال بشكل تافه، لكن لو رأيتم التنورات والجوارب التي تلبسها! إنها لا تغسل رقبتها لمدة أسبوعين، لكنها تصبغ وجهها. أحيانًا لا أتمالك نفسي من التفكير مع نفسي: أيتها المخلوقة المسكينة، يجب أن تضعي وشاحًا على رأسك، وتذهبي إلى دير لكي تصلي من أجل غفران ذنوبك، يجب عليك.

ضحك الكل ما عدا زاخار.

قالت الأصوات مؤيدة:

إنها لا تخطئ. تاتيانا إيفانوفنا لا يفوتها شيء.

لكن تاتيانا واصلت الكلام:

لكن كيف بوسع الرجال النبلاء أن تكون لهم علاقة مع مثل هذه المرأة؟

سألها أحدهم:

أين تذهبين؟ وماذا لديك في تلك الصرّة؟

آخذ ثوبًا إلى الخيّاط. أرسلتني سيدتي الجميلة. قالت كبير جدًا لو سمحت! لكن حين نبدأ أنا ودونياشا بعقد أربطة مشدّها بإحكام، نظل لا نستطيع أن نفعل شيئًا

بأيدينا لمدة ثلاثة أيام بعد ذلك فكل شيء يقرقع فيها! لكن يجب أن أذهب وداعًا.

قال البعض:

وداعًا، وداعًا.

قال الحوذي:

وداعًا، تاتيانا إيفانوفنا، تعالي لتريني في المساء.

حسنٌ، لا أعرف، بالتأكيد. ربما نعم وربما لا. وداعًا.

قال الكلّ:

حسنٌ، وداعًا.

أجابت:

وداعًا، وحظًا سعيدًا لكم.

وانصرفت.

صاح الحوذي وراءها:

وداعًا تاتيانا إيفانوفنا.

صاحت بصوت عال من بعيد:

وداعًا.

حين ذهبت، بدا زاخار منتظرًا لدوره في الحديث. جلس على سارية حديد أمام البوابة وبدأ بأرجحة ساقيه، مراقبًا المارّة والناس في العربات بشكل عابس وشارد الذهن.

سأله الوكيل:

حسنٌ، كيف هو حال سيّدك اليوم يا زاخار تروفيميتش؟

قال زاخار:

كما هو دائمًا. لا يعرف ماذا يريد. وكل ذلك بسببك، إذ حصلت مشاكل كثيرة لي اليوم: كل ما يتعلق بشأن الشقة! إنه غاضب لا يريد أن ينتقل.

قال الوكيل:

إنها ليست غلطتي. لا أهتم لو أنه يبقى هناك للأبد، أنا متأكد. هل أنا مالك أراض؟ بالطبع، لو كنتُ مالك أراض لكن أنا لست...

سأل أحد الأشخاص الحوذي:

هل يشتمك؟

يشتم بشكل مروّع! لا أعرف كيف يمكن أن أتحمله!

قال الخادم الخاص وفتح علبة سعوط مدوّرة فامتدت له الأيدي، عدا زاخار، ليأخذوا نفحة منه:

حسنٌ، يجب ألَّا أقلق! بما أنه يظل يشتم طوال الوقت فهذا يعني أنه رجل طيب!

كان هناك تنشّق جماعي للسعوط وعطاس وبصاق.

واصل الخادم الخاص كلامه:

لو أنه شتمَ فكل شيء يكون على ما يرام. كلما شتمَ كان الأمر أفضل: في الأقل إنه لن يضربك لو أنه شتمك. أنا لديّ سيّد يسحبك من شعر رأسك دون أن يعرف ما الذي حصل.

انتظره زاخار بازدراء لينهي خطبته المسهبة ثم واصل الكلام موجهًا حديثه إلى الحوذي:

إذن أنت ترى أنه من المحتمل تمامًا أن يهين رجلًا من غير سبب مطلقًا ويحتفظ برباطة جأشه!

قال الوكيل:

هل من الصعب إرضاؤه؟

قال بصوت أجش وضيّق عينيه:

يا إلهي! لا أستطيع أن أخبرك كم من الصعب إرضاؤه! هذا الأمر خطأ وذاك غير صحيح، ولا أعرف كيف أمشي أو كيف أقدّم الطعام، وأكسر كل شيء، ولا أنظف المكان، وأسرق الأشياء وأُتَّهَمُ بكل شيء؛ اللعنة عليه! اليوم اتهمني بأمر مروّع! وماذا كان؟ كانت هناك قطعة صغيرة من الجبن تُركت من الأسبوع الماضي.

ستخجل من رميها إلى كلب، لكن يجب على الخادم أن لا يلمسها! سأل عنها فقلت له: لم يبق شيء منها، فثار غضبه! قائلًا: يجب شنقك. يجب أن أغليك في القار وأقطّع أوصالك بالكماشة المتوهجة! يجب إدخال وتد خشبي فيك. ويستمر بذلك مرارًا وتكرارًا. ماذا تعتقد؟ في اليوم التالي أحرقتُ قدمه. فلأُشنَق لو أني عرفت كيف حدث... وصرخ بشيء مروّع! لو لم أقفز إلى الوراء لكان ضربني في صدري بقبضته. رأيته يريد أن يضربني ويسقطني أرضًا!

هزّ الحوذي رأسه.

قال الوكيل:

رجل نبيل ذكي من غير شك. لا يترك لك الحبل على الغارب.

قال الخادم الخاص برباطة جأش:

ما أقوله هو أنه حين يشتمك فإنه فتى طيب. الإنسان الذي لا يشتم هو أسوأ بمائة مرة: ينظر وينظر إليك وقبل أن يعرف ما الذي يجري، يمسكك من شعرك!

قال زاخار دون أن ينتبه إلى الخادم الخاص الذي قاطعه:

قدمَهُ لم تُشفَ لحد الآن. ما زال يضع مرهمًا عليها.

قال الوكيل:

رجل نبيل مقدام.

واصل زاخار الكلام:

آه، أمر فظيع! في يوم من الأيام لا شكّ أنه سيقتل أحدًا، سترى. وإذا أراد شيئًا يناديني: «أيها الأصلع...» من الأفضل أن لا أكمَلَ باقي قوله. اليوم فكّرَ بصفة جديدة: «حقود»، قال! كيف يمكن أن ينطق بمثل هذا الكلام!

استمرّ الخادم الخاص بحديثه:

حسنٌ، ذلك لا يهم. لو أنه شتمَ فعليكَ أن تكون مسرورًا بذلك، اللّه يبارك به. لكن إن لم يقل شيئًا، فإنه يوجّه النظرات، وحين يصدف أن تقترب منه، يمسك بك من رأسك، مثل السيّد الذي أعمل معه...! لو أنه شتم فلا يهمّ...

علّق زاخار وكان مستاءً بسبب مقاطعته غير المرغوبة:

وهذا الأمر خدمكَ بشكل مباشر. عاملتكَ وسوف أعاملك بشكل أسوأ.
قال خادم آخر وهو غلام في الخامسة عشرة:
لماذا يدعوك يا زاخار تروفيميتش، ب«الشيطان الأصلع»؟
أدار زاخار رأسه ببطء وثبّت نظرة حقودة عليه.
قال بحدّة:
انظر يا ولد. أنت ذكي جدًا إلى حدٍّ بعيد! ربما تنتمي بأصولك إلى جنرال، لكني سأنتف شعرك، بسبب كل ذلك، عُدْ إلى مكانك!
سار الغلام مبتعدًا بضعة ياردات وتوقف ينظر إليه مبتسمًا.
دمدم زاخار بغضب:
لماذا تكشّر؟ انتظر حتى أضربك بيدي. سوف أصفع أذنيك. سأعلمك كيف تبتسم لي!
في تلك اللحظة هرع خادم ضخم، يلبس حذاءً نصفيًا وكتافية ومعطفًا مميّزًا غير مزرّر، إلى المدخل الرئيس للبيت. واتجه إلى الغلام وصفعه على وجهه ودعاه بالأحمق.
سأله الغلام المصعوق بينما أمسك بخديه وهو يطرف بعينيه متشنجًا:
ما المشكلة يا ماتفي مويسيتش؟ لماذا تضربني؟
أجاب ماتفي:
آه، وتتكلم؟ لقد بحثت في كل أنحاء البيت عنك وها أنت هنا!
أمسكه من شعره، وأحنى رأسه، وضربه ثلاث مرات بقبضته على رقبته.
وأضاف بخبث:
رنّ جرس السيّد خمس مرات ووقع اللوم عليّ بسببك، أنت أيها الكلب الصغير! هيّا أمضِ!
وأشار إلى السلّم بشكل متغطرس. لبث الغلام للحظة، وهو يطرف بعينيه ذاهلًا، ويتفرّس في الخادم، وحين رأى أنه لا يتوقع منه سوى تكرار العقاب نفسه، رفع رأسه بصورة مفاجئة وركض بسرعة مرتقيًا السلّم.

يا له من نصر لزاخار!
قال مبتسمًا بابتهاج:
وجّهْ له عقابًا مناسبًا يا ماتفي مويسيتش! عاقبه بالمزيد! ذلك ليس كافيًا! أحسنت! ماتفي ماتيفيتش! شكرًا! إنه ذكي جدًا! فقد سمّاني «الشيطان الأصلع!»
هل تسخر مني بعد الآن أيها الفتى؟
ضحكَ الخَدَم وتعاطفوا مع الخادم الذي ضرب الغلام، ومع زاخار الذي فرح بخبث. ولم يتعاطف أحدٌ مع الغلام الخادم.
قال الخادم الخاص ثانيةً مقاطعًا زاخار:
ذلك بالضبط ما كان سيّدي السابق متعودًا على استعماله. حين تفكر بالتمتع بشيء من الهزل، سيخمّن أفكارك ويمسكك مثلما أمسك ماتفي مويسيتش بأندريه. وماذا يهم لو أنه أطلق عليك اسم «الشيطان الأصلع»؟
ردّ الحوذي مشيرًا إلى زاخار:
أعتقد أنّ سيّده أيضًا سوف يمسك بك. انظر إلى الورم في رأسك! لكن كيف أمسك بزاخار تروفيميتش؟ فرأسه تشبه اليقطينة، إلا إذا أمسكهُ طبعًا من لحيته.
آه، يستطيع أن يفعل ذلك وأكثر!
انفجروا كلهم بالضحك، لكن زاخار اندهش من نكتة الحوذي، الذي حسبه الوحيد من بينهم الذي يتكلم مثل صديق.
قال غاضبًا على الحوذي:
انتظر حتى أخبر سيّدي. سوف يجد سببًا لكي يمسك بك. سوف يكوي لحيتك تلك. انظر إنها مليئة بندف الثلج!
لا بدّ من أنّ سيدك إرهابيٌّ لكي يكوي لحى الحوذيين الآخرين! كلا سيدي، احصلْ على الحوذيين الخاصين بك أولًا ثم انزع لحاهم، لكنني أخشى أنك تتحدث بشكل متسرع جدًا الآن!
قال زاخار بصوت أجش:

هل تريدنا أن نستأجر حوذيًا شريرًا مثلك؟ أنت لا تجيد قيادة عربة سيّدي الخاصة!

علّق الحوذي متهكمًا:

سيّدك! وأين عثرت عليه؟

طفق يضحك عاليًا، جاراهُ الوكيل والحلّاق والخادم، ثم الخادم الخاص المحبّذ لأسلوب الشتم.

شهقَ زاخار:

اضحك، لكن مهلًا حتى أخبر سيّدي!

والتفتَ إلى الوكيل:

أما بالنسبة لك، فيجب أن تكبح هؤلاء الأنذال، بدلًا من أن تضحك. هل أتيت هنا لحفظ النظام؟ وما الذي تفعله؟ سأقوم بإخبار سيّدي. انتظر، سوف تنال عقابك!

قال الوكيل محاولًا تهدئتهُ:

هيّا، هيّا زاخار تروفيمتش. ما الذي فعله لك؟

ردّ زاخار بانفعال مشيرًا إلى الحوذي:

كيف له أن يتكلم بهذا الشكل عن سيّدي؟

ثم سأل بلهجة فيها توقير:

هل يعلم من هو سيّدي؟

قال موجهًا حديثه للحوذي:

آه، لن ترى سيّدًا مثلهُ في أحلامك! يا له من رجل نبيل طيب وذكي ووسيم! وسيّدك مثل فرس هزيلة! من الخزي رؤيتك وأنت تسوق العربة بالفرس البنية، تمامًا مثل المتسول! كل ما تأكله هو اللفت وتشرب الكفاس. انظر إلى معطفك الرمادي، كله ثقوب!

من الواجب ملاحظته هنا أن معطف الحوذي خالٍ من الثقوب.

قاطعه الحوذي، وجذب بسرعة قطعة من القميص ظهرت تحت ذراع زاخار:

آه، لو بحثتُ فلن أجد قميصًا مثل قميصك!
كرّر الوكيل محاولًا أن يفرّق بينهما:
كفى، كفى.
صاح زاخار وسحب قميصه أكثر:
إذن هل تريد أن تمزّق ملابسي؟ مهلًا، سوف أريها إلى سيّدي! انظروا ماذا فعل، لقد مزّق معطفي!
قال الحوذي مذعورًا:
أنا مزقت معطفك! أعتقد أن سيّدك جلَدكَ جلدة مناسبة...
قال زاخار:
سيّدي؟ آه، إنه مثال الطيبة. لم يؤذِ ذبابة، اللهّ يبارك فيه! العيش معه مثل الجنة. حين أرغب بشيء لا يردني ولا يصفني بالأحمق. عشت معه في راحة وسلام. آكل الطعام نفسه الذي يأكله، وأذهب حيثما أشاء. تلك هي الطريقة التي أعيش بها! وفي الريف لديّ بيت خاص، وحديقة وفيها الكثير من الحبوب، وكل الفلاحين ينحنون لي! أنا القهرمان وكبير الخدم! وأنتَ وسيّدك...
خذله صوتهُ فلم يكملْ وشعر بالسخط، فلم يستطع في النهاية أن يقضي على مناوئه. وقف لمدة دقيقة كي يستجمع قوته ويفكّر ببعض الكلمات الحاقدة، لكنه كان في منتهى الغضب فلم ينجح.
نطق أخيرًا:
انتظر لترى ماذا يحدث لك بسبب تمزيقك لملابسي. سوف تلقّن درسًا بسبب ذلك.
شعر بالألم الشديد لمهاجمتهم سيّده. فقد أثير طموحه وكبرياؤه، واستيقظ ولاؤه، وعبّر عن نفسه بكل قوته. كان جاهزًا لصب حقده لا على عدوّه فحسب، بل أيضا على سيّد عدوّه وأصدقاء السيّد وأقربائه، على الرغم من أنه لم يعرف إن كان له أصدقاء. كرّر بدقة عجيبة كل القصص المشوهة لسمعة أسيادهم التي جمعها من أحاديثه السابقة مع الحوذي.

قال:

أنت مع سيّدك عالة مقيتة. اليهود أسوأ من الألمان. أعرفُ من كان جدّه: صاحب كشك في سوق السلع الرخيصة. حين غادر ضيوفك الليلة الماضية تساءلتُ إن كانوا لصوص منازل اقتحموا البيت: لقد أسِفتُ عليهم! اعتادت أمهُ أيضًا أن تبيع الملابس المسروقة والرثة في سوق السلع الرخيصة.

حاول الوكيل تهدئته:

اهدأ الآن!

قال زاخار:

آه، نعم. ولِدَ سيدي نبيلًا، والحمد للهّ. كل أصدقائه جنرالات وأمراء. ويدعو كل كونت إلى وجبة الطعام أيضًا؛ بعضهم يأتون وعليهم أن ينتظروا في الردهة... كل أنواع المؤلفين دائمًا يأتون أيضًا...

سأل الوكيل محاولًا أن يوقف الخلاف:

أي نوع من المؤلفين هم؟ هل موظفون حكوميون أم لا؟

أوضحَ زاخار:

كلا. إنهم نبلاء اخترعوا كل شيء يريدونه بأنفسهم.

سأل الوكيل:

ماذا يفعلون في منزل سيدك.

قال زاخار:

آه، أحدهم كان يطلب التبغ ليدخّن بالغليون، والآخر طلب كأسًا من شراب الشيري.

وتوقف ملاحظًا أن الجميع تقريبًا كانوا يبتسمون بتهكّم.

قال بسرعة وألقى نظرة جانبية عليهم:

وأنتم عصبة من الأنذال، كل واحد منكم!

ثم أضاف وسار إلى البيت بسرعة:

سوف تلقون العقاب بسبب تمزيقكم ملابس الآخرين. سأذهب لأخبر سيّدي!

ناداه الوكيل:

مهلًا، مهلًا لِمَ العَجَلة؟ زاخار تروفيمتش! دعنا نذهب ونشرب. هيّا!

توقف زاخار، ورجعَ بسرعة، ودون أن ينظر إلى الخَدَم الآخرين، اندفع إلى الشارع. وصل باب الحانة مقابل البوابة دون أن يبالي بهم، ثم استدار، وألقى نظرة جادّة على رفاقه، وحثّهم بشكل أكثر جدّية ليتبعوه ثمّ اختفى في الداخل.

تفرق الآخرون أيضًا: بعضهم دخل الحانة، والآخرون رجعوا للبيت: بقي الخادم الخاص فقط.

قال متفكرًا ببرود وفتح ببطء علبة السعوط:

ماذا لو أخبر سيّده؟ أرى أن سيّده رجل طيب سوف يشتم فقط! هل هناك ضرر في ذلك؟ فسيّدٌ غيره سوف يتفرّس بك ثم يسحبك من شعر رأسك...

❋ ❋ ❋

بعد الساعة الرابعة فتح زاخار بعناية وهدوء الباب الأمامي لشقة سيّده وسار على أطراف قدميه إلى غرفته؛ ثم مشى إلى باب مكتب سيّده، ووضع أذنه عليه، وانحنى، وبصبص خلال ثقب مفتاح الباب.

جاء من المكتب صوت شخير منتظم.

همسَ: «إنه نائم. يجب أن أوقظه ستكون الساعة الرابعة والنصف قريبًا».

تنحنح ودخل المكتب.

وقف عند رأس سريره وبدأ يكلمه بهدوء:

سيدي. سيدي.

استمرّ الشخير.

قال زاخار:

أوه، إنه سريع النوم. مثل بناء القرميد المنتظم! سيدي!

مسّ زاخار كمّ أبلوموف بشكل خفيف.

انهض سيّدي! إنها الساعة الرابعة والنصف!

غمغم أبلوموف، لكنه لم يستيقظ.

قال زاخار ورفع صوته:

انهض سيدي! إنه أمرٌ مُخزٍ!

لا جواب.

كرّر زاخار:

سيدي!

ومسّ أبلوموف من كمّهِ.

أدار أبلوموف رأسه قليلًا، بالكاد فتح عينًا واحدة ونظر إلى زاخار كأنه أصيب بالشلل.

سأل بصوت خشن:

مَنْ هذا؟

أنا سيدي. انهض من فضلك.
دمدم أبلوموف:
ابتعد!
وغرق في النوم ثانيةً.
بدلًا من الشخير بدأ يطلق صفيرًا عبر فمه. سحبه زاخار من مبذله.
سأله أبلوموف بشكل صارم:
ماذا تريد؟
وفتح عينيه فجأة.
أخبرتني أن أوقظك سيدي.
أعرف. أنت أديت واجبك والآن انصرف! واترك البقية لي...
قال زاخار ومسّه مرة أخرى من كمّه:
لن أذهب.
قال أبلوموف برفق:
والآن اتركني وحدي.
ودفن وجهه في الوسادة، كان على وشك أن يبدأ الشخير مرة أخرى.
قال زاخار:
يجب أن لا تنام ثانية سيدي. أود أن أتركك بسرور، لكني لا أستطيع.
ومسّ سيّده ثانيةً.
قال أبلوموف بشكل جدّي وقد فتح عينيه:
الآن أسدِ لي معروفًا ولا تزعجني.
آه، وإذا أسديت لك المعروف ستصب غضبك عليّ بسبب عدم إيقاظك.
قال أبلوموف:
آه يا إلهي، يا له من رجل! دعني أنام دقيقة أخرى فقط. دقيقة فحسب! أعرف نفسي...
صمت أبلوموف فجأةً وغلبه النوم.

قال زاخار وهو مقتنع بأن سيّده لم يسمعه:

إنك تعرف كيف تنام بوضع أمثل! انظر له. ينام مثل خشبة! ما فائدة إنسان مثلك؟

ثم جأر:

قلتُ لك انهض.

قال أبلوموف متوعدًا ورفع رأسه:

ما هذا؟ ما الأمر؟

أجاب زاخار برقة:

لماذا لا تنهض سيدي؟

نعم، لكن ماذا قلت، هه؟ كيف تجرؤ على الحديث هكذا معي هه؟

أجرؤ على ماذا سيدي؟

تتكلم بشكل فظّ.

لا بدّ من أنك كنت تحلم سيدي. أقسم أنك حلمت.

هل تعتقد أني كنت نائمًا؟ حسنٌ، لم أكن نائمًا. لقد سمعت كل شيء.

ثم غلبه النعاس ثانيةً.

قال زاخار يائسًا:

حسنٌ. ماذا يجب أن أعمل؟ لماذا تنام مثل الخشبة؟ سيمرض المرء من النظر إليك. انظر إليه فقط! اللعنة!

فجأة قال بصوت خائف:

انهض! انهض! سيدي، انظر ماذا يحدث؟

رفع أبلوموف رأسه بسرعة ونظر حوله ثم استلقى ثانيةً وأطلق حسرة عميقة.

قال بتؤدة:

دعني وحدي. أخبرتك أن توقظني والآن أنا ألغي أوامري. سمعت؟ سوف أستيقظ متى ما أشاء.

أحيانًا كان زاخار يتركه وحده قائلًا:

آه، نَمْ متى شئت، اللعنة عليك!

لكن في أحيان أخرى كان يصرّ على فرض رأيه، وقد فعل هذه المرة.

ضجّ بأعلى صوته:

انهض، انهض.

وأمسك أبلوموف بكلتا يديه من طرف مبذله وكمّه.

قفز أبلوموف فجأةً خارج السرير واندفع نحو زاخار.

قال:

مهلًا، سوف أعلمك كيف تزعج سيّدك حين يريد أن ينام!

لاذ زاخار بالفرار، لكن وهو في الخطوة الثالثة طرد أبلوموف نعاسه وبدأ يمط جسمه.

قال وهو يتثاءب:

أعطني شيئًا من الكفاس.

في تلك اللحظة انفجر في نوبة من الضحك شخصٌ برز وراء زاخار. فالتفت كلاهما.

صاح أبلوموف بفرح:

شتولتس! شتولتس!

واندفع نحو الزائر.

قال زاخار مكشّرًا:

أندريه إيفانيتش.

ظلّ شتولتس يهدر بالضحك. لقد رأى المشهد بأكمله.

* * *

الجزء الثاني

(1)

كان شتولتس ألمانيًا من جهة الأب، وأمّهُ روسية؛ وينتمي إلى العقيدة الأرثوذوكسية الشرقية؛ لغته المحلية هي الروسية؛ تعلمها من أمّه ومن الكتب، وفي غرف محاضرات الجامعة، ومن ألعابه مع أطفال القرية، ومن الأحاديث مع آبائهم وفي أسواق موسكو. أما اللغة الألمانية فقد ورثها من أبيه وتعلمها من الكتب.

نشأ شتولتس في قرية فرخيليوفو، إذ كان أبوه قهرمانًا[31]. منذ أن كان صبيًا في الثامنة من عمره كان يجلس مع أبيه لرسم الخرائط، ويقرأ أشعار هردر وفيلاند والكتاب المقدّس، ويجمع التقارير التي كتبت على نحو رديء من قبل الفلاحين والحرفيين وعمال المصانع، ويتلو مع أمّه قصصًا من الكتب الدينية، ويحفظ عن ظهر قلب حكايات كيرلوف الخرافية، ويرتّل أشعار «تليماك»[32]. حين تنتهي الدروس كان يبحث عن أعشاش الطيور مع أطفال القرية، وفي غالب الأحيان تنبعث صوصأة غربان صغيرة من جيبه خلال الدرس أو أثناء الصلاة. أحيانًا حين كان أبوه يجلس تحت شجرة في الحديقة بعد الظهيرة، يدخّن بالغليون، وأمه تحبُك قميصًا صوفيًا أو تقوم بالتطريز، كانت تُسمع فجأة ضجة وصيحات من الشارع ويقتحم البيت حشد من الناس.

سألت الأم مذعورة:

ما الأمر؟

أجاب الأب بهدوء:

أتوقع أنهم جاؤوا بأندريه مرة أخرى.

31الوكيل المسؤول عن إدارة العزبة والإشراف على الخدم وجباية الضرائب وكتابة الحسابات.

32رواية فرنسية مؤلفها فنيلون تروي قصة رحلات تليماخوس بن يوليسيس بمصاحبة معلمه مينتور الذي يظهر في النهاية كونه منيرفا إلهة الحكمة مقنّعة.

انفتحت الأبواب بقوة واندفع حشد من الفلاحين والنساء والصبية داخل الحديقة. وفعلًا لقد جلبوا أندريه، لكن بأي حال! دون حذائه، وملابسه ممزقة، وأنفه ينزف، أو أنف صبي آخر. كانت أمه دائمًا قلقة حين يختفي أندريه لمدة يوم، ولأنّ أباه لم يمنعها بشكل أكيد من التدخل في شؤون الصبي، فقد احتفظت به دائمًا إلى جانبها. غسلتهُ وغيّرت ملابسه، ومشى أندريه اليوم كله بمظهر نظيف جدًا وبدا ولدًا صغيرًا حسن السلوك، لكن في المساء وأحيانًا في الصباح كان شخصٌ عاد به مرة أخرى وسخًا، مهمل الملابس، ولا يمكن التعرف عليه، أو يجلبهُ الفلاحون على قمة عربة القشّ، أو يرجع مع صيادي السمك، نائمًا على شبكة في قاربهم.

صرخت أمّهُ، لكن والده لم يكن ليهتم قط. لقد ضحك في الواقع.

كان يقول أحيانًا:

سيكون شابًا حقيقيًا.

شكَتْ أمّه قائلة:

لكن الواقع يا عزيزي، إنه لم يمر يومٌ إلا وجاء للبيت مخدوشًا أو نازفًا في اليوم التالي.

قال أبوه ضاحكًا:

أيّ ولد سيكون لو أنه لم يجعل أنفه ينزف أو أنف شخص آخر؟

كانت أمه تفيض عيناها بالدمع، لكن بعد فترة قليلة تجلس إلى البيانو فتنسيها موسيقى هرتس[33] مشاكلها. وكانت قطرات من دموعها تسقط على مفاتيح البيانو، لكن سرعان ما عاد أندريه أو أعادوه إلى البيت، وبدأ يروي مغامراته بشكل حي وبحركاته التي جعلت أمه تضحك؛ كان سريعًا جدًا أيضًا! كان قادرًا على قراءة «تليماك» إضافة إليها، وأن يعزف الثنائيات الموسيقية بمصاحبة عزفها.

33موسيقار ومؤلف فرنسي من أصل نمساوي (1803 1888).

في إحدى المرات اختفى لمدة أسبوع كامل. بكت أمه طويلًا، بينما ظهر أبوه غير مبالٍ أبدًا؛ مشى فحسب في الحديقة وهو يدخّن بغليونه.
قال ردًا على اقتراح زوجته للذهاب والبحث عنه:
لو أنّ أبلوموف الابن اختفى الآن سوف أبحث القرية بأكملها واستدعي الشرطة الريفية، لكن أندريه سوف يرجع. إنه شاب فاهم.
في الصباح التالي عُثر على أندريه نائمًا بهدوء في فراشه. وكانت ثمة بندقية تحت فراشه ورطل من البارود وطلقة.
بدأت أمه ترميه بالأسئلة:
أين كنت؟ من أين حصلت على البندقية؟ لماذا لا تتكلم؟
سأله أبوه فيما إذا كان قد حضّر ترجمة «كورنليوس نيبوس» إلى الألمانية فأجاب «كلا».
أمسكهُ أبوه من ياقته، وقاده إلى البوابة، ووضع قبعته على رأسه وأعطاه لكمة قوية من الخلف بحيث رمتهُ أرضًا.
قال:
عُدْ من حيث جئت وارجعْ ومعك ترجمة لفصلين بدلًا من واحد، واحفظ كلمات دورك في الكوميديا الفرنسية مع أمّك، ولا ترجع حتى تؤديه.
رجع أندريه خلال أسبوع وجلب معه الترجمة وحفظَ الدور.
حين أصبح أكبر سنًّا، أخذه والده في مركبة ذات عجلتين وجواد معه، وأعطاه الأعنّة، وأخبره أن يسوق العربة إلى المصنع، والحقول، والبلدة والمتاجر والدوائر الحكومية، أو لإلقاء نظرة على بعض الطين الخاص الذي أخذه بإصبعيه، وشمّه، وأحيانًا لحسهُ، وأعطاه إلى ابنه كي يشمّه، موضحًا نوع الطين وفائدته. أو أنهما كانا يذهبا ليشاهدا كيف يصنع البوتاس أو القار وكيف يُصفّى دهن الخنزير.
حين كان عمره أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا ذهب الصبي بنفسه بمركبة ذات عجلتين وجواد، أو على صهوة الحصان مع حقيبة تُحزم بالسرج، لكي يجري بعض العمولات لأبيه في البلدة، ولم ينسَ، أو يُسِئ التفسير، أو يغفل أو يفقد أي شيء.

قال أبوه بعد سماعه للتقرير:
جيد جدًا يا ولدي العزيز![34] وراح يربّت على كتفيه بيده الكبيرة، وأعطاه اثنين أو ثلاثة روبلات، وفق أهمية العمولة.
أمضت أمّه وقتًا طويلًا بعد ذلك في غسل السخام والوسخ والطين والزيت من ولدها المحبوب. لم تكن مسرورة تمامًا من هذا التعليم العملي الشبيه بالمهنة. كانت خائفة من أن ابنها سوف يصبح رجل أعمال من الطبقة الوسطى كحال مواطني أبيه. عدّت الأمة الألمانية بأكملها حشدًا من تجار الطبقة الوسطى المسجلين لبراءات الاختراع، وكرهت الخشونة والاستقلالية والإعجاب بالنفس التي أكدت من خلالها الشعوب الألمانية في كل مكان على الحقوق المدنية التي اكتسبوها على مدى القرون، تمامًا مثل بقرة دائمًا تحمل قرنيها معها ولا تعرف أين تخفيهما. لم يكن هناك في رأيها ولا يمكن أن يكون نبيل واحد في الأمة الألمانية كلها. لم تستطع أن تكتشف أيّة رقة أو رهافة، أو فهم حقيقي في الشخصية الألمانية، إذ لا شيء يجعل من الحياة مقبولة جدًا في المجتمع السليم، الذي يجعل من الممكن انتهاك بعض القوانين، وخرق العادات المقبولة بشكل عام، أو رفض طاعة النظام. كلا، هؤلاء الرجال الأجلاف أصرّوا على تنفيذ كل ما يسند لهم من مهام، أو بما يدور في عقولهم؛ كانوا عازمين على التصرف حسب القوانين حتى لو تطلب الأمر أن يضربوا رؤوسهم بالجدار.
كانت أمّه مُربية أطفال في عائلة غنية وكانت لديها الفرصة للذهاب إلى الخارج. سافرت إلى كل أنحاء ألمانيا، فصار لديها انطباع بأن كل الألمان كانوا جمهورًا واحدًا من مساعدي الحوانيت، والحرفيين، وأصحاب المتاجر، الذين يدخنون بالغليونات القصيرة ويبصقون من خلال أسنانهم؛ ضباط الجيش استقامتهم كالعصا ووجوههم كوجوه الجنود العاديين؛ وموظفون ذوو مظهر عادي رجال كانوا قادرين على العمل الشاق، وكسب رزقهم بعرق جبينهم، والحفاظ على

34بالألمانية Recht gut, mein lieber Junge

النظام المألوف، يعيشون حياة رتيبة ويؤدون واجباتهم بطريقة متحذلقة كلهم من مواطني الطبقة الوسطى ذوي السلوك الفظّ، أيدٍ كبيرة وخشنة، بشرة طرية مبتذلة، كلام خشن.

فكّرَتْ: «مهما ألبستَ ألمانيًا بشكل أفضل، حتى لو ارتدى القميص الأجمل والأشد بياضًا، والجزم اللمّاعة وحتى القفازات الصفر، فإنه يبدو كأنه قد صُنع من جلد الجزمة؛ ستبرز يداه الحمراوان من طرفي الردنين البيضاوين، ومهما كانت الملابس التي يلبسها أنيقة، فإنه يبدو دائمًا، إن لم يشبه خبازًا، فهو يشبه ساقيًا في حانة. تبدو يداه الخشنتان كأنهما تطلبان مثقابًا للجلد أو الخشب أو في الأقل كمانًا في أوركسترا».

كانت تأمل في أن ترى في ابنها نبيلًا مثاليًا، فعلى الرغم من أنّهُ ابن ألماني من الطبقة الوسطى ومحدَث النعمة، إلا أنّ أمّهُ كانت سيدة روسية، وكان ولدًا نظيف البشرة قوي البنية ذا يدين وقدمين صغيرتين، ووجه ناعم ومشرق، وعينين يقظتين. هذا ما وجدته غالبًا في العائلات الروسية الغنية وفي الخارج أيضًا، وليس بين الألمان طبعًا. وابنها هذا سوف يحوّل حجر الرحى إلى طاحونة، عائدًا إلى بيته من المصنع والحقول، مثل أبيه، يغطيه الزيت والسماد، بيدين خشنتين حمراوين قذرتين وشهية ذئبية! بدأت تقص أظافر ولدها، وتلف شعره، وتصنع له ياقات وأكمام أنيقة، وتشتري معاطفه من المدينة؛ علمتهُ أن يصغي إلى موسيقى هرتس وكانت تغنّي له عن الأزهار وشاعرية الحياة، وتهمس له عن مهنة الجندي أو الكاتب اللامعة، وتحلم معه بالدور المجيد الذي قُدّر لبعض الرجال أن يؤدُّوه، إلا أنّ كل تلك التطلعات كانت قد حطمتها طقطقة آلة العدَّاد، وتصنيف وصولات استلام الفلاحين الملطَّخة بالزيت، وعلاقاته مع عمال المصنع! بدأت تكره حتى العربة ذات العجلتين التي يجرّها حصان، ويركب بها محبوبها أندريه إلى المدينة، والقلنسوة المشمّعة التي أعطاها أبوه له، والقفازين من جلد الشامواه[35] فكلّها

35حيوان مجتر من الظباء.

أشياء تُعزى إلى حياة العمل الشاق. لسوء الحظ أنّ أندريه كان مثقّفًا جيّدًا، وأنّ أباه جعله يُعلّم الصبية الآخرين في مدرسته الداخلية الصغيرة. لكن هذا ربما لن يؤثر كثيرًا لو لم يكن يدفع له راتبًا، كألماني تمامًا، كأنهُ كان حرفيًا ماهرًا، بمقدار عدة روبلات في الشهر، ويجعله يوقع وصل استلام له.

كوني مرتاحة أيتها الأم الطيبة: فابنك تربّى على التربة الروسية وليس بين حشد الناس المملين من الطبقة الوسطى البليدة أصحاب القرون والأيدي التي تدوّر الرحى. كانت أبلوموفا قريبة: هناك كانت عطلة دائمة! هناك نظروا إلى العمل كعبء ثقيل؛ هناك السيّد لا ينهض عند الفجر ويذهب إلى المصانع ويقضي وقته بالقرب من العجلات والزنبركات الملوثة بالزيت. كان هناك في فرخيليوفو نفسها قصر كبير، مغلق طوال السنة، وغالبًا ما شقّ الصبي المقدام طريقه عبره، وهناك رأى ردهات كبيرة وشرفات معلقة مع صور شخصية معتمة لناس لم يمتلكوا بشرات طرية ومبتذلة وأيدٍ كبيرة خشنة. رأى عيونا كليلة زرقاء فاتحة، وشعرًا مرشوشًا بالمسحوق، ووجوهًا رقيقة، وصدورًا ممتلئة وأيدٍ جميلة ذوات عروق زرق في أكمام مخرّمة، تستند بفخر على مقبض سيف؛ رأى سلسلة متعاقبة كاملة من الأجيال التي عاشت في ترف حياة نبيلة عقيمة، مكسوة بالقماش المطرّز، والمخمل، والتخريم. روت له هذه الوجوه قصة أيام المجد، والمعارك والأسماء المشهورة، وقصة الأزمان القديمة التي كانت مختلفة عن تلك التي رواها له والده مئات المرات، باصقًا ومدخنًا بغليونه، وعن حياته في ساكسونيا[36] التي قضاها بين اللفت والبطاطا، وبين السوق وبستان زراعة الخضروات.

مرة خلال ثلاث سنوات امتلأ هذا القصر الكبير بالناس وفاض بالحياة المهرجانات والحفلات جرت بكثرة. وفي الشرفات الطويلة توهجت الأضواء أثناء الليل. وصل الأمير والأميرة مع عائلتهما: الأمير رجل كبير السن شعره رمادي، ووجهه ذابل يشبه الرق، وعيناه كليلتان وبارزتان، ورأسه كبير وأصلع؛

36أقليم في ألمانيا.

كان يمتلك ثلاث نجمات على معطفه، ويرتدي جزمة مخملية، ويحمل صندوق سعوط ذهبيًا وعصا على قمتها ياقوت أزرق؛ كانت الأميرة امرأة وسيمة ذات حجم وطول فخمين، إذ لم يجرؤ حتى الأمير نفسه كما يبدو على الاقتراب منها ومعانقتها أو تقبيلها، على الرغم من أنها لديها خمسة أطفال. بدت فوق العالم الذي كانت تنزل فيه مرّة كل ثلاث سنوات؛ لم تتكلم إلى أي شخص أو تذهب إلى أي مكان، لكن قضّت وقتها في زاوية الغرفة الخضراء مع ثلاث سيدات عجائز، وسارت تحت الظلّة متجهة إلى الكنيسة عبر الحديقة وجلست هناك على كرسي خلف سِتار.

إضافة إلى الأمير والأميرة، كان هناك مرح كبير وعالم نشط في البيت، لذا نظر ذلك الصغير أندريه بعينيه الخضراوين الطفوليتين إلى الطبقات الاجتماعية المختلفة، وتشبّع عقله بشكل متلهف وبلا وعي وبسرعة بأنواع مختلفة من هذا الحشد متعدد الألوان، كما يفعل الناس بملابس المرح في حفلة تنكرية.

كان هناك الأميران الشابان، بيير ومشيل، اللذان كانا أول من علمّ أندريه كيف يبدو تبويق الاستيقاظ[37] في سلاح الفرسان والمشاة، وأيُّ سيوف ضالعة ومهاميز يتقلّد بها الجنود الأوربيون وجنود سلاح الفرسان، وأي لون للخيول من كتائب مختلفة، وبأيٍّ كتيبة يجب أن تلتحق حين تترك المدرسة لكي لا تخزي نفسك.

حالما عقد ميشيل صداقة مع الصغير أندريه، وضعه في مكان وبدأ يؤدّي حيلًا مدهشة بقبضتيه، ضاربًا أندريه على أنفه وفي بطنه، وأخبره فيما بعد بأنّ تلك هي الملاكمة الإنكليزية. بعد ثلاثة أيام، ودون تدريب خاص، حطّم أندريه أنفه من أجله بكلا الطرازين الإنكليزي والروسي، لأنه كان يمتلك ذراعين قويتين وصحته جيدة لنشأته في الريف، فكسب احترام كلّ من الأميرين الشابين. كانت الأميرتان فتاتين طويلتين ونحيفتين في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، تلبسان بشكل أنيق، ولم تنحنيا أو تتكلما مع أحد، وكانتا خائفتين من الفلاحين.

37لإيقاظ الجند عند الفجر م.

كانت مربيتهما مدموازيل أرنستي، التي اعتادت على شرب القهوة لدى أم أندريه، التي علَّمتها كيف تعقص شعرها، تضع رأسه أحيانًا في حضنها، وتجدل شعره في عاقصات الورق إلى أن تؤذيه، ثم تأخذ خديه بيديها البيضاوين وتقبّله بشكل محموم! ثم هناك المعلم الألماني الذي يصنع علب السعوط والأزرار على عجَلَة الخراطة. ومعلمّ الموسيقى، الذي كان يسكر في أيام الآحاد. وجماعة الخادمات كلها.

وأخيرًا حشد من الكلاب الصغيرة. كل ذلك ملأ البيت والقرية بالضجيج والهدير والقعقعة والصيحات والموسيقى.

تصادمت أبلوموفكا، من جهة، وقصر الأمير بحياته المفعمة بالراحة والترف من جهة أخرى، مع العنصر الألماني، ونشأ أندريه لكي لا يكون شابًا جيدًا ولا شخصًا محافظًا.

كان والد أندريه مختصًا بالزراعة والتكنولوجيا ومعلمًا. لقد تلقى تعليمه في الزراعة من حقل أبيه، ودرس التكنولوجيا في مصانع ساكسونيا وفي الجامعة المجاورة، إذ كان هناك حوالي أربعون أستاذًا، وقد تلقّى مهنته في التعليم بنجاح بسبب ما قدّم له هؤلاء الأساتذة الأربعون الحكماء. لم يكن أندريه يذهب بعيدًا، لكنه كان يعود صلبًا، وقرّر أن ينجز شيئًا عمليًا. رجع إلى أبيه، الذي أعطاه ثلاثمائة طالر[38] وحقيبة ظهر وأرسله إلى العالم. منذ ذلك اليوم لم ير أباه أو موطنه الأصلي.

تجوّل لمدة ست سنوات في سويسرا والنمسا، وعاش لمدة عشرين سنة في روسيا، سائلًا الرب أن يبارك طالعه المحظوظ. لقد دخل أبوه سابقًا إلى الجامعة وقرر أن ابنه يجب أن يدخل الجامعة، مع أنها يمكن أن تكون جامعة ألمانية، وعلى الرغم من أن الجامعة الروسية كانت حَرية بأن تثوّر حياة ابنه وتأخذه في طريق طويل خارج المسار الذي رسمه له أبوه روحيًا. وقد نفذ كل ذلك ببساطة: رسم خطًا مستقيمًا

38نقد جرماني فضي توالى إصداره من القرن 15 إلى القرن 19 م.

من جدّه إلى حفيده القادم ولم يعد القلق ينال منه، ولم يدر في باله أنّ تنويعات هرتس الموسيقية، وقصص زوجته عن الأحلام، والشرفات، وغرف الاستقبال في قصر الأمير سوف تحوّل المسار الألماني الضيق إلى طريق أوسع مما حلم به هو وجدّه وأبوه في أي وقت مضى. غير أنه لم يكن معلّمًا، وفي هذا المثال لم يكن ليصر على خطته الخاصة؛ لم يكن يتصور أي طريق آخر في حياة ابنه. ولم يصبه بالقلق أيضا. حين عاد ابنه من الجامعة وقضّى ثلاثة أشهر في البيت، أخبر أندريه بأنه ليس لديه شيء يعمله في فرخليوفو، وأنه حتى أبلوموف قد أُرسِلَ إلى بطرسبورغ، ولهذا السبب كان لديه الوقت ليذهب أيضًا. لم يسأل نفسه عن السبب في أن ابنه يجب أن يذهب إلى بطرسبورغ ولا يبقى في فرخليوفو ويساعد في إدارة العزبة: تذكّر والد أندريه بأنه حين انتهى من درسه في الجامعة، أرسلهُ أبوه أيضًا للخارج هكذا جرت العادة في ألمانيا. كانت زوجته ميتة ولا أحد يعارضه.

في يوم رحيل أندريه أعطاه أبوه مائة روبل نقدًا.

قال له:

ستركب إلى المدينة، وهناك سوف يعطيك كالينكوف ثلاثمائة وخمسين روبلًا. تستطيع أن تترك الحصان معه. إن لم يكن في المدينة تستطيع أن تبيع الحصان.

سيكون هناك معرض وتستطيع أن تبيعه ببساطة بسعر أربعمائة روبل لأي شخص. ستكون أجرة السفر إلى موسكو أربعمائة روبل وتذهب من هناك إلى بطرسبورغ بخمسة وسبعين روبلًا. سيبقى لديك ما يكفي. بعد ذلك تستطيع أن تفعل ما تشاء. لقد كنت شريكي في مشروعي وتعرف أنَّ لديّ رأسمال صغير، لكن لا تعتمد على فكرة الحصول عليه قبل موتي. من المحتمل أني سأعيش عشرين سنة أخرى، إن لم يسقط على رأسي حجَر. فالمصباح ما زال يتوهج بشكل ساطع وهناك كمية وافرة من الزيت فيه. لقد تلقيتَ تعليمًا جيدًا وكل المهن مفتوحة أمامك. تستطيع أن تدخل الخدمة المدنية، أو تصبح رجل أعمال أو كاتبًا أيضًا، لو شئت لا أعرف المهنة التي تختارها، وتشعر بالانجذاب لها أكثر...

قال أندريه:

سأرى إن كان بإمكاني أن أفعل كل هذه الأمور فورًا.
انخرط أبوه بالضحك بصوت عال، وبدأ يربّت على كتفي ابنه بشكل قوي بحيث إن الحصان لن يتحمل ذلك، لكن أندريه لم يكن ليهتم.
أضاف ومسح يديه وهزّ رأسه:
حسنٌ، وإذا تطلب الأمر أن تكون قابليتك جديرة بالمهمة، وإذا وجدتَ أنه من الصعب أن تطرق الطريق الصحيح فجأة وتريد أن تطلب نصيحة أحد، فاذهب والتقِ براينهولد. سوف يخبرك، آه إنه هو، إنه هو...
أراد أن يقول شيئًا في مدح راينهولد، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة:
جئنا معًا من ساكسونيا. إنه يمتلك بيتًا من أربعة طوابق. سوف أعطيك عنوانه...
قال أندريه:
لا تزعج نفسك، لا أريد عنوانه. سوف أذهب وأراه حين يكون لي بيت من أربعة طوابق، وفي الوقت الحالي يجب أن أعمل دونه.
وكانت هناك المزيد من التربيتات على كتف ابنه.
قفز أندريه على صهوة حصانه. كانت هناك حقيبتان معلقتان إلى السرج: في إحداهما رداء خارجي من المشمّع، وزوج من الجزم السميكة المثبتة بالمسامير وبضعة قمصان مصنوعة من كتان فرخليوفو وهي أشياء اشتراها حسب طلب والده وإلحاحه؛ وفي الحقيبة الأخرى ثمة معطف أنيق من قماش جيد، ومعطف سميك، ودستة من القمصان الخفيفة، وأحذية اشتراها من موسكو، حين تذكّر نصائح أمه.
قال الأب:
حسنٌ.
قال الابن:
حسنٌ.
سأله الأب:

هل انتهى كل شيء؟
ردّ الابن:
كل شيء.
نظر كل منهما للآخر بصمت، كأنهما حاولا أن يثقب أحدهما الآخر بعينيه.
في الوقت نفسه، تجمَّع حشد من الجيران الفضوليين وراقبوا بأفواه فاغرة الطريقة التي كان يودّع بها القهرمان ابنه. تبادل الأب وابنه التحية باليد. وانطلق أندريه بالفرس عدوًا. كان الجيران يتبادلون القول:
هل رأيت هذا الجرو الصغير؟ إنه لم يُرِقْ دمعة! هذان الغرابان على السياج ينعبان كأنّ حنجرتهما ستتفجّر. انتبه لكلماتي، ذلك لا يبشّر بالخير، من الأفضل أن يؤخذ الحذر!
ما الغربان بالنسبة إليه؟ إنه لا يخاف من السير في الغابات في ليلة القدّيس يوحنا. كل ذلك لا يعني شيئًا بالنسبة للألمان. الروس سوف يدفعون الثمن الغالي من أجله!
علّقت إحدى الأمهات:
والكافر العجوز هو رجل لطيف أيضًا! لقد رماه في الشارع مثل قطة صغيرة، لم يعانقه أو يبكي عليه.
صاح الأب العجوز:
توقف، توقف، أندريه!
كبح أندريه حصانه.
قال جمع الناس مستحسنين:
آه، لقد حدّثه قلبه إذن.
سأل أندريه:
حسنٌ، ماذا؟
حزام السرج مرتخٍ، دعني أحكم شدّه.

سوف أقوم بشدّه بنفسي حين أصل إلى شامشفكا. لا فائدة من ضياع الوقت؛ يجب أن أكون هناك قبل حلول الظلام.

قال الأب بتلويحة من يده:

حسنٌ.

ردّ الابن بإيماءة من رأسه وانحنى قليلًا:

حسنٌ.

وكان على وشك أن ينخس حصانه.

قال الجيران:

تمامًا مثل كلبين، كليهما، ربما يكونان غريبين!

فجأةً سُمِعَ عويل عال بين الحشد؛ لم تعد إحدى النساء تتحمل الأمر.

قالت لأندريه ومسحت دموعها بطرف منديلها:

آه، أنت أيها المسكين المحبوب، اليتيم الصغير المسكين! لا أمٌّ لك، ولا أحد يباركك... دعني أرسم إشارة الصليب عليك!

استجاب لها أندريه وقفز نازلًا من حصانه. عانق المرأة العجوز وكان على وشك أن يركب، حين انخرطت في البكاء بينما هي تقبّله ورسمت علامة الصليب عليه. وبدا كأنه سمع صوت أمه في كلماتها المحمومة، وفجأة برزت صورة أمه الرقيقة أمام ذهنه. عانق المرأة مرة أخرى برقة كبيرة. وسرعان ما مسح دموعه، وقفز على ظهر حصانه. ضربه بسوطه واختفى في غيمة من الغبار؛ اندفعت ثلاثة كلاب وراءه من الجانبين ونبحت يائسة بأعلى أصواتها.

***

(2)

كان شتولتس بعمر أبلوموف: كان أيضا فوق الثلاثين. عمِلَ سابقًا موظفا حكوميا، وتقاعدَ، ثم انخرط في التجارة، وحصل فعلًا على بيت ورأس مال. ظلّ في الخارج يعمل في هيئة شركة تجارية مع البلدان الأجنبية. استمرّ في التنقّل: إذا ما تطلب الأمر أن تُرسِل شركته مندوبًا إلى بلجيكا أو إنكلترا، فإنهم كانوا يرسلونه؛ ويختارونه إذا ما احتاجوا إلى وضع مسودة لمشروع جديد أو تطبيق فكرة جديدة. في الوقت نفسه احتفظ بعلاقاته الاجتماعية وقراءته؛ والله يعلم كيف وجد الفرصة لفعل ذلك.

كان مخلوقًا من العظم والعضلات والأعصاب، مثل حصان سباق إنكليزي. كان هزيلًا: ليس لديه خدان فعليًا، أي هناك عظم وعضلة لكن لم توجد علامة على السمنة؛ كان بشرته صافية وداكنة ودون علامة على وجود اللون الأحمر فيه؛ كانت عيناه معبّرتين، على الرغم من كونهما خضراوين فاتحتين. لم يبدِ أي إشارات زائدة. وكان يجلس بهدوء؛ لو فعل شيئًا لاستعمل بضع إيماءات كأنها ضرورية. ومثلما لا يوجد شيء زائد في أعضائه، كذلك في وجهة نظره الأخلاقية التي يستهدف بها التوازن ما بين الجانب العملي للحياة والحاجات الأروع للروح. سار الجانبان بتوازٍ معًا، ينحرفان ويدوران على الطريق، لكن لم يقعا في شرك العُقد العسيرة التي لا خلاص منها. كان يشقّ طريقهُ ثابتًا ومبتهجًا، ويعيش من دخله، ويمضي كل يوم مثلما يصرف كل روبل، وظلّ يحتفظ بسيطرة ثابتة ومستمرة على وقته وعمله وقواه العقلية والعاطفية. بدا قادرًا على السيطرة على أفراحه وأتراحه مثل حركات يده وقدميه، وعاملها كأنه في وضع جيد أو سيئ. حين هطل المطر، فتح المظلة. يمكن القول إنه عانى بينما امتدّ حزنه حتى ذلك الوقت من الغيظ والغرور بدلًا من الخضوع المروّع، وتحمّله بصبر لأنه لامَ نفسه بسبب مشاكله ولم يحمّل الناس الآخرين مسؤوليتها. تمتع بالملذات مثلما يتمتّع أحدٌ بزهرة قطفها على جانب الطريق حتى ذوت في يديه، ولم يُفرّغ الكأس لآخر قطرة تكمن في قعر كل متعة. طمحَ باستمرار إلى رؤية بسيطة للحياة، أي رؤية مباشرة وحقيقية،

وبينما وصل تدريجيًا إلى تحقيقها، فهمَ كم كانت صعبة، وكان فخورًا وسعيدًا في كل مرة حين كان يلاحظ انحرافًا عن مساره ويصحّحه. كان غالبًا ما يتحدث مع نفسه: «العيش البسيط عمل صعب ودقيق»، وحاول أن يرى فورًا موضع خطأه إذ بدأ خيط الحياة يلتفّ داخل عقدة معقدة غريبة. من بين جميع الأشياء خاف من الخيال، ذلك الرفيق ذو الوجه المزدوج: ودود من ناحية وعدواني من ناحية أخرى؛ صديقك حين تصدقه بدرجة أقل، وعدوّك حين تنام هادئًا على صوت غمغمته الحلوة. كان يخاف من كل حلم، ولو غامر في الدخول إلى أرض الأحلام، فكأنهُ يدخل كهفًا منقوشٌ عليه: «عزلتي، تنسُّكي، هدوئي»[39]، عارفًا بالضبط الساعة والدقيقة التي يجب على المرء مغادرته. لم يكن مجالٌ في روحه لحلم، لأي شيء كان ملغزًا وغامضًا. عدّ كل شيء لا يخضع لتحليل العقل والحقيقة الموضوعية وهمًا بصريًا، وانعكاسًا معيّنًا للأشعة والألوان على شبكيّة العين أو حقيقةً لم يجرِ لحد الآن اختبارها بالتجربة.

لم يمتلك حبًا للفنون كي يتحرّى عالم الظواهر الخارقة للطبيعة، وينغمس في التخمينات المتطرفة عن الاكتشافات منذ آلاف السنين إلى الآن. كان يتوقف بشكل عنيد عند عتبة سرّ دون أن يظهر إيمانًا كإيمان طفل أو شكوكًا كشكوك رجل مجّرب، لكنه انتظر صياغة قانون سيتيح مفتاحًا لذاك السرّ.

ظلّ يراقب بعناية وحماس قلبه إضافة إلى خياله. لكن كان عليه أن يعترف بعد نكوص متتالٍ بأن عالم العواطف كان ما يزال «منطقة مجهولة»[40] بالنسبة له.

شكر بحرارة طالعه المحظوظ حين نجح في التمييز، في الوقت المناسب، ما بين الكذبة المطلية والحقيقة الشاحبة؛ لم يتذمّر حين اختفت الكذبة بشكل ماكر في الزهور التي تعثر بها لكنه لم يسقط، ويصبح في منتهى الفرح لو دقّ قلبه سريعًا وبشكل محموم، لكنه لم ينزف، ولو أنّ جبينه لم يتفصّد بالعرق، ولم يلقِ ظلًا طويلًا على حياته للعديد من السنين. ظنّ نفسه محظوظًا لأنه استطاع دائمًا أن يحتفظ

---

39 ma solitude, mon ermitage, mon repos بالفرنسية في الأصل م

40 Terra ingognita باللاتينية في الأصل م.

بارتفاع معين، وحين تحمله عواطفه، ولم يتجاوز الخط النحيف الذي يفصل عالم الشعور عن عالم الكذب والنزعة العاطفية، والعالم الحقيقي عن العالم السخيف، أو حين يسير بالاتجاه المعاكس، فإنه لم ينجرف بعيدًا إلى الصحراء الرملية للأفكار الراسخة، والتفاهة والارتياب، والحِنكة، والصلابة.

حتى لو جرفتهُ العاطفة، لم يكن ليندفع بقدمه، وشعر دائما بالقوة الكافية لينتزع نفسه بشكل حر لو تطلب الأمر. لم يُعمِه الجمال، لهذا لم ينسَ أو يُهِنْ كرامته كإنسان؛ لم يكن مستعبَدًا ولم «يركع تحت قدمي» امرأة جميلة، على الرغم من أنه جرّب المتع المضطرمة أيضًا. لم يمتلك معبودات، لذا احتفظ بقوى روحه وقوة جسده، هذا هو السبب في أنه كان عفيفًا وفخورًا. أفرز الحيوية والقوة، اللتين جعلتا حتى المرأة الأقل تواضعًا تشعر بالخجل. عرف قيمة تلك الصفات النادرة والثمينة وكان في غاية الشحّ في توظيفها إذ أطلق عليه الأناني عديم الشعور، ووُجّهَ له اللوم بسبب قدرته على السيطرة على دوافعه، والبقاء ضمن حدود السلوك العقلي، والمحافظة على حريته الروحية، بينما أي شخص آخر كان يندفع بتهوّر إلى الكارثة ويحطّم حياته وحياة الآخرين، يتم الصفح عنهُ ويكون أحيانًا موضع حسد أو إعجاب أيضًا.

قال الناس من حوله:

الشغف. الشغف يبرّر كل شيء، وأنتَ في أنانيتك تعتني بنفسك فقط: سنرى لماذا تفعل ذلك.

قال متفكّرًا كأنّه يتفرّس في المدى: «حسنٌ، لا بدّ من أن تكون لشخص آخر»، واستمرّ في إنكار شاعرية العواطف الجامحة، رافضا الإعجاب بتجلّياته العاصفة وعواقبه المدمّرة، لكن دائما أخذ في الاعتبار مفهوم الحياة الصارم ووظائفها كهدف مثالي لوجود الإنسان. كلما جادله الناس، أصبح أكثر عنادًا، وانحدر، في مناقشات متنوعة، إلى العصبية المتزمّتة. اعتاد القول بأن «الغرض العادي من حياة الإنسان هو أن يعيش عبر أربعة (عصور) دون قفزات مفاجئة، ويحمل وعاء الحياة إلى النهاية ذاتها دون أن يريق قطرة واحدة، وإن النار البطيئة والحارقة أيضًا

هي أفضل من الحريق الهائل، مهما كانت شاعريته». في النهاية، أضاف بأنه يود أن يكون سعيدًا إذا ما برهن على إيمانه بقضيته، لكن لم يكن لديه أمل في فعل ذلك لأنه صعبٌ جدًا. بالنسبة لنفسه فقد اتَّبع المسار الذي اختاره. لم يره أحد فيما مضى يطيل التفكير في أي شيء بشكل مؤلم أو مروّع؛ لم تكن لتعذّبهُ أشواك الوعي، لم يؤلمه قلبه، لم يفقد حضور عقله في المواقف الجديدة والصعبة والمعقدة، لكنه عاملها كأنه يعرفها منذ القدم، كأنه عاش حياته مرة أخرى، كأنه زار أماكن مألوفة قديمة ثانيةً. طبّق دائمًا الطريقة الصحيحة عند حدوث طارئ، كما تختار مدبّرة المنزل المفتاح الصحيح لكل باب من مجموعة المفاتيح المعلقة في رسغها.
كان الإصرار على مطاردة هدف معيّن صفة منَحَها قيمةً إلى حدّ بعيد؛ كانت علامة الشخصية في عينيه، ولم ينكر الاحترام للناس الذين امتلكوها، مهما كانت أهدافهم غير مهمة. اعتاد على القول: «هؤلاء هم الرجال». غنيٌّ عن القول بأنه سعى إلى أهدافه بلا خوف، واجتاز كل عقبة في طريقه، وتخلى عنها فقط حين ارتفع جدار أمامه أو هوة غير قابلة للعبور عند قدمه. كان عاجزًا عن تبني نوع من الشجاعة يجعل الإنسان يقفز عبر هاوية أو يقذف نفسه بقوة على جدار وعيناه مغمضتان، على أمل أن يصيب النجاح. كان يقيس أولًا الجدار أو الهوّة، فإذا لم يجد طريقة معينة للتغلب على العقبة، فإنه كان يرجع، بغض النظر عما يقوله الناس عنه.
ربما لا يمكن تشكيل مثل هذا النوع من الشخصية دون العناصر الممتزجة التي صيغت منها شخصية شتولتس. خضع رجال الدولة عندنا دائمًا لخمسة أو ستة نماذج نمطية؛ إذ يظهرون كسولين بعيون نصف مغلقة إزائها، ويمدّون أيديهم إلى آلة الدولة، ويحركونها نعسانين على طول السكة المطروقة، متتبّعين خطى أقدام أسلافهم. لكن سرعان ما تتيقظ عيونهم من نومها، وتُسمع خطوات واسعة راسخة وأصوات حية... كم من الرجال مثل شتولتس ما زالوا يظهرون تحت أسماء روسية!

كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يكون حميمًا مع أبلوموف، الذي كان وجوده، مستقبله، وكل خطوة له، احتجاجًا فاضحًا ضد كل شيء ناضل من أجله شتولتس؟

تبدو الحقيقة راسخة بأن الإجراءات المتطرفة ليس من الضرورة أن تسبّب شعورًا بالعاطفة المتبادلة، كما يعتقد سابقًا، إلا أنها لا تقوم بمنعه. إضافة إلى أنهما أمضيا طفولتهما وأيام دراستهما معًا فأصبحت رابطتهما قوية، وكان قلب الصبي الألماني قد تعلّق بنموذج الكرم الروسي الذي ازدهر في عائلة أبلوموف. الواقع أنّ شتولتس أدى دائمًا دور الأقوى، جسديًا وأخلاقيًا، ومع ذلك، كان هناك في طبيعة أبلوموف شيء طيب خالص ولا عيب فيه، تجسّد عميقًا في تعاطفه مع كل شيء يحمل الخير واستجابته إلى دعوة طبيعته البسيطة الساذجة المفعمة بالثقة دائما. أي شخص يتمعن، بالمصادفة أو بقصد، في روحه الطفولية الخالصة مهما كانت عابسة ومرّة فإنه لا يتوانى عن التعاطف معه والاحتفاظ بذكرى جميلة دائمة له، حتى لو منعتهما الظروف من أن يصبحا صديقين.

غالبًا ما كان أندريه ينتزع نفسه من شؤونه التجارية أو من الناس المتأنقين أو من حفلة راقصة ويذهب ليجلس على أريكة أبلوموف الواسعة ويخفّف العبء عن قلبه المتعب، ويجد الراحة لمزاجه الهائج من خلال الحديث الرتيب، ويجرّب دائمًا الشعور المهدّئ لتجارب إنسان قادم من الردهات الضخمة إلى بيته المتواضع أو عائد من الجنوب الجميل إلى غابة البتولا حيث تعوّد على المشي حين كان طفلًا.

***

(3)

سأله شتولتس:

صباح الخير إيليا. سعيد جدًا برؤيتك! كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام؟

قال أبلوموف بحسرة:

أوه عزيزي. كلا. يا صديقي أندريه. لستُ على ما يرام.

سأل شتولتس بقلق:

آه، هل أنت مريض؟

لقد أصابني شحّاذ العين. الأسبوع الماضي تعافتْ عيني اليمنى منهُ، والآن أصاب العين اليسرى.

ضحك شتولتس.

سأل:

هل ذلك كل ما في الأمر؟ لقد أصابك شحاذ العين بسبب نومك الكثير.

يا إلهي، كلا! لديّ حرقة معدة مروّعة. لا بدّ أنك سمعت ما قاله الطبيب هذا الصباح. أخبرني أن أذهب للخارج أو سيسوء أمري؛ فربما تصيبني سكتة دماغية.

حسنٌ، هل ستذهب للخارج؟

كلا.

لماذا؟

يا إلهي، يجب أن تسمع كل ما قاله لي! يجب أن أعيش في مكان ما في الجبال، وأذهب إلى مصر، أو إلى أميركا...

قال شتولتس ببرود:

حسن، وما المشكلة؟ تستطيع أن تكون في مصر في غضون أسبوعين وفي أميركا في غضون ثلاثة أسابيع.

حتى أنت أيضًا يا صديقي؟ كنتَ الرجل الواعي الوحيد الذي عرفته، وقد أصبت بالجنون أيضًا. من يذهب إلى أميركا ومصر؟ الإنكليز. لكن الربّ خلقهم على هذه الشاكلة، إضافة إلى أنهم لا يمتلكون غرفا كافية في بيوتهم. لكن هل

هناك في روسيا من يحلم بالذهاب؟ ربما الرجل اليائس الذي لا يمنح قدرًا من الأهمية لحياته.

لكن، يا إلهي، الأمر لا يتطلب سوى أن تركب في عربة أو على متن قارب، وتتنفس الهواء النقي، وتنظر إلى البلدان الأجنبية والمدن والعادات، وإلى كل العجائب...

أوه، أنت أيها الرجل المضحك! حسنٌ، أخبرني كيف تسير حياتك؟ وكيف تجري الأمور في أبلوموفكا؟

قال أبلوموف:

آه.

ولوّح بيده بيأس.

ماذا حدث؟

آه، الحياة لا تتركني وحدي.

قال شتولتس:

الحمد للهّ أنها لم تفعل معي ذلك.

فعلًا الحمد للهَّ! لو أنها فقط تستمر بملاطفتي. لكنها تظل تضايقني مثل صبيان أشرار يضايقون طفلًا هادئًا في المدرسة، يقرصونه باختلاس ويندفعون نحوه ويرمونه بالرمل في وجهه. لا أستطيع أن أتحمل المزيد!

سألهُ شتولتس:

اهدأ. ما الذي حدث؟

مصيبتان!

ماذا؟

لقد تحطمت تمامًا.

كيف؟

دعني أقرأ لك ما كتبه وكيل العزبة. أين الرسالة؟ زاخار، زاخار!

عثر زاخار على الرسالة. قرأها شتولتس وضحك على أسلوب الوكيل المحتال.

قال:

كم هو شرير هذا الوكيل! يسمح للفلاحين بالهروب والآن يتذمّر! ربما أعطاهم أيضًا جوازات سفر وسمح لهم بالهروب أينما شاؤوا.

ردّ أبلوموف بشكل سريع:

يا إلهي، لو فعل ذلك، فربما أرادوا كلهم الهروب.

قال شتولتس غير مكترث تمامًا:

دعهم! فأولئك الذين يشعرون بالسعادة ويجدون البقاء لمصلحتهم لن يذهبوا، أما أولئك الذين لا يريدون البقاء فلا فائدة ترجى منهم. لماذا يبقون على هذه الحالة؟

قال أبلوموف:

يا لها من فكرة! فلاحو أبلوموفكا ناس هادئون يرغبون أن يبقوا في البيت. فلماذا يريدون التجوال؟

قاطعه شتولتس:

لا أعتقد أنك تعرف السبب. إنهم مقبلون على بناء منصة للرسو في فرخليوفو ويخططون أيضًا لإنشاء طريق عام، لكي تكون أبلوموفكا على بعد ميل منها، كما أنهم على وشك إقامة معرض سنوي في المدينة أيضًا.

قال أبلوموف:

للأسف! ستكون تلك القشة الأخيرة! اعتادت أبلوموفكا أن تكون في حالة ركود، بعيدًا عن كل شيء والآن سيُقام فيها معرضٌ وطريق عام! سيبدأ الفلاحون بالهجرة بانتظام إلى المدينة، وسوف يأتي التجّار إلينا. إنها النهاية! يا له من إزعاج!

ضحكَ شتولتس.

واصل أبلوموف كلامه:

بالطبع إنه إزعاج! الفلاحون يتصرفون بلطف، لا تسمع منهم شيئًا، لا جيّدًا ولا سيئًا، لكن الآن سيصيبهم الفساد! سوف يبدؤون بارتشاف الشاي والقهوة

ويرتدون البناطيل المخملية والجزم المسوّدة ويعزفون بآلة الأكورديون. لا خير يُرجى من ذلك!
علّق شتولتس:
حسنٌ، بالطبع لو فعلوا ذلك فأكيد لن يحصل خير كثير. لكن لماذا لا تفتح مدرسة في قريتك؟
أليس الأمر مبكرًا جدًا؟ معرفة القراءة والكتابة مضرّة بالفلاحين: حين تعلّمهُ ربما لن يرغب بالحراثة بعد ذلك.
لكن الفلاحين سيكونون قادرين على قراءة كيفية حرث حقولهم. أيها الرجل المضحك! لكن اسمعْ، يجب أن تذهب إلى عزبتك هذه السنة.
علّق أبلوموف متوجّسًا:
نعم، ذلك صحيح، لكن أنت ترى أن خطتي غير جاهزة تمامًا حتى الآن...
قال شتولتس:
لا تحتاج لأية خطة! كل ما يجب عمله أن تذهب هناك، وسوف تطّلع على ما جرى تنفيذه هناك. لقد رسمتَ هذه الخطة منذ عدة سنوات: ألم يتمْ الانتهاء منها بعد؟ ماذا كنتَ تفعل؟
يا صديقي العزيز، كأني لم أمتلك سوى العزبة لكي أقلق عليها! ماذا عن المصيبة الأخرى؟
ما هي؟
سوف يجبرونني على ترك الشقة.
يجبرونك على تركها؟
نعم، أخبروني توًا أن أخليها، ويبدو أنهم عازمون على ذلك.
حسن، وما المشكلة في ذلك؟
ما المشكلة؟ لقد أصابني القلق والإرهاق والحزن بسببها. أنا وحدي، وهناك ما ينبغي النظر فيه هنا وهناك، وتدقيق الحسابات، ودفع الفواتير، ثم هناك مشكلة

الانتقال! إني أصرف كمية كبيرة من المال، لا أعرف بالتأكيد ماذا يجري! قبل أن أعرف أين أنا، سوف يصيبني الإفلاس!

قال شتولتس مندهشًا:

يا لك من رجل مُدلّل! ألا تستطيع أن تقنع نفسك بالانتقال إلى شقة جديدة! بمناسبة الحديث عن المال، هل لديك الكثير من المال؟ أعطني خمسمائة روبل من فضلك. يجب أن أرسلها فورًا. سوف أحصل عليها من الدائرة غدًا...

انتظر، دعني أفكّر! تسلّمتُ ألف روبل من العزبة منذ بضعة أيام والآن بقي... انتظر دقيقة...

بدأ أبلوموف ينقّب في الدُرج.

هنا عشرة، عشرون، مئتان روبل. وهنا عشرون أخرى. كانت هناك بعض القطع النحاسية. زاخار! زاخار!

قفز زاخار كالعادة من سطح الموقد ودخل.

أين العشرون كوبيكًا التي وضعتها أمس على المنضدة؟

ما زلت تعزف على نغمة العشرين كوبيكًا سيدي! لقد قلت لك سابقًا بأنه لا توجد الكوبيكات العشرون على المنضدة.

بالطبع كانت موجودة! الفكّة المتبقية من شراء البرتقال.

قال زاخار ودار نحو الباب:

ربما أعطيتها إلى شخص ما ونسيتها سيدي.

ضحك شتولتس.

وجّه اللوم لهما قائلًا:

أوه، أنتم يا آل أبلوموف! ألا تعرفون كم من المال في جيوبكم!

ذكّره زاخار:

سيدي، ألم تعطِ بعض المال إلى السيد تارانتييف؟

قال أبلوموف:

نعم، نعم، بالطبع.

واستدار نحو شتولتس.

تارانتييف أخذ عشرة روبلات. لقد نسيت ذلك.

علّق شتولتس:

لماذا تستقبل هذا البهيمة؟

تدخّل زاخار:

لماذا يستقبله سيدي؟ آه، إنه يأتي هنا كأنه بيته أو حانته. أخذَ قميص السّيد وصدرته، ولم نره ثانيةً! جاء هذا الصباح من أجل أن يطلب معطفًا رسميًا. أراد أن يلبسهُ فورًا! فلبسهُ. أودّ سيدي لو تكلمتَ معه حول ذلك!

قال أبلوموف بشكل صارم:

إنه ليس شأنك يا زاخار. ارجعْ إلى غرفتك.

قال شتولتس:

أعطني ورقة. يجب أن أكتب ملاحظة إلى أحد الأشخاص.

قال أبلوموف:

زاخار، السيد شتولتس يريد ورقة، أعطِه.

أجاب زاخار من الممر:

لكن لا توجد أية ورقة يا سيّدي.

وأضاف دون أن يزعج نفسه في الدخول:

أنت بحثت عنها بنفسك هذا الصباح.

أصرّ شتولتس قائلًا:

مجرد قصاصة من الورق!

بحث أبلوموف على المنضدة؛ لم تكن ثمة قصاصة.

أعطني بطاقة زيارتك في الأقل.

قال أبلوموف:

لم امتلك أيًّا منها منذ فترات طويلة.

سأل شتولتس بشكل ساخر:

ما قضيتك؟ وأنت على وشك أن تكتب خطة. أخبرني، هل تخرج إلى مكان ما؟ ومن الذي تراه؟

أخرج؟ يا إلهي، كلا! أنا دائمًا في البيت. خطتي تصيبني بالقلق كما تعرف، ثمّ هناك مسألة الحصول على شقة جديدة. الحمد للهّ، وعدني تارانتييف بالعثور على شقة لي.

هل يأتي أحد ليراك؟

أوه نعم. تارانتييف، ألكسييف... ظهر الطبيب في هذا الصباح. بنكين أيضًا، سُدبنسكي، فولكوف...

قال شتولتس:

لم أرَ أي كتب في غرفتك.

علّق أبلوموف:

هذا كتاب!

وأشار إلى كتاب مُلقىً على منضدة.

سأل شتولتس:

ما هذا؟

وألقى نظرة على عنوان الكتاب قائلًا:

رحلة إلى أفريقيا. والصفحة التي توقفت القراءة عندها بدت عتيقة. إنها ليست صحيفة لكي تُطالعها. هل تقرأ الصحف؟

كلا. الحروف ناعمة جدًا، تؤذي العين، ولا حاجة لها في الواقع؛ لو أن شيئًا جديدًا قد حدث، فإنه يظلُّ يدق في أذنيك طوال اليوم.

قال شتولتس وتفرّس في أبلوموف:

يا إلهي، إيليا! ماذا تفعل؟ تبقى تضخّم المسألة وتكذب بشأنها كأنها قطعة من العجين.

أجاب أبلوموف بحزن:

ذلك صحيح يا أندريه. تمامًا مثل قطعة من العجين.

لكن أن تكون واعيًا بشيء لا يعني أن تبرره، صح؟
أجاب أبلوموف بحسرة:
كلا، لكني أجبت فحسب عن سؤالك؛ أنا لا أبرّر نفسي.
لكن يجب أن تستيقظ من نومك.
حاولت ففشلت، ولماذا؟ لا شيء يثيرني، قلبي مرتاح، عقلي ينام هادئًا!
وختم كلامه بلمسة من السخرية:
دعنا لا نتكلم عن هذا الأمر... الأفضل أن تخبرني من أين أتيت؟
من كييف. خلال الأسبوعين القادمين سأذهب إلى الخارج. تعال معي.
قرّر أبلوموف:
حسن جدًا، ربما سآتي.
حسن إذن، اجلس واكتب طلب تسجيل جوازك وغدًا تستطيع أن تسلّمه.
صاح أبلوموف وجَفَل:
غدًا! أنتم أيها الناس دائمًا مستعجلون، كأنّ أحدًا يدفعكم! سوف نفكّر بالأمر ونناقشه ثم نرى. ربما يكون من الأفضل أن نذهب إلى العزبة أولًا ثم إلى الخارج فيما بعد.
لكن لماذا فيما بعد؟ ألم يخبرك الطبيب؟ أولًا تتخلص من سمنتك، وثقل جسمك، ثم ستكف روحك عن النوم أيضًا. تحتاج إلى ألعاب قوة جسدية وعقلية.
كلا، أندريه، كل ذلك يتعبني بالتأكيد: صحتي سيئة. كلا، من الأفضل أن تتركني وحدي وتذهب.
نظر شتولتس إلى أبلوموف المستلقي، وبدوره نظر أبلوموف له. هزّ شتولتس رأسه وتأوّه أبلوموف.
قال شتولتس:
أعتقد أنك كسول جدًا في العيش.
حسنٌ، وأنا أيضًا أعتقد بذلك يا أندريه.

حاول أندريه بصعوبة أن يفكر كيف بوسعه أن يؤثر فيه سريعًا، إن كان ثمة شيء فعلًا يؤثر فيه، وفي الوقت نفسه تفحّصَهُ في صمت وفجأة انخرط في الضحك.

علّق فجأة وأشار إلى قدم أبلوموف:

لماذا لديك جورب صوفي واحد وجورب قطني واحد؟ وترتدي قميصك مقلوبًا أيضًا!

نظر أبلوموف إلى قدميه ثم إلى قميصه.

اعترف وبدا مربكًا:

هكذا هي. زاخار ذاك هو العَقَبة! لا تصدّق كيف يرهقني! ويجادل، إنه جلف، ولا ينكب على عمله.

قال شتولتس:

أوه، إيليا، إيليا! لا أستطيع أن أتركك بهذا الوضع. لن تعرف نفسك في الأسبوع القادم. سأخبرك بما أنا فاعل بك وبنفسي هذا المساء، والآن البسْ ملابسك! انتظرْ، سوف أغيّرك جذريًا!

ثم صاح:

زاخار! اجلب ملابس السيد أبلوموف!

لكن أين سنذهب؟ يا إلهي! تارانتييف وألكسييف قادمان ليأكلا معي، ثم نريد أن...

تابع شتولتس قوله دون أن يصغي له:

زاخار. اجلب الملابس.

قال زاخار بسرعة:

نعم سيدي، لكن دعني أنظف الجزمتين أولًا.

ماذا؟ ألم تنظف الجزمتين قبل الساعة الخامسة؟

إنهما نظيفتان يا سيدي. لقد نظفتهما الأسبوع الماضي، لكن السيّد لم يخرج لذا فقدتا بريقهما ثانيةً.

لا تهتم، اجلبهما كما هما. خذ صندوق ثيابي إلى غرفة الاستقبال؛ سوف أبقى هنا. سوف ألبس الآن وأنت يا إيليا، كن جاهزًا أيضًا. سوف نأكل الطعام في مكان ما في الطريق، ثم نزور مكانين أو ثلاثة...

لكن انتظر، لا تسرعْ. انتظرْ دقيقة. دعنا نفكر بالأمر أولًا، إني لم أحلِقْ بعد...

لا حاجة للتفكير وحكّ شعرك... سوف تحلِق ونحن في الطريق؛ سوف آخذك إلى الحلّاق.

صاح أبلوموف حزينًا:

لكن أين سنذهب؟ هل أعرف الناس؟ يا لها من فكرة! أود زيارة إيفان غراسيموفيتش. لم أره منذ ثلاثة أيام.

من هو إيفان غراسيموفيتش؟

كان زميلي في الدائرة التي كنت أعمل بها.

أوه، الموظف الإداري ذو الشعر الرمادي. ماذا ترى فيه؟ ما الذي يجعلك ترغب في أن تقضي وقتك مع أحمق مثله؟

كم أنت قاسٍ وأنت تتكلم عن الناس أحيانًا، يا أندريه. حقًا! إنه رجل لطيف، مع أنه لم يرتدِ قمصان من الكتان الهولندي!

سأله شتولتس:

ماذا تعمل هناك؟ عمّ تتكلم معه؟

حسنٌ، أنت تعرف، كل شيء في منزله جميل ومريح. الغرف صغيرة والأرائك في منتهى العمق بحيث إنك تغوص داخلها ومن الصعب رؤيتك. النوافذ مغطاة باللبلاب والصبّار، هناك العشرات من طيور الكناري وثلاثة كلاب. يا لها من مخلوقات محبوبة! كانت هناك دائمًا وجبة خفيفة على المائدة. الصور المطبوعة المعلقة على الحائط تحمل مشاهد عائلية. تأتي ولا ترغب بالذهاب. تجلس دون تفكير أو قلق حول أي شيء، تعرفُ أنّ هناك إلى جانبك إنسانًا، مع أنهُ قد يكون غير ذكي، لأنّ الوقت سيذهب هباءً حين تتبادل الآراء معه. إنه بسيط، طيب القلب، مضياف، دون طموحات، إنسان لن يحلم بإهانتك في غيابك!

لكن ماذا نفعل هناك؟
ماذا نفعل؟ حسنٌ، سوف نرى، حالما نصل سوف نجلس على الأرائك متقابلين وأقدامنا مرفوعة. إنه يدخّن...
وأنت؟
أنا أدخّن أيضًا وأصغي إلى إنشاد طيور الكناري. ثم تجلب مارفا السماور.
قال شتولتس ورفع كتفيه استهجانًا:
تارانتييف، إيفان غراسيموفيتش.
ثم حثهُ على الإسراع:
حسنٌ، هيّا البسْ بسرعة.
وأضاف موجهًا حديثه إلى زاخار:
حين يأتي تارانتييف أخبرهُ بأننا خرجنا نتناول الطعام وأن السيد أبلوموف سوف يأكل أثناء الصيف كله خارج البيت، وسوف يكون مشغولًا في الخريف ولا يمكن أن يراه.
أجاب زاخار:
سوف أخبرهُ بذلك سيدي. لا تقلق. لن أنسى. وماذا أفعل بوجبة الطعام سيدي؟
كُلها مع مَنْ تشاء.
نعم سيدي.
خرج شتولتس من غرفة الاستقبال بعد عشرة دقائق بوجه حليق، مرتديًا ثيابه وممشطًا شعره. كان أبلوموف جالسًا في سريره، ينظر بشكل كئيب ويزّرر قميصه ببطء ويجهد نفسه مع العُروة. سجد زاخار أمامه على ركبة واحدة، وهو يحمل جزمة غير مصبوغة بيده كأنها طبق وينتظر سيّده كي ينهي غلق أزرار قميصه.
قال شتولتس مندهشًا:
إنك لحد الآن لم تلبس جزمتك! حسن، هيّا يا إيليا، أسرعْ!
صاح أبلوموف بائسًا:

لكن أين نحن ذاهبون؟ ولماذا؟ لقد رأيت المكان من قبل! أخشى الملل من التمتع به، لا أريد أن...

حثّه شتولتس على الإسراع:

هيّا! هيّا.

* * *

(4)

على الرغم من أن الوقت كان متأخرًا جدًا، نجحوا في القيام بزيارة عمل، وأخذ شتولتس مالك أحد مناجم الذهب إلى وليمة طعام، ثم ذهبوا إلى بيت الأخير الريفي ليرتشفوا الشاي. هناك وجدوا صحبة كبيرة، وبعد عزلته التامة وجد أبلوموف نفسه بين الناس. رجعا إلى بيتيهما ليلًا متأخرين.

حدث الشيء نفسه في اليوم التالي والذي يليه، ومرّ الأسبوع بأكمله كلمح البصر. احتجّ أبلوموف وشكا وجادل، لكنه كان مهزومًا فتبع صديقه أينما حلّ. احتجّ في صباح أحد الأيام حين رجعوا متأخرين على هذا النمط من الحياة.

دمدم أبلوموف ولبس مبذله:

طوال اليوم لا تخلع جزمتك، قدماي ترتجفان!

وتابع قوله:

أكره حياتك البطرسبورغية هذه!

وارتمى على الأريكة.

سأله شتولتس:

أي نمط من الحياة ترغب؟

لا أرغب بهذا النمط.

ماذا تكره بالأخص؟

كل شيء، هذا التهافت المطّرد، هذا التفاعل الدائم للعواطف التافهة، وبالأخص النهم، واللَّهفة التي يحاولون بهما الحصول على الأفضل، كل واحد من الآخر، نشر الفضائح، والإشاعات، والطريقة التي ينظرون بها إليك من الأعلى للأسفل؛ الإصغاء إلى كلامهم يجعل من رأسك يعوم وتصبح غبيا. يظهرون مبجلين وأذكياء، لكن كل ما تسمعه من حديثهم هو: «هذا الشخص مُنِحَ شيئًا، وذلك حصل على مقاولة كبيرة من الحكومة...». يصيح شخص: «يا إلهي، لماذا؟ فلان فقد ماله كله وهو يلعب الورق في النادي الليلة الماضية؛ فلان يأخذ ثلاثمائة ألف

لمهره!». الأمر برمته مضجر، مضجر، مضجر! أين الإنسان الحقيقي هنا؟ أين كماله؟ أين يختفي؟ كيف يستطيع أن يبذّر مواهبه الكبيرة على التوافه؟

قال شتولتس:

لكن على المجتمع أن ينشغل بشيء أو بآخر. كل شخص لديه اهتماماته الخاصة. تلك هي الحياة...

المجتمع! افترض يا أندريه أنك أرسلتني إلى المجتمع لغرض أن تثبّط همتي من الذهاب إلى هناك. الحياة! حياة جميلة! ما الذي يبحث عنه المرء هناك؟ الشؤون الفكرية؟ الشعور الحقيقي. انظر فحسب لعلك تجد المركز الذي تدور عليه كل هذه الأمور؛ لا يوجد مثل هذا المركز، ما من شيء عميق ولا حيوي. كل أفراد المجتمع ميتون، كلهم نائمون، إنهم أسوأ مني! ما هو هدفهم في الحياة؟ إنهم لا يستلقون، إنهم يركضون ذهابًا وإيابًا كل يوم مثل الذباب، لكن لأي غرض؟

تدخلُ في غرفة الاستقبال ولا تتمالك نفسك من الإعجاب بالطريقة النظامية التي يجلس بها الضيوف على طاولات لعب الورق! إنها فعلًا غاية رائعة في الحياة!

نموذج مدهش لعقل يبحث عن شيء مثير. أليس كلهم رجال ميتون؟ ألم يناموا طوال حياتهم بمثل هذا الوضع؟ لماذا يوجّه لي اللوم أكثر لأني أستلقي في البيت ولا ألوّث عقول الآخرين بأحاديثي عن ورق اللعب والخدَم؟

علّق شتولتس:

هذا هراء قديم. لقد تم تداوله آلاف المرات من قبل. أليس لديك ما هو جديد؟

حسن، وماذا بشأن أفضل ممثلي جيلنا الأصغر؟ ماذا يفعلون؟ أليسوا نائمين حتى حين يتكلمون أو يسيرون عبر شارع نفسكي أو حين يرقصون؟ يا لها من أيام مراوغة ومستمرة وتافهة ومتكررة! لكن راقب الفخر والوقار المدهشين، والنظرة المتعالية التي يقيّمون بها كل شخص لا يلبس لبسهم ولا هو بالرتبة نفسها والمنزلة الاجتماعية اللتين لهم. ويتصوّر البائسون المساكين بأنهم فوق الناس العاديين! يقولون: نحنُ نشغل أفضل المناصب في الوظائف الحكومية، نحن نجلس في الصف الأمامي للمقاعد، نحن نذهب إلى الحفلات الراقصة للأمير «ن»، حيث لم

يتم دعوة ناس آخرين. وحين يجتمعون يسكرون ويتشاجرون مثل الوحوش. آه، هل هؤلاء ناس نشطون ويقظون تمامًا؟ الأمر لا ينطبق على الشباب فحسب؛ انظر إلى الناس الأكبر سنًا. إنهم يلتقون ويتسلّون معًا في أثناء وجبات الطعام، لكن لا توجد زمالة حقيقية، ولا حُسن ضيافة حقيقي، ولا تعاطف متبادل. لو أنهم يلتقون في وليمة أو حفلة فكأنهم يلتقون في دائرتهم؛ ببرود، بلا أثر من الابتهاج، لكي يتفاخروا بطبّاخهم أو غرفة استقبالهم، ثمّ ليسخر أحدهم من الآخر بتكتّم على انفراد، وإظهار أحدهم خطأ الآخر. لم أعرف بصراحة في اليوم التالي لوجبة الطعام أين أنظر ورغبت لو أني أختفي تحت المائدة، حين بدؤوا ينالون تمزيقًا من مكانة أولئك الذين لم يكونوا هناك: فلان أحمق، فلان نذل وضيع، ذلك لص، والآخر سخيف... مذبحة منّظمة! وبينما كانوا يتحدثون، ينظر كل واحد منهم للآخر كأنهم يقولون: «اخرج من الباب، يا صديقي العزيز، وسوف نفعل الشيء نفسه بك». آه، حينئذ هل يلتقون إن كانوا على هذه الشاكلة؟ لماذا يضغط أحدهم على يد الآخر بحرارة؟ ما من ضحكة أصيلة ولا بصيص من التعاطف! كلهم يخرجون لكي يلتقوا شخصًا عالي المقام ذا اسم معروف لكي يأتي إلى منزلهم ويتفاخرون فيما بعد: «زارني فلان» أي نوع من الحياة هذه؟ لا أرغب بها. كيف يمكنني أن أخرج منها؟ ماذا سأتعلّم هناك؟

قال شتولتس:

هل تعلم يا إيليا أنك تتكلم مثل القدماء؛ إنهم اعتادوا أن يكتبوا كذلك في الكتب القديمة. غير أنّ ذلك أمر جيد أيضًا. على الأقل أنت تتكلم ولا تنام. حسن ماذا بعد؟ تابعْ.

لماذا أتابع؟ لديك نظرة جيدة؛ ما من أحد هنا يبدو حيويًا ومعافى.

قاطعه شتولتس:

إنه المناخ. وجهك أيضًا يبدو منتفخًا وأنت لم تهرولز إنك تستلقي في الفراش طوال اليوم.

واصل أبلوموف كلامه:

لا يوجد منهم من يملك عينين صافيتين هادئتين. كل واحد منهم يلوث الآخر بنوع من القلق المعذّب والكآبة؛ كلهم يبحثون بشكل مؤلم عن شيء ما. وليته كان بحثا عن الحقيقة أو رفاهية أنفسهم والناس الآخرينز لكن لا، إنهم يتحولون شاحبين حين يعلمون بنجاح صديق. قلق الإنسان الوحيد في العالم هو وجوب حضوره في المحكمة غدًا. لقد جرى تمديد قضيته لمدة خمس سنوات، الطرف الآخر هو الفائز، وكانت له خلال خمس سنوات رغبة واحدة، فكّر بها في ذهنه: أن يُخطِّئ الإنسان الآخر ويؤسِّس رفاهيته على خرائبه. ذلك هو هدف حياته وغايته! أن يذهب بانتظام إلى المحكمة لمدة خمس سنوات ويجلس وينتظر في الممر. رجل مكتئب لأنه يجب عليه أن يذهب إلى دائرته كل يوم ويبقى هناك لمدة خمس ساعات، ورجل آخر يطلق حسرة عميقة لأنّ مثل هذه البَرَكة لم تكن من نصيبه...

قال شتولتس:

إنك فيلسوف يا إيليا. الكل أصابهم القلق. إنك الوحيد الذي لا يرغب بشيء.

تابع أبلوموف القول:

ذلك الرجل النبيل ذو النظارات والوجه الشاحب ظل يسألني إن كنت قد قرأت كلام المندوب الفرنسي، وحملق فيّ حين أخبرته بأني لم أقرأ الصحف. وظل يتكلم ويتكلم حول لوي فيليب[41] كأنه أبوه. ثم ظلّ يضايقني ليخبرني لماذا ترك السفير الفرنسي روما. هل تتوقع مني أن أحمّل نفسي يوميًا بأخبار العالم الجديدة ثم أنادي بها كل أسبوع إلى أن تنتشر؟ اليوم قام محمد علي بإرسال سفينة إلى القسطنطينية، والآن يجهد ذهنه متسائلًا عن السبب. غدًا يتوقف دون كارلوس عن التقدّم وهو قلق جدًا. هنا يحفرون قناة، وهناك كتيبة من القوات أرسلت إلى الشرق. يا إلهي، إنها الحرب! يبدو عليه القلق الشديد، إنه يجري، ويصيح، كأنّ الجيش كان يسير ضدّه شخصيًا. إنهم يجادلون ويناقشون كل شيء من كل وجهة نظر ممكنة، لكنهم

41ملك فرنسا 1830 1848.

ضجرون، ولا يهتمون حقًا بالأمر كله. تستطيع أن ترى بأنهم سريعو النوم على الرغم من صيحاتهم! الأمر برمَّته لا يهمّهمز كأنهم تجوَّلوا بقبعات مستعارة. ما من شيء لديهم، لذا يبدّدون طاقاتهم في أنحاء المكان دون أن يحاولوا أن يستهدفوا أي شيء خصوصًا. عمومية شؤونهم تخفي الفراغ والغياب الكامل للتعاطف مع كل شيء! اختيار المسار الأشد تواضعًا للعمل الشاق وتتبعه، وحفر قناة عميقةن هو أمر رتيب لا يبعث على الفخر. ومعرفة كل شيء ستكون بلا فائدة ولن يكون هناك أحد لكي تؤثر فيه!

قال شتولتس:

حسن يا إيليا، أنا وأنت لن نشتّت طاقاتنا بكل الاتجاهات، أليس كذلك؟ أين مسار عملنا الشاق الأشد تواضعًا؟

خمد أبلوموف فجأة في الصمت.

قال:

لقد انتهيت توًّا من خطتي.

أضاف غاضبًا بعد فترة توقف:

على أية حال، لماذا أقلق بشأنها؟ أنا لا أتعارض معهم... كل ما أقوله إنني لا أستطيع أن أرى حياتهم اعتيادية. كلا، تلك ليست الحياة، بل تشويهًا لمبدأ الحياة وغايتها، التي تتطلب طبيعتها أنّ الإنسان يجب أن يُؤخَذ في الاعتبار مثل هدفه.

ما هدف الحياة ومبدأها؟

لم يُجبْ أبلوموف.

تابع شتولتس القول:

الآن أخبرني، ما نوع الحياة التي خططتها لنفسك؟

لقد خططتها سابقًا.

آه؟ أخبرني، ما هي؟

قال أبلوموف وانقلب على ظهره وحدّق في السقف:

ما هي؟ حسنٌ، أود الذهاب إلى الريف.

لماذا لا تذهب؟

خطتي غير جاهزة. إضافة إلى أني لا أودّ أن أذهب بنفسي بل بمرافقة زوجتي المقبلة.

آه، فهمت! حسن، ولِمَ لا؟ ماذا تنتظر؟ في السنوات الثلاثة أو الأربعة المقبلة لن تقبل بك امرأة زوجًا لها.

قال أبلوموف بحسرة:

حسنٌ، لا يمكن أن يفيدني الزواج، فأنا فقير جدًا.

يا إلهي، وماذا عن أبلوموفكا؟ والأقنان الثلاثمائة[42].

ماذا عنها؟ ذلك لا يكفي للعيش مع زوجة.

لا يكفي لشخصين للعيش معًا؟

لكن ماذا بشأن الأطفال؟

إذا ما منحتهم تعليمًا لائقًا، سيكونون قادرين على كسب عيشهم. يجب أن تعرف كيف تبدأ معهم بالاتجاه الصحيح...

قاطعه أبلوموف بجفاف:

كلا سيدي، لا فائدة من صنع العمّال من النبلاء، إضافة إلى ذلك، حتى لو تجاهلنا مسألة الأطفال، فيجب ألّا نكون بأنفسنا فقط. أن تكون وحيدًا مع زوجتك هو طريقة للكلام فقط. في الواقع، سوف تغزو بيتك مئات النساء حالما تتزوج. انظر إلى أي عائلة تحبها؛ نساء قريبات، مدبّرات منزل، وإن لم يعشن في البيت، يأتين كل يوم لارتشاف القهوة وتناول الطعام. كيف للمرء أن يحتفظ بمثل هذه المؤسسة مع وجود ثلاثمائة قنّ؟

سأل شتولتس، وثار فضوله:

حسنٌ. افترض الآن أنك أُعْطِيتَ ثلاثمائة ألف أخرى، فماذا أنت عاملٌ بها حينئذ؟

42العبد المملوك للأرض.

سوف أرهنها وأعيش على الفائدة.

لكنك لن تحصل على فائدة كبيرة. لماذا لا تستثمر نقودك في بعض الشركات، شركتنا مثلًا؟

كلا سيدي، لا أفعل ذلك.

لماذا؟ ألا تثق بي؟

بالتأكيد لا. ليست المسألة عدم الثقة بك، لكن قد يحدث أي شيء؛ افترض أن شركتك أصابها الإفلاس فأصبحتُ بلا فلس واحد! البنك مسألة أخرى.

حسن جدًا، ماذا ستفعل حينئذ؟

سأنتقل إلى بيت جديد مريح. سيكون هناك جيران طيبون يعيشون في الجوار؛ أنت، مثلًا. لكن لا، إنك لم تستطع أن تبقى في مكان واحد طويلًا، صحيح؟

صحيح؟ ألن تذهب في رحلة مطلقًا؟

أبدًا.

آه، إذن هل سيواجهون مشكلة كبيرة في بناء سكك الحديد، والبواخر، إذا ما بقي هدف الحياة في المكان نفسه؟ فلنرسل لهم اقتراحًا أن يتوقفوا يا إيليا. ألا نذهب إلى أي مكان؟

هناك الكثير من الناس من جميع الأنواع: وكلاء، مدراء، تجار، موظفون حكوميون مسافرون، لا يمتلكون بيوتًا خاصة بهم. دعهم يسافرون كثيرًا ما شاؤوا؟

لكن من أنتَ؟

لم يحرْ أبلوموف جوابًا.

٪35 561 دقيقة متبقية من «أبلوموف» إلى أي صنف من الناس تنتمي حسب اعتقادك؟

قال أبلوموف:

اسأل زاخار.

نفّذ شتولتس رغبة أبلوموف حرفيًا.

صاح:

زاخار!

دخل زاخار وبدا نعسانًا.

سأل شتولتس:

من يستلقي هناك؟

صحا زاخار فجأةً وألقى نظرة جانبية مريبة على شتولتس، ثم على أبلوموف.

مَنْ يستلقي؟ آه، ألا ترى؟

قال شتولتس:

كلا.

... يا إلهي! آه، إنه السيد، إيليا إليتش.

كشّر.

حسنٌ. بإمكانك أن تذهب.

كرّر شتولتس:

السيّد.

وانخرط في الضحك.

صحّح أبلوموف وغلبه الغيظ:

آه، حسن، قصدك الرجل النبيل، إذن.

تابع شتولتس القول ضاحكًا:

كلا، كلا! إنك سيّد!

قال أبلوموف:

ما الفرق؟ النبيل مثل السيّد.

عرّف شتولتس:

الرجل النبيل هو نوع من الرجل السيّد الذي يلبس الجوارب وينزع جزمته بنفسه.

نعم، الرجل الإنكليزي يفعلها بنفسه لأنه في إنكلترا وليس لديهم العديد من الخدَم، لكن في روسيا...

استمرْ برسم غاية حياتك لي. حسن، لديك أصدقاؤك الطيبون حولك. ماذا بعد؟ كيف ستقضي أيّامك؟

بدأ أبلوموف:

حسنٌ، أود النهوض في الصباح.

ووضع يديه خلف رقبته، وظهر في وجهه تعبير هادئ (كان يفكّر سابقًا في الريف).

قال:

المناخ بهيج، السماء زرقاء جدًا، ولا وجود لغيمة. الشرفة في أحد جوانب البيت في خطتي تواجه الشرق باتجاه الحديقة والحقول، والجانب الآخر باتجاه القرية.

بينما أنتظر زوجتي لتستيقظ، سأرتدي مبذلي وأذهب لأتمشى في الحديقة، ولأتنفس هواء الصباح المنعش. هناك أود أن أحصل على بستان وسوف نسقي الأزهار معًا ونشذّب الأدغال والأشجار. سوف أصنع باقة زهور لزوجتي. ثم أغسل في الحمام أو أذهب لأسبح في النهر. وعند عودتي سأجد باب الشرفة مفتوحًا. زوجتي ترتدي ثوبها الصباحي وقبعة خفيفة تبدو وكأنها ستطير في أية لحظة... إنها تنتظرني. تقول: «الشاي جاهز». يا لها من قبلة! يا له من شاي! يا له من كرسيٍّ مريح!

أجلسُ إلى المائدة: بسكويت، قشدة، زبد طازج...

وماذا بعد؟

حسنٌ، ثم أرتدي معطفًا فضفاضًا أو سترة قصيرة وأضع ذراعي حول خصر زوجتي، فنمشي في شارع متصّل مظلم من الأشجار. نمشي بهدوء ونحلم بصمت أو نفكّر بصوت عالٍ، ونحلم أحلام يقظة، نحسب لحظات السعادة مثل دقات نبض المرء. نستمع إلى دقات قلبينا، ونبحث عن الانسجام مع الطبيعة، وتدريجيًا نصل النهر والحقول... بالكاد توجد موجة صغيرة في النهر، سنابل

القمح تلوّح في النسيم الخفيف. الجو حار. نركب على متن قارب، تقوده زوجتي، ونرفع المجذاف بصعوبة...

قاطعهُ شتولتس:

آه، إنك شاعر يا إيليا!

تابع أبلوموف القول، وقد جرفهُ مثال السعادة التي كان يصفها:

نعم، شاعر في الحياة، لأنّ الحياة هي الشعر. الناس أحرار في تشويهها لو يشاؤون!... عندئذ ربما ندخل إلى مستنبت زجاجي.

كان يستخلص من خياله مشاهد جاهزة، رسمها منذ مدة طويلة، وذلك هو السبب في أنه تكلم بمثل هذه الحيوية ودون توقف.

واصل الكلام:

... لكي نلقي نظرة على أشجار الخوخ والعنب، ونخبرهم ماذا نريد من أجل المائدة، ثم نرجع، ونأكل وجبة خفيفة وننتظر الضيوف... في الوقت نفسه ستصل هناك مذكرة لزوجتي من ماريا بتروفنا، مع كتاب وموسيقى، أو سيرسل أحد الأشخاص لنا أناناس كهدية، أو بطيخة ضخمة سوف تنضج في مستنبتي الزجاجي وسوف أرسلها إلى صديق عزيز من أجل طعام اليوم القادم، وأذهب هناك بنفسي... في الوقت ذاته ستنشط الأمور في المطبخ، الطبّاخ، بقبعته البيضاء الثلجية ومئزره، مشغول جدًا، وهو يضع قِدرًا ذات مقبض على الموقد، ويكشف أخرى، ويحرّك شيئًا في قدر ثالثة، ويعمل العجينة ويرمي بعض الماء... صليل السكاكين؛ لقد تم تقطيع الخضراوات، وصنع المثلجات... أود أن أطل على المطبخ قبل تقديم وجبة الطعام، وأجرّب أن أكشف قِدرًا وأتذوّق، ولأراهم وهم يجمعون فطائر اللحم، ويَخفقون القشدة. ثم أستلقي على الأريكة. زوجتي تقرأ شيئًا جديدًا بصوت عال، نتوقف ونناقشه... لكن الضيوف يصلون، أنت وزوجتك مثلًا.

آه، هل تريد أن تزوِّجني من امرأة أيضًا؟

بالتأكيد! بحضور اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء، وكل الوجوه المألوفة. نستأنف الحديث الذي تركناه في اليوم السابق، بعد أن نثرثر بالنكات أو تسود فترة من الصمت البليغ... ويكون عن حلم يقظة، لا لأننا قلقون من قضية في المحكمة العليا، بل يكمن السبب في أنّ كل رغباتنا قد أشبعت كليًا ونحن ننغمر في نوبة من المتعة الفكرية... لن تسمع أحدًا يتلقى هجومًا عنيفًا ضد صديق غائب، لن تلتقط نظرة تشي بذات الوعد في اللحظة التي تغادر بها بيتك. لن تجلس إلى وجبة الطعام مع أي شخص لا ترغب به. عيون أصحابك مفعمة بالعاطفة، نكتهم مليئة بالضحكة الصادقة واللطيفة... كل شيء صادق! الكل ينظر ويعبّر عما يشعر به! بعد وجبة الطعام هناك قهوة يمنية، وتدخين سيجار الهافانا على الشرفة...

إنك تصفها لي بالطريقة نفسها التي كان يروي بها آباؤنا وأجدادنا.

أجاب أبلوموف:

كلا، كيف تقول بأنها نفس الطريقة؟ هل ستصنع زوجتي المربيات ومخلل الفطر؟ هل ستقيس الغَزْل وتصنّف الكتّان البيتي؟ هل تلْكمُ آذان خادماتها؟ هل سمعت ما قلت؟ الموسيقى، الكتب، البيانو، الأثاث الأنيق؟

حسنٌ، وأنت؟

يجب ألَّا أقرأ صحف السنة الماضية، وأرحل في عربة قديمة عاطلة، أو آكل حساء المعكرونة والأوزة المشوية، لكن يجب أن أدرّب طبّاخي في النادي الإنكليزي في سفارة أجنبية.

وبعد ذلك؟

ثم، حين تنخفض الحرارة، سأرسل عربة مع سماور وحلوى إلى أيكة البتولا أو أخرى إلى حقل القش، وأنشر السجّاد على العشب المجزوز الجديد بين الأكداس، وأكون سعيدًا هناك إلى أن يحين وقت الحساء البارد والفطور. إذ يرجع الفلاحون من الحقول بالمناجل على أكتافهم، تزحف العربة مثقلة بالقش الذي يرتفع عاليًا حاجبًا العربة والحصان من الرؤية، وهناك قبّعة فلاح مزيّنة بالزهور ورأس طفل

يبرز من قمّة القش. عندها تأتي جماعة من النساء عاريات الأقدام يحملن المناجل، وينشدنَ بأعلى أصواتهنّ... فجأة يلمحن سيّدهنّ وضيوفه، فيغمرهنّ الهدوء، وتصدر عنهنّ انحناءة. إحداهنّ، وهي شابة برقبة لوحتها الشمس، وذراعين عاريين، وعينين كتومتين تخفضهما بخوف، تتظاهر بتجنّب ملاطفة السيّد، لكنها كانت سعيدة في الواقع. صه! لا بدّ من أن زوجتي لم ترها!

انخرط أبلوموف وشتولتس في الضحك.

ختم أبلوموف حديثه:

الجو رطب في الحقول. الظلام يسود؛ ويحوم الضباب، فوق حقل الشوفان؛ رجفة تمرّ فوق خواصر الخيول فتضرب الأرض ببراثنها. يحلّ وقت الذهاب إلى البيت. الأنوار تتوهج في البيت. صليل السكاكين في المطبخ. طاولة مليئة بالفطر وشرائح اللحم وثمار التوت، موسيقى وغناء في غرفة الاستقبال...

وانخرط أبلوموف في الغناء:

أيتها الإلهة النقية، أيتها الإلهة النقية![43].

قال بعد أن أنشد بداية الأغنية القصيرة:

لا أستطيع أن أتصور أغنية «أيتها الإلهة العظيمة» دون أن أغنيها. كم كانت تلك المرأة تبكي من كل قلبها! كم كانت تلك الأصوات مفعمة بالحزن! لا أحد حولها يعرف أي شيء عنها... إنها وحيدة... سرّها يضطهدها؛ إنها تعهد به إلى القمر...

هل أنت مولع بذلك اللحن؟ شيء جميل! أولغا إلينسكي تغنيه بشكل بديع. سوف أقدمك إليها. لديها صوت ممتع وهي تغني بشكل مدهش. يا لها من طفلة ساحرة جدًا! لكني أخشى أن أكون متحيّزا قليلًا، لديّ بقعة رقيقة في قلبي لها... مع ذلك.

أضاف:

تابعْ من فضلك.

43Casta diva, casta diva بالإيطالية من أوبرا لبلليني م.

واصل أبلوموف الكلام:

حسنٌ. ماذا هناك بعد؟ هذا كل ما في الأمر. يعود الضيوف إلى غرفهم في الأكواخ والسرادق، ويتفرقون في اليوم التالي باتجاهات مختلفة؛ بعضهم يذهب لصيد السمك والطيور والبعض الآخر يجلس ساكنًا تمامًا.

سأل:

تمامًا؟ ألا يوجد شيء في أيديهم؟

سأل:

ماذا تود أن يكون لديهم؟ منديل، مثلًا. الآن، هل تود العيش مثل ذلك؟ إنها حياة حقيقية. أهي كذلك؟

سأل شتولتس:

هل دائمًا كذلك؟

نعم، حتى بلوغ الشيخوخة. حتى القبر. تلك هي الحياة!

كلا. ليست الحياة هكذا!

كلا؟ لماذا؟ هل تركت شيئًا؟ فكّر فقط، إنك لن ترى وجهًا قلقًا شاحبًا، ما من مشاكل، لا أسئلة حول المحكمة العليا وتبادل البورصة، والأسهم المالية والتقارير، واستقبال الوزير، والرتب، ومخصصات المصاريف. بدلًا من ذلك، تسمع الناس يقولون كل شيء يحمل الصدق! سيتوجب عليك ألّا تنتقل إلى شقة جديدة! ذلك وحده يساوي شيئًا! وتقول ليست تلك هي الحياة؟

كرّر شتولتس قوله بشكل عنيد:

كلا، ليست كذلك!

إذن ما هي الحياة برأيك؟

فكّر شتولتس لفترة وجيزة، محاولًا أن يجد اسمًا لهذا النوع من الحياة. وأخيرًا نطق:

إنها نوع من... الأبلوموفية!

كرّر أبلوموف ببطء مندهشًا لهذا التعريف الغريب وراح يفحص مقاطع الكلمة:

أبلوموفية... أبلو مو فية!

ألقى عليه نظرة غريبة ومقصودة.
سأل متوجّسًا ودون حماس:
وما هي غاية الحياة برأيك؟ ما هو الإنسان غير الأبلوموفي؟ ألا يكافح الكل من أجل تحقيق نفس الشيء الذي أحلم به؟
وأضاف:
آه، أليست الغاية الكاملة لكل اندفاعك وعواطفك وحروبك وتجارتك وسياستك هي أن تبلغ السلام والراحة، وأن تصل إلى الفردوس المفقود هذا؟
أجاب شتولتس:
مدينتك الفاضلة هي أيضًا مدينة أبلوموف النموذجية.
دافع أبلوموف عن نفسه قائلًا:
لكن الكلّ يبحث عن السلام والراحة!
كلا، مطلقًا. فقبل عشر سنوات كنتَ أيضًا تبحث عن شيء مختلف.
سأل أبلوموف مرتبكًا واستغرق في الأفكار عن ماضيه:
ماذا كنت أبحث عنه؟
فكّرْ! حاول أن تتذكر! أين كتبك، وترجماتك؟
أجاب أبلوموف:
لقد وضعها زاخار بعيدًا في مكان ما. في إحدى زوايا الغرفة حسبما أعتقد.
قال شتولتس مؤنّبًا:
في زاوية! أعتقد أنها نفس الزاوية التي وضعت بها خطتك في خدمة روسيا طالما بقيت فيك قوة، لأن روسيا تحتاج إلى أيدٍ وعقول من أجل استغلال مصادرها التي لا تنضب (هذه كلماتك الخاصة!)؛ نعمل لكي تكون الراحة أجمل، وأن نرتاح يعني أن نعيش حياة مختلفة وأكثر فنًا وأناقة، حياة الشعراء والفنانين! هل وضع زاخار كل هذه الخطط في زاوية ما من الغرفة أيضًا؟ هل تتذكر ما قلته لي بأنك بعد أن أنهيت دراساتك أردت أن تزور البلدان الأجنبية لكي تكون قادرًا على تقدير وحبّ بلدك بشكل أكثر؟ «الحياة كلها عمل وفكر» تعودت أن تكرر

القول حينئذ، «مع أنه عمل غامض ومجهول، لكنهُ متواصل. أن تموت واعيا بأنك أنجزت مهمتك». ألم تقل ذلك؟ فبأي زاوية وضعت كل ذلك؟

قال أبلوموف وقد تابع بقلق كل كلمة من كلمات شتولتس:

نعم، نعم، أتذكر أني قلت ذلك فعلًا، أعتقد، بالطبع.

وتابع القول متذكرًا الماضي:

أنا وأنت يا أندريه خطّطنا أولًا للرحيل إلى أنحاء أوروبا، وعبور سويسرا، ونحرق أقدامنا فوق بركان فيزوف، وننزل إلى هيركولانيوم. لقد أصابنا الجنون! آه، إنها الحماقات...

أجاب شتولتس مؤنِّبًا:

الحماقات! أليس أنت الذي قلت والدموع في عينيك، بينما تنظر إلى لوحات رافائيل عن مريم العذراء ولوحة «الليل» لكورجيو، وأبوللو بلفيردي: «إلهي، هل سأظل غير قادر أبدًا على رؤية الآثار الفنية الأصلية وأن أصاب بالبُكم والرعب من فكرة أني أقف أمام أعمال مايكل أنجلو وتيشيان، وأطأ تربة روما؟ هل أظل طول عمري لا أرى نباتات الآس والسرو والأترُج في تربتها الأصلية بدلًا من المستنبت الزجاجي؟ هل سأظل لا أتنفس أبدًا هواء إيطاليا وأمتع عينيّ بسمائها اللازوردية؟

وأي مفرقعات فكرية كبيرة اعتدت أن تطلقها في تلك الأيام! حماقات!

قال أبلوموف واستعاد الماضي في ذهنه:

نعم، نعم أتذكر. أخذتني من يدي وقلتَ: «دعنا نقسم لنراها كلها قبل أن نموت».

واصل شتولتس القول:

أتذكُرْ كيف أنك جلبت لي في إحدى المرات ترجمة من كتاب لجان بابتست سي وأهديته لي في عيد شفيعي. ما زال لديّ. وكيف أنك اعتدت أن تخلو مع أستاذ الرياضيات لأنك كنت عازمًا على اكتشاف السبب في وجوب معرفتك كل ما يخص الدوائر والمربعات، لكنك تخليت عنه في منتصف الطريق ولم تكتشفه أبدًا!

بدأت تتعلم اللغة الإنكليزية، ولم تتعلمها أبدًا! وحين رسمتُ أنا خطة رحلة للخارج وطلبت منك أن تأخذ دروسًا في الجامعات الألمانية معي، فإنك قفزت على قدميك، وعانقتني، وقدّمت يدك لي بهدوء قائلًا: «أنا ملكك، يا أندريه، وسوف أذهب معك إلى أي مكان...». تلك هي كلماتك ذاتها. كنت دائمًا ممثلًا في دور قصير. حسنٌ يا إيليا؟ لقد كنتُ في الخارج مرتين، وعلى الرغم من كل الأمور التي تعلمتُها في جامعاتنا فإني جلست بشكل متواضع على طاولات الدراسة في بون، وبينا وأرلانجن، ثم عرفتُ أوروبا مثلما أعرف عزبتي الخاصة. لكن على الرغم من أنّ الرحلة إلى الخارج هي ترف، وليس كل شخص قادرًا على القيام بها، لكن روسيا؟

لقد رحلت إلى كل أنحاء روسيا. أعمل...

علّق أبلوموف:

لكن ألن تتوقف عن العمل في يوم من الأيام؟

لن أتوقف. لماذا عليّ أن أتوقف.

قال أبلوموف:

حين يتضاعف رأسمالك.

لن أتوقف حتى لو تضاعف أربع مرات.

قال أبلوموف بعد فترة توقف:

هل ستعمل بشكل شاق إن لم يكن قصدك الحصول على المال الكافي لكي يطول عمرك ثم تعتزل في الريف من أجل أن تكتسب الراحة بشكل أفضل؟

قال شتولتس:

أبلوموفي في الريف!

أو تحقق مكانة راقية في المجتمع عن طريق عملك كموظف حكومي، ثم تتمتع بالراحة... في سكون جدير بالاحترام...

ردّ شتولتس بسرعة:

أبلوموفي في بطرسبورغ.

أجاب أبلوموف وأصابه الغيظ من كلمات شتولتس:

في هذه الحالة متى ستعيش؟ لماذا تعمل عملًا شاقًا طوال حياتك؟

ختم حديثه قائلًا:

من أجل مصلحة العمل ليس إلا. العمل يعني كل شيء بالنسبة لي، إنه نَفَس الحياة ذاته، لحياتي في هذه الحالة. لقد أبعدتَ العمل من حياتك، فماذا يعني ذلك؟ سأحاول أن أوقظك، ربما للمرة الأخيرة. فإذا ما بقيت بعد ذلك جالسا مع تارانتييف وألكسييف سيكون محكوما عليك بالإخفاق وتصبح عبئا حتى على نفسك. الآن وإلا فلَنْ!

أصغى أبلوموف ونظر إليه بعينين قلقتين. ظهر صديقه كأنه يقدم إليه مرآة، وكان خائفًا حين تعرَّف على نفسه فيها.

استهلّ الحديث بحسرة:

لا تلمني يا أندريه، لكن الأفضل أن تساعدني! أنا قلق بنفسي حول القضية حد الموت، ورأيتني اليوم وسمعتني وأنا أندب مصيري وأحفر قبري بيدي، إنك لا تمتلك القلب الذي يوجّه اللوم لي. أعرف وأفهم كل شيء، لكن لا أمتلك القوة ولا الإرادة. أعطني شيئًا من إرادتك وذكائك ووجهني أينما تشاء. ربما أتبعك، لكن وحيدًا لن أتحرك من المكان. أنت على حق: الآن وإلا فلَنْ. ففي السنة القادمة سيكون السيف قد سبق العَذل.

قال أندريه:

هل هذا أنتَ يا إيليا؟ أتذكّرك صبيًا نحيفًا نشطًا، تمشي كل يوم من برخستنكا حتى كودرينو، في الحديقة هناك، لم تنسَ الأختين، أليس كذلك؟ لم تنسَ روسو وشيللر وغوته وبايرون، الذين تعودتَ على استعارة مؤلفاتهم منهما، وحرمتهما من قراءة روايات جنليس وكوتين. وكيف تعودت أن تعطي لنفسك كبرياءً أمامهما ورغبتَ أن تحسّن ذوقهما؟

قفز أبلوموف من الأريكة:

هل تتذكر ذلك أيضًا يا أندريه؟ بالطبع، حلمت معها، وهمست بآمال المستقبل، ووضعتُ خططًا، وطوّرت أفكارًا، ومشاعر أيضًا، دون معرفتك لكي لا تستهزئ بي. كله مات هناك، ولم يتكررْ ثانيةً! وأين اختفى كله؟ ولماذا أصبح منطفئًا؟ لا أستطيع أن أدرك ذلك! لم تكن هناك عواصف ولا صدمات في حياتي؛ لم أفقد أي شيء؛ ما من ثقل على ضميري: إنه صافٍ كالزجاج؛ ما من ضربة قتلت الطموح فيّ والربّ يعلم لماذا ضاع كل شيء تمامًا؟
أطلق حسرة.
أنت تفهم يا أندريه، المشكلة هي أنه ما من نيران ظلت دائمًا محترقة في حياتي فدمَّرتني أو خلَّصتني من الخطيئة. لم تكن أبدًا تشبه صباحًا امتلأ تدريجيًا بالنور واللون ثم تحوَّل، مثل ضوء الناس الآخرين، إلى نهار حارٍّ متوهِّج، حين يغلي كل شيء ويومض في شمس الظهيرة الساطعة، ثم يصبح أكثر شحوبًا وألطف، ثم يتلاشى بشكل طبيعي في غسق المساء. كلا! بدأت حياتي بالاضطراب. ربما تبدو غريبة لكنها كذلك. من أول لحظة أصبحت واعيًا بنفسي وشعرتُ أني كنت مضطربًا سابقًا. بدأت أضطرب من الكتابة في الأوراق الرسمية في الدائرة؛ وبقيت مضطربًا حين قرأت حقائق في كتاب لا أعلم كيف أستطيع تطبيقها في الحياة، حين جلستُ مع الأصدقاء أصغي إلى الإشاعات والقيل والقال والملاحظات الساخرة والثرثرة الحاقدة والباردة والفارغة، وأراقب الصداقات التي جرى الاحتفاظ بها عن طريق اللقاءات التي كانت دون هدف أو تأثير؛ كنت مضطربًا وضيّعتُ طاقاتي مع مينا التي صرفتُ عليها أكثر من نصف دخلي، متصورًا بأني أحبها؛ أصبتُ بالاضطراب حين مشيت بلا فائدة موهن العزيمة على طول شارع نفسكي بين الناس بمعاطف الراكون وياقات السمّور في الحفلات، أو أيام الاستقبال، إذ كنت أرحّب بأيدٍ مفتوحة كوني شابًا جميلًا جديرًا بالانتخاب؛ كنت مضطربًا وأقضي حياتي وعقلي في التوافه وأنتقل من المدينة إلى البيت الريفي، ومنه إلى غوروخوفايا، دالًا على حلول الربيع بحقيقة أن سرطان البحر والمحار قد ظهرت في المتاجر، والخريف والشتاء بأيام زيارة خاصة،

والصيف بالمهرجانات، والحياة بصورة عامة عن طريق نعاس كسول ومريح مثل البقية... حتى الطموح، كيف تم تبديده؟ على طلب الملابس من خيّاط مشهور؟ على دعوة من بيت معروف؟ على تبادل التحية مع الأمير «ب»؟ والطموح هو ملح الحياة! أين ذهبَ؟ إمّا أني لم أفهم هذا النوع من الحياة أو أنها لا قيمة لها تمامًا؛ لكنني لم أعرف أفضل منها. ما من أحد أظهرها لي.

ظهرتَ أنت واختفيتَ مثل مذنّب مشرق يتحرك بسرعة، ونسيتُ أنا الأمر كله وبقيت على اضطرابي...

لم يعد شتولتس يجيب على أبلوموف بالسخرية الخفيفة. أصغى له بصمت كئيب.

تابع أبلوموف القول:

قلتَ توًا أنّ وجهي فقدَ نضارته وكان مترهّلًا. نعم، أنا معطف بالٍ ممزّق، لا بسبب المناخ والعمل الشاق، بل بسبب الضوء الذي انطفأ داخلي لمدة اثنتي عشرة سنة، ولعدم قدرتي على العثور على مخرج، فإنّ هذا الضوء ذوى داخل سجنه البيتي وانطفأ دون أن يفرّ إلى العراء. لذا مرّت اثنتا عشرة سنة، عزيزي أندريه، لم أرغب خلالها بالاستيقاظ مرة أخرى.

سأله شتولتس ونفد صبره:

لكن لماذا لم تهربْ؟ لماذا لم تفرّ إلى مكان ما، وفضّلتَ الموت في صمت؟

إلى أين؟

إلى أين؟ لماذا لا تذهب إلى نهر الفولغا مع فلّاحيك؟ هناك حياة أكثر غنىً إذ يمكن أن تجد كل أنواع الاهتمامات هناك، ولديك هدف، وعمل! أو الذهاب إلى سيبيريا، وسيتخا.

علّق أبلوموف واهن العزيمة:

حسنٌ، ألا ترى أن المعالجات التي تقترحها متطرفة إلى حدٍّ ما؟ إضافة إلى أني لستُ الوحيد. هناك ميخائيلوف وبتروف وسيمونوف وألكسييف وستيبانوف... عدد لا يحصى: فيلق من الأسماء!

ما زال شتولتس متأثرًا من اعتراف أبلوموف ولم يقل شيئًا، بل تنهّد فحسب.

قال:

نعم، لقد جرى ماءٌ كثير. لن أتركك بهذه الحال. سوف أنتزعك من هنا، أولًا إلى الخارج ثم إلى الريف. ستصبح أنحف، وتشفى من كآبتك، وحينئذ سوف تجد شيئًا لتفعله...

صاح أبلوموف:

نعم دعنا نذهب إلى مكان ما!

غدًا سوف نسجِّل الجواز ثم سنبدأ بحزم حقائبنا. لن أتركك وحدك، هل تسمع يا إيليا؟

ردّ أبلوموف كأنه هبط من السحاب:

دائمًا غدًا معك!

أضاف شتولتس:

وأنت تريد أن «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد»، صحيح؟ يا لهُ من نشاط! الوقت متأخر اليوم. لكن في غضون أسبوعين سوف نرحل من هنا.

قال أبلوموف:

يا إلهي، يا رجل لِمَ العَجَلة؟ في غضون أسبوعين! هل هي مفاجأة؟ دعني أفكّر بالأمر بعناية وأجهّز كل شيء. يجب أن نحصل على عربة من نوع ما. ربما في ثلاثة أشهر.

عربة! هذا ما تفكّر به لاحقًا! مهما كانت الحدود بعيدة يجب أن نسافر بمركبة أجرة ذات أربع عجلات أو باخرة إلى لوبيك، أيهما أنسب؛ وفي الخارج هناك سكك حديد في العديد من الأمكنة.

دافع أبلوموف عن نفسه:

وشقتي وزاخار وأبلوموفكا؟ يجب أن أراها كلها.

قال شتولتس ضاحكًا:

الأبلوموفية! الأبلوموفية!

أخذ شمعتهُ ودعا لأبلوموف ليلة سعيدة ثم ذهب إلى غرفته.

وأضاف:

الآن وإلاّ فلَنْ. تذكّر ذلك!

والتفتَ نحو أبلوموف قبل أن يغلق باب غرفته وراءه.

❊ ❊ ❊

(5)

الآن وإلاّ فلَنْ!

ظهرت الكلمات الصارمة أمام أبلوموف حالما استيقظ صباحًا. نهض ومشى ذهابًا وإيابًا في الغرفة بضع مرات، وألقى نظرة على غرفة الاستقبال؛ كان شتولتس جالسًا يكتب.

صاح:

زاخار!

لم يسمع صوت قفزة زاخار خارج سطح الموقد. لم يأتِ زاخار. لقد أرسله شتولتس إلى دائرة البريد.

ذهب نحو منضدته المغبرة وجلس والتقط قلمًا وغمسه في المحبرة، لكن لم يكن فيها حبر؛ فتّش عن ورقة فلم يجد أيضًا. استغرق في التفكير. كان شارد الذهن وبدأ يكتب بأصبعه على التراب، ثم نظر إلى ما كتبه، كانت كلمة «الأبلوموفية». سرعان ما مسحها بكمّه. لقد حلمَ بتلك الكلمة في الليل مكتوبة بحروف من نار على الجدران كما في وليمة بيلشاصر[44]. رجع زاخار وحملق في سيّده بشكل بليد، واندهش من نهوضه من الفراش. ومن خلال نظرة الدهشة الفارغة هذه قرأ كلمة: «الأبلوموفية».

فكّر أبلوموف:

كلمة وحيدة، لكن يا لها من كلمة سامّة!

أخذ زاخار، كما تعوّد، مشطه وفرشته ومنشفته وصعد ليعدّل شعر سيّده.

قال أبلوموف بغضب:

اذهب إلى الجحيم!

وضرب الفرشة من يد زاخار، بينما أسقط زاخار المشط.

سأل زاخار:

44وردت قصة وليمة بيلشاصر في سفر دانيال من الكتاب المقدّس م.

ألا تذهب للاستلقاء ثانية سيدي؟ لقد رتبت الفراش.

ردّ أبلوموف:

اجلب لي ورقة وحبرًا.

كان يتفرّس في الكلمات: «الآن وإلا فلَنْ!». وبينما هو يصغي بانتباه إلى هذه الاستغاثة اليائسة للعقل والطاقة، أدرك وفكّر مليًّا بقوة الإرادة التي تركها وأين يمكن أن يطبّقها، وما الفائدة التي يمكن أن يجنيها من تلك البقايا الضئيلة.

بعد أن فكّر فيها بشكل مؤلم، أمسك بالقلم وسحب كتابًا من الزاوية، راغبًا في القراءة والكتابة والتفكير خلال ساعة واحدة فيما قرأه وكتبه وفكرّ به خلال عشر سنوات. ما الذي كان يريد أن يفعله الآن؟ التقدّم أم البقاء حيثما كان؟ هذا السؤال النمطي لأبلوموف كان ذا معنى أعمق بالنسبة له من معنى سؤال هاملت[45].

التقدم للأمام يعني أن يرمي المبذل الواسع لا من كتفيه فحسب بل أيضًا من قلبه وعقله، وأن ينفض الغبار وخيوط العنكبوت من عينيه ومن جدرانه أيضًا وأن يستعيد بصيرته!

ما هي الخطوة الأولى نحو ذلك؟ ما الذي كان عنده ليبدأ به؟

«لا أعرف، لا أستطيع. كلا! أنا أحاول أن أخدع نفسي، أنا أعرف، وإضافة إلى أن شتولتس هنا وسوف يخبرني فورًا. لكن ماذا سيقول؟ سيقول بأنه خلال الأسبوع يجب أن أكتب تعليمات مفصلة إلى عاملي وأرسله إلى الريف، وأرهن أبلوموفكا، واشتري المزيد من الأرض، وأرسل مخططًا للبنايات التي يجب أن تُشيّد، وأترك شقتي، وأتسلم الجواز وأذهب للخارج لمدة ستة أشهر، وأتخلص من سمنتي المفرطة، وأرمي ثقلي، وأجدّد روحي بالهواء الذي حلمت به مرّة مع صديقي، وأن أعيش بلا مِبذل، وأنام في الليل فقط، وأسافر إلى المكان الذي يسافر إليه الكل، بالقطار أو بالباخرة، ثم... ثم أذهب لأعيش في أبلوموفكا وأتعلم ماذا

45أي السؤال المعروف لهاملت: أأكون أم لا أكون تلك هي المسألة؟

يعني البذار والحصاد، ولماذا الفلاح غني أو فقير؛ الخروج إلى الحقول والرحلة إلى المدينة للانتخاب، وزيارة المصنع، والطاحونة، ومنصة المرسى، وفي الوقت نفسه قراءة الصحف والكتب، والانزعاج لأنّ الإنكليز أرسلوا رجل الحرب إلى الشرق الأدنى... ذلك ما سيقوله! ذلك ما يعني به التقدم للأمام. وكذلك كل حياتي! وداعًا، يا غاية الحياة الشاعرية! ذلك دكان حدّاد وليست حياة؛ إنها شعلة مستمرة، حرارة، ضجة، صخب. متى يعيش المرء؟ هل من الأفضل أن لا نبقى؟ أن تبقى يعني أن ترتدي قميصك بالمقلوب، وأن تصغي إلى زاخار وهو يقفز من سطح الموقد، وأن تتناول الطعام مع تارانتييف، وأن تفكّر قليلًا ما أمكن عن كل شيء، لا أن تنهي كتاب (رحلة إلى أفريقيا)، وأن تشيخ بهدوء في بيت صديق تارانتييف...».

«إما الآن أو فلَنْ!»، «أن نكون أو لا نكون». رفع أبلوموف نفسه من كرسيّه قليلًا، تحسّس نعليه بقدميه لكنهُ فشل في العثور عليها فورًا، فجلس ثانيةً.

غادر شتولتس إلى إنكلترا لمدة أسبوعين تقريبًا، وأخذ من أبلوموف وعدًا بالقدوم مباشرة إلى باريس. وحضّر أبلوموف جوازه، وطلب معطفًا جديدًا للسفر واشترى قبعة. كانت تلك هي الطريقة التي تقدَّمت بها الأمور. لقد جادله زاخار بحكمة بأنه يكفي طلب زوج واحد من الجِزَم ويمكن وضع نعل جديد للزوج الآخر. لقد اشترى أبلوموف بطانية، وقميصًا وحقيبة سفر، وكان على وشك أن يشتري حقيبة للمؤن حين أخبره عدد من الناس بأنه يجب عدم حمل المؤن إلى الخارج. تجوّل زاخار في الورش والمتاجر، وسال منه العرق بغزارة، وعلى الرغم من أنه وضع في جيبه العديد من القطع النقدية من فئتي الخمسة والعشرة كوبيكات التي تبقّت من الصرف في المتاجر، إلا أنه لعن شتولتس وأولئك الذين اخترعوا السفر.

قال في المتجر:

وماذا سيعمل هناك بمفرده؟ سمعت أنّ في بعض الأنحاء ثمة فتيات يخدمن الرجال النبلاء. كيف يمكن لفتاة أن تخلع جزمة الرجل النبيل؟ وكيف ستضع الجوارب في قدمي السّيد؟

كشّرَ فتحرّك طرفا شاربيه إلى الجانبين، وهزّ رأسه.

لم يكن أبلوموف كسولًا في كتابة ما يجب أخذه معه وما يجب أن يتركه في البيت. سأل تارانتييف أن يأخذ الأثاث وبقية الأشياء إلى بيت صديقه في مدينة فايبورغ لكي يضعها في ثلاث غرف ويغلقها، ويحفظها هناك إلى حين عودته من الخارج. قال أقارب أبلوموف، وبعضهم مال إلى الشك وضحك البعض الآخر، بينما آخرون أبدوا توجسّهم:

إنه راحل. شيء لا يصدّق، لقد تزحزح أبلوموف أخيرًا من مكانه!

لكن أبلوموف لم يرحل بعد شهر، ولا بعد ثلاثة أشهر.

في ليلة رحيله أصبحت شفته منتفخة أثناء الليل.

قال:

لسعتني ذبابة. قد لا أستطيع أن أذهب على متن السفينة وشفتي هكذا!

وقرّر أن ينتظر السفينة التالية.

كان شهر آب قد حلّ في ذلك الحين. وقد نزل شتولتس في باريس لبعض الوقت، وظل يكتب رسائل غاضبة إلى أبلوموف الذي لم يُجب عليها. لماذا؟ هل بسبب جفاف الحبر في المحبرة وعدم وجود الأوراق؟ أم ربما بسبب وجود ضميرَي «التي» و«الذي» اللذان يتنافسان بشكل متكرر في أسلوب أبلوموف؟ أو كان السبب هو سماع النداء الصارم: «الآن وإلاّ فلَنْ»، فقرر أبلوموف أن يكون إلى جانب (لَنْ) وقد انتكس في موضع سكونه، وكان زاخار يحاول أن يوقظهُ بلا فائدة؟

كلا. كانت محبرته مملوءة: فالرسائل والأوراق وحتى الورقة المختومة مغطاة بكتابة يده، ومركونة على منضدته. وبعد أن كتب عدة صفحات، لم يضع ولو لمرة واحدة ضمير»الذي» مرتين في الجملة نفسها، كتب بشكل حر ومعبّر وبليغ في

كثير من الأحيان كما «في أيام الماضي» حين حلم مع شتولتس بحياة العمل الشاق والرحيل. نهض في السابعة وقرأ وأخذ الكتب إلى مكان معيّن. لم يظهر عليه النعاس أو التعب أو الضجر. كانت ثمة أيضًا لمسة لونية في وجهه وشرارة في عينيه...

شيء يشبه الشجاعة، أو الثقة بالذات في هذه الحالة. لم يرتدِ أبدًا مِبذله؛ أخذه تارانتييف مع بقية الأشياء الأخرى إلى بيت صديقه. قرأ كتابًا أو كتبَ مرتديًا معطفًا عاديًا، وحول عنقه منديل خفيف، وياقة قميصه ظهرت فوق ربطة عنقه، وكانت بيضاء كالثلج. خرج مرتديًا سترة فراك ممتازة وقبعة أنيقة. بدا مبتهجًا. همهم مع نفسه. ما المسألة؟ الآن جلس عند نافذة دارته الريفية (كان يمكث في فيلّا بالريف على بعد بضعة أميال من المدينة)، وحزمة من الأزهار موضوعة أمامه. كان قد أنهى بسرعة كتابة شيء ما، وألقى نظرة متواصلة على هامات الأجمات عند الممر، ثم عاد بسرعة إلى الكتابة. انسحق رمل الممر فجأة تحت خطوات خفيفة. ألقى أبلوموف القلم، وأمسك حزمة الأزهار، واندفع نحو النافذة.

سأل: «أأنتِ، أولغا سرجييفنا؟ سآتي خلال دقيقة!» أمسك بقبعته وعصاه، وهرع عبر البوابة، وأعطى يده لامرأة جميلة، ثم اختفى معها في الغابات، في ظل أشجار التنّوب الضخمة.

ظهر زاخار من أحد الأركان، وتابعه بعينيه، وأغلق باب الغرفة، ثم ذهب إلى المطبخ.

قال لأنيسيا:

لقد ذهب!

هل هو مدعو إلى وليمة؟

أجاب زاخار بشكل بليد:

لا أدري، غير متأكد.

كان زاخار نفسه دائما: الشاربان الضخمان نفسهما، الذقن غير المحلوق نفسه، الصدرة الرمادية والتمزّق في معطفه نفسه، لكنه كان متزوجا من أنيسيا، إما بسبب زلّة مع سيدة صديقة له أو مجرّد اعتقاد بأن الرجل يجب أن يتزوج؛ كان متزوجًا، وبغض النظر عن المَثَل، فهو لم يتغيّر.

قام شتولتس بتعريف أبلوموف على أولغا وعمتها. حين جاء بأبلوموف إلى بيت عمتها لأول مرة كان هناك ضيوف آخرون. شعر أبلوموف بالكآبة والقلق كالعادة.

فكّر: «ليتني خلعت قفازاتي. الجو دافئ في الغرفة. كم أصبحت في حيرة منه!»

جلس شتولتس بجانب أولغا، التي كانت تجلس بنفسها تحت المصباح بمسافة عن مائدة الشاي، تتكئ في كرسيّها وتظهر اهتمامًا قليلًا بما يجري حولها. كانت سعيدة جدًا برؤية شتولتس؛ على الرغم من أنّ عينيها لم تتوهَّجا، وخدّيها لم يتورَّدا، إلاّ أنّ ضوءًا هادئًا انتشر على وجهها، فابتسمت. كانت تدعوه صديقها؛ أحبتهُ لأنه دائمًا يُضحكها ولا يسمح لها بالضجر، لكنها كانت أيضًا خائفة قليلًا منه لأنها شعرت بالكثير من النزعة الطفولية في صحبته. حين يُثار سؤال في ذهنها، أو حين يحيّرها شيءٌ ما، فإنها لا تقرر فورًا أن تأتمنه على أسرارها؛ كان متقدمًا عليها كثيرًا، وفوقها بكثير، لذا فإن كبرياءها أحيانًا عانت بسبب إدراكها لفجاجتها، والفارق في عمرهما وذكائهما. أعجب شتولتس أيضًا بها بشكل غير مكترث كونها مخلوقة محبوبة وناضجة تنشر العبير في العقل والمشاعر. نظر إليها كأنه ينظر إلى طفل ساحر ذي وعد كبير. غير أن شتولتس تحدّث معها بشكل أكثر وأسرع مما تحدَّثَ مع امرأة أخرى، لأنّ حياتها، على الرغم من أنها غير واعية بالأمر، كانت متميزة بالبساطة القصوى والطبيعية، وبداعي طبيعتها المبتهجة وتعليمها المحسوس البسيط، فإنها لم تتردد في التعبير عن أفكارها ومشاعرها ورغباتها دون أي أثر من تكلّف، حتى في أصغر حركات عينيها، وشفتيها، ويديها. من المحتمل جدًا أنها مشت بثقة خلال حياتها لأنها سمعت بجانبها عدة مرات الخطوات الثابتة والأكثر وثوقًا ل»صديقها« الذي تثق به وحاولت أن تبقى

بصحبته. ربما كانت هناك قلة من الفتيات اللاتي امتلكن مثل هذه البساطة والتلقائية للآراء والكلمات والأفعال. لن تقرأ في عينيها: «الآن سوف أزمّ شفتيّ قليلًا وأحاول أن أبدو غارقة في التفكير. أبدو تمامًا مثل ذلك. سوف ألقي نظرة هناك وأصرخ صرخة صغيرة كأني كنتُ خائفة، وسوف يهرعون إليّ كلّهم فورًا. سأجلس عند البيانو وأظهر أطراف قدمي». لم يكن هناك أثر من التكلّف والعبث والكذب والبهرجة أو الحسبان حولها! ذلك هو السبب في أنّ شتولتس وحده قدّرها. وإنها كانت تجلس خلال أكثر من رقصة وحدها دون إخفاء ضجرها؛ كان ذلك السبب في أن معظم الشبّان الأنيقين كانوا يصمتون في حضرتها، ولا يعرفون ماذا يقولون وكيف يتكلمون. البعض ظنها بسيطة، لا هي ذكية جدًا ولا عميقة لأنها لم تغمرهم بالحِكَم والحقائق عن الحياة والحبّ أو الأجوبة السريعة الصريحة وغير المتوقعة أو الآراء عن الموسيقى والأدب المستعارة من الكتب أو ما استرق السمع.

كانت تتكلم قليلًا، وكل ما قالته كان خاصتها ولم يكن مهمًا. لذا تحاشاها شركاؤها الأذكياء من أصحاب الجرأة. من جهة أخرى، فإن أولئك الذين كانوا خجلين اعتقدوا أنها ذكية جدًا فخافوا منها قليلًا. كان شتولتس وحده يتكلم معها دون توقف ونجح دائمًا في إضحاكها. كانت مولعة بالموسيقى، لكنها فضّلت أن تغنّي لنفسها في الغالب أو لشتولتس أو لزملائها في المدرسة. وفي رأي شتولتس كانت تغنّي أفضل من مغنية محترفة. حالما جلس شتولتس بجانبها، بدأت تضحك وكانت ضحكتها من الرخامة والصدق والانتشار بحيث إنّ مَنْ سمعها كان متأكدًا أنّهُ ضحكَ أيضًا دون أن يعرف السبب. لكن شتولتس لم يجعلها تضحك دائمًا؛ بعد نصف ساعة أصغت له باهتمام، وأحيانًا كانت تحدّق بأبلوموف باهتمام مضاعف. وشعر أبلوموف كأنه يغوص في الأرض بسبب نظراتها.

فكّر ونظر إلى عينيها بقلق من زاوية بصره:

ماذا تقول عيناها لي؟

كان على وشك أن يغادر حين نادته عمّة أولغا ودعتهُ إلى الجلوس إلى المائدة بجانبها، تحت نيران نظرات كل الضيوف. التفتَ إلى شتولتس خائفًا، لكن شتولتس كان قد ذهبَ. نظر إلى أولغا وواجه النظرة المحدّقة المثيرة للاهتمام المثبتة عليه.

فكّر ونظر لملابسه بشكل مضطرب:

إنها ما زالت تنظر لي!

مسح وجهه بالمنديل، متسائلًا إن كان أنفه قد تلطّخ، ومسَّ ربطة عنقه ليرى إن كانت مفككة، وذلك ما كان يحدث له في بعض الأحيان؛ لكن كلا، كل شيء بدا مرتّبًا. ما زالت تنظر إليه! أحضر له الخادم صينية فيها كوبٌ من الشاي وكعك وبسكويت. أراد أن يكبت شعوره بالارتباك، وأن يكون حرًا ومطمئنًا. التقط كومة من الكعك والبسكويت بحيث إن الفتاة الصغيرة التي جلست جواره قهقهت. ونظر الآخرون إلى الكومة بفضول.

يا إلهي، إنها تنظر أيضًا! ماذا سأعمل بهذه الكومة؟

أحسَّ دون أن ينظر بأنّ أولغا قد نهضت من مقعدها ومشت إلى الطرف الآخر للغرفة. شعر بالارتياح لكن الفتاة الصغيرة حملقت فيه بانتباه، وانتظرت لترى ماذا سيفعل بالبسكويت. فكّر: «يجب أن أسرع وألتهمها»، وبدأ يضعها في فمه بسرعة؛ ولحسن الحظ أنها ذابت في فمه. بقت قطعتان من البسكويت فقط. تنفس الصعداء واستجمع شجاعته لينظر إلى أين ذهبت أولغا. يا إلهي، كانت تجلس أمام تمثال نصفي، وتستند على قاعدة التمثال وتراقبه! من الواضح أنها تركت مكانها الأول لكي تكون قادرة على مراقبته بحرية أكثر. لقد لاحظت تصرّفهُ الأخرق مع البسكويت. في العشاء جلست على الطرف الآخر للمنضدة وكانت تتكلم وتأكل دون أن تبدي اهتمامًا واضحًا له. لكن أبلوموف كان خائفًا فلم يلتفت باتجاهها على أمل ألّا تنظر إليه، حتى التقى عينيها المليئتين بالفضول وكانتا ودّيتين أيضًا...

استأذن أبلوموف من عمّة أولغا وغادر بعد العشاء بسرعة: دعته إلى الغداء في اليوم التالي وسألته أن يوجه الدعوة إلى شتولتس أيضًا. انحنى أبلوموف ومشى في طول الغرفة دون أن يرفع عينيه. كان الحاجز والباب وراء البيانو. تطلّعَ... كانت أولغا تجلس عند البيانو وتنظر إليه باهتمام كبير. فكّر بأنها ربما ابتسمت. أسرّ لنفسه: «أتوقع أن أندريه أخبرها أمس بأنّي أرتدي جوربيّ بلونين مختلفين أو ألبس قميصي بالمقلوب». رجع إلى البيت منقبض النفس، بسبب هذا الارتياب وانزعج أكثر بسبب الدعوة لتناول الطعام التي أجاب عليها بانحناءة أي أنه قبِلَها. ظلت نظرة أولغا المحدّقة المِصِرّة تطارد أبلوموف. عبثًا مدّ ظهره بطوله، واتخذ مواضع أكثر كسلًا وراحة. لم يستطع ببساطة أن يذهب إلى النوم. بدا مبذلهُ بغيضًا له، وزاخار أحمق ومزعجًا، والغبار وبيوت العنكبوت لا تطاق. أمرَ زاخار أن يزيل من الغرفة العديد من الصور عديمة القيمة التي فرضها عليه زبون لفنانين رديئين؛ أصلَح بنفسه الستارة التي ظلت عاطلة لعدة شهور، ونادى على أنيسيا وأخبرها أن تنظف الشبابيك، وتزيل بيوت العنكبوت، ثم استلقى على جنبه وقضى ساعة في التفكير بأولغا. حاول في البداية أن يتذكر ماذا كانت تشبه، راسمًا صورتها الشخصية من الذاكرة. إنّ أولغا على وجه التحديد لم تكن ذات جمال. أي أن خدّيها كانا خاليين من اللون المشرق، ولم تكن عيناها تحترقان بالنيران الداخلية.

ليست شفتاها من المرجان ولا أسنانها من اللؤلؤ، ولا تشبه يداها الصغيرتان يدي طفل في الخامسة، ولا يبدو شكل أظافرها مثل العنب. لكن لو صيغت على شكل تمثال ستبدو نموذجًا للرقة والتناسق. كانت طويلة إلى حدٍّ ما، وكان حجم رأسها ذا تناسب محكم مع طولها، وشكل وجهها البيضوي يتناسب مع حجم رأسها؛ كان كل ذلك تباعًا يتوافق تمامًا مع كتفيها وخصرها. إن أي شخص قابلها، حتى لو كان شارد الذهن، لا يستطيع أن يتمالك نفسه من التوقف للحظة أمام مخلوقة تم إبداعها بدقة وإتقان. كان أنفها الفاتن معقوفا قليلًا؛ وكانت شفتاها رقيقتين ومضمومتين بإحكام كعلامة على التفكير العميق. عيناها الحادتان والساطعتان

المتيقظتان ذاتا لون رمادي مزرق، لا تفوّتان أي شيء، وقد أشرقتا أيضًا بالضوء والفكرة ذاتهما. أضفى الحاجبان جمالًا فريدًا إلى عينيها: إنهما ليسا مقوسين، ولم يجرِ حفّهما إلى خطين نحيفين فوق العينين. كلا، كانا شعاعين مستقيمين بنّيين مزغّبين، نادرًا ما يمتدان بشكل متناظر: أحدهما أعلى قليلًا من الآخر، يشكلان جعدة صغيرة جدًا فوقه بدت تصرّح بشيء كأنّ هناك فكرة مخفية. حين كانت تمشي، يميل رأسها قليلًا، ويتّزن بشكل رشيق ونبيل جدًا على رقبتها النحيفة المزهوّة؛ كان جسمها بأكمله يتحرّك بانتظام، وهي تطأ الأرض بخطوة خفيفة جدًا لا يمكن إدراكها تقريبًا.

فكّر أبلوموف: «لماذا نظرت إليّ بانتباه أمس؟ أندريه أقسم بأنه لم يذكر جواربي وقميصي أمامها، بل تكلم عن صداقته لي، وكيف تربّينا معًا وذهبنا إلى المدرسة سوية... عن كل الأمور الطيبة التي جربناها معا، وأخبرها أيضا كم كنتُ تعسا، وكيف أن كل شيء جميل هو ميت بالنسبة لي بسبب حاجتي إلى العاطفة والنشاط، وكم تومض الحياة داخلي بشكل ضعيف وكيف... لكن ماذا كان هناك لتبتسم له؟». واصل أبلوموف التأمّل: «لو كان لها قلبٌ لنبض أو نزف بالشفقة، لكن بدلًا من ذلك... أوه حسنًا، ماذا يهم ماذا فعلتْ! الأفضل أن أتوقف عن التفكير بشأنها! سوف أذهب وأتناول الغداء هناك اليوم... ثم لن أطأ عتبة بيتها!».

مرّت الأيام وتتابعت، وهو لم يغادر بيت أولغا. في صباح جميل نقل تارانتييف كل ممتلكاته إلى بيت صديقه في فايبورغ، وقضى أبلوموف ثلاثة أيام دون فراش، أو أريكة، يتناول الطعام في بيت عمّة أولغا، وهو الأمر الذي لم يفعله منذ عدّة سنوات. ثم فجأةً ظهر بأن الفيلّا الصيفية المقابلة لفيلّتهم كانت فارغة. فاستأجرها أبلوموف دون فحص واستقر فيها. كان يبقى مع أولغا من الصباح إلى الليل؛ فقرأ لها، وأرسل إليها الأزهار، وذهب معها إلى البحيرة، وارتقيا التلال. هو أبلوموف!

كل أنواع الأمور الغريبة تحدث في العالم، لكن كيف لهذا الأمر أن يحدث؟ حسنًا، جرت المسألة هكذا:

حين تناول شتولتس الغداء معهُ في بيت أولغا، عانى أبلوموف من الآلام المبرحة نفسها في غداء اليوم السابق: أكل وتحدث عارفًا بأنها كانت تنظر إليه، وشعر بأن نظرتها المحدقة كانت مسلطة عليه مثل أشعة الشمس، تحرقه وتثيره وتهيّج أعصابه ودمه.

بعد أن دخّن السيجار في الشرفة نجح في الاختفاء للحظة من نظرتها الصامتة المصرّة. سأل نفسه بانفعال: «ما الداعي لكل ذلك؟ إنه ألم مبرّح! هل جئت هنا لكي تضحك عليّ؟ إنها لا تجرؤ على النظر لأي شخص آخر مثلما تنظر إليّ.

وقرّر في نفسه: «أنا أهدأ من الآخرين هكذا هي سوف أكلّمها. أفضّل أن أقول لها بنفسي عما تحاول أن تجذبهُ مني بعينيها؟»".

فجأةً ظهرت أمامه على باب الشرفة؛ قدّم لها كرسيًّا وجلست بجانبه.

سألته:

صحيح أنك ضجر جدًا؟

أجاب:

صحيح، لكن ليس إلى أبعد حدّ. لديّ عمل يجب أن أؤديه.

أخبرني السيد شتولتس بأنك ترسم خطة ما. هل هذا صحيح؟

نعم، أريد أن أذهب وأعيش في الريف، لذا أحضّر نفسي تدريجيًا لهذا الأمر.

لكن ألا تذهب إلى الخارج؟

نعم، بالتأكيد، حالما يكون السيد شتولتس جاهزًا.

سألته:

هل أنت سعيد بالذهاب؟

نعم أنا في غاية السعادة...

نظر إليها: زحفت ابتسامة في وجهها كله، وومضت في عينيها أو انتشرت فوق خديها؛ كانت شفتاها مضمومتين جدًا كالعادة.

لم يكن بوسعه أن يستلقي لها بهدوء.

قال:

أنا كسول قليلًا، لكن...
لم يتمالك نفسه من الشعور بالقلق من أنها قد استخلصت بسهولة اعترافًا منه بكسله، دون أن تنطق كلمة تقريبًا. فكّر: «ماذا تعني لي؟ أنا لست خائفًا منها».
ردّت سريعًا بمكر بالكاد يمكن إدراكه:
كسول؟ هل هذا ممكن؟ رجل وكسول... لا أفهم الأمر.
فكّر: «هل هناك ما لا يمكن فهمه؟ إنه يبدو بسيطًا بما فيه الكفاية».
قال:
أجلسُ في البيت معظم الوقت. ذلك هو السبب في أن أندريه يظنّني...
قالت ونظرت له بتركيز:
لكن كنتُ أتوقع منك أن تكتب وتقرأ الكثير. هل قرأتَ...
فجأة قال بلا تفكير:
كلا لم أقرأ!
وخاف من أنّها ربما تحاول أن تختبره.
سألت ضاحكة:
ماذا؟
ضحكَ أيضًا.
فكرّتُ بأنكِ سوف تسألينني عن بعض الروايات. لا أقرأ الروايات.
أنتَ على خطأ. كنت سأسلك عن كتب السفر...
نظر إليها بحدّة... ظهر الضحك على وجهها بأكمله، لكن ليس على شفتيها.
فكّر أبلوموف: «أوه، لكن يجب على المرء أن يكون حذرًا منها».
سألته بفضول:
لكن ماذا قرأت؟
في واقع الأمر، أنا أحب كتب السفر غالبًا.
سألته بشكل رقيق ومكتوم:
إلى أفريقيا.

شعر بالخجل وقد خمّن دونما سبب وجيه بأنها لم تعرف ما يقرأ فحسب بل أيضًا كيف يقرأه.

سألته لكي تساعده في التخلص من ارتباكه:

هل أنت موسيقار؟

في ذلك الحين دخل شتولتس.

إيليا، لقد أخبرت أولغا بأنك مولع بشكل محموم بالموسيقى وسألتها أن تغني شيئًا من أغنية «أيتها الإلهة الطاهرة».

أجاب أبلوموف:

لماذا تكذب عليّ. أنا غير مولع جدًا بالموسيقى.

قاطعهُ شتولتس:

كيف تحبين ذلك؟ يبدو أنه منزعج! أنا زكّيته لكِ كونه فتىً مهذّب وها هو يسرع ويخيّب أملكِ.

أنا أرفضُ فحسب دور عاشق الموسيقى: إنه دور مُريب وصعب!

سألت أولغا:

أي نوع من الموسيقى تحبّ؟

إنه سؤال تصعب الإجابة عليه. أيّ موسيقى. أصغي أحيانًا بالمتعة إلى الأورغن الأسطواني الخشن، نغمة لا تستطيع الخروج من ذهني، وفي أحيان أخرى أغادر في منتصف الأوبرا؛ ربما يثيرني مايربير، أو حتى أغنية رجل البارجة. أخشى أنّ الأمر يعتمد على المزاج الذي أكون فيه! أحيانًا أشعر وكأنني أضع أصابعي في أذني وأنا أستمع إلى موتسارت.

ذلك يعني أنك مولع بالموسيقى.

سأل شتولتس:

غنّي يا أولغا سرغييفنا.

قالت ووجهت الكلام إلى أبلوموف:

لكن لو مرّ السيد أبلوموف بذلك المزاج الذي يشعر فيه وكأنه يضع أصابعه في أذنيه؟

أجاب أبلوموف:

أعتقد بأنه يجب عليّ أن أقدّم الثناء لهذه الملاحظة. أخشى أني غير مؤهل له، وحتى لو كنت كذلك، فيجب ألّا أجرؤ على...

لماذا؟

علّق أبلوموف بشكل صريح:

حسنٌ، ماذا لو غنّيتِ بشكل رديء؟ سوف أشعر بالشناعة فيما بعد.

قالت بلا تفكير:

كما هي الحال مع البسكويت أمس.

وخجلت، كانت ستعطي أي شيء مقابل أن لا تقوله.

ثم أردفت:

آسفة جدًا.

لم يتوقع أبلوموف ذلك وكان في منتهى الاضطراب.

قال بصوت واطئ:

إنها خيانة كبيرة.

كلا، ربما كان انتقامًا صغيرًا، وأؤكد لك أن ذلك لم يكن متعمدًا أيضًا لأنك لم تقدّم لي الثناء.

ربما سأقدمه حين أسمعكِ.

سألته:

هل تريد مني أن أغنّي؟

أجاب أبلوموف وأشار إلى شتولتس:

إنه هو الذي طلب منكِ.

وأنتَ؟

هزّ أبلوموف رأسه.

لا أرغب بما لا أعرفه.
علّق شتولتس:
إنك غرّ يا إيليا، وذلك يعني الاستلقاء في البيت ولبس الجوارب التي...
قاطعهُ أبلوموف بسرعة ولم يدعه ينهي كلامه:
لكن يا عزيزي لقد قلتُ ببساطة: «آه، سوف أكون مبتهجًا جدًا وفي منتهى السعادة أنكِ تغنين بشكل مدهش، طبعًا. سوف يمنحني... إلخ».
واصل القول موجهًا الكلام إلى أولغا:
أنتِ لا تريدين مني أن أقول هكذا، أليس كذلك؟
أعتقد أنك ربما عبرت عن رغبتك في أن أغني. أوه، بداعي الفضول.
ردّ أبلوموف:
لم أكن لأجرؤ على ذلك. إنكِ لست ممثلة.
قالت لشتولتس:
حسنٌ جدًا. سوف أغني لكَ.
قال شتولتس:
إيليا كن مستعدًا للثناء.
في الوقت نفسه حلّ الظلام. كان المصباح مُضاءً، وبدا وكأنه يشبه القمر عبر تعريشة مغطاة باللبلاب. اختفى الغسق من تقاطيع وجه أولغا وشكلها، ورمى ستارًا رقيقا فوقه. كان وجهها في الظل؛ يمكن سماع صوتها الرخيم والقوي فقط مع رعشة من الإشفاق فيه. أنشَدتْ العديد من أغاني الحب والأنغام حسب طلب شولتس: بعضها عبّرت عن المعاناة مع هاجس غامض من السعادة، والأخرى عن الفرح مع تيار خفي من الحزن يمكن تمييزه فيه. كانت الكلمات، والصوت الأنثوي الصافي القوي يجعل القلب يخفق، والأعصاب ترتعش، والأعين تومض وتغرق بالدموع. كأنّ المرء يموت وهو يصغي إلى هذه الأصوات، وفي الوقت نفسه يتلهف قلبه إلى المزيد من الحياة.

كان أبلوموف مسحورًا ومقهورًا؛ بالكاد حبَسَ دموعه أو كبت صيحة الفرح التي كانت على وشك أن تفرّ من صدره. لقد شعر لعدة سنوات بالحيوية والقوة. بدت قوته جاهزة لكل عمل بطولي. كان سيذهب للخارج في اللحظة ذاتها لو كان كل ما يجب أن يفعله هو أن يخطو نحو العربة ويرحل.

حين غنّت في النهاية «أيتها الإلهة الطاهرة» فإنّ نشوته وأفكاره ومضت مثل البرق خلال رأسه، وجرت رعشة برد في جسمه... سحقهُ كل ذلك، وشعر بالانكسار تمامًا.

سألت أولغا فجأة شتولتس حين أنهت أغنيتها:

هل أنتَ راضٍ عني اليوم؟

قال شتولتس:

اسألي أبلوموف ما رأيه.

صاح أبلوموف:

آه!

والتقط يد أولغا فجأةً، مما أحدث اضطرابًا فورًا.

همسَ:

أنا آسف.

قال شتولتس لها:

هل تسمعين؟

أخبرني بصراحة، يا إيليا، منذ متى حدث لك هذا النوع من الأمور؟

اعترضت أولغا:

محتمل أنه حدث هذا الصباح حين مرّت عربة الأرغن اليدوي بنافذتي السيد أبلوموف.

لكنها تكلمت بطيبة ورقّة، فكانت كلمتها لاسعة لكنها غير ساخرة.

نظر إليها مؤنّبًا.

أضاف شتولتس:

إنه لم ينتزعْ النوافذ المزدوجة، لذا لا يستطيع أن يسمع ما يحدث في الخارج.
نظر أبلوموف إلى شتولتس نظرة تأنيب.
أخذ شتولتس بيد أولغا.
قال وقبّل كل أصبع من أصابع يدها:
لا أعرف السبب، لكنكِ غنيتِ اليوم كما لم تغنّي من قبل أبدًا، يا أولغا سيرغييفنا. على أية حال أنا لم أسمعكِ تغنين بهذه الطريقة منذ مدة طويلة. أقدم لك تهنئتي.
كان شتولتس على وشك أن يقول وداعًا. أراد أبلوموف أيضًا أن يذهب لكن شتولتس وأولغا أصرّا على بقائه.
علّق شتولتس:
أنا لديّ عمل يجب أن أنكب عليه لكنك تذهب لتستلقي فحسب. وما زال الوقت مبكرًا.
قال أبلوموف ملتمسًا:
أندريه! أندريه!
وواصل القول:
كلا، لا أستطيع أن أبقى.
وذهَبَ.
لم ينم الليل كله؛ استيقظ حزينًا ومفكّرًا ومشى في الغرفة ذهابًا وإيابًا. خرج في انبلاج النهار، وسار على طول نهر النيفا ثم عبر الشوارع، والله وحده يعلم بِمَ كان يشعر ويفكّر. بعد ثلاثة أيام حلّ هناك، وفي المساء، حين جلس الضيوف الآخرون لكي يلعبوا الورق، وجد نفسه عند البيانو وحده مع أولغا. أصيبت العمّة بالصداع وكانت تجلس في مكتبها وهي تستنشق أملاح النشادر[46].
سألت أولغا:

46أملاح لعلاج الصداع والإغماء وغيرها م.

هل تود أن أريك مجموعة الرسوم التي جلبها لي السيد شتولتس من أوديسا[47]؟ ألم يطّلعك عليها؟

سأل أبلوموف:

هل تحاولين أن تسلّيني مثل المُضّيفة؟ لا حاجة لتزعجي نفسك.

ولِمَ لا؟ لا أريدك أن تكون ضجرًا. أريدك أن تشعر كأنك في البيت هنا. أريدك أن تكون مرتاحًا وحرًّا ومطمئنًا لكي لا تضطر إلى أن تبتعد وتستلقي.

فكّر أبلوموف: «إنها فتاة حاقدة ساخرة».

مع ذلك فقد أعجب بكل حركة من حركاتها.

كرّر القول:

هل تريدين أن أكون حرًا ومطمئنًا وليس ضجرًا؟

أجابت:

أجل.

ونظرت له كما فعلت سابقًا، لكن بتعبير يحمل فضولًا وحنانًا كبيرين.

قال أبلوموف:

إذا أردتِ ذلك يجب أولًا ألّا تنظري لي كما تنظرين الآن وكما نظرت في اليوم السابق...

نظرت إليه بفضول مضاعف.

لأنّ تلك النظرة هي التي تجعلني قلقًا... أين قبعتي؟

سألته برقّة:

لماذا تجعلك تشعر بالقلق؟

وفقدت نظرتها تعبير الفضول، وأصبحت تشي بالعطف والحنان.

لا أعرف. لا أتمالك نفسي من الشعور بأنكِ في تلك النظرة تحاولين أن تستخلصي مني كل شيء لا أريد أن يعرفه الناس... أنتِ بالأخص.

47مدينة على ساحل البحر الأسود م.

ولِمَ لا؟ إنك صديق للسيد شتولتس وهو صديقي، لهذا السبب...
قاطعها وأنهى جملتها:
لهذا السبب، لا يوجد داع لأن تعرفي كل ما يعرفه السيد شتولتس عني.
لا يوجد داعٍ، لكن هناك فرصة.
بفضل صراحة صديقي... خدمة سيئة من قبله.
سألته:
هل تحمل أسرارًا؟
وأضافت:
جرائم ربما.
وضحكت وابتعدت عنه.
أجاب متحسرًا:
ربما.
قالت برفق وخوف:
آه، إنها جريمة كبرى، أن تلبس جوربيك بلونين مختلفين.
أمسك أبلوموف بقبعته.
قال:
لا أستطيع تحمل الأمر! وتريدين مني أن أكون مطمئنًا؟ سوف أتشاجر مع أندريه. هل أخبرك بمسألة الجوارب أيضًا؟
أضافت أولغا:
جعلني أضحك كثيرًا منها اليوم. دائمًا يجعلني أضحك. أنا آسفة، لن أكرر الأمر. وسأحاول أن أنظر إليك بصورة مختلفة...
ونظرت إليه بتعبير الجد والهزل.
تابعتْ القول:

كل هذا أولًا. حسنٌ جدًا، أنا لا أنظر إليك كما فعلت في اليوم السابق، لكي يتوجب عليك أن تشعر بالراحة والاطمئنان. الآن، ماذا يجب أن أعمله ثانيًا لكي لا تكون ضجرًا؟

نظرَ مباشرة في عينيها الرقيقتين اللتين تعكسان اللون الأزرق الرمادي.

قالت:

الآن أنتَ تنظر لي بشكل غريب.

كان في الواقع ينظر إليها كثيرًا بعينه بل بعقله، بكل إرادته، كأنهُ كان ممغنطًا، لكن بشكل إلزامي، وأصبح عاجزًا تمامًا عن عدم النظر.

فكّر ونظر إليها بعينين مروَّعتين: «يا للسماء! كم هي جميلة! هل يعقل أن توجد مثل هؤلاء الفتيات المدهشات! هذه البشرة البيضاء، تلكما العينان المعتمتان مثل بركتين عميقتين، ومع ذلك ثمة شيء يلتمع فيهما... روحها، لا ريب! يمكن لابتسامتها أن تُقرأ مثل كتاب وتكشف عن أسنانها الجميلة، ورأسها بأكمله، كيف يستند برقة على كتفها، ويتمايل مثل زهرة تنشر العبير...

وواصل التفكير: «نعم لقد استخلصتُ شيئًا منها... شيءٌ انتقل منها إليّ. هنا شيء، قريب إلى قلبي، يتحرك ويرفرف... أشعر بإحساس جديد، شيء لم يوجد هناك من قبل... يا إلهي، أيّة فرحة تأخذني وأنا أنظر إليها! إنها تسلبُ لُبّي!

ظلَّت أفكاره تدوّم عبر ذهنه وكان ينظر إليها كأنه ينظر إلى مدى لا نهائي، وهاوية عميقة جدًا، مع إحساس بالسرور ونسيان الذات.

قالت وأدارت رأسها بخجل:

حقًا سيّد أبلوموف، لاحظْ كيف تنظر إليّ الآن بنفسك.

لكن فضولها أشعرها بالراحة ولم تستطع أن تنتزع عينيها منه.

لم يسمع شيئًا. لم ينظر حقًا إليها دون سماع كلماتها وأصغى بصمت إلى ما حدث في داخله: مسّ رأسه... كان هناك أيضاً شيء يتحرك بقلق، ويندفع بسرعة لا يمكن تصورها. لم يستطع أن يسيطر على أفكاره؛ بدأت تنطلق بعيدًا مثل سرب من الطيور، وهناك بدأ ألم في جانبه الأيسر، قريبًا من القلب.

قالت:

لا تنظر إليّ بشكل غريب جدًا، فذلك يجعلني أيضًا قلقة. أتوقع أنك تريد أيضًا أن تستخلص شيئًا من روحي.

سأل بشكل آلي:

ماذا يمكنني أن أحصل منكِ؟

أجابت:

أنا لديّ خططٌ أيضًا، بدأتها ولم أكملها.

ثاب إلى رشدهِ عند ذلك التلميح إلى خطته غير الكاملة.

قال:

غريب، أنتِ حاقدة لكن تمتلكين عينين طيبتين. فليس من العبث أن يقول الناس بأن المرء يجب دائمًا أن يصدّق بالنساء. إنهنّ يكذبنَ بشكل مقصود بألسنتهنّ وبشكل غير مقصود بأعينهنّ وابتساماتهنّ وخجلهنّ وحتى نوبات إغمائهنّ.

لم تسمح لهذا الانطباع أن يصبح أقوى، أخذت قبعته منه بهدوء وجلست على كرسيّ بنفسها.

ردّدت بسرعة:

لن أكرّرها، لن أكرّرها. آه، أنا آسفة جدًا. كان يجب ألّا أقول ذلك! لكني أقسم أنني لم أكن أحاول أن أكون ساخرة مطلقًا!

غنّت تقريبًا، وتحركت العاطفة في إنشاد تلك الكلمات.

هدأ أبلوموف.

قال مؤنّبًا:

آه، ذلك سببه أندريه!

سألت:

حسنٌ، ثانيًا أخبرني ماذا أفعل لكي أجعلك لا تشعر بالضجر؟

قال:

غنّي!

قالت بشكل مبتهج وتورّدت خجلًا:

ذلك هو الثناء الذي كنت أنتظرهُ.

واصلت الكلام بحيوية:

هل تعلم أنك لو لم تطلق صيحة «آه» بعد غنائي تلك الليلة لفكّرت بعدم النوم وربما بكيت؟

سأل أبلوموف بدهشة:

لماذا؟

فكّرَتْ. أضافت بعد فترة:

أنا نفسي لا أعرف.

أنتِ فارغة. ذلك هو السبب.

قالت وتضايقت ومسّت مفاتيحها بيد واحدة:

نعم، بالطبع. لكن الكل تافهون وبشكل كبير. يزعم السيد شتولتس بأن الغرور هو الأمر الوحيد الذي يسيطر على إرادة الإنسان. أتوقع منكَ ألّا تحمل أيًّا منه، وذلك هو السبب في أنّكَ...

لم تُكمل كلامها.

سألها:

أنا ماذا؟

قالت:

أوه، لا شيء وغيّرت الموضوع:

أنا مولعة بالسيد شتولتس.

واصلت القول:

لا بسبب أنه يضحكني... أحيانًا كلماته تجعل مني أبكي. ولا بسبب أنه يحب فتاة أخرى، لكني أعتقد السبب... أنه يحبني أكثر مما يحب الناس الآخرين: هل فهمت؟ غروري يخدعني!

سأل أبلوموف ونظر في عينيها بتركيز وحدّة:

هل أنت مولعة بالسيد شتولتس؟

ردّت بشكل جدّي:

آه، بالطبع، لو أنه يحبني أكثر مما يحب الناس الآخرين فمن العدل أني أحبه.

نظر إليها أبلوموف بصمت، فأجابتهُ بنظرة صريحة صامتة.

إنه يحب آنا فاسلييفنا أيضًا، وزينايدا ميخائيلوفنا، لكن لا يحبهنّ أكثر مني.

وتابعت:

لن يجلس معهنّ لمدة ساعتين، أو يضحكهنّ، أو يتكلم بصراحة إليهنّ؛ إنه يتكلم عن العمل والمسرح والأخبار، لكنه يتكلم معي كما يتكلم مع أخته، لا...

صححت بسرعة:

أو كما يتكلم مع ابنته. أحيانًا يوبّخني لو كنت بطيئة الفهم، أو أرفض أن أفعل ما يرغب به، أو حين لا أتفق معه. لكن لم يوبخهنّ.

أضافت مستغرقة في التفكير:

وأعتقد أني أحبه بشكل كبير بسبب ذلك الغرور! لكن لا أعرف كيف أمكن من التسلّل إلى غنائي الذي غالبًا ما أطراه الناس، إنك لم تستمع له كثيرًا يجب أن تُجبر نفسك على الاستماع له. وإذا ذهبت دون أن تقول كلمة ثناء لي، وإذا لاحظتُ أيَّ شيءٍ في وجهك، أعتقد أني سأقع مريضة.

وختمت حديثها بشكل حاسم:

نعم، يجب أن اعترف، ذلك هو الغرور بلا شك!

سألَ:

آه، هل لاحظتِ شيئًا في وجهي؟

دموع، على الرغم من أنكَ تخفيها؛ إنها عادة سيئة ويجب على الرجال أن يكونوا خجلين من أحاسيسهم. ذلك غرور أيضًا، مجرد غرور زائف. يجب أن يكونوا أحيانًا خجلين من فِكرهم؛ فهو يؤدي بهم إلى الضلالة في أحوال كثيرة. حتى السيد شتولتس خجلٌ من مشاعره. أخبرتهُ بذلك، واتفق معي. وأنتَ؟

قال:

حين ينظرُ المرءُ إليكِ فإنه يتفق مع أي شيء!
إطراء آخر، ويا له من...
ولم تستطع أن تجد الكلمة المناسبة.
أكمل أبلوموف جملتها دون أن ينتزع عينيه منها:
... إطراء مبتذل.
وافقت على الكلمة بابتسامة.
ذلك ما خشيت منهُ بالضبط حين رفضتُ أن أطلب منكِ الغناء. ماذا يمكن للمرء أن يقول بعد أول استماع؟ مع ذلك يجب عليه أن يقول شيئًا ما. من الصعب أن تكون ذكيًا ومخلصًا في الوقت نفسه، بالأخص بشأن مشاعر المرء حين يكون متأثرًا بشكل كبير، كما حدث لي حينئذ.
قالت وبدا وجهها متوردًا، وعيناها متوهجتين:
في الحقيقة غنيتُ حينئذ وكأني لم أغنِّ لمدة طويلة، وربما كأني لم أغنِّ أبدًا... لا تسألني أن أغنّي، لن أكون قادرة على الغناء ثانيةً... مهلًا، سوف أغنّي شيئًا آخر.
جلست وضربت ثلاثة أو أربعة مفاتيح عالية النغمة وبدأت تغنّي.
يا إلهي، يا لها من أمور لم يسمعها في غنائها! الآمال، الخوف الغامض من العواصف، العواصف نفسها، نشوة السعادة... كل هذا يمكن سماعه، لا في الأغنية، بل في صوتها. غنّت فترة طويلة، وكانت تلتفت إليه من وقت لآخر لكي تسأله مثل طفلة:
هل كان هذا كافيًا؟ كلا؟ حسن، إذن استمع لهذا...
وواصلت الغناء. احترق خداها وأذناها بالإثارة؛ أحيانًا يشتعل وجهها بومضة مفاجئة من العاطفة وبشعاع من الشغف الناضج جدًا كأنها أعادت تجربة الماضي البعيد للعيش في قلبها، ثم انطفأ هذا الشعاع الخاطف فجأةً وتردّد صوتها مرة أخرى عذبًا وفضيًا. جرّب أبلوموف أيضًا النوع نفسه من الشعور، بدا له كأنه قد عاش خلاله كله، ليس لساعة واحدة أو ساعتين، بل لعدة سنوات... كلاهما، على الرغم من سكونهما الخارجي، قد مزّقتهما نارٌ داخلية، وهزّتهما الإثارة نفسها؛

الدموع في عينيهما كان يستدعيها المزاج نفسه. تلك كانت كلها أعراض الشغف الذي كان واضحًا أنه محكوم بالنهوض في قلبها اليافع، الذي يخضع الآن إلى جيشان وجيز ومتلاشٍ لقوى الحياة التي ما زالت هاجعة. ختمت أغنيتها بنغمة طويلة مثيرة، وتلاشى صوتها فيها. توقفت، ووضعت يديها في حضنها، وقد عمّقت نفسها بالإثارة والحماس، ألقت نظرة على أبلوموف لترى ماذا كان شعوره. كان وجهه يشع بالسعادة التي تستقى من أعماق وجوده؛ نظر إليها بعينين مترعتين بالدموع.

والآن كانت هي التي أمسكت يده بشكل لا إرادي.

سألتْ:

ما المشكلة؟ لماذا تبدو هكذا؟ لماذا؟

لكنها عرفت السبب، وفي داخلها ابتهجت بالنصر المتواضع، وشعرت بالمتعة من هذا التجلي لقواها.

واصلت القول:

انظر إلى المرآة.

وأشارت مبتسمة إلى انعكاس وجهه في المرآة.

عيناك مشرقتان! يا إلهي، الدموع فيهما! كم هو عميق إحساسك بالموسيقى!

قال أبلوموف بهدوء:

كلا. ليست الموسيقى التي أحسها، إنه... الحبّ!

وأسقطت يدها فورًا وتغيّر لونها. التقت عيونهما: نظرته كانت مثبتة، ومشوّشة تقريبًا؛ إنه ليس أبلوموف، بل شغفهُ الذي نظر إليها.

أدركت أولغا بأن كلماته فرّت منه رغمًا عنه وبأنه كان عاجزًا عن كبتها، لأنه نطق الحقيقة فحسب.

ثاب إلى نفسه، أخذ قبعته وهرع إلى الغرفة دون أن يلتفت حوله. لم تتبعه بعينين فضوليتين، بل وقفت ساكنة مثل تمثال عند البيانو لمدة طويلة، وكانت عيناها مثبتتان على الأرض؛ ما عدا صدرها فقد ارتفع وشعرت بالإثارة.

تليجرام

غواص في بحر الكتب



(6)

متى ما استلقى أبلوموف مسترخيًا في البيت أو كان مستغرقًا في نوم رتيب أو منغمرًا في الأوهام المحلّقة والملهمة، كانت دائمًا ثمة امرأة في خلفية أحلامه، امرأة كانت زوجته وأحيانًا خليلته. المرأة التي رآها في أحلامه كانت طويلة وذات شكل حسن، وذراعاها مطويان بهدوء على صدرها، عيناها وديعتان مع أنهما متغطرستان، تجلس على مهل تحت مجموعة من أشجار اللبلاب المتدلية، أو تخطو بخفة على السجادة أو على الممر الرملي، وركاها يتمايلان، يتزن رأسها برشاقة على كتفيها، وعيناها تنظران للأمام بشكل حالم؛ كان هدفها أن تجسّد حياة مفعمة بالسحر والهدوء الرزين، كانت تمثل الراحة نفسها شخصيًا. حلمَ ببدايتها، متوّجة بالأزهار، تقف على مذبح الكنيسة وهي ترتدي خمارًا طويلًا، ثم على رأس فراش الزواج بعينين تخفضهما خفرًا، وأخيرًا، مثل أمٍّ بين مجموعة من الأطفال.
حلمَ بالبسمة على شفتيها، بسمة لم تكن محمومة، لكن ودية بالنسبة له كزوج ومتسامحة للآخرين؛ حلمَ بعينيها اللتين لا تدمعان بالرغبة، لكن تخضعان له فحسب، وكانتا خجلتين، وحتى قاسيتين بالنسبة للآخرين. لم يرغب في رؤيتها بحالة من الهياج، ويسمع عن أحلام متقدة، ودموع مفاجئة، ولهفات واهنة، وإنهاك يتبعه نوبة مسعورة من الفرح. لم يرغب لا بضوء القمر ولا بالحزن. لا بدّ من أنها لم تتحول إلى شاحبة فجأة، ويغمى عليها، أو تمر بجيشان عاطفي مشتت.
اعتاد على القول: «نساء مثل هؤلاء لديهنّ عشّاق ويخلقن لك مشاكل لا تنتهي: أطباء، منتجعات صحية، وكل أنواع النزوات. لن تكون قادرًا على النوم بسلام! لكن بجانب زوجة فخورة وخجولة ومخلصة يمكن للرجل أن ينام خالي البال».
يذهب لينام قانعًا إذ إنه حين يستيقظ سوف يلتقي النظرة العطوفة الرقيقة نفسها؛ وبعد عشرين أو ثلاثين سنة، واستجابة لنظرته الحانية، سوف يلتقي شعاع العاطفة الرقيق والوامض بلين في عينيها. وكذلك ليومهما المحتضر!
فكّر: «آه، ألا يوجد هدف سرّي لكل امرأة ورجل لكي تجد المرأة في صديقها أو الرجل في صديقته هدوءًا ثابتًا، وجريانًا دائمًا ومستمرًا للشعور؟ تلك هي قيمة

الحب، وفي اللحظة التي ننحرف عنه يتغير ويصبح باردًا، فنُعاني. لذا فإنّ هدفي يجب أن يكون هو الهدف الشائع لكل شخص، أليس كذلك؟ أليس ذلك الإنجاز المتوّج، والحل النهائي للعلاقات بين الجنسين؟ إعطاء الشغف منفذًا شرعيًا، وتوضيح الاتجاه الذي يجب أن يجري فيه، مثل النهر، من أجل فائدة البلد بأكمله. هي المشكلة الشائعة للإنسانية، إنها ذروة التقدم التي يكافح من أجلها الناس التقدميون، مثل جورج صاند[48]، لكنهم يتيهون دائمًا. ما إن يجري حلّها فلن تكون هناك خيانة ولا برودة، بل قلب هادئ ومطمئن وينبض دائمًا، ولهذا السبب، تكون هناك حياةً ممتلئة وسعيدة وتطور أخلاقي دائم.» هناك حالات شديدة من السعادة، لكنها نادرة؛ ويشار إليها كونها ظواهر. لا بد أن المرء يولد من أجلها كما يقول الناس. لكن ربما يتوجب على المرء أن يكون مثقفًا من أجلها، ويحاول أن يحققها بشكل واع. العاطفة! كل ذلك حسنٌ جدًا في الشعر أو على المسرح، إذ يختال الممثلون في العباءات والخناجر، ثم يذهب القتلة والمقتولون ويتناولون العشاء معا. سيكون أمرًا طيبا لو أن العواطف تنتهي أيضا مثل ذلك، لكنها لا تترك شيئًا سوى الدخان والرائحة النتنة وراءها، وليس السعادة! ولا تجلب الذكريات سوى العار والهياج. وأخيرًا إذا ما كان سوء الحظ، إن لم تكن العاطفة، قد باغتتك، فكأنك تعثر على نفسك في طريق وعر جدًا شديد الانحدار إذ تنزلق الخيول ويتعب الفارس، لكن قريتك يمكن أن تلوح من بعيد: يجب أن لا تفقد رؤيتها ويجب أن تفعل كل ما يمكنك لكي تخرج من المكان الخطر بأسرع ما يمكن... نعم، لا بدّ من أنّ الزواج يكبت العاطفة ويقيّدها ويحطّمها... سوف يهرب مرعوبًا من امرأة لدغته بنظرتها، أو أطلقت أنينًا ووقعت على كتفيه بعينين مغلقتين، ثم جاءت وألقت ذراعيها حول رقبته بعناق شديد. يمكن لذلك أن يكون ألعابًا نارية، مثل انفجار برميل من البارود؛ فما الذي يليه؟

الصمم والعمى، والشَّعر المحترق.

48الاسم المستعار للروائية الفرنسية المعروفة وصديقة الموسيقار شوبان م.

لكن دعونا نرى أي نوع من النساء كانت أولغا.
بعد عدة أيام من اعترافه المفاجئ لم يرَ كل منهما الآخر على انفراد. اختفى مثل طفل مدرسة حالما رأى أولغا. لقد تغيّرت نحوه، لكنها لم تتجنَّبه وكانت باردة تجاهه، لكنها أصبحت أكثر تفكيرًا. لم يستطع أن يتمالك نفسه من الشعور بأنها كانت آسفة من شيء حدث ومنعها من تعذيبه بنظراتها الفضولية ومضايقته بشكل ودّي بسبب استلقائه، وكونه كسولًا وأخرق. كانت تحب أن تهزأ به، لكنه الهزل الذي تتمتع به الأم التي لا تتمالك نفسها من الابتسام لنهوض ابنها المضحك. رحل شتولتس، وكانت ضجرة أن لا يكون معها أحد لتغنّي له؛ كانت آلتها البيانو مغلقة... باختصار، كلاهما شعر بأنه مقيّدٌ وأخرق. وكم كان مدهشًا أنّ الأمر كلهُ تلاشى أولًا! كم كان بسيطًا أنهما عرفا أحدهما الآخر! كم كان سهلًا أنهما أصبحا صديقين! كان أبلوموف أكثر بساطة من شتولتس، وأشد كرمًا أيضًا، على الرغم من أنه لم يقدّم لها التسلية بشكل أفضل... أو بالأحرى قدّم لها التسلية، وغفر لها سخريتها بسهولة. إضافة إلى أن شتولتس قبل أن يغادر وضع أبلوموف تحت مسؤوليتها؛ سألها أن تبقي عينها عليه وتمنعهُ من الوقوف عند البيت. ابتكرت في رأسها الصغير الذكي الجميل خطة مفصّلة لكيفية إيقاف أبلوموف عن عادته في النوم بعد الغداء... لا عن النوم فحسب بل أيضًا عن الاستلقاء على الأريكة في وقت النهار؛ سوف تأخذ منه وعدًا. حلمت بكيفية حثّهِ أن يقرأ الكتب التي تركها شتولتس، وأن يقرأ الصحف كل يوم ويخبرها عن الأنباء، وأن يكتب الرسائل إلى عزبته، وأن ينتهي من خطته في إدارتها، وأن يكون جاهزًا للذهاب إلى الخارج... أي أنها لن تسمح له بالتكاسل؛ سوف توضح له هدفه في الحياة، وتجعله يحب مرة أخرى الأمور التي لم يعد يهتم بها، ولن يكون شتولتس قادرًا على تمييزه بعد عودته. سوف تؤدي أولغا الصامتة والخجلة هذه المعجزة. هي، التي لم تبدأ حياتها بعد والتي لم يخضع لها أحد حتى الآن! سوف تكون سببًا لذلك التحوّل! لقد بدأ مسبقًا؛ ففي اللحظة التي بدأت فيها بالغناء،

كان أبلوموف شخصًا مختلفًا... سوف يعيش، ويعمل، ويبارك الحياة ويباركها أيضًا.
حين تُعيد إنسان إلى الحياة... آه، فكّر في المجد الذي حازه طبيب وهو يُعيد مريضًا يائسًا وعاجزًا إلى صحته!
وماذا عن إنقاذ إنسان كان عقله وروحه يواجهان خطر التدمير الأخلاقي؟ التفكير بالأمر ذاته جعل منها ترتجف من الفخر والفرح؛ نظرت إلى الأمر كونه مُهمّة أسندت لها من فوق. تصورته في ذهنها كونه سكرتيرًا وأمينا لمكتبتها. وفجأةً اختفى كل ذلك! لم تعرف ماذا يجب أن تفعل وكان ذلك هو السبب في أنها كانت صامتة حين التقت أبلوموف.
كان أبلوموف يتعذب حين فكّر أنه صدمها وضايقها، وكان يتوقع نظرات ماحقة وقسوة باردة، وقد ارتجف حين لمحها، وأسرع بالانصراف. في الوقت نفسه كان قد انتقل إلى الفيلّا الريفية، وسار لمدة ثلاثة أيام وحده على الأرض السبخة متجهًا إلى الغابة، كما ذهب إلى القرية وجلس بكسل أمام بوابات بعض أكواخ الفلاحين وهو يراقب الأطفال والعجول وهي تركض والبط يسبح في البركة. كانت هناك بحيرة وحديقة ضخمة بالقرب من بيته: لم يذهب إلى هناك لأنه كان خائفًا من لقاء أولغا بنفسها. فكّر دون أن يسأل نفسه إن كانت الكلمات التي لفظها صادقة، أو نتيجة تأثير الموسيقى الخاطف على أعصابه. الشعور بالبشاعة والعار أو «الخزي» كما كان يسميه، الذي جلبه على نفسه، منعهُ من تحري طبيعة ذلك الجيشان، وبصورة عامة، ماذا كانت أولغا تعني له. لم يعد يحلّل الشيء الجديد الذي دخل قلبه... إن كان نوعًا من الورم الذي لم يكن موجودًا سابقًا. تكورت كل مشاعره على شكل كرة ضخمة من العار. وحين ظهرت للحظة أمام خياله، ظهرت هناك بشكل متزامن تلك الصورة، أيضا، هدف السلام المتجسد، السعادة، الحياة: كان هذا الهدف هو النسخة الدقيقة من أولغا. كانت الصورتان متطابقتين وامتزجتا معًا.

همس: «ماذا فعلت! لقد دمَّرت كل شيء، الحمد للهّ أن شتولتس رحل: ليس لديها الوقت لتخبره، أو يجب أن أغوص في الأرض! الحب، الدموع... الأمر لا يناسبني! لم تطلب مني عمّة أولغا زيارتها مرة أخرى: أتوقع أنّها هي التي يجب أن تخبرها. يا إلهي!».
ذلك ما فكّر به وهو يتوغل بعيدًا في المتنزه ويمشي في شارع جانبي.
كان شيءٌ واحدٌ يقلق أولغا، هو كيفية مقابلته، وكيف ستنتهي تلك المقابلة: هل يجب عليها أن تقول شيئًا أم تتغاضى عنه بصمت كأنّ شيئًا لم يحدث؟ لكن ماذا يمكن أن تقول؟ هل تتظاهر بتعبير صارم، وتنظر إليه بكبرياء، أم أنها لا تنظر مطلقًا، بل تشير بشكل متغطرس وجاف بأنها لم تتوقع منه أن يتصرف هكذا: مَنْ يفكّر أنها تفعل ذلك، كي يسمح بمثل هذه الوقاحة؟ ذلك ما قالته سونيا أثناء رقصة المازوركا[49] إلى ملازم ثانٍ، على الرغم من أنها شعرت بالكثير من الإزعاج لكي تلفت انتباهه. سألت نفسها: «لكن، هل كان وقحًا؟ وإذا كان يشعر حقًا به، لماذا لا ينطقه؟ لكن مع ذلك، كان الأمر مفاجئًا قليلًا. بالكاد يعرفني. لم يصرّح إنسان بمثل هذا الأمر بعد رؤية امرأة للمرة الثانية أو الثالثة، ولن يقع إنسان في الغرام سريعًا جدًا. أبلوموف فقط يمكنه ذلك...». لكنها تذكرت بأنها قرأت وسمعت بأن الحبّ يأتي فجأة أحيانًا. فكّرت: «تصرّفَ حسب حافز ما، كانت تجرفه العاطفة. الآن لا يُظهر نفسه. إنه خجلان. لا يمكن أن تكون وقاحة، إذن. لكن غلطة مَنْ؟ غلطة شتولتس بالطبع لأنه جعلني أغنّي». لم يرغبْ أبلوموف بالإصغاء في البداية. استاءت من الأمر، وحاولت... تورّد خدّها باللون القرمزي... نعم، لقد فعلت ما بوسعها كي تثيره. كان شتولتس يقول بأنه فاتر الشعور، ولا شيء يلفت انتباهه، وأن كل شيء مات فيه، وغنّت، غنتّ كأنها لم تغنِّ من قبل... «يا إلهي، إذن هي غلطتي: يجب أن أسأله أن يغفر لي...» وسألت نفسها بعد لحظة: «لكن عن أي شيء؟ لكن ماذا أقول له؟ سيّد أبلوموف أنا في

49رقصة بولندية.

غاية الأسف، حاولتُ أن أغريك! أوه، يا له من أمر مخزٍ! إنه ليس صحيحًا!» قالت وجفلت خجلًا وداست قدمها بقوة. «من يجرؤ على التفكير بمثل هذا الشيء؟ لم أعرف ما الذي سيحدث، أليس كذلك؟». سألت: «وإن لم يحدث، ولو أنه لم يقله... ما الذي سيحدث حينئذ؟» فكّرت: «لا أعرف». منذ ذلك المساء شعرت بأنها غريبة جدًا... لا بدّ من أنها تعرضت للإزعاج، لا ريب أنها شعرت بالحُمَّى، وتوقَّد خدَّاها...

أخبرها الطبيب:

هياج عصبي... حُمَّى خفيفة.

فكّرت وهي تمشي في المتنزه: «كلها من فعلة أبلوموف! آه، يجب أن ألقّنهُ درسا لكي لا يفعلها ثانية! سوف أطلب من عمتي ألَّا تدعوه إلى بيتنا. يجب ألَّا ينسى نفسه... كيف يجرؤ على ذلك؟» وسطعت عيناها. فجأة سمعت خطوات شخص قادم.

فكّر أبلوموف: «شخص ما قادم!» والتقيا وجهًا لوجه.

قال:

أولغا سرغييفنا!

واهتزّ كورقة الحور.

قالت خائفة:

إيليا إليتش!

وتوقفا كلاهما.

قال:

صباح الخير.

أجابت:

صباح الخير.

سألتْ:

أين أنت ذاهب؟

قالت دون أن ترفع عينيها:

ليس إلى مكان معيّن.

هل اعترضت طريقك؟

أجابت:

آه، كلا، البتة.

ولمحته بسرعة وفضول.

سألها فجأة، بنظرة فاحصة:

هل لي أن أصحبكِ؟

سارا بصمت عبر الممر. لا مِسطرة المعلّم ولا حاجبا المدير جعلا من قلب أبلوموف يخفق مثلما كان يخفق في تلك اللحظة.

حاول أن يقول شيئًا، لكنه الكلمات خانتهُ؛ كان قلبه يدق بقوة كأنه تنبأ بكارثة.

سألت:

هل وصلتك رسالة من السيد شتولتس؟

أجاب أبلوموف:

نعم، تسلّمتها.

ماذا يقول فيها؟

يريدني أن ألحق به في باريس.

وماذا ستفعل؟

سوف أذهب.

متى؟

آه، في وقت آخر... كلا، غدًا... حالما أصبح جاهزًا.

سألت:

لماذا مبكرًا جدًا؟

لم يحر جوابًا.

ألا تحب بيتك أو... أخبرني، لماذا تريد أن ترحل؟

فكّرتْ: «الوقح الحقير! هل يريد أن يذهب إلى الخارج؟» همسَ أبلوموف دون أن ينظر إليها: «لا أعرف. أشعر بأني خائف وأخرق... وأن شيئًا يخنقني».
لم تقل شيئًا، والتقطت باقة من أزهار الليلك وشمتها، ودفنت وجهها فيها.
قالت:
شمّها. أليس شذاها ممتعًا؟
قال وانحنى نحو العشب:
وهاهي أزهار الليلك من الوادي. مهلًا، سأقطف بعضًا منها. إنها تفوح بالعبير: من الحقول والغابات؛ هناك الكثير من الطبيعة حولها. الليلك ينمو دائمًا قريبًا من البيوت، فالأغصان تنتشر عند النوافذ، فيكون الشذى متخمًا جدًا. انظري إلى ليلك الوادي ما زال رطبًا بالندى!
أعطاها بضعة أزهار من ليلك الوادي.
سألته:
وهل تحب الخزامى؟
أخشى أن أقول كلا؛ فرائحته قوية جدًا. لا أحب الخزامى أو الورود. لا أهتم بالزهور؛ إنها لا بأس بها في الحقول، لكنها مزعجة في المنزل... إنها تسبب فوضى حين تسقط...
سألته ونظرت إليه نظرة مختلسة:
هل تريدها مرتبة في المنزل؟
قال متذمرًا:
كلا، لا أريد. لكن خادمي يا له من...
وأضاف هامسًا:
آه، يا لكِ من شريرة!
سألتْ:
هل ستذهب مباشرة إلى باريس؟
نعم، يتوقع شتولتس وصولي في أية لحظة؟

قالت:

خذ رسالة مني... سوف أكتب له.

اكتبيها اليوم. سوف أرجع إلى المدينة غدًا.

سألت:

غدًا؟ لماذا مبكرًا جدًا؟ هل يجبرك أحد على المغادرة؟

حسنٌ، أخشى أنّ هناك...

ماذا؟

همس:

العار...

كرّرت بصورة آلية:

العار!

وأضافت مع نفسها:

سوف أخبره الآن. سيّد أبلوموف، أنا لن أتوقع...

أقنع نفسه بالقول أخيرًا:

نعم، أولغا سيرغييفنا، أصدّق أنك مندهشة... إنكِ غاضبة...

فكّرت، ودقّ قلبها بشكل سريع: «الآن... الآن هي اللحظة المناسبة للكلام. يا إلهي، لا أستطيع، لا أستطيع!» حاول أن ينظر إلى وجهها، لكي يكتشف بماذا تفكّر، لكنها كانت تشمّ زهور الليلك والسوسن من الوادي ولم تعرف نفسها بماذا كانت تفكر... ماذا يجب أن تقول أو تفعل.

فكّرت: «أوه، سونيا ستفكّر بشيء فورًا، لكني في منتهى الغباء... لن أقدر على عمل شيء إنه أمر مرعب!» قالت:

لقد نسيت تمامًا.

بدأ يتكلم وأصبح تدريجيًا أكثر صراحة:

من فضلكِ صدقيني، الأمر برمتهِ... أعني، لا أعرف ما الذي جعلني أقوله... لا أستطيع أن أمنعه. كنت سأقوله لو أن صاعقة ضربتني أو سقطَ حجرٌ فوقي. لا

شيء في العالم يمكن أن يوقفني. من فضلك، من فضلك لا تظنّي أني أردت... أنا مستعد أن أمنح كل شيء لكي أسحب كلامي الطائش...

مشت ورأسها منحنٍ وتشم رائحة الأزهار.

تابعَ:

من فضلكِ انسي المسألة. انسِها، بالأخص أنها كانت غير صحيحة...

كرّرت بشكل مفاجئ:

غير صحيحة؟

وجذبت نفسها للأعلى وأسقطت الأزهار.

انفتحت عيناها على سعتهما وبرقتا بالدهشة.

كرّرت:

ماذا تعني غير صحيحة؟

أعني... حسنٌ... باللهِّ عليك لا تكوني غاضبة معي وانسي الأمر. من فضلكِ، صدّقيني، لقد جرفتني العاطفة للحظة... بسبب الموسيقى.

بسبب الموسيقى فقط؟

شحبتْ وأصبح لون عينيها معتمًا.

فكّرت: «حسنٌ، كل شيء على ما يرام الآن. سحب كلامه الطائش ولا حاجة لي لأن أكون غاضبة بعد ذلك! ذلك أمر رائع... الآن لا أحتاج إلى أن أقلق بعد الآن...

نستطيع أن نتكلم ونمزح كالسابق».

كسرت غصنًا صغيرًا من شجرة وهي شاردة الذهن، وجزءًا صغيرًا من ورقة شجرة، ثم رمت فورًا الغصن والورقة على الممر.

قال أبلوموف وانحنى لها إلى الأمام:

هل أنتِ غاضبة مني؟ لقد نسيتِ، أليس كذلك؟

قالت بعصبية وبغيظ وانصرفت عنه:

ما كان ذلك؟ ماذا سألت؟ لقد نسيتُ كل شيء... ذاكرتي سيئة جدًا!

خمدَ صامتًا ولم يعرف ماذا يفعل. راقب غيظها المفاجئ لكنه لم يرَ سببًا له.
فكّرت: «يا إلهي. كل شيء الآن على ما يرام مرة أخرى. كأنّ المشهد لم يحدث تمامًا، الحمد للهّ! حسنٌ، كل شيء بخير... يا إلهي، ماذا يعني كل ذلك؟ أوه، سونيا، سونيا، يا لك من محظوظة!» قالت فجأةً:
أنا ذاهبة للبيت.
وأسرعت بخطواتها ودارت إلى شارع آخر.
كان ورمٌ في حنجرتها. خشيت البكاء.
قال أبلوموف:
ليس ذلك الطريق، إنه أقرب، هنا!
حدّث نفسه عابسًا: «أيها الأحمق. ماذا أردت أن توضح لها؟ الآن أزعجتها أكثر من أي وقت مضى. يجب أن لا تذكّرها... كان سيزول ويجري نسيانه. الآن ستبتهج أنت حين تطلب منها أن تغفر لك».
فكرّت مع نفسها: أتوقع أن شعوري بالغيظ كان سببهُ أني لم أجد الوقت الكافي لأقول له: «سيد أبلوموف، لم أتوقع منك أن تتجرأ على...» لكنه أدرك الأمر مقدمًا. «ليس صحيحًا!» كيف ترضى بذلك! لذا كان يكذب عليّ! كيف تجرّأ على ذلك؟
سألَ برقة:
هل نسيتِ حقًا؟
قالت بسرعة، وهي قلقة من الوصول إلى البيت:
نعم. لقد نسيتُ كل شيء!
أعطِني يدك لتثبتي بأنكِ غير غاضبة.
أعطته أطراف أصابعها دون النظر إليه، وما إن لمسها حتى انتزعتها منه.
قال متحسرًا:
كلا، أنتِ غاضبة! كيف أقنعكِ بأنّ العاطفة جرفتني للحظة، إذ عليّ أن لا أنسى نفسي إلى هذا الحد؟ بالطبع، لن أستمع إلى غنائكِ ثانيةً!

قالت بسرعة:
لا تحاول أن تقنعني. لا أحتاج إلى وعودك. يجب أن لا أحلم بالغناء لك على أية حال!
قال:
حسنٌ، لن أقول أية كلمة. لكن باللهِ عليك لا تبتعدي هكذا، وإلا فإنّ ثقلًا كبيرًا سيقع على قلبي...
مشت ببطء وأصغت بانتباه لكلماته.
ليت الأمر حقًا أنك سوف تنخرطين بالبكاء لأني بكيت بسبب إعجابي بغنائك، إذن، أعني، إذا ما ابتعدتِ الآن دون ابتسامة أو دون أن تقدمي يدك لي كصديق وتشفقي عليّ، يا أولغا سيرغييفنا! فإني سوف أقع مريضًا... ركبتاي ترتجفان، بالكاد أستطيع أن أتحمل...
سألتهُ فجأة ونظرت إليه:
لماذا؟
قال:
أخشى أني لا أعرف نفسي. لم أعد خجلًا: لستُ خجلًا من كلماتي... أعتقد أنها كانت...
خفق قلبهُ مرة أخرى، وبدا له أن هناك جلطة؛ مرة أخرى بدأت نظرته العطوفة والفضولية تحرقه. التفتت إليه برشاقة، وكانت تنتظر جوابه بقلق شديد.
سألت نافدة الصبر:
كانت ماذا؟
أنا آسف، أخشى أن أقولها: سوف تكونين غاضبة مرة أخرى.
قالت بإلحاح:
قُلها!
كان صامتًا.
حسنٌ؟

أشعر ثانيةً كأني أبكي بينما أنظر إليك... أنتِ ترين أني غير تافه، وغير خجل من مشاعري.

سألتهُ وتوردت خجلًا مرة أخرى:

لماذا تشعر كأنك تبكي؟

أظلُّ أسمع صوتك... أشعر ثانيةً...

قالت:

ماذا؟

وتنفست بحرية مرة أخرى. كانت تنتظر بلهفة.

صعدا العتبات الأمامية لبيتها.

كان أبلوموف مسرعًا في إنهاء كلامه لكنه توقف فترة وجيزة:

أشعر...

ارتقت العتبات ببطء، كأنها مرهقة.

الموسيقى نفسها... الإثارة نفسها... الشعور نفسه... أنا آسف، أنا آسف... لا أستطيع أن أسيطر على...

بدأت تتحدث بقسوة، ثمّ توهّج وجهها بابتسامة:

سيدي. أنا غير غاضبة وأغفر لك.

وأضافت برقة:

فقط في المستقبل...

مدّت يدها له دون أن تدور؛ أمسكها وقبّل كفّها؛ ضغطت يدها برفق على شفتيه واختفت فورًا وراء الباب الزجاجي، بينما بقي هو ثابتًا في المكان.

* * *

(7)

ظلّ يتفرّس لمدة طويلة في فمها المفتوح بعينين مفتوحتين باتساع، ثم حدّق بالأحراش بانشداه... مرّ به بعض الناس الذين لم يعرفهم. مرّ طائرٌ محلّق. سألتهُ فلّاحة وهي تمرّ إن كان يرغب بالفراولة، لكن ذهولهُ استمرّ. ثم سار ببطء في نفس الشارع، وفي منتصف الطريق، صادف أزهار سوسن الوادي التي أسقطتها أولغا وغصن الليلك الذي اقتلعتهُ ورمته بغيظ.

تساءل واستدعى الحادثة إلى ذهنه: «لماذا فعلتْ ذلك». وصاح فجأةً بصوتٍ عال:

حمقاء! حمقاء!

والتقط سوسن الوادي وغُصن الليلك، وهرع إلى الشارع. فكّر: «سألتها أن تغفر لي، وهي... آه، هل يمكن أن يكون حقًا؟ يا لها من فكرة!» رجع إلى البيت وبدا سعيدًا ومشرقًا كأنّ «القمر على جبينه» كما اعتادت أن تقول مربيته، وجلس في زاوية الأريكة وكتب بسرعة بحروف كبيرة على المنضدة المغطّاة بملاءة الغبار كلمة: «أولغا».

هتف واستفاق من حالته المنتشية:

آه، يا له من غبار! زاخار! زاخار!

صاح مرارًا وتكرارًا، لأنّ زاخار كان يجلس مع حوذي على البوابة المواجهة للزقاق.

قالت أنيسيا بهمس صارم وسحبتهُ من كمّه:

انتبهْ، السيّد ينادي عليك منذ وقت طويل.

قال أبلوموف بصوت رقيق وعطوف لأنه لم يكن غاضبًا حينئذٍ:

انظر، زاخار، ما هذا؟ هل تريد أن يكون كل شيء هنا في حالة فوضى؟ الغبار، بيوت العنكبوت! كلا، يا عزيزي، لن أسمح به! لم تعطني أولغا سيرغييفنا لحظة من الراحة إذ تقول: «إنك تحب الغبار».

علّق زاخار ودار نحو الباب:

حقهم لو تكلموا بهذه الطريقة يا سيدي. فلديهم خمسة خدَم.

إلى أين أنت ذاهب؟ هلّا كنست الغرفة فورًا من فضلك؟ من المستحيل أن تجلس هنا، أو تتكئ على المنضدة. آه، هذا أمر فظيع إنها الأبلوموفية!
بدا زاخار متألمًا ونظر جانبيًا إلى سيّده.
فكّر: «ها هو يذهب ثانيةً. اخترع كلمة أخرى مثيرة للشفقة، ومألوفة أيضًا!» قال أبلوموف:
حسنٌ، لماذا تنزعج من الكنس؟
علّق زاخار بشكل عنيد:
لا يوجد شيء لأكنسهُ هنا سيدي. لقد كنستُ الغرفة اليوم.
من أين يأتي الغبار لو أنك كنستهُ؟ انظر إليه! هنا وهناك! لن أتحمله! اكنسه كله فورًا!
كرّر زاخار:
كنسته. هل تتوقع مني أن أكنس الغرف عشر مرات في اليوم؟ الغبار يأتي من الطريق... نحن هنا في الريف، يا سيدي؛ هناك الكثير من التراب على الطريق.
قالت أنيسيا وفجأة اختلست النظر من الغرفة الأخرى:
يجب أن لا تكنس الأرضية أولًا وتنظّف الأثاث من الغبار فيها بعد. سوف تمتلئ الغرفة بالغبار ثانيةً. يجب أولًا أن...
قال زاخار غاضبًا بصوت أجش: «من طلب منكِ أن تأتي هنا وتعلميني شغلي. هيّا ارجعي إلى مكانك.» هل سمعت أحدًا يكنس الأرضية أولًا وينظّف الأثاث فيها بعد؟ ذلك سبب غضب السيّد...
صاح ووجّه مرفقه وكأنه سيضربها على صدرها:
والآن معكِ! والآن معكِ!
كشّرت واختفت. لوّح أبلوموف له من خارج الغرفة أيضًا. أسندَ رأسه على الوسادة المطرّزة، ووضع يده على قلبه، وبدأ يصغي إلى نبضه.
حدّث نفسه: «هذا أمر سيء لي. ماذا أفعل؟ إذا ما سألت الطبيب النصيحة، فمن المحتمل أنه سوف يرسلني إلى أبيسينيا!» قبل أن يتزوج زاخار بأنيسيا، كانا

يؤديان عملهما البيتي بدون تداخل؛ أي أنّ أنيسيا كانت تؤدي أعمال التسوق والطبخ وتساعد في ترتيب الغرف مرة واحدة فقط في السنة، حين تنظف الأرضيات. لكن بعد الزواج، وجدت حرية أكثر في الوصول إلى غرف سيدها. ساعدت زاخار، وكانت الغرف أنظف، إضافة إلى أنها تولت بعضًا من مهمات زوجها، لأنها تناسبها من جهة ولأنّ زاخار ألقى بمسؤوليتها عليها بشكل مستبد من جهة أخرى.

قال بصوت أجش وبشكل جازم:

هلّا ضربتِ السجادة هنا؟ من الأفضل أن تفرزي الأشياء في الزاوية هناك وتأخذي ما هو زائد إلى المطبخ.

أمضى شهرًا في هذه الحالة السعيدة: كانت الغرف هادئة، وسيّده لم يتذمّر، أو يستعمل «الكلمات المثيرة للشفقة»، وليس لدى زاخار ما يعمله. لكن حالة السعادة انتهت للسبب التالي: حالما بدأ هو وأنيسيا بالاعتناء بغرف أبلوموف معًا، فإنّ كل شيء فعله زاخار تحول إلى عمل أحمق. كل ما فعله كان خاطئًا. لقد عاش لمدة خمسة وعشرين عامًا في الدنيا باعتقاد أنه مهما أدّى عملًا فلا يمكن أن يكون قد أنجزه بشكل أفضل ومختلف. والآن أثبتت أنيسيا له فجأةً بأنه استنزف قوته، وقد قالت له ذلك بتنازل مهين جدًا، وبهدوء، كأنه طفل أو أحمق تمامًا، ولكي تجعل الأمور أسوأ، لم تستطع أن تغالب الابتسامة بينما هي تنظر إليه.

قالت له برقّة:

يجب أن لا تفتح النوافذ ثم تغلق المداخن يا عزيزي. سوف تبرد الغرف مرة أخرى.

سألها بلهجة زوج فظّ:

حسنٌ، وكيف سأفعل؟ متى ستفتحين النوافذ؟

أجابت برفق:

آه يا عزيزي حين تشعل الموقد.

قال:

يا لها من حماقة وغباء! لقد فعلته هكذا لمدة عشرين سنة وأنا لن أغيّره من أجلك.
كان يحتفظ بالشاي والسكّر والليمون والأطباق الفضية في رف الخزانة نفسه، بعد ذلك صبغ الأحذية والفرش والصابون. مرة رجع إلى البيت ووجد الصابون على منصة الغسل، والفرش وصبغ الأحذية على إفريز نافذة المطبخ، والشاي والسكّر في دُرج منفصل.
سألها بشكل صارم:
ماذا تعنين بقلب الأشياء رأسًا على عقب كما يسرّك؟ لقد وضعتها معًا لغرض أن تكون في متناول اليد، والآن تأتين وتضعينها في أماكن مختلفة!
علّقت بشكل رقيق:
لكني، يا عزيزي، فعلت ذلك لكي لا يتسلل طعم الصابون إلى الشاي.
وفي إحدى المرات دلّت زاخار على اثنين أو ثلاثة ثقوب أحدثتها العثة في ملابس أبلوموف، وأخبرته بأن عليه أن ينفضها ويمسحها بالفرشة على الأقل مرة واحدة في الأسبوع.
وختمت قولها بحنان:
دعني أنظفها بالفرشة يا عزيزي.
انتزع الفرشة وسترته الفراك من يديها ووضع السترة في خزانة الثياب. في مناسبة أخرى حين بدأ يلوم سيّده بتوبيخه بدون داعٍ بسبب الخنافس السود على الرغم من أنه «لم يخترعها»، قامت أنيسيا، بدون أن تنطق بكلمة، بإزالة كل القطع وفتات الخبز الأسود التي ظلت على الرفوف منذ زمن سحيق، وكنست وغسلت كل الخِزانات والآنيات الفخارية واختفت الخنافس السود كليًا تقريبًا. لم يفهم زاخار بصورة صحيحة السبب فيما فعلته، وعزاه فحسب إلى حماستها. لكن في أحد الأيام، وحين أخذ الصينية مع أكواب وكؤوس إلى غرفة سيّده، وأسقط كأسين على الأرضية، بدأ يشتم كالعادة وكان على وشك أن يرمي الصينية بأكملها على الأرضية، أخذت أنيسيا الصينية منه، وأبدلت الكؤوس المكسورة ووضعت الخبز وحاوية السكّر على الصينية، ورتبت كل شيء بطريقة بحيث لم يتحرك أي كوب،

ثم عرضت له كيفية التقاط الصينية بيد واحدة وحملها بثبات بالأخرى؛ ثم مشت ذهابًا وإيابًا في الغرفة مرتين، وظلت تدوّر الصينية إلى اليسار واليمين، ولم تتحرك ملعقة واحدة وفجأة اتضح لزاخار بأنّ أنيسيا أذكى منه. انتزع الصينية منها، وأسقط الكؤوس، ولم يغفر لها أبدًا.
أضافت بهدوء:
هل رأيتَ كيفية حملها؟
ألقى عليها نظرة تحمل سمتي التكبّر والحسّ المتبلد، لكنها كشرت فحسب.
أنتِ أيتها الفلاحة الغبية؛ هل تحاولين أن تكوني ذكية؟ أنتِ لا تعرفين أي نوع من البيوت كنا نمتلك في أبلوموفكا، هل تعرفين؟ آه، كل شيء كان يعتمد عليّ هناك. لديّ خمسة عشرة خادمًا خصوصيًا ووصيفًا تحت يدي، إذا ما استثنينا الخدم الآخرين! بالنسبة لنساء مثلك، كان هناك العديد منهنّ لا أتذكر أسماءهنّ.
وتحاولين أن تعلميني؟ أوه، أنتِ...
وأخذت تقول:
لكن قصدي الصدق.
قال بصوت أجش ورفع مرفقه مهددًا:
حسنٌ، حسنٌ! اخرجي من غرفة سيّدي. إلى المطبخ... وتذكّري عمل المرأة!
كشّرت وخرجت، بينما نظر إليها عابسًا من زاوية عينه. جرحت أنيسيا كبرياءه، فعاملَها بشكل موحش. غير أنّ أبلوموف حين كان يسأل عن شيء، ولا يمكن العثور عليه أو ينكسر، أو حين تكون هناك فوضى في البيت وعاصفة تصاحبها «كلمات مثيرة للشفقة» تجمعت على رأس زاخار، فإنه كان يغمز لأنيسيا، ويتحرك نحو مكتبة سيّده ويشير إليها بإبهامه قائلًا بهمس مهيب:
ألا تذهبين وتعرفين ماذا يريد السيد؟
ذهبت أنيسيا وكانت العاصفة تنزاح دائمًا بتفسير بسيط.
في الواقع اقترح زاخار بنفسه استدعاء أنيسيا حالما بدأ أبلوموف يستعمل كلمات «مثيرة للشفقة». بالنسبة لأنيسيا، كل شيء في غرف أبلوموف سوف يطاله

الإهمال ثانيةً. لقد ربطت نفسها مسبقًا إلى أسرة أبلوموف وشاركت بصورة لا واعية تمامًا مع زوجها في علاقته الراسخة مع بيت أبلوموف وحياته وشخصه. ظلت عينا المرأة تراقب بحذر الغرف المهملة. كان على زاخار أن يخرج للحظة إلى أنيسيا لكي يخبرها أن تنظف الطاولات والأرائك من الغبار، وتفتح النوافذ، وترتب الستائر، وتنظم الجزم المتروكة في منتصف الغرفة والبناطيل المرمية على الكرسيّ، وتفحص بعناية كل الملابس وحتى الأوراق وأقلام الحبر والرصاص والسكاكين على المنضدة، وترتبها كلها. وتمعّنت في الغرفة وحرّكت كرسيًّا، وأغلقت دُرجًا مفتوحًا جزئيًا، وانتزعت منديلًا من المائدة، وانسلّت بسرعة إلى المطبخ في اللحظة التي سمعت فيها صرير حذائي زاخار. كانت امرأة سريعة ومفعمة بالحيوية تبلغ السابعة والأربعين من العمر ذات ابتسامة توّاقة، وعينين لا تفوّتان أي شيء، وكانت تمتلك رقبة وصدرًا قويين، ويدين حمراوين ومتماسكتين لا تتعبان. تكاد لا تمتلك وجهًا؛ فقد كان الأنف العضو الوحيد الذي انتصب فيه؛ على الرغم من أنه صغير، إلا أنه لم يبدُ عائدًا إليه مطلقًا أو أنه معلّق بشكل أخرق، إضافة إلى أن نهايته كانت مثنية، وتجعل من بقية وجهها غير لافت للنظر: كان مسحوبًا وذابلًا إذ إن المرء سيحمل انطباعًا واضحًا عن الأنف قبل مدة طويلة من ملاحظة باقي الوجه.

هناك العديد من الأزواج الذين يشبهون زاخار في العالم. إنّ دبلوماسيًا سوف يصغي أحيانًا بلا اهتمام إلى نصيحة زوجته، غير مبال، ويكتب بسرّية بينما هي تنصحه. موظف كبير سوف يطلق صفيرًا باحتقار بينما يصغي إلى ثرثرة زوجته حول بعض الشؤون المهمة للدولة ويجيب عنها بتكشيرة مشفقة، وفي اليوم التالي سوف يكرّر بشكل وقور كلامها أمام الوزير. هؤلاء الرجال النبلاء يعاملون زوجاتهم بشراسة أو باستخفاف مثل زاخار، ونادرًا ما يتلطفون في الكلام معهنّ، ويعتبرونهنّ، مثل زاخار، نساء غبيات، أو مجرّد أشياء بهيجة تلهيهم عن شؤون العمل الجدّية.

شمس الظهيرة الساطعة أحرقت طويلًا ممرات المُنتَزه. كان الكل يجلس في ظل مظلات النوافذ المصنوعة من قماش القنّب. كانت المربيات والأطفال فقط يمشون بجرأة في مجموعات أو يجلسون على العشب في شمس الظهيرة. ما زال أبلوموف مستلقيًا على الأريكة، مصدقًا أو غير مصدّق حديثه مع أولغا هذا الصباح. «إنها تحبُّني، توجّه عواطفها نحوي. هل ممكن؟ إنها تحلم بي. كانت قد غنّت لي بشكل محموم، وأيقظت الموسيقى نفس المشاعر فينا». أُثيرتْ كبرياؤه، الحياة أشرقت ساطعة، آفاقها انفتحت أمامه، كانت كلها متقدة بالنور واللون، كأنها لم تكن منذ عهد قريب. رأى نفسه سابقًا مسافرًا للخارج معها، في سويسرا، على البحيرات، في إيطاليا، يمشيان بين الخرائب في روما، ويبحران بالجندول، ثم يضيعان في زحام باريس ولندن، ثمّ في فردوسه الأرضي، أبلوموفكا. كانت في منتهى الروعة مع تلك الثرثرة الساحرة، وجهها الفاتن ذو البشرة الرقيقة، وعنقها الجميل النحيل... لم يرَ الفلاحون شيئًا مثلها، وكانوا يركعون أمام هذه المرأة التي تشبه الملاك. كانت تطأ العشب بشكل رقيق؛ مشت معهُ في ظل أشجار البتولا اليافعة؛ غنّت له... وأصبح واعيا بالحياة، وتدفقها الهادئ، ورشّاش تيارها الجميل... غرق في الأفكار، رغباته مشبعة، وسعادته امتلأت حتى فاضت... وفجأة أصبح وجهه مكفهرًّا.

صاح بأعلى صوته:

كلا.

ونهض من أريكته ومشى في الغرفة. «لا يمكن أن يكون ذلك! أن تحب شخصًا تافهًا مثلي، بعينيه الناعستين وخديه المترهلين... إنها تضحك عليّ فحسب...».

وقف أمام المرآة وفحص نفسه لمدة طويلة، أولًا باستنكار، ثم فجأة أصبحت عيناه صافيتان، حتى أنه ابتسم.

قال:

يبدو نظري أفضل، وأنشط مما في المدينة.

عيناي ليستا كليلتين، أصابها شحاذ العين، لكنه اختفى. لا بدّ أن يكون الهواء هنا هو السبب... أمشي كثيرًا، لا أشرب، لا أستلقي... لا حاجة لي بالذهاب إلى مصر.

جاء خادم من أولغا بدعوة إلى الغداء.

قال أبلوموف:

أنا قادم، أنا قادم!

استدار الخادم ليذهب فصاح عليه:

انتظرْ! هاك.

وأعطاه بعض النقود.

شعر بالمرح وهدوء البال. كان النهار مشمسًا براقًا. الناس لطفاء جدًا، وكل شخص يمتّع نفسه، الجميع يبدون سعداء. كان زاخار وحده عابسًا وظل ينظر جانبيًا لسيّده؛ كانت أنيسيا من جهة أخرى تكشّر مبتهجة جدًا.

عزم أبلوموف أن يقول:

سوف أحصل لنفسي على كلب أو قطة. القطط مخلوقات محبّبة، إنها تخرخر.

لكنهُ اندفع نحو بيت أولغا.

فكّر في الطريق: «إذن... أولغا تحبني! إنها الشابة الناضجة جدًا! لا بدّ أن خيالها واعٍ بشكل واسع بالجانب الشاعري للحياة، فيجب أن تحلم بالشبّان ذوي الشعر الأسود والرؤوس المجعّدة، الطويلين والرشيقين، الذين يمتلكون القوة الخفية والتفكير العميق، والشجاعة في وجوههم، والابتسامة المزهوّة، بذلك الضوء الناحل والمرتعش في العين الذي يمس القلب بسهولة، وبالصوت الرقيق الذي يتردد كوتر القيثارة. صحيح أن هناك نساء لا يبدينَ اهتمامًا بالشباب، والشجاعة، والرقص الجميل، والركوب الرشيق... أؤكد أنّ أولغا ليست فتاة اعتيادية يمكن لقلبها أن يفوز به شاربٌ ضخم أو يمكن لأذنيها أن تسحرها صلصلة سيف؛ لكنّ هناك شيئًا آخر ضروريًا: الذكاء، مثلًا، لكي تخضع المرأة وتحني رأسها إليه مثلما يفعل بقية العالم... أو فنان مشهور... لكن مَنْ أنا؟ أبلوموف ولا شيء آخر.

شتولتس، الآن، موضوع مختلف؛ شتولتس يمتلك ذكاءً وقوة، إنه يعرف كيف يسيطر على نفسه، وعلى الآخرين والحياة. أينما يذهب وكل مَنْ يلتقي، تكون له اليد الطولى فورًا، ويعزف على الناس مثل الآلة. وأنا؟ آه، لا أستطيع أن أسيطر حتى على زاخار، أو على نفسي. أنا... أبلوموف! شتولتس... يا إلهي، إنها تحبّهُ» فكّر وغلبه الرعب. «قالت ذلك بنفسها. مثل صديق، قالت. لكن تلك كذبة، ربما كذبة غير مقصودة. لا يمكن أن تكون صداقة بين الرجل والمرأة...» مشى ببطء، تغلبه الوساوس. «وماذا لو أنها تعبث معي فحسب؟ ليت...»، توقف تمامًا ثابتًا في المكان للحظة، «ماذا لو كان الأمر خيانة ومؤامرة؟ وما الذي يجعلني أفكّر بأنها تحبّني؟ لم تقل كذلك: إنه الهمس الشيطاني لغروري! أندريه! أيمكن؟ لا، لا يمكن: إنها هكذا... هكذا... ذلك ما تحبّهُ»، وفجأة صاح بفرح، وقد رأى أولغا قادمة لكي تستقبله.

قدّمت أولغا يدها له بابتسامة مرحة.

قرّر قائلًا:

كلا. إنها لا تبدو كذلك، إنها لا تبدو كذلك، إنها ليست خائنة. الخونة لا يبدون عطوفين جدًا، إنهم لا يضحكون بصوت عالٍ... إنهم يضحكون ضحكًا مكتومًا. لكن مع ذلك لم تقل إنها تحبني!

ثمّ فجأة فكّر ثانية برعب: تلك كانت الطريقة التي فسّر بها الأمر. «إذن لماذا كانت مغتاظة؟ يا إلهي، أيُّ مستنقع أنا فيه!» ماذا وجدتَ هناك؟

غُصن.

أي نوع من الغصن؟

كما ترين: إنه غصن ليلك.

أين حصلتَ عليه؟ لا يوجد ليلك هنا. بأي وسيلة نما؟

إنه من نفس الباقة التي قمت بقطفها ورميها.

لماذا قطفتَها؟

أوه، لا أعرف. أعتقد أني كنتُ سعيدًا بأنكِ بأنكِ رميتِها بغضب.

أنتَ سعيدٌ لأني كنتُ غاضبة! ذلك أمر جديد. لماذا؟
لن أخبرك!
من فضلكَ أخبرني، أرجوك.
أبدًا! ولو أعطي لي كل شيء في العالم.
أتوسّل إليك!
هزّ رأسه.
ولو غنّيتُ؟
حينئذ... ربما.
قالت عابسة:
إذن الموسيقى هي التي تؤثر فيك فقط. صحيح؟
نعم، الموسيقى التي تترجمينها أنتِ.
حسنٌ جدًا، سأغنّي: أيتها الإلهة الطاهرة...
وغنّت توسّلات نورما[50] ثم توقفت. قالت:
أخبرني الآن!
عاش صراعًا مع نفسه لبعض الوقت.
وختم بشكل حاسم أكثر من قبل:
كلا، كلا، ولو أعطي لي كل شيء في العالم! أبدًا! أبدًا! افترضي أنّ الأمر غير صحيح، وكنتُ أتصوّره؟ أبدًا! أبدًا!
قالت:
ما الأمر؟ هل هو شيء بغيض؟
وتركّز عقلها على السؤال، ونظرت إليه بحدّة.
وجاءها الإدراك تدريجيًا: انتشر شعاع الفكرة والحدَس في محيّاها، وفجأةً أضاء وجهها كله بوعي الحقيقة... تمامًا مثل الشمس التي تبرز من وراء غيمة، وتضيء

50نورما بطلة أوبرا «نورما» لبلليني التي فيها أغنية «أيتها الإلهة الطاهرة» م.

أحيانًا في البداية أحد الأحراش ثم الآخر، ثم سقف بيت، وفجأةً تفيض على المشهد كله بالنور. عرفتْ بماذا كان يفكرّ أبلوموف.

ظلّ أبلوموف يكرّر القول:

كلا، كلا. لن أقوله. لا فائدة من السؤال.

أجابت بلا مبالاة:

أنا لا أسألك.

لا تسألينني؟ لكن الآن...

قالت بجدّ دون أن تستمع إليه:

فلنذهب إلى البيت. عمتي تنتظر.

مشت أمامه وتركته مع عمتها، واتجهت مباشرة إلى غرفتها.

***

(8)

انقشع وهم أبلوموف بصورة تدريجية في ذلك اليوم الذي قضاه مع عمّة أولغا، وهي امرأة أنيقة الملبس، غاية في الذكاء وجديرة بالاحترام. كانت ترتدي دائمًا ثوبًا حريريا جديدًا جيّد الصنع، مع ياقة أنيقة معقودة برباط؛ كانت قبعتها أيضا مصنوعة بذوق راقٍ وقد ناسبت الأشرطة وجهها بشكل جذاب، وكانت بشرتها طرية، على الرغم من أنها قاربت الخمسين. وقد عُلّقت نظارات ذهبية بسلسلة حول رقبتها. كانت وقفاتها وإيماءاتها مفعمة بالوقار؛ كست نفسها بطريقة ماهرة بشال ثمين، وأسندت مرفقها على نحو جذاب على وسادة مطرَّزة، واستلقت على الأريكة بشكل فخم. لن تراها في العمل: تنحني، تخيّط، وتشغل نفسها بأمور تافهة لا تناسب وجهها أو شكلها المهيب. أحيانًا تقرأ لكنها لا تكتب؛ تتكلم بلباقة، بالفرنسية في الغالب. وحين لاحظت أن أبلوموف لا يتكلم الفرنسية بطلاقة كلّمته بالروسية بعد أول زيارة له. لم تستغرق في أحلام اليقظة أو حاولت أن تكون ذكية في حديثها؛ بدت أنها رسمت خطًا في ذهنها لم تتجاوزه. من الواضح تمامًا بأنّ المشاعر وكل نوع من العلاقة، من ضمنها الحبّ، دخلت في حياتها بشروط متساوية مع كل شيء آخر، بينما في حالة النساء الأخريات يتجلى الحب تمامًا ويأخذ دوره، لا بالأفعال، بل بالكلمات، في كل مشاكل الحياة، وكل شيء آخر مسموح به بقدر ما يترك الحب له من مجال. أكثر ما تقدّرهُ هذه المرأة كان فن العيش والقدرة على السيطرة على النفس، وحفظ التوازن ما بين الفكرة والهدف، وبين الهدف والإدراك. ليس بمقدورك أن تباغتها على حين غرّة، لأنها كانت مثل عدوّ يقظ نظرته المتوقعة دائما مثبتة عليك، مهما حاولتَ جاهدًا أن تتربص به. كان مجالها المجتمع الراقي، ولهذا حفزت البراعة والحذر كل فكرة وكلمة وحركة لها. لم تفتح قلبها أو تفضي بأسرارها الأعمق إلى أي شخص. لن تراها تهمس إلى سيدة عجوز لتناول كوب من القهوة. كانت تبقى وحيدة مع البارون فون لاندفاغن فقط. كان البارون أحيانًا يبقى معها حتى منتصف الليل، لكن كانت أولغا دائمًا هناك أيضًا؛ كانا يظلّان صامتين في أغلب الأحيان، لكنه

صمت ذو مغزى وذكي، كأنهما عرفا شيئًا لم يعرفه الآخرون. من الواضح أنّهما يحبان الصحبة وذلك هو الاستنتاج الوحيد الذي يمكن للمرء أن يكوّنه؛ عاملته مثلما عاملت بالضبط أي شخص آخر... برأفة وطيبة وهدوء ورباطة جأش تامة. ابتهجت ألسنة الشر وألمحت إلى صداقة قديمة وزيارة للخارج معا؛ لكن لا يوجد شيء في موقفها منه يشي بأثر من عاطفة خفية خاصة، لأن ذلك سيظهر بالتأكيد عاجلًا أم آجلًا. كان يتولى الوصاية المؤقتة على عزبة أولغا الصغيرة، التي رُهِنت نتيجة عقد بكفالة ولم يتم استردادها. كان البارون مشغولًا بدعوى قضائية حولها، إذ إنه جعل موظفًا حكوميًا يكتب الأوراق ويقرؤها عبر النظارات، ويوقعها ويرسل الموظف نفسه إلى المحاكم القانونية ومعه الأوراق، بينما استفاد بنفسه من علاقاته لكي يثير القضية بشكل مرضٍ من محاضر الجلسات القانونية. فكّر أن هناك سببًا معقولًا للأمل بأن كل شيء سوف ينتهي بخير قريبًا، مما وضع حدًا للإشاعة الماكرة، وأصبح الناس معتادين على النظر للبارون كونه فردًا من العائلة. كان في الخمسين من عمره تقريبًا، لكنه بدا أصغر من عمره، ما عدا أنه كان يصبغ شاربه ويعرج قليلًا. كان مؤدبًا جدًا، لم يدخّن أبدًا بحضور السيدات، ولا يصالب ساقيه، وينتقد بشدة الشباب الذين سمحوا لأنفسهم خلال إحدى الزيارات بالاتكاء على كرسيّ أو رفع رُكبهم وأحذيتهم بمستوى أنوفهم. ظل يلبس قفازيه حتى حين يكون في الداخل، وينزعهما فقط حين يجلس إلى وجبة الطعام. ارتدى أحدث الأزياء ووضع العديد من الأشرطة في عروته. ركب دائما في عربة ذات أربع عجلات يسحبها حصانان واهتمّ اهتمامًا كبيرًا بخيوله؛ كان في البداية يمشي حول العربة قبل أن يركبها، ويفحص طقم الفرس وحتى أظلافه، وأحيانًا يتناول منديلًا أبيض ويمسح به خواصرها وظهورها ليرى إن كانت مهيّأة. رحّب بأقاربه بابتسامة مؤدبة ودمثة، أما الغرباء فكان يستقبلهم في البداية ببرود، لكن ما إن يقدموا أنفسهم إليه حتى يستبدل البرود بالابتسامة، ويمكن لقريبه الجديد أن يعتمد عليها في المستقبل. ناقش جميع الأمور: الفضيلة، كلفة العيش الثمينة، العلم والمجتمع... بدقة متساوية؛ عبّر عن آرائه بجمل واضحة

ومتوازنة، كأنه يتكلم بحِكَم جاهزة مدونة في كتاب منهجي وشائعة بين الناس والمجتمع من أجل الإرشاد العام.

كانت علاقة أولغا بعمَّتها حتى الآن بسيطة وهادئة؛ فهما لم تتجاوزا حدود الاعتدال في تعبيرهما عن تعلّق إحداهما بالأخرى ولم يكن هناك ظلٌّ للاستياء بينهما، نتيجة لشخصية ماريا ميخائيلوفنا، عمّة أولغا، من جهة، ولعدم وجود أي سبب لتصرفهما بشكل مختلف من جهة أخرى. لم يحدث للعمة أن طلبت شيئًا كانت أولغا تعارضه بقوة؛ لم تحلم أولغا برفض الاستجابة للأشياء التي تفضلها عمتها أو اتباع نصيحتها. وما هي طبيعة هذه الأشياء المفضلة؟ كانت تتعلق باختيار ملابسها، وأسلوب ترتيب شعرها، أو هل يجب الذهاب إلى المسرح الفرنسي أم الأوبرا. أطاعت أولغا بقدر ما عبرت عمتها عن أفضلية أو أعطت نصيحة، لكن ليس أكثر من ذلك. وعبّرت عمتها دائمًا عن رغباتها باعتدال بلغ حد الجفاف، فلم يتجاوز على حقوقها كعمّة. كانت علاقاتهما حيادية إذ من المستحيل القول إن كانت عمتها قد خلقت مزاعم حول طاعة أولغا لها أو طلبت أي حنان خاص منها، وإن كانت أولغا ستحلم برفض طاعة عمتها أو شعرت بأي رقة نحوها. من جهة أخرى، يمكن للمرء أن يحكم فورًا بأن هناك عمّة وابنة أخيها وليس أمًا وابنة.

سألت العمّة:

سأذهب للتسوق؛ هل تريدين شيئًا؟

قالت أولغا:

نعم يا عمتي. يجب أن أغيّر ثوبي الأرجواني.

وذهبتا معًا.

أو قالت أولغا:

كلا عمتي. ذهبت هناك أمس.

مسّت العمّة خديها بإصبعين، وقبلتها على جبينها، وقبلت هي يد عمتها، فذهبت إحداهما وبقيت الأخرى.

قالت العمّة، بشكل يمتزج فيه الشك مع اليقين، كأنها كانت تناقش المسألة مع نفسها ولم تقرر بعد:

هل سنتخذ الكوخ الريفي نفسه ثانيةً؟

أجابت أولغا:

نعم. المكان لطيف هناك.

واتخذنا الكوخ الريفي.

ولو قالت أولغا:

يا إلهي. عمتي، ألم تتعبي من تلك الغابة والرمل؟ أليس من الأفضل أن نذهب إلى مكان آخر.

لقالت العمّة: «حسنٌ جدًا. دعينا نذهب».

لكنها قالت:

هل نذهب إلى المسرح يا أولغا؟ الكل يتحدث عن هذه المسرحية لعدة أسابيع.

أجابت أولغا:

يسرّني ذلك.

لكن دون رغبة في إمتاع عمتها أو أي تعبير عن الطاعة.

أحيانًا كان يدور بينهما جدال خفيف.

قالت العمّة:

طفلتي العزيزة، الأشرطة الخضراء لا تناسبك مطلقًا. لماذا لا تلبسين الأشرطة ذات اللون التِّبني؟

لكن يا عمتي العزيزة، لقد ارتديتُ الأشرطة التِّبنية ست مرات سابقًا؛ سيمل الناس من رؤيتها.

حسنٌ، خذي الأشرطة البنفسجية.

وهل تحبينها؟

نظرت العمّة إليها بحذر وهزّت رأسها ببطء.

قالت:

كما ترغبين يا عزيزتي، لكن لو كنت مكانك لأخذت الأشرطة التِّبنية أو البنفسجية.

قالت أولغا برقة، وأخذت ما أرادته:

كلا يا عمتي، سآخذ هذه بدلها.

طلبت أولغا نصيحة عمتها لا بسبب أنها اعتبرتها سلطة كلمتها هي القانون، بل سألتها كما تسأل أي امرأة أكثر تجربة منها.

اعتادت القول:

لقد قرأتِ هذا الكتاب، عمتي. ما رأيك به؟

قالت العمّة:

إنه رديء جدًا.

ودفعت الكتاب بعيدًا، لكنها لم تخفِه، أو تأخذ أية إجراءات لتمنع أولغا من قراءته.

ولم يسبق لأولغا أن قرأته. كانتا إذا لم تعرفا الكتاب فإنهما تسألان بارون فون لاندفاغن أو شتولتس إن كان موجودًا، وإن كانت قد تمت قراءته أم لا، حسب رأيهما.

كانت العمّة تقول أحيانًا:

عزيزتي لقد قلتِ شيئًا أمس عن الشاب الذي يتكلم معك في كثير من الأحيان في منزل زافادسكي... قصة سخيفة بالأحرى.

وهذا كل ما في الأمر. تركت لأولغا أن تقرر إن كانت تتكلم معه أم لا.

لم يثر ظهور أبلوموف في البيت أية أسئلة ولم يجذب أي انتباه من جهة العمّة، أو البارون أو شتولتس نفسه. أراد شتولتس أن يقدم صديقه إلى بيت يُلاحظ فيه لياقة معينة، فليس من المفترض أن يأخذ الناس فيه قيلولة بعد الغداء، ولا من الصحيح أن يصالبوا سيقانهم، إذ يتوقع المرء أن يتغير من أجل الغداء ويتذكر عمّ كان يدور الحديث. باختصار، حيث لا يمكن للمرء أن يغلبه النعاس أو يتهاوى بكسل على كرسي، وحيث هناك دائمًا محادثة حية عن بعض المواضيع التي ترتبط

بالشأن العام. إضافة إلى شتولتس فكّر بأن حضور امرأة شابة عاطفية ذكية حيوية وساخرة قليلًا في حياة أبلوموف النائمة ستكون شبيهة بجلب مصباح إلى غرفة مظلمة يلقي ضوءًا على كل الأركان، ويرفع من حرارتها بضع درجات ويجعلها أكثر بهجة. كان ذلك ما حاول أن يحققهُ في تقديم صديقه إلى أولغا. لم يكن يتوقّع بأنّه يقدم قنبلة عرضة للانفجار... لا إلى أولغا ولا أبلوموف.

قضى أبلوموف ساعتين مع عمّة أولغا، يتخذ الحذر لكي يكون بأفضل سلوك، دون أن يصالب ساقيه مرة واحدة ويتكلم بلياقة قصوى حول كل شيء؛ نجح أيضًا مرتين في دفع مسند القدمين تحت قدميها ببراعة. وصل البارون، وابتسم بأدب، وحرّك يديه بدماثة. مع ذلك تصرّف أبلوموف بشكل لائق، وكان الثلاثة جميعهم في منتهى السرور. عدّت عمة أولغا خروج أولغا للمشي مع أبلوموف وأحاديثها السرّية معه أمرًا اعتياديًا أو بالأحرى أنها لم تأخذها في الاعتبار مطلقًا.

الذهاب للنزهة مع شاب، غندور، سيكون موضوعًا مختلفًا تمامًا: لن تقول شيئًا حينذاك، لكن بلباقتها المعتادة فإنها سوف ترتب الأشياء بشكل لا واعٍ ومختلف: سوف تصاحبها بنفسها مرة أو مرتين، وترسل شخصًا آخر لكي يرافق ابنة أخيها في مرة قادمة، وستنتهي النزهات من تلقاء نفسها. لكن الخروج للنزهة مع «السيد أبلوموف»، والجلوس معه في زاوية غرفة الاستقبال أو على الشرفة... ماذا كان يعني ذلك؟ كان يتجاوز الثلاثين من عمره، وكان الشخص الأخير في العالم الذي يتكلم توافه حلوة لها أو يعطيها كتبًا غير مهذّبة لكي تقرأها. مثل هذا الأمر لن يحدث لأي منهما. إضافة إلى أنّ العمة سمعت شتولتس يسأل أولغا في ليلة رحيله أن لا تسمح لأبلوموف بأن يغلبه النعاس، ولا تسمح له بالنوم في النهار، وأن تزعجهُ وتجعله يفعل الأشياء وتكلفه بكل أنواع المهمات... باختصار، أن تتولّى أمر العناية به. وطلب منها أيضا أن لا تغفل النظر عن أبلوموف، وأن تدعوه مرات كثيرة، وأن ترى بأنه التحق بهم في نزهاتهم ورحلاتهم، وإثارتهُ بأي طريقة ممكنة، إذا لم يذهب إلى الخارج.

جلس أبلوموف مع عمتها، بينما لم تظهر أولغا نفسها، وجرى الوقت بطيئا. كان أبلوموف يمرّ ثانية بنوبات من الحرّ والبرد بالتعاقب. الآن خمّن سبب هذا التغيير في أولغا الذي أصابه بالقلق إلى حدّ ما أكثر من السابق. خطأه الفادح الأول جعلهُ خجلًا وخائفًا، لكن الآن كان يشعر بالقلق. أوضح لها بأنه خمّن بأنها تحبه، وربما خمّنه في لحظة غير مناسبة. كانت تلك في الواقع إهانة بالكاد يمكن تصحيحها. وحتى لو كانت اللحظة مناسبة، فكم كان أخرق! كان ببساطة أحمق ومغرورًا وأبله! ربما أرعبه الشعور بأنه كان يدقُّ بخوف على قلبها اليافع الطاهر، لكي يستقر فيه هناك بخفة وبحذر مثل طير على غصن؛ يترك صوتًا خافتًا وخشخشة واهنة... ثم يطير مبتعدًا. انتظرَ بقلق وخوف أن تأتي أولغا إلى الغداء، وتساءل ماذا ستقول وكيف ستتكلم وكيف ستنظر إليه...

وصلت ولم يتمالك نفسه من الإعجاب بها؛ ميّزها بصعوبة. كان وجهها مختلفًا، حتى صوتها لم يكن نفسه. الابتسامة اليافعة والساذجة والطفولية تقريبًا لم تظهر مرة على شفتيها؛ لم تنظر مرة له بعينين مفتوحتين باتساع بشكل مريب أو مربك أو بفضول ودّي، كأنّ ليس لديها ما تطلبه، وتكتشفه، وتندهش منه. لم تتبعهُ عيناها كالسابق. نظرت إليه كأنها كانت تعرفه منذ سنوات ودرسته بعمق، وأخيرًا، كأنه لم يحدث شيء لها، ليس أكثر من بارون... باختصار، شعرت كأنه لم يرها سنة كاملة خلالها أصبحت امرأة.

لم يكن هناك أثر من الصرامة أو الغيظ يختلف عن اليوم السابق؛ ألقت النكت وضحكت أيضًا، وأجابت بالتفصيل عن الأسئلة التي تركتها بلا إجابات سابقًا. كان من الواضح أنها قررت أن تجبر نفسها على التصرف كالناس الآخرين، وهو أمر لم تفعله من قبل. لم تعد هناك الحرية والسلوك الطبيعي الذي جعلها تقول ما كان موجودًا في ذهنها. أين ذهب كل ذلك؟

بعد الغداء ذهب لكي يسألها إن كانت تود أن تذهب للنزهة. التفتت إلى عمتها وسألتها دون أن تجيبه:

هل نذهب جميعنا إلى النزهة؟

قالت العمّة:

أجل، بشرط أن لا نبتعد. اجلبي مظلتي من فضلك.

وخرجوا كلهم. مشوا دون حماس، ونظروا إلى بطرسبورغ من بعيد وذهبوا بعيدًا إلى الغابات، ورجعوا إلى الشرفة.

سأل أبلوموف:

لا أتوقع أن تغنّي اليوم. أليس كذلك؟

وأضاف:

كنتُ أخشى أن أسألك.

وتساءل إن كان تحفظها قد انتهى، وعادت إليها بهجتها السابقة، وإن كان هناك فرصة لاسترداد كلمة، ابتسامة للحظة أو في الأقل غنائها، وإخلاصها وسذاجتها وثقتها السابقة.

علّقت العمّة:

الجوّ حار جدًا!

قالت أولغا:

لا يهم. سأحاول.

وغنّت أغنية واحدة.

أصغى ولم يصدّق ما كان يسمع. إنها ليست هي: أين نغمة العاطفة المشبوبة السابقة؟ غنت بشكل واضح وصحيح جدًا، وفي الوقت نفسه... مثل كل الفتيات الشابات اللاتي يطلب منهنّ أن يغنّين بشكل جماعي ودون عاطفة. انتزعت روحها من غنائها، ولم يتحرك عصب واحد في مستمعيها. هل كانت تلعب لعبة عميقة، وتتظاهر أم كانت غاضبة؟ من المستحيل القول. نظرت إليه بعطف، تكلمت بسرور، لكن تكلمت مثلما غنّت، مثل أي فرد آخر... ماذا كان يعني هذا؟

تناول أبلوموف قبعته ودون أن ينتظر الشاي قال وداعًا.

قالت العمّة:

تعال مرة أخرى. نحن وحيدتان دائمًا خلال أيام الأسبوع، إذا لم تكن تخشى الضجر، وفي أيام الأحد هناك دائمًا أحد يأتي ليرانا، فسوف لن تصبح ضجرًا حينئذ بالتأكيد.

نهض البارون بأدب وانحنى له.

أومأت له أولغا برأسها كأنها تومئ إلى صديق قديم، وحين كان يخرج التفتت إلى النافذة ونظرت للخارج، وأصغت بلا مبالاة إلى خطوات أبلوموف المنسحبة.

كان لهذين اليومين والثلاثة أو الأربعة أيام القادمة، أو الأسبوع في الأغلب، تأثير عميق عليها وعلى حركتها في طريق طويل للأمام. النساء وحدهنّ قادرات على مثل هذا التوسّع السريع جدًا لكل قواهنّ وتطورهنّ في كل جوانب طبيعتهنّ. بدت تدخل مجرى الحياة بالساعات بدلًا من الأيام. وفي كل ساعة فإنّ التجربة الصغرى التي بالكاد يمكن إدراكها أو الحادثة التي تومض مارة بأنف رجل مثل طير، تم الإمساك بها بسرعة لا يمكن التعبير عنها من قبل فتاة شابة: إنها تتبع طيرانها في الأفق، والمنحنى الذي تصفهُ يبقى محفورًا بشكل يتعذر محوه من ذاكرتها كعلامة أو درس. أينما يحتاج رجل إلى مَعلم طريق مع نقش، فإن الفتاة ترضى بحفيف واهن للريح أو رعشة للَّهواء من الصعب سماعها. لماذا تبدو الفتاة الساذجة السخيفة ذات الوجه الخالي من الهموم، رزينة جدًا؟ بماذا تفكّر؟ يبدو أن كل شيء تسعه أفكارها، منطق الرجل بأكمله، فلسفتها التأملية والتجريبية، ونظام الحياة برمته! القريب الذي تركها منذ أمد طويل فتاة صغيرة أنهى مساره، وضع كتفيه، وهرع إليها بمرح وفي نيته أن يربّت على كتفها، ويُديرها بيديه، وأن يقفز معها على الكراسي والأرائك لكن بعد نظرة انتباه واحدة على وجهها، يصبح خائفًا فجأة ويسير مبتعدًا ومضطربًا، مُدركًا بأنه مازال صبيًا بينما هي امرأة قبل الآن! لماذا؟ ما الذي حدث؟ هل هي دراما؟ حدث عظيم؟ أخبار تعلم بها المدينة بأكملها؟ لا شيء يحدث الأم، العم، العمّة، المربية، الخادمة لا يعرفون شيئًا عن الأمر. ولا يوجد وقت لأي شيء يحدث: رقصت رقصتي مازوركا والقليل

من رقصة الكودريل[51] وكان لديها صداع لسبب ما: قضت الليل ولم تنم... ثم مرّ كل شيء، عدا أن هناك شيئًا جديدًا في وجهها: بدت مختلفة، توقفت عن الضحك بصوت عال، لم تأكل إجاصة من قضمة واحدة، أو لم تقل كيف أنه «في المدرسة اعتادوا...». لقد أنهت درسها أيضًا.

في اليوم التالي والذي يليه، تعرّف أبلوموف بصعوبة على أولغا كأنه أحد أقربائها، ونظر لها بخوف، بينما نظرت إليه ببساطة، كما تنظر إلى الناس الآخرين، دون فضولها أو عطفها السابقين.

سأل نفسه أسئلة معذِّبة: «ما مشكلتها؟ ماذا تفكّر أو تشعر الآن؟ بالتأكيد أستطيع أن أفهم مشكلتها؟ وكم استطاع في الواقع أن يفهم حقيقة أنّ ما حدث لها، يحدث لرجل في الخامسة والعشرين بمساعدة خمسة وعشرين بروفسورًا ومجموعة من الكتب، بعد التجوال حول العالم، وأحيانًا حتى على حساب فقدان بعض النضوج الأخلاقي واللياقة الجسدية والفكرية... أي أنها أصبحت واعية جدًا بالوجود الإنساني. وقد حققت هذا بسهولة وبشكل عملي بلا ثمن مطلقًا.

أوضح أبلوموف:

كلا، إن هذا مضجر جدًا وأضاف باكتئاب عميق:

سوف أنتقل إلى فايبورغ، سأعمل وأقرأ ثم إلى أذهب إلى أبلوموفكا وحدي! دونها! وداعًا يا فردوسي، يا هدفي المشرق والهادئ في الحياة!

لم يذهب إلى منزل أولغا في اليوم الرابع أو الخامس؛ لم يقرأ أو يكتب؛ حاول أن يذهب من أجل النزهة، لكن عند الوصول إلى طريق مغبر يؤدي إلى مرتفع، قال لنفسه:

لماذا أجرُّ نفسي إلى مثل هذه الجو الحار؟

تثاءب ورجع إلى البيت، استلقى على الأريكة، وغرق في نوم ثقيل كما اعتاد على ذلك في «شارع غوروخوفايا»، في غرفته المغبرة ذات الستائر المسدلة. كانت

51رقصة لأربعة أزاوج من الراقصين.

أحلامه مضطربة. عند استيقاظه رأى المنضدة معدّة لتناول الطعام: سمك بارد وحساء الخضراوات، وشريحة لحم فيينا. وقف زاخار ينظر نعسان خارج النافذة؛ في الغرفة التالية كانت أنيسيا ترتّب الأطباق بصخب. أكل وجبته وجلس أمام النافذة. كان الجو مضجرًا ورديئًا جدًا دائمًا وحده! لم يرغب ثانيةً بعمل أي شيء أو بالخروج إلى أي مكان.

قالت أنيسيا وكانت تأمل أن تلهيه وتضع القطة الصغيرة على ركبته:

هل تحبها؟ أنتَ طلبتَ ذلك في أحد الأيام السابقة.

بدأ يلاطف القطة لكن كان ذلك يبعث على الضجر أيضًا.

قال:

زاخار!

أجاب زاخار بكسل:

نعم سيدي؟

أفكّر بالانتقال إلى المدينة.

إلى المدينة سيدي؟ لكننا لا نمتلك شقة.

آه، لدينا واحدة في فايبورغ.

قال زاخار:

لكن سيدي، ذلك يعني الانتقال من كوخ صيفي إلى آخر. مَنْ تريد أن ترى هناك؟ أليس السيد تارانتييف سيدي؟

لكن هنا مكان غير مريح.

إذن هل سننتقل مرة أخرى سيدي؟ يا إلهي، هل تعوزنا المشاكل؟ لا أستطيع أن أعثر على كوبين ومكنسة، وأستطيع القول بأنهما فقدا إن لم يكن السيد تارانتييف قد أخذهما.

لم يقل أبلوموف شيئًا. خرج زاخار ورجع حالًا، وسحب صندوق الثياب وحقيبة السفر.

سأل وضرب صندوق الثياب:

وماذا سنفعل بهذه يا سيدي؟ ربما سنبيعها أيضًا.
قاطعه أبلوموف بغضب:
هل أصبت بالجنون يا رجل؟ سوف أذهب للخارج في غضون أيام قليلة.
قال زاخار بتكشيرة مفاجئة:
للخارج سيدي؟ لقد كنت تتحدث عنها، ذلك صحيح حقًا، لكن الذهاب إلى الخارج يا سيدي، هو مسألة مختلفة.
لماذا تعد الأمر غريبًا جدًا؟ أنا ذاهب وليكن ما يكون. جواز سفري جاهز.
علّق زاخار بسخرية:
ومن سيأخذ جزمتك هناك؟ ليس مصادفة أن تأخذها الخادمات؟ آه سيدي سوف تكون ضائعًا دوني.
كشّر مرة أخرى، تحركت لحيته وحاجباه باتجاه معاكس.
قال أبلوموف بغيظ:
أنت تتكلم بالكثير من الهراء! خذ هذا واذهب!
في الصباح القادم، وحالما استيقظ أبلوموف في الساعة التاسعة جاء له زاخار بالفطور وأخبره بأنه التقى سيدة شابة في طريقه إلى الخبّاز.
سأل أبلوموف:
أي سيدة شابة؟
أي سيّدة شابة؟ آه، السيدة الشابة من آل إلينسكي، أولغا سرغييفنا.
سأل أبلوموف نافد الصبر:
حسنٌ، ماذا بعد؟
حسن سيدي، أرسلت لك تحياتها، وسألت كيف حالك وماذا كنت تعمل؟
ماذا قلت لها؟
أنا سيدي؟ قلت بأنك بخير ماذا يمكن أن يحدث لك؟
علّق أبلوموف:

لماذا تضيف تأملاتك الحمقاء؟ ماذا يمكن أن يحدث لي! كيف تعرف ماذا يمكن أن يحدث لي؟ حسنٌ، وماذا بعد؟

سألتْ أين تناولت غداءك أمس؟

حقًا؟

قلتُ، سيدي، تناولت غداءك في البيت، والعشاء في البيت أيضًا. آه، سألت السيدة الشابة، هل يتناول العشاء؟ حسن، سيدي، أخبرتها بأنك الوحيد الذي لديك دجاجتان للعشاء.

قال أبلوموف بانفعال:

أحمق!

قال زاخار:

لماذا أحمق سيدي؟ أليس صحيحًا؟ أستطيع أن أظهر العِظام إذا رغبت بذلك.

كرّر أبلوموف:

إنك أحمق حقًا. حسنٌ، ماذا قالت؟

ابتسمت سيدي. لماذا قليل جدًا؟ سألتْ كرّر أبلوموف:

يا إلهي، يا للحماقة! كانت عليك أن تخبرها بأنك تلبسني قميصي بصورة مقلوبة.

كرّر زاخار:

لمْ تسألْ، لذلك لم أخبرها.

ماذا سألتكَ بعد؟

سألتني ماذا كنتَ تعمل في كل تلك الأيام؟

حسنٌ، ماذا قلت؟

قلتُ لها أنك لا تعمل شيء وتستلقي فقط.

صاح أبلوموف بغيظ شديد:

آه، يا إلهي!

ورفع قبضتيه إلى صدغيه. أضاف بشكل صارم:

اخرج! إذا تجرأت ثانية على اختلاق تلك القصص عني سترى ما أنا فاعل بك!
أيّ مخلوق حقود هذا الرجل!
حاول زاخار أن يبرّر نفسه:
هل تتوقع مني أن أنشر الكذب وأنا في هذا العمر، سيدي؟
كرّر أبلوموف:
اخرجْ!
لم يهتم زاخار للإهانة طالما أنّ سيده لم يستعمل «كلمات مُحزنة».
ختم زاخار كلامه:
أخبرتها أنك فكرت بالرحيل إلى فايبورغ.
صاح أبلوموف بغطرسة:
اذهب!
خرج زاخار وتنهّد بحسرة عالية يمكن أن تسمع في الممر، وبدأ أبلوموف يشرب الشاي. شرب خائفًا من الحماقات الجديدة من جهة زاخار. ثم أشعل سيجارًا، وجلس إلى المنضدة، وفتح كتابًا، وقرأ صفحة، وكان على وشك أن يقلبها حين اكتشف أن الصفحات قد اقتُطِعت. مزّق الصفحات بأصبعه، وترك شريط أزهار حول الحافات. لم يكن كتابه بل كتاب شتولتس، وكان شتولتس سريع الاهتياج حد السخف حول أشيائه، وبالأخص كتبه! كل شيء صغير الأوراق، أقلام الرصاص، إلخ كان يجب أن تبقى في مكانها بالضبط كما رتبها. كان عليه أن يتخذ سكين قص الورق لكنها لم تكن موجودة، وكان من الممكن أن يسأل عنها، لكنهُ فضّل بدلًا من ذلك أن يستبدل الكتاب ويذهب إلى الأريكة. ما إن وضع رأسه على الوسادة المزخرفة لكي يستلقي براحة حتى دخل زاخار الغرفة.
أخبرهُ:
السيدة الشابة سيدي طلبت منك أيضًا أن تأتي إلى مكان، يا إلهي، نسيت ماذا أطلقت عليه؟
سأل أبلوموف بسرعة:

لماذا لم تخبرني قبل ساعتين؟

ردّ زاخار:

أنت أمرتني بالخروج من الغرفة سيدي. أنت لا تدعني أنهي...

صاح أبلوموف بشفقة:

آه، سوف تتسبب بهلاكي يا زاخار.

فكّر زاخار وأدار عارض وجهه الأيسر نحو سيّده وحدّق بالسقف.

يا إلهي، بدأ من جديد. تمامًا مثلما فعل اليوم السابق أكيد يقول شيئًا مريعًا.

سأل أبلوموف:

أين يفترض أن أذهب؟

حسن سيدي، لقد سمّتهُ الحديقة أليس كذلك؟

سأل أبلوموف:

المنتزه؟

نعم سيدي، المنتزه. قالت لي هل يود سيدك أن يذهب للنزهة. وقالت، سأكون هناك.

ساعدني في ارتداء ملابسي!

ركض أبلوموف في كل أنحاء المنتزه، ونظر حول فراش الزهور، وحملق في البيوت الصيفية ولم يجد أثرًا لأولغا. سار على طول الشارع الذي تحدثا أثناء سيرهما فيه ووجدها هناك على مقعد بالقرب من المكان الذي قطفت فيه ورمت باقة زهور الليلك.

قالت بصوت عطوف:

فكرتُ أنك لن تأتي.

أجاب:

لقد كنتُ أبحث عنكِ في كل أنحاء المنتزه.

عرفتُ أنك ستبحث عني وجلستُ في هذا الشارع لهذا الغرض. فكّرت أنك ستسير عبره بالتأكيد.

كان على وشك أن يسألها ماذا جعلها تفكر هكذا، لكن حين نظر إليها لم يقل شيئًا. بدت مختلفة، ليس كما كانت حين مشيا هنا، لكن حين تركها في آخر مرة، حين حذّرهُ تعبيرها بشكل كبير جدًا. حتى طيبتها بدت إلى حدٍّ ما مقيّدة، وتعبيرها مركزٌ ومحدود جدًا؛ رأى بأنها لم تعد تنزعج من التخمينات والتلميحات والأسئلة الساذجة، وأنها تخلّت عن ذلك المرح واللحظة الطفولية. الكثير مما لم يُقل بينهما، وربما يمكن فهمه بسؤال وجيه، تم حسمه دون كلمات أو توضيحات، واللهَّ وحده يعرف كيف، ولم يكن هناك رجوع عنه.

سألت:

لماذا لم تعد تزورنا كل هذا الوقت؟

لم يحرْ جوابًا. ودَّ لو يجعلها تشعر، بطريقة أو بأخرى، بأن السحر السّري لعلاقاتهما قد تلاشى، وأنه كان يقمعه جوّ التركيز الذي بدا يغلّفها مثل الغيمة. بدت منسحبة إلى نفسها ولم يعرف كيف يتصرف نحوها. لكنه شعر بأن التلميح الأخف لهذا سيجعلها تنظر بدهشة وتصبح مع ذلك أكثر برودًا نحوه، وربما تنطفئ تمامًا شرارة العاطفة التي ثبّطها بشكل مهمل منذ البداية. كان عليه أن يفجرّها لتتحول إلى شعلة مرة أخرى، ببطء وحذر، لكن لم يكن يمتلك أدنى فكرة كيف يجب فعل ذلك. شعر بشكل غامض بأنها بالغة وأنها أرفع منزلة منه تقريبًا، وأنه من الآن فصاعدًا لا يمكن أن يكون هناك سؤال عن الرجوع إلى الثقة البريئة، وأنّ نهرًا كنهر روبيكون[52] يمتد بينهما وأنّ سعادته المفقودة قد تُركت على الضفة المقابلة: كان عليه ببساطة أن يعبر فوقه. لكن كيف؟ وماذا لو أنه عبرَ فوقه وحده؟ فهمَتْ بصورة أفضل مما مرّ في عقله، وكانت لهذا السبب تمتلك الأفضلية عليه. استقلت روحه مفتوحة بشكل واسع لها ويمكن أن ترى كيف تولّد الشعور فيها، وكيف أنه تحرّك ضمنه وفي النهاية كشف عن نفسه؛ رأت بأن صفات المكر والبراعة والدلال الأنثوية أسلحة سونيا كانت بلا فائدة معه لأنّه لن يكون ثمَّ

52نهر ضحل في إيطاليا ومشهور بعبور يوليوس قيصر عبره في سنة 49 ق. م

صراع. أدركت أيضًا بأنه على الرغم من شبابها فإنها هي التي كان عليها أن تلعب الدور الرئيس في علاقتهما، وكل ما يمكن أن تتوقعه منه سوف يكون مؤثرًا بعمق ومخلصًا على نحو محموم لكن فاتر الهمة، بتوافق دائم مع كل نبضة من نبضاتها، لكنه لا يظهر رغبته الخاصة ولا أي فكرة فعالة. في لحظة أصبحت القوة التي سيطرت بها عليه واضحة لها وأحبّت دورها كنجم هادٍ، شعاع الضوء الذي سوف تلقيه على البركة الراكدة وسوف ينعكس ذلك فيها. كانت هللت سابقًا لتفوقها في هذا النزاع بطرق مختلفة. في هذه الكوميديا، أو ربما التراجيديا، يظهر الأبطال تقريبًا بشكل ثابت في شخصيتَي الجلَّاد والضحية. ومثل أي امرأة في دور رئيس أي، في دور الجلاد لا يمكن لأولغا أن ترفض نفسها متعة لعبة القط والفأر مع أبلوموف، ربما بصورة غير واعية وليس أكثر من امرأة أخرى: أحيانًا ستكشف عن شعورها في جيشان خاطف ومتقلب بشكل مفاجئ، لكنها ستثوب مباشرة إلى نفسها ثانيةً؛ مع ذلك غالبًا ما كانت تسوقه أبعد فأبعد للأمام، عارفة بأنه لن يتخذ خطوة واحدة بنفسه ويبقى ساكنًا في المكان الذي تركته فيه.

سألت وكانت تطرّز قطعة من القماش:

هل كنتَ مشغولًا؟

فكّر أبلوموف وتأوّه سرًّا: «لقد قلت لزاخار بأني كنت مشغولًا».

قال عرضًا:

نعم. لقد كنتُ أقرأ كتابًا.

سألت ورفعت عينيها لترى تعبيره حين يروي كذبة:

رواية؟

أجاب بهدوء:

كلا، نادرًا ما أقرأ الروايات. لقد كنتُ أقرأ كتاب تاريخ الاختراعات والاكتشافات.

فكّر: «الحمد للهّ، لقد قرأت صفحة من الكتاب اليوم».

سألت:

بالروسية؟
كلا، بالإنكليزية.
إذن أنت تقرأ الإنكليزية؟
نعم، لكن بصعوبة وسأل لكي يغيّر الموضوع:
ألم تذهبي إلى المدينة مطلقًا؟
كلا، كنتُ في البيت الوقت كله. عادة ما أؤدي عملي هنا، في هذا الشارع.
دائمًا هنا.
نعم، أحب هذا الشارع كثيرًا. أنا شاكرة لك لأنك عرفتني به. لا أحد يأتي هنا دائمًا...
قاطعها:
لم أعرّفك به. تتذكرين أننا التقينا هنا مصادفة.
نعم، بالطبع.
كلاهما كان صامتًا.
سألت ونظرت مباشرة إلى عينه اليمنى:
لقد اختفى شحاذ عينك تمامًا، أليس كذلك؟
تورّد خجلًا.
قال:
نعم، الحمد للهّ.
تابعت قولها:
حين تحكّك عينك اغسلها بالفودكا ولن يظهر الشحاذ في عينك. مربيتي علمتني ذلك.
فكّر أبلوموف:
لماذا تصر على الحديث عن شحاذ العين.
أضافت بشكل جاد:
ولا تأكل أي عشاء.

فكّر بغضب وصعدت لعنة صامتة إلى شفتيه: «إنه زاخار الذي أخبرها!»
واصلت كلامها دون رفع عينيها عن تطريزها:
لقد تناولت عشاءً ثقيلًا وقضيت يومين أو ثلاث أيام مستلقيًا على ظهرك، فأكيد أن عينك يظهر فيها الشحاذ.
وجه أبلوموف الشتائم في سرّه إلى زاخار: «أحمق!» سأل، لكي يغيّر الموضوع:
ماذا تطرزين؟
قالت:
حبل جرس للبارون.
طوت لفة القماش، وأظهرت له نموذج التطريز وقالت:
هل هو جميل؟
نعم جميل جدًا. الطراز ساحر جدًا. هذه باقة زهور الليلك. صحيح؟
أجابت عرضًا:
نعم، أعتقد ذلك. اخترتها عشوائيًا. الأولى المثنية للأعلى.
شعرت بالخجل قليلًا وسرعان ما طوت القماش.
فكّر:
الأمر في منتهى الضجر لو أنه يسير على هذه الشاكلة، ولا أستطيع أن أحصل أي شيء منها. رجل آخر شتولتس مثلًا يمكنه ذلك، لكني لا أستطيع.
عبَسَ ونظر بشكل بليد حوله. حملقت به ووضعت تطريزها في سلّة.
قال:
دعنا نمشي على طول الطريق.
وسمحت له أن يحمل السلّة، عدّلت ثوبها، وفتحت مظلتها، وسارت.
سألت:
لماذا أنت عابس؟
لا أعرف، يا أولغا سرغييفنا. ولماذا يجب أن أكون سعيدًا؟ وكيف؟
جِدْ شيئًا لتعمله وقضّي المزيد من الوقت مع الناس الآخرين.

جِدْ شيئًا لتعمله! يمكن أن أعمله لو كان لديّ هدف في الحياة. لكن ما هو هدفي؟ لا أملك هدفًا.

الهدف أن تعيش.

حين لا تعلم ما سبب عيشك، أنت تعيش على أية حال من يوم إلى آخر. أنت سعيد حين ينتهي اليوم، ويأتي الليل، وبوسعك في نومك أن تمحو من عقلك السؤال الممل عن سبب عيشك هذا اليوم وأنك قادم على العيش في اليوم التالي.

أصغت بصمت، بنظرة صارمة: القسوة والشك مخفيان في حاجبيها المقطّبين، الاحتقار الملتف مثل الثعبان برز في خط شفتيها.

كررت القول:

لماذا عشت! آه، هل يمكن لحياة الإنسان أن تكون عبثًا؟

قال:

يمكن. حياتي مثلًا.

سألت وتوقفت:

أنت لا تعرف لحد الآن ما هو هدف حياتك، صحيح؟ لا أصدق الأمر: أنت تفتري على نفسك؛ وإن لم تكن فأنت لا تستحق الحياة.

لقد مررتُ سابقًا بالمكان الذي يمكن العثور عليه، ولا شيء أمامي.

أطلق حسرة، وابتسمت هي، وكرّرت مستفهمة:

لا شيء أمامك؟

لكن بشكل مرح وضاحك كأنها لم تصدّق وتتوقع بأنّ هناك شيئًا أمامه.

تابع القول:

ربما تضحكين، لكن الأمر هكذا.

مشت ببطء برأس خفيض.

قال ومشى وراءها:

ما الذي أعيش من أجله؟ ومَنْ؟ ما الذي أبحث عنه؟ ما الذي أنكبّ عليه من عمل؟ ما الذي أكافح من أجله؟ سقطت أزهار الحياة وبقيت الأشواك فقط.

سارا معًا ببطء؛ أصغت شاردة الذهن، وفي أثناء مرورها، قطفت باقة من أزهار الليلك وأعطتها له دون أن تنظر إليه.

سأل وجَفلَ:

ما هذه؟

كما ترى، إنه غصن صغير.

سألها وحملق بها بعينين مفتوحتين:

أي نوع من الأغصان؟

غصن ليلك.

أعرف. لكن ماذا يعني؟

زهرة الحياة و...

توقف وتوقفت أيضًا. كرّر القول مستفهمًا:

وماذا بعد؟

قالت:

غيظي.

ونظرت مباشرة إليه نظرة مركّزة، وأخبرته ابتسامتها بأنها عرفت ما فعلتهُ.

تفرقت غيوم التحجّر حولها. كانت النظرة في عينيها واضحة ويمكن إدراكها.

بدت تفتح صفحة محدّدة لكتاب عن قصد ودعتهُ يقرأ الفقرة السريّة.

قال فجأةً وتورّد من الفرح:

ربما لديّ أمل بكل شيء! لكن...

هوى في الصمت، وصحا فجأة. ولم تميّز أبلوموف أيضاَ إلا بصعوبة: وجهه الناعس والمضبّب تحوّل في لحظة، وانفتحت عيناه، وتلوّن خدّاه؛ تحركت الأفكار في عقله، وتألقت الرغبة والقرار في نظرته. قرأتْ أيضًا بوضوح اللعبة الصامتة لملامحه التي تشي بأنّ أبلوموف قد اكتسب فورًا هدفًا في الحياة.

قال كأنه محموم:

الحياة، الحياة مفتوحة لي مرة أخرى. إنها هناك في عينيك، وابتسامتك، وفي باقة الليلك، وفي أغنية «أيتها الإلهة الطاهرة»، إنها كلها هناك.

هزّت رأسها.

كلا، ليس كلها؛ بل نصفها.

الأفضل.

قالت:

ربما.

لكن أين النصف الثاني؟ ماذا هناك بعد هذا؟

ابحث عنه.

لماذا؟

أجابت:

كي لا تفقد النصف الأول.

وأخذت بذراعه وعادا إلى البيت.

ظلّ ينظر، أحيانًا بسرور، وأحيانًا خلسةً، إلى رأسها الجميل، وجسمها، وعقصة شعرها، ممسكًا غصن الليلك بيده.

ظلّ يردد متأملًا وغير قادر على تصديق كلماته:

إنها كلها لي! إنها مُلكي!

سألتهُ حين كانت ذاهبة للبيت:

هل ستنتقل إلى فايبورغ؟

ضحكَ ولم يعد يدعو زاخار بالأحمق.

* * *

(٩)

بعد ذلك لم تحدث أي تغييرات مفاجئة لأولغا. كانت رقيقة المزاج وهادئة بوجود عمتها والصحبة، لكنها عاشت وشعرت بأنها كانت حية مع أبلوموف فقط. لم تعد تسأل أحدًا ماذا يتوجب عليها أن تفعل أو كيف يجب أن تتصرف، ولم تستغث في ذهنها بسلطة سونيا. بينما انفتحت أوجه الحياة أي المشاعر أمامها، لاحظت بشدة كل ذلك يحدث حولها، وأصغت بانتباه إلى صوت غريزتها، مدققة بمشاعرها عن طريق قلة من المشاهدات التي بلغتها، وتحركت قُدُما بشكل فضولي، وحاولت بقدمها أن تجرّب الأرض التي ستطأها. لم يكن لديها أحد لتطلب منه النصيحة. هل تطلب من عمتها؟ لكنها تستخلص خلاصة مثل هذه المشاكل برفق وبراعة إذ إن أولغا لم تنجح في تحويل رأيها إلى حقيقة عامة. كان شتولتس غائبًا. هل أبلوموف؟ لكنه كان بمثابة جالاتيا وكانت هي نفسها بجماليون[53].

كانت حياتها ممتلئة بشكل هادئ لا يمكن إدراكه ولا يلاحظه أحد، وعاشت في عالمها الجديد دون إثارة الانتباه ودون أي جيشان مرئي للعاطفة والقلق. قامت بنفس الأشياء للآخرين كما في السابق، لكنها فعلت ذلك بشكل مختلف. ذهبت إلى المسرح الفرنسي، لكن بدا في المسرحية نوعٌ من العلاقة مع حياتها؛ قرأت كتابًا، وكانت هناك خطوط ثابتة تضرب شرارات في ذهنها، وممرات تتوهج بمشاعرها الخاصة، وكلمات لفظتها في اليوم السابق، كأنّ المؤلف تغاضى عن سماع دقات قلبها. كانت هناك الأشجار نفسها في الغابات، لكن حفيفها له معنى خاص بالنسبة لها؛ كان ثَمَّ تناغمٌ حيّ بينها وبين الأشجار. لم تكن الطيور تزقزق وتغرّد فحسب، بل كانت تقول شيئًا بينها، وكل شيء حولها كان يتكلم، وكل شيء استجاب لمزاجها؛ إذا ما تفتحت زهرة، بدت تسمعها وهي تتنفس. كانت لأحلامها أيضًا حياتها الخاصة: إنها مليئة بالرؤى والصور التي تتكلم معها

53كان بجماليون نحّاتا عظيما يكره النساء، فصنع تمثالاً من العاج يمثل امرأة جميلة، ووقع في حبها. دعا إلهة الحب فينوس أن تحيي التمثال، فأحيته. سمى التمثال الحي جالاتيا.

بصوت عال أحيانًا بدت تخبرها بشيء، لكن بشكل غير غريزي، بحيث إنها لم تستطع أن تفهمه؛ بذلت جهدًا كي تتكلم معها وتسألها بعض الأسئلة، لكنها قالت أيضًا شيئًا مبهمًا. كانت خادمتها كاتيا هي التي أخبرتها في الصباح بأنها كانت تتكلم أثناء نومها. تذكرت كلمات شتولتس: غالبًا ما أخبرها بأنها قد بدأت تعيش. وكانت أحيانًا تضايقها بالقول بأنها يجب أن تحترمها كطفلة حين كانت في العشرين من عمرها. لكن أدركت الآن بأنها على حق، وأنها بدأت توًّا فقط بالعيش.

اعتاد شتولتس أن يقول لها:

حين تستيقظ كل قوى أعضائك فإنّ الحياة حولك سوف تستيقظ أيضًا، وسوف ترين ما لم تلاحظيه الآن، سوف تسمعين ما لم تسمعيه الآن: ستصبح أعصابك متناغمة مع موسيقى الأكوان وسوف تستمعين إلى العشب وهو ينمو. مهلًا، لا تتعجلي. سوف يأتي بنفسه!

هكذا اعتاد أن يحذرها.

لقد جاء.

كرّرت كلماته:

أفترض أن قواي هذه تثبت نفسها، وأعضائي تستيقظ وأصغت بانتباه إلى رجفة غير مألوفة داخلها وراقبت بشدة وخوف كل تجلٍّ جديد لقوة الاستيقاظ.

لم تستسلم لأحلام اليقظة، ولم تخضع إلى حفيف الأوراق المفاجئ، والرؤى الليلية والهمس الغامض، حين ينحني شخصٌ ما عليها ويقول شيئًا غامضًا وملغزًا في أذنها.

أحيانًا تقول: «الأعصاب!» وتبتسم، من خلال الدموع، وبالكاد تستطيع أن تتغلب على خوفها وتتحمل الصراع المتوتر بين قواها المستيقظة فيها وأعصابها الضعيفة. كانت تخرج من الفراش وتشرب كأسًا من الماء وتفتح النافذة وتهوّي وجهها بمنديلها، وتشفى من الرؤى التي تطاردها في اليقظة والنوم.

حالما استيقظ أبلوموف في الصباح، فإن الصورة الأولى التي نهضت أمامه كانت صورة أولغا وهي تمسك غصن الليلك بيدها. فكّر بها حين ذهب لينام، وكانت بجانبه حين ذهب للنزهة أو حين كان يقرأ. تابع حديثًا لا ينتهي معها في ذهنه أيامًا وليال. ظل يضيف إلى كتاب «تاريخ المكتشفات والاختراعات» آخر الاكتشافات بحضور أولغا أو شخصيتها، واخترع مناسبات للقاء معها مصادفة أو إرسال كتاب أو ترتيب مفاجأة لها. بعد أن سار معها في إحدى اللقاءات، استمرّ بالحديث في البيت، بحيث إن زاخار صادف وأن دخل فقال له بصوت رقيق الذي كان يخاطب به أولغا:

لقد نسيت مرة أخرى أن تصبغ جزمتي، أنت أيّها الشيطان الأصلع! إيّاك، وإلا سوف تلقى العقاب المناسب في يوم ما!

لكن منذ تلك اللحظة غنّت في البداية، لم يعد خالي البال ويعيش حياته السابقة إذ لا فرق لديه سواء كان مستلقيًا على ظهره أو يحدّق في حائط، وسواء كان ألكسييف يجلس في غرفة الاستقبال أو أنه نفسه كان في غرفة استقبال غيراسيموفيتش، في تلك الأيام حين لم يتوقع شيئًا أو شخصًا ليلًا أو نهارًا. الآن كل ساعة من الصباح والمساء كان لها شكلها الخاص، فتكون ممتلئة بقوس قزح المشرق أو الشاحب والقاتم حسب قضائه للوقت سواء بحضور أولغا أو تمضيته بشكل رتيب ومتوانٍ دونها. كل ذلك كان له تأثير كبير عليه: كان رأسهُ شبكة منتظمة من الاعتبارات اليومية والحدوس والتوقعات والآلام المبرحة للشك كله يدور حول الأسئلة إن كان سيراها أم لا، وماذا سوف يقول ويفعل، وكيف ستبدو، وأي عمولة ستعطيها له، وأي سؤال ستسأله، وهل ستكون مسرورة أم لا. كل هذه الاعتبارات أصبحت بالنسبة له مسألة حياة أو موت. فكّر: «آه، ليت المرء يجّرب دفء الحب فقط دون قلقه! كلا، الحياة لا تتركك وحدك. سوف تحترق متى ما ذهبت! يا لها من عواطف جديدة وانشغالات احتشدت فيها فجأةً! الحب أصعب مدرسة في الحياة!». لقد قرأ العديد من الكتب. سألته أولغا عن موضوعات هذه الكتب وأصغت له بصبر عجيب. كتبَ عدة رسائل إلى عزبته،

وبدّل وكيله وأصبح على تماس مع أحد جيرانه من خلال مكاتب شتولتس الجيدة. حتى كان سيذهب إلى أبلوموفكا لو فكّر أنّ من الممكن أن يبتعد عن أولغا. لم يكن لديه عشاء، وفي الأسبوعين الأخيرين لم يعرف معنى الاستلقاء في وقت النهار. وفي غضون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع زاروا كل الأماكن حول بطرسبورغ. وظهرت أولغا وعمتها والبارون وأبلوموف في الحفلات الموسيقية المقامة في الضواحي والمهرجانات.

وتحدثا عن إمكانية الذهاب إلى إماترا في فنلندا.

بقدر ما تعلق الأمر بأبلوموف إنه لم يتحرك أبعد من المنتزه، لكن أولغا ظلت تخطط للأمر كله، ولو أنه أظهر أي تردّد في قبول دعوة إلى مكان ما، فإنّ النزهة كانت ستحصل بالتأكيد. لم تكن هناك نهاية لابتسامات أولغا. ولم يوجد تل ضمن دائرة قطرها خمس أميال عن كوخه الصيفي إلا وكان صعده عدّة مرات.

في الوقت نفسهُ فإنّ علاقتهما نمت وتطورت وعبّرت عن نفسها طبقًا للقوانين الثابتة. أزهرت أولغا حين أصبح شعورها أقوى. أمست عيناها أكثر إشراقًا وحركاتها أرشق وامتلأ صدرها على نحوٍ بهيّ وارتفع وانخفض بشكل منتظم.

قالت عمّتها:

لقد أصبحتِ أجمل في الريف يا أولغا.

ابتسم البارون ابتسامة عبّر من خلالها عن نفس الثناء. وضعت أولغا رأسها على كتف عمتها وتورّدت خجلًا، ولاطفت عمتها خديها بحنان.

قال أبلوموف بحذر، وبهمس تقريبًا:

أولغا! أولغا!

ووقف عند سفح التل في المكان الذي طلبت منه اللقاء معها من أجل الذهاب إلى النزهة.

لم تكن ثمة إجابة. نظر إلى ساعته.

وأضاف بصوت عال:

أولغا سرغييفنا.

لم يكن هناك سوى الصمت.
كانت أولغا تجلس على قمة التل. لقد سمعت نداءً لكنها كبتت ضحكتها ولم تقل شيئًا.
نادى:
أولغا سرغييفنا!
وتطلع إلى الأعلى بعد أن تسلّق نصف الطريق بين الأدغال. قال لنفسه:
أخبرتني أن آتي في الساعة الخامسة والنصف.
لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك.
قال:
أولغا! أولغا! آه، أنتِ هنا!
واستمرّ في الصعود. قال:
لماذا تريدين الاختفاء في التل؟
وجلس بجانبها.
أعتقد أن السبب أنك تريدين مني أن أعاني، لكنك تجعلين من نفسك تعانين أيضًا، أليس كذلك؟
سألت:
من أين أتيتَ؟ هل مباشرة من البيت؟
كلا، ذهبت إلى منزلك أولًا. أخبروني بأنك قد خرجتِ.
سألت:
ماذا فعلتَ اليوم؟
اليوم...
ختمت قولها له:
تشاجرت مع زاخار؟
ضحكَ كأنه أمرٌ مستحيل جدًا.
كلا، أنا أقرأ عملًا مسرحيًا غنائيًا. اسمعي يا أولغا.

لكنه لم يقل شيئًا وجلس بجانبها غارقًا في التأمل بصورتها الجانبية ورأسها، وحركة يدها للأعلى والأسفل بينما كانت تسحب الإبرة عبر القماش. ثبت عليها عينيه ولم يكن قادرًا على انتزاعها منها. لم يتحرّك، تحركت نظرته فقط إلى اليمين واليسار، ملاحقة حركة يدها. كل شيء داخله كان في حالة نشاط مروّع: كان دمه يتسابق خلال عروقه، وكان نبضه يضرب مرتين سريعًا، وكان قلبه يغلي كل ذلك كان له تأثير عليه إذ إنه تنفس ببطء وبشكل مؤلم، كما يفعل الناس قبل إعدامهم أو في حالة نشوتهم الروحية السامية. لم يجبر نفسه على الكلام أو الحركة؛ كانت عيناه النديتان بالعاطفة العميقة، مثبتتين عليها بشكل لا يقاوم.
كانت تُلقي نظرة عميقة عليه من وقت لآخر، وتقرأ المعنى الواضح جدًا المكتوب في وجهه وفكره: «يا إلهي، كم يحبني! كم هو رقيق معي!» وشعرت بالفخر ونظرت بعين الإعجاب إلى الرجل الذي جعلته يطريها بقوتها الخاصة. مضى زمن التلميحات الرمزية والابتسامات ذات المعنى، وباقات الليلك بشكل لا يمكن إلغاؤه. أصبح الحبُّ أقسى، وأكثر تزمّتا وبدأ يتحول إلى نوع من الواجب؛ شعرا بأنهما امتلكا أحدهما حقوقا على الآخر. كلاهما أظهر الكثير من ذاته: اختفى سوء التفاهم والشكوك، وفسح الطريق إلى الأسئلة الأكثر وضوحًا وإيجابًا. في البداية وبّختهُ بتعليقات ساخرة قليلًا عن السنوات التي أضاعها في البطالة؛ مررت جملة قاسية عنهُ وشجبت لا مبالاته بشكل أشد عمقا وتأثيرًا من شتولتس؛ ثم، حين بدأت تصبح أكثر حميمية معه، تخلت عن توجيه اللوم له بسبب وجوده المترهّل والكسول، وبدأت تعلن عن رغبتها المستبدة عليه، مذكّرة إيّاه بشكل جريء بالهدف من الحياة وواجباتها وطلبت منه بصرامة أن يغيّر من حالة عقله، وحفزته باطراد من بلادته؛ إما بتوريطه في مناقشة بارعة حول بعض المشاكل الفعالة التي كانت مألوفة لديها، أو عن طريق مفاتحته حول مشكلة ليست واضحة بالنسبة لها ولم تستطع أن تفهمها. صارع وأجهد عقله وبذل ما بوسعه لكي لا يقلل من شأن نفسه في تقديرها، ولكي يساعد في توضيح بعض المشاكل المعقدة لها، وإلاّ فإنّهُ يضعها جانبًا بشكل جريء. كل تكتيكاتها الأنثوية سادت عن طريق العاطفة

الرقيقة؛ كل محاولاته للتوافق مع أعمال عقلها كانت بإلهام من الشغف. في الكثير من الأحيان كان يجثم عند قدميها منهكًا، ويضع يدها على قلبه، ويصغي إلى نبضه، دون أن ينتزع عينيه الواسعتين والمدهشتين والمنتشيتين. ظلت تقول في تلك اللحظات وتنظر بإعجاب له: «كم يحبّني!» إذا ما لاحظت أحيانًا أنَّ ميزات أبلوموف القديمة ما زالت تختبئ في روحه ويمكن أن تنظر عميقًا فيها مثل التعب القليل وخمول الروح الذي بالكاد يمكن فهمه، فإنها تغمره بالتوبيخ، الذي يحمل أحيانًا لمسة الأسف الشديد والخوف من ارتكاب الخطأ. أحيانًا، حين يكون على وشك أن يفتح فمه لكي يتثاءب، تصفعهُ بنظرتها المندهشة وفورًا يغلق فمه بحركة سريعة. لن تسمح له بأي ظل خفيف من النعاس في وجهه. لم تسأله عما فعله فحسب، بل أيضًا ما هو قادم على فعله. ما جعله خائفًا أكثر من خوفه من توبيخها كان إدراكه بأن تعبه جعلها تحسّ بالتعب أيضًا، وأصبحت باردة وغير مكترثة. ثم أصبح مفعمًا بالحياة والقوة والنشاط واختفى الظل مرة أخرى، وامتلأ شعورهما المتبادل بالمقدرة والفعالية. لكن كل تلك المشاكل لم تتجاوز حتى الآن دائرة الحب السحرية. كان نشاطه نتيجة شخصيته السلبية الخالصة: لم ينم، ولم يقرأ، وأحيانًا فكّر بكتابة خطته في إدارة عزبته، ومشى وركب بالعربة كثيرًا. لكن ماذا يعمل بحياته، وماذا يفعل بنفسه ما زال ذلك موضوعًا ذا أهداف خالصة.

قال أبلوموف:

أي نوع من الحياة والنشاط يريده أندريه؟

وفتح عيناه باتساع بعد الغداء لكي لا يغط في النوم. فكّر: «أليست هي الحياة؟ أليست مصلحة الحب؟ دعه يحاول! كل يوم يعني مشيًا لمسافة سبعة أميال!

قضيت الليلة الأخيرة في حانة بائسة بالمدينة دون أن أنزع ملابسي، نزعت جزمتي فقط، ولم يكن زاخار هناك لكي يساعدني، أيضًا وكل ذلك لأنه توجب عليَّ تنفيذ بعض المهمات من أجلها!».

ما أفزعهُ أكثر حين وضعت أولغا بعض الأسئلة المبهمة له وطلبت إجابات مقنعة تمامًا، كأنه كان بروفسورًا: وذلك حدث معها غالبًا، لا بداعي الحذلقة، بل بداعي

الرغبة في معرفة المسألة كلها. كانت أحيانًا تنسى أهدافها أيضًا فيما يتعلق بأبلوموف وتجرفها تمامًا المسألة نفسها.

فكّرت بغيظ وقالت: «لماذا لم نتعلم ذلك؟» بينما أصغت بتلهّف إلى حديث عابر عن موضوع يُعدّ غير ضروري بالنسبة للنساء. بدأت في أحد الأيام تزعج أبلوموف بأسئلة حول النجوم المزدوجة[54] : كان طائشًا بما يكفي لكي يشير إلى هيرشل[55]، وأرسل حالًا إلى المدينة من أجل كتاب يجب أن يقرأه ثم أخبرها حوله حتى اقتنعت. في مناسبة أخرى حين كان له حديث مع البارون، أبدى ثانيةً بشكل طائش رأيًا حول مدارس الرسم وكان لديه أسبوع كامل من العمل مرة أخرى: قراءة الكتب وإخبار أولغا بما قرأه، ثم ذهبا إلى متحف الأرميتاج[56]، وهناك كان عليه مرة أخرى أن يوضّح لها ما قرأه. إذا ما قال أي شيء بصورة عشوائية، ستدرك مراميه الخفية فورًا وتبدأ تزعجه.

ثم أمضت أسبوعًا في الذهاب إلى متاجر مختلفة بحثًا عن نقوش محفورة لأفضل الصور. كان على أبلوموف المسكين أن ينظر ثانيةً فيما تعلمه في إحدى المرات، أو يندفع إلى متاجر الكتب من أجل أعمال جديدة، وأمضى أحيانًا الليل يقظًا ينقّب بين الكتب ويقرأ شيئًا لكي يكون قادرًا على الرد بنغمة عرضية على سؤال سألته في اليوم السابق. وضعت أسئلتها لا برغبة أنثوية في التفكير ولا بسبب الفكرة التي جاءت مباشرة داخل رأسه، لكن بشكل ملحّ وتوّاق، ولو أنّ أبلوموف لم يُجب، لَعاقَبتهُ بنظرة طويلة ثاقبة. كم كان يرتجف تحت تلك النظرة!

قالت:

لماذا لا تقول شيئًا؟ لماذا أنت صامت؟ ربما يعتقد المرء أنك تشعر بالضجَر.

قال كأنه صحا بعد نوبة إغماء:

أوه، كم أهواكِ!

54النجم المزدوج: نجمان متقاربان جدًا ويبدوان أحيانًا كأنهما نجمٌ واحد م.
55عالم فلك بريطاني راقب النجوم المزدوجة.
56من أشهر المتاحف في العالم يضم مقتنيات لفنانين عالميين قديمًا وحديثًا ويقع في مدينة بطرسبورغ م.

حقًا؟ لو لم تقل هكذا لما فكرت به.
بادر قائلًا:
لكن هل تعرفين ماذا يجري داخلي؟
وتابع:
هل تعلمين أني أجد صعوبة في الكلام. هنا أعطني يدك هنا شيء لا يسمح لي، في البداية كأنه شيء ثقيل صخرة ثقيلة يستلقي هناك، كأني في حزن عميق، من الغريب القول أن النوع نفسه من العملية يحدث في أعضاء المرء في الفرح والحزن معًا: يجد أحدهم أنّ من الصعب والمؤلم تقريبًا أن يتنفّس بينما الآخر يشعر كأنه يبكي! إذا ما بكيت فإني سأشعر تمامًا كما لو أني قد أصبحت غير سعيد: الدموع ستجعلني أشعر بأني أكثر طمأنينة...
نظرت إليه بصمت، كأنها تريد أن تدقق في حقيقة كلماته، مقارنة مع ما كُتب على وجهه، وابتسمت: كانت راضية بالنتيجة. كان وجهها مليئًا بنَفَس السعادة، وهدوئها الذي لن يعكّر صفوه أي شيء. كان من الواضح بأنّ قلبها لم يكن ثقيلًا، لكنه صافي مثل كل شيء في الطبيعة أثناء ذلك الصباح الهادئ.
سأل أبلوموف بتردّد كأنه يتكلم لنفسه:
ما مشكلتي؟
هل أخبرك؟
نعم، أخبريني.
إنك مُغرم.
أجاب:
نعم، بالطبع.
وانتزع يدها من تطريزها ولم يقبلها، لكن ضغط أصابعها فحسب على شفتيه ومن الواضح أنه كان يقصد بقاءهما هكذا للأبد.
حاولت أن تبعد يده برفق، لكنه أمسكها بثبات.
قالت:

دعني أذهب. هيّا، ذلك يكفي.
سأل:
وأنتِ، ألستِ مُغرمة؟
قالت وحدّقت فيه لفترة من الوقت كأنها تريد أن تتأكد بأنها فعلًا واقعة في غرامه:
في الحب، كلا، أنا لا أحب هذا التعبير: أنا أحبّك!
قال أبلوموف:
حُ بّ! لكن ربما يحب المرء أمه وأباه ومربيته وحتى كلبه: كل هذا يغطيها المصطلح العام الجامع «أحبّ» كأنّه مبذل...
سألت بسخرية:
كأنه مبذل قديم؟ بالمناسبة أين مبذلك؟
أي مبذل؟ ليس لديّ مبذل.
نظرت إليه بابتسامة تشي باللوم.
قال:
ها أنتِ تعودين إلى الموضوع مرة أخرى يا أولغا. مبذلي! أنا انتظر، أنا في لهفة لسماعك وأنتِ تخبرينني عن التجربة الأعمق في حياتك وأي اسم ستعطيها وأنتِ يا إلهي، أولغا! نعم، أنا مغرم بكِ وأؤكد لك بأنه بدونه لن يكون حبًا حقيقيًا: يجب ألّا يغرم المرء بأبيه وأمه ومربيته بل يحبهم.
قالت متأملة كأنها تصغي إلى ما يجري داخلها:
لا أعرف. لا أعرف إن كنتُ مغرمة بك. ولو لم يحصل ذلك، فلربما لم تسنح الفرصة بعد؛ كل ما أعرفهُ هو أني لم أحب أبدًا أبي وأمّي أو مربيتي بمثل ذلك.
حاول أن يجعلها تجيب:
ما الفرق؟ هل تشعرين بأي شيء مميز؟
سألت بمكر:
هل تريد أن تعرف؟
نعم، نعم، نعم! هل لديك رغبة في الحديث عنه؟

لكن لماذا تريد أن تعرف؟

لكي أكون قادرًا على العيش به في كل دقيقة: اليوم، الليل كله، غدًا إلى أن ألتقي بكِ ثانيةً. ذلك هو الأمر الوحيد الذي أعيش من أجله.

حسنٌ، أنت ترى، أنه يجب عليك أن تجدد مؤونة حنانك كل يوم! هذا هو الفرق بين الشخص الواقع في الحب والشخص الذي يحب. أنا...

انتظر بفارغ الصبر:

نعم؟

قالت واتكأت للخلف على المقعد ونظرت إلى الغيوم المتحركة بشكل خالٍ من التعبير:

أنا أهوى بطريقة مختلفة. أنا ضجرة بدونك، أشعر بالأسف بالانفصال عنك لمدة طويلة. أعلم وأصدّق مرة وإلى الأبد بأنك تحبني. لا أستطيع أن أحب أكثر أو أفضل من هذا.

فكّر أبلوموف ونظر بشكل محموم إلى أولغا:

ربما هذه كورديليا[57] تتكلم.

واصلت الكلام مترددة:

لو متَّ للبست ثياب الحداد طول عمري ولن أبتسم ثانيةً. لو وقعت في الحب مع امرأة أخرى، فلن ألومك أو ألعنك لكن أتمنى لك السعادة من كل قلبي... هذا الحب بالنسبة لي هو الحياة نفسها والحياة...

كانت تبحث عن كلمة.

حسنٌ، ما هي الحياة برأيك؟

ختمت حديثها ورفعت عينيها إلى السماء:

الحياة هي الواجب والالتزام، ولهذا فإن الحب هو واجب أيضًا: أشعر كأنّ الربّ قد أرسله لي، وأمرني أن أحبّ.

57إحدى بنات الملك لير في مسرحية شكسبير م.

صاح أبلوموف بصوتٍ عال:
كوريليا!
وأضاف متأملًا:
وهي في الواحدة والعشرين! إذن ذلك هو الحب في رأيك!
نعم، وأعتقد أنه يجب أن أمتلك القوة الكافية لأعيش وأحب طوال حياتي.
فكّر أبلوموف وحدّق فيها بمهابة تقريبا: «من أوحى بمثل هذه الفكرة لها؟ لا يمكن لها أن تبلغ هذا الفهم الواضح والبسيط للحب والحياة من خلال التجربة والتعذيب والنار والدخان».
سأل:
لكن ألا يوجد لديك متعٌ قوية، ألا تمتلكين شغفًا؟
قالت:
لا أعرف. لم أجرّبها ولا أفهمها.
أوه، كيف لي أن أفهم الأمر الآن!
أضافت بمرح:
ربما أنا أيضًا سوف أشعرُ بها في الحال، ربما أنا أيضًا سوف أشعرُ بنفس العواطف القوية مثلكَ، وسوف أنظر إليكَ كما تنظرُ لي، كأني لا أصدّقُ بأنكَ أنتَ حقًا...
ذلك شيء مضحك جدًا كما أتوقع. يا لها من نظرة تلقيها عليّ أحيانًا! أنا متأكدة من أنّ عمتي لاحظتها.
إذن ما هي السعادة التي تجدينها في الحب إن كنتِ لا تشعرين بالمتعة القوية التي أشعر بها؟
قالت وأشارت إليه، وإلى نفسها، وإلى العزلة التي حولهما:
أية سعادة! آه، هذه! هل تلك سعادة؟ هل عشت في أيها وقت مضى هكذا؟ سابقًا كان يجب ألّا أجلس هنا بين هذه الأشجار لمدة ربع ساعة وحدي دون كتاب ولا موسيقى... أتكلم مع كل الرجال عدا السيد شتولتس الذي اعتاد أن يضجرني. لم

يكن لديّ شيء لكي أقوله لهم. كل ما أردته هو أن أترك لوحدي. لكن الآن، آه، إني سعيدة حتى ولو لم نتبادل الحديث.

نظرت إلى الأشجار والعشب، ركزت نظرتها عليه وابتسمت وحملت يدها إليه.

أضافت:

ألا أبدو مرعبة حين أذهب بعيدًا. ألا أكون سعيدة في الإسراع إلى الفراش والنوم لكي لا أشهد الليل الممل؟ ألا أرسل رسالة إليك في الصباح؟ ألا...

مع كل كلمة «ألا...» كان وجه أبلوموف يزداد إشراقًا وتسطع عيناه بشدة.

ردّد:

أجل، أجل، أنا انتظرتُ الصباح، والليل مضجر لي، وسوف أرسل أيضًا رسالة إليكِ غدًا، لا بسبب أني لا أمتلك شيئًا لأقوله لك، بل فقط من أجل أن ألفظ اسمك مرة أخرى وأسمع صوته، وأن أعلم شيئًا عنه من الخدَم وأحسدهم على رؤيتهم لك سابقًا. نحن نعتقد ونعيش ونأمل بنفس الطريقة. أنا آسف أني شككت فيكِ يا أولغا. أنا مقتنع جدًا بأنكِ تحبينني كما لم تحبّي أباك أو أمّك أو...

قالت ضاحكة:

... كلبي.

وختمت قولها:

يجب أن تثق بي إذن، ولا يصيبك الارتياب، ولا تفسد هذه السعادة بالشكوك الفارغة وإلا فإنها سوف تحلّق بعيدًا. لن أتراجع عما سميته مرّة مُلكي، إن لم يجرِ انتزاعه مني.

وأردفت بصوت واثق:

أعرفُ هذا: قد أكون شابة، لكن... هل تعرف، خلال مدة تعرفي عليك في غضون شهر فكّرتُ وشعرتُ كثيرًا. كأنّي قرأتُ كتابًا كبيرًا بنفسي خلال وقت قصير... لذا، من فضلك، لا تنتابك الشكوك...

قاطعها:

لا أستطيع الشفاء من الشكوك. لا تسأليني ذلك. الآن، وبينما أنا معك فأنا متأكد من كل شيء: عيناك، صوتك كل شيء يخبرني بعدم الشك. تنظرين لي كما لو ترغبين أن تقولي: لا أحتاج إلى الكلمات، أستطيع أن أقرأ كل شيء في عينيك. لكن حين لا تكونين معي فإني أنغمر بالشكوك والأسئلة المعذبة جدًا بحيث أهرع إليك ثانيةً لكي ألقي نظرة عليكِ، وإلا فإني لا أصدّق. لماذا يحصل ذلك؟

وأنا أصدّقك: كيف يحصل ذلك؟

يجب أن أفكّر هكذا! أمامك مجنون ابتلى بالحبّ. أتوقع أنكِ تستطيعين أن ترَي نفسكِ في عينيّ كما ترينها في مرآة. إضافة إلى أنكِ في العشرين. أَلقي نظرة تامة على نفسكِ: أيُّ رجلٍ فشلَ في أن يدفع لك جزاء الإعجاب، ولو بنظرة؟ التعرف عليك، والإصغاء لك، والنظر إليك لساعات، والغرام بك أوه، ذلك كافٍ لكي يصيب المرء بالجنون! وأنتِ هادئة جدًا، ورابطة الجأش، وإذا ما مرّ يومان أو ثلاثة دون أن أسمعك تقولين»أحبُّك« أشعر بالرعب هنا، وأشار إلى موضع قلبه.

قالت ونهضت من مقعدها:

أحبُّك، أحبُّك، أحبُّك إنها مؤونة تكفيك ثلاثة أيام!

قال بحسرة:

أنتِ دائمًا تمزحين، لكن الأمر ليس مسألة مزاح بالنسبة لي.

وهبطَ من التل معها.

لذا فإن الفكرة الرئيسة نفسها قد تم عزفها من قبلهما بتنويعات مختلفة. لقاءاتهما وأحاديثهما كانت كلها أغنية واحدة، وضوء واحد احترق بشكل ساطع؛ وتكسرت أشعته فقط إلى الوردي والأصفر والأخضر، وامضًا في الجو المجاور. في كل يوم وفي كل ساعة كانت تأتي أصوات وألوان جديدة، لكن الضوء والنغمة كانت نفسها. كلاهما أصغى إلى تلك الأصوات، وما إن تعلقا بها، حتى أسرعا إلى الغناء أحدهما للآخر ما سمعاه دون الشك بأنه في اليوم القادم، سوف تُسمع أصوات جديدة وتظهر أشعة جديدة، ناسييَن في اليوم التالي بأن الأغنية كانت مختلفة عن أغنية اليوم السابق.

اكتست دفقات قلبها بالألوان التي توهّج بها خيالها لحظتها، وآمنت بشكل ثابت بأنهما كانا مخلصين للطبيعة، وأسرعت بالدلال البريء اللاواعي في الظهور أمام صديقها بذلك القناع الجميل. كان يمتلك أيضا إيمانًا أكبر بتلك الأصوات السحرية والضوء المبهج، وأسرع بالظهور أمامها بدرع كامل من الشغف، ليريها كل روعتها وقوة النيران التي أجّجت روحه. لم يكذبا على أنفسهما أو الواحد على الآخر: كانا يعبّران فحسب عما يملي عليهما القلب، وتلوّن صوته بالخيال. لا يهم أبلوموف حقًا إن ظهرت أولغا ككورديليا أو بقيت صادقة لتلك الصورة أو تبِعَتْ مسارًا جديدًا وتحوَّلت إلى رؤية أخرى، طالما أنها ظهرت في نفس الألوان كتلك التي ادَّخرَتها في قلبها طالما كان سعيدًا. ولم تتحقق أولغا إن كان صديقها المحموم سوف يلتقط قفازها إذا ما رمته في حلق السبع أم يلقي نفسه في هاوية من أجلها، طالما تمكنت من رؤية أعراض شغفه وطالما بقي مخلصا لمثالها في الرجل ولذلك الشخص الذي وعى الحياة من خلالها: طالما أنّ ضوء عينيها وابتسامتها أبقت شعلة الشجاعة حيّة فيه ولم تتوقف عن احترامها كونها الغرض الوحيد لحياتها. كان ذلك هو السبب في تلاشي صورة كورديليا، نار عاطفة أبلوموف انعكست فقط لحظة واحدة، نَفَس سريع الزوال لحبّهما، وأحد نماذجه الخيالية. وغدًا غدًا سوف يتوهج بضوء مختلف، ربما ضوء جميل، لكنه مختلف من أجل كل ذلك...



(10)

كان أبلوموف، مثل رجل راقب توًّا غروبًا صيفيًا للشمس وتمتع بالشفق القرمزي، غير قادر على انتزاع عينيه من السماء ويلتفت للوراء ليرى إقبال الليل، ويفكّر الوقت كله بعودة النور والدفء في اليوم التالي. يستلقي على ظهره ويتمتع بتأمّل لقائه الأخير مع أولغا. «أحبك، أحبك، أحبك»، ما زالت كلمات أولغا ترنّ في أذنيه، أحلى من أي شيء غنتهُ في أي وقت مضى؛ ما زال آخر شعاع للنظرة المركّزة التي ألقتها عليه معلقًا به. كان يحاول أن يدخل إلى عمق معناه، ليحدد كم تحبهُ كثيرًا، وكان على وشك أن يخرّ نائمًا حين فجأة...

نهض أبلوموف في الصباح التالي وهو يبدو شاحبًا وعابسًا؛ كان وجهه يحمل آثار أرق الليل، وتجعّد جبينه، وعيناه كليلتان باردتان. وقد تلاشت كبرياؤه ومرحه ونظرته البهيجة والحركات المدروسة والوقورة لرجل مشغول. ارتشف شايهُ بفتور، ودون أن يفتح كتابًا واحدًا أو يجلس إلى طاولته، أشعل سيجارًا باهتمام شديد وجلس على الأريكة. كان فيما مضى يستلقي، لكن فقد هذه العادة الآن وشعرَ بلا إكراه في أن يضع رأسهُ على الوسادة. لكنه فعل، مع ذلك، واضعًا مرفقه عليها وهو أحد أعراض نزعته السابقة. كان مزاجهُ كئيبا. أطلق الحسرات من وقت لآخر، وفجأةً رفع كتفيه استهجانًا، أو هزّ رأسهُ بمرارة. أحيانًا كان ينفعل بشكل عنيف، لكن ليس بداعي الحب. كانت صورة أولغا أمامه، لكنها بدت بعيدة، غائمة، دون إشراق، وغريبة بالنسبة له؛ منحها نظرة سقيمة وتنهّد.

«عشْ كما يأمرك الربّ لا كما ترغب. هو قانون حكيم لكن...»، واستغرق في الأفكار. «كلا، لا يمكنك أن تعيش كما تريد، ذلك واضح». شرع صوت كئيب ومشاكس يتحدث معهُ. «ستنحدر إلى فوضى من التناقضات التي لن يحلها أي مفكر إنساني مهما كان عميقا وجريئا! في يوم ما ترغب بشيء، وفي اليوم التالي ستحصل على ما رغبت به بشكل محموم، وفي اليوم اللاحق ستخجل من فكرة الرغبة فيه، ثم تلعن الحياة لأنها تحققت ذلك ما يحصل من خطواتك الغافلة والمستقلة داخل الحياة، ومن كلمتك العنيدة أنا أرغب. على الإنسان أن يشق

طريقه عبر الحياة؛ يجب أن يغلق عينيه للعديد من الأشياء ولا يحلم بالسعادة ولا يجرؤ على الدمدمة حين تهرب منه تلك هي الحياة! في أيّ فكرة تكمن، السعادة أم المتعة؟ الرجال المجانين! «الحياة هي الحياة، إنها الواجب» تقول أولغا التزام، وقد يكون الالتزام صعبًا. دعنا، إذن، نؤدي واجبنا...»، تحسّرَ. «لن أرى أولغا مرة أخرى يا إلهي، لقد فتحتْ عينيّ وأظهرتْ لي واجبي»، قال، وتطلّع إلى السماء، «لكن أين أجد القوة الكافية لها؟ أن أرحل! أستطيع أن أفعلها الآن، على الرغم من أنه أمرٌ مؤلم. لن ألعن نفسي فيها بعد لأني لم أرحل عنها. وربما يأتي أحد خدَمها في أي لحظة، لأنها قالت بأنها سوف ترسل رسالة... إنها لا تتوقع أن...» ما سبب كل ذلك؟ أيّ ريح سقيمة هبت فجأة على أبلوموف؟ أيّ غيوم جلَبت؟ ولماذا تظاهرَ بعبء محزن جدًا يثقل كاهله؟ بدا في اليوم السابق كأنه ينظر داخل روح أولغا ويرى عالمًا برّاقًا ومستقبلًا مشرقًا هناك، وقد قرأ برجَي حظه وحظها. ما الذي حدث إذن؟ لا بدّ من أنه تناول العشاء أو استلقى على ظهره، وأنّ مزاجه الشاعري أعطى المجال لأمور مرعبة. أحيانًا يصدف أنّ شخصًا يذهب لينام في مساء صيفيّ هادئ صافٍ تحت النجوم المتلألئة، مفكّرًا كم ستكون الحقول محبّبة في شمس الصباح المشرقة! كم سيكون منعشًا أن تقوم بنزهة عميقًا داخل الغابة لكي تهرب من الحرارة! وفجأة ينتبه المرء لتمتمة المطر، والسُحب الرمادية الكئيبة؛ الجوُّ بارد ورطب... كان أبلوموف يستمع في المساء إلى خفقات قلبه كالعادة، ويتحسّس يده لكي يتأكد من أنها لم تكبر أو تتصلب، ثم يبدأ أخيرًا في تحليل سعادته وفجأة تصادفهُ قطرة من المرارة وتسمّمه. فينتشر السمّ بسرعة وقوة. تصفّح حياته كلها في ذهنه: للمرة المائة ملأ قلبه الندم والأسف المتأخّر على الماضي. تصوّر ماذا سيصبح الآن لو أنهُ تقدم للأمام بجرأة، كم ستكون حياته أكثر امتلاءً وتغيّرًا لو أنه كان نشطًا، ثم مرّ بالمسألة التي يمرّ بها الآن، وكيف أنّ أولغا يمكن أن تكنّ له الحب؟ لماذا يمكن أن تحبه؟ أليست هي غلطة؟ ومضت الفكرة في ذهنه مثل البرق، وضربهُ البرق مباشرة في قلبه وتشتّتَ. ندّت عنه آهة. لم يتمالك نفسه من التفكير: «غلطة! نعم ذلك ما يحصل!» رجعت كلمات: «أحبّك،

أحبّك، أحبّك» إليه، وبدأ قلبه يصبح أكثر دفئا، لكنه فجأة ارتجفَ ثانيةً. تكررت ثلاثية أولغا: «أنا أحبّك» ماذا كان يعني ذلك؟ هل خانتها عيناها؟ هل خدعها قلبها؟ لم يكن الحب، بل حسّ الحب الداخلي فحسب! سيتردد ذلك الصوت يومًا، وعلى نحوٍ قويّ، بانكسار مروّع جدًا للأوتار، إذ إن العالم بأكمله سوف يحفل! ستعلم به عمتها والبارون، وسوف يتردد صدى هذا الصوت بعيدًا بشكل واسع! لن يتعرّج ذلك الشعور برقة مثل جدول مخفيّ في العشب ذات خرير بالكاد يمكن سماعه. إنها تحب الآن تمامًا بينما كانت تطرّز: أصبح نموذج تطريزها خفيفا ببطء، وكشفت عنهُ بشكل أكثر كسلًا، وبعد الإعجاب به للحظة، طرحته جانبًا ونسته. نعم، كان ذلك تحضيرًا للحب، إنه مجرّد تجربة، وصادف أنه برزَ كونهُ الموضوع الأول المقبول تمامًا للتجربة... ألم تكن ثمة فرصة لجلبهما معًا؟ لن تراهُ بطريقة أخرى. قدّمه شتولتس إليها ولوّث قلبها اليافع الحسّاس بعاطفته؛ كانت آسفة من أجله، ومحترقة بالطموح لإيقاظه من نومه، ثم سوف تتخلى عنه. «تلك هي المسألة!» دمدمَ برعب، ونهض من الفراش وأشعل شمعة بيد مرتجفة. «لم يكن ثمة أي شيء أكثر من ذلك! كانت جاهزة للحب، وكان قلبها ينتظر الحب بشوق، التقت به مصادفة وبشكل طارئ... فليظهر رجلٌ آخر وسوف تميّز خطأها برعب! كيف ستنظر إليَّ حينئذ! كيف تتصرف! مُرعب! أنا آخذ ما ليس لي! إني لص! ماذا أفعل؟ كم أنا أعمى يا إلهي!». نظر إلى نفسه في المرآة: كان شاحبًا وأصفرَ، وكانت عيناه بلا بريق. فكرّ بأولئك الرجال الشبّان المحظوظين الذين كانت عيونهم نديّة وحالمة، لكنها، مثل عيني أولغا، حملت نظرة عميقة وقوية ولمعت مرتجفة، وكانت ابتساماتهم واثقة من النصر، وخطواتهم جريئة، وأصواتهم ترنُّ قوية. وربما يأتي واحدٌ منهم في يوم ما: سوف تتورد خجلًا فجأةً، وتنظر إليه وإلى أبلوموف وتنخرط في الضحك!

نظر إلى نفسه في المرآة مرة أخرى.

قال:

النساء لا يحببن رجالًا من أمثالي!

ثم استلقى ودفن وجهه في الوسادة.
ختم قوله:
وداعًا يا أولغا. كوني سعيدة.
نادى في الصباح:
زاخار! إذا ما جاء خادم من آل إلينسكي يسأل عني، قُلْ له إني لستُ في البيت، وإني ذهبتُ إلى المدينة.
حسنٌ جدًا سيدي.
قال في نفسه: «أجلنعم كلا، أود أن أكتب إليها. وإلا اعتبرت الأمر غريبًا أني اختفيت فجأة. يجب أن أقدّم تفسيرًا.» جلس إلى المائدة وبدأ يكتب بسرعة ولهفة محمومة، تختلف كليًا عن الطريقة التي كتب بها إلى مالك أرضه في بداية أيار. ولم يكن هناك أي تصادم مزعج ما بين ضمائر «الذي» و«التي».
كتبَ: «ربما تجدين أنّ من الغريب، يا أولغا سرغييفنا، أن تتسلّمي هذه الرسالة بدلًا من رؤيتي، وحين نلتقي معًا في الكثير من الأحيان. اقرأيها إلى النهاية وسوف ترين بأني لم أستطع أن أعمل بطريقة أخرى. كان يجب أن أبدًا بكتابتها، وبذلك نكون قد وفّرنا مقدارًا كبيرًا من اللوم الذاتي في المستقبل. وقعنا في الهوى بشكل مفاجئ جدًا وبسرعة، كأنّ كل منّا وقع سقيمًا، وهذا منعني من بلوغ إحساساتي عاجلًا. إضافة إلى أنه عند النظر إليك والإصغاء لك لساعات في النهاية، من سيتولى راغبًا المهمة الصعبة في الشفاء من السحر؟ من يمتلك الحذر الكافي أو قوة الإرادة ليكون قادرًا على التوقف في أي لحظة عند كل انحدار بدلًا من أن ينزلق للأسفل؟ في كل يوم أفكّر: «لن أدع نفسي تجرفها العاطفة أكثر سوف أتوقف هنا والآن كل ذلك يعتمد عليّ» وتجرفني العاطفة، والآن يأتي الصراع الذي يجب أن أسألك فيه أن تساعديني. إنه اليوم فحسب، أو بالأحرى الليلة الماضية، حين أدركت كم أني أنزلق سريعًا: نجحت أمس فقط في النظر أعمق داخل الهاوية التي أسقط فيها، وقررتُ أن أتوقف.

«إني أتكلم عن نفسي فقط لا بداعي الأنانية بل لأني حين أستلقي في قعر هذه الهاوية فإنك تظلين تحلقين فوقها عاليًا مثل ملاك ناصع، وأشك في أنك تريدين أن تلقي نظرة عليه. استمعي، دعيني أشرح الأمر بوضوح وصراحة ودون لف ولا دوران: إنك لا تحبينني ولا تستطيعين أن تحبيني. ثقي بتجربتي وصدقيني تمامًا. لأن قلبي بدأ يدق منذ مدة طويلة؛ ربما كان يدق خطأً خارج النغمة، لكن ذلك ما تعلمته في تمييز الدقة العادية عن الغريبة. لا تستطيعين لكن أنا أستطيع ويجب أن أعرف كيف أميّز الحقيقة من الخطأ، وأنا في الواجب حريّ بي أن أحذّر الإنسان الذي لم يكن لديه الوقت لتمييز تلك الحقيقة. ولذا أحذّرك: إنكِ على خطأ، فارجعي!

'طالما أن حبنا يتخذ شكل الرؤية الخفيفة الباسمة، طالما تردّد في أغنية: «أيتها الإلهة الطاهرة»، وجاء لنا في عبير أزهار الليلك، وفي العاطفة غير المعبّر عنها، وفي اللمحة الخجولة، فإني لم أثق به، واتخذه مجرد لعبة للخيال والهمس بالغرور. لكن وقت اللعب البريء ولّى؛ لقد سقطتُ مريضًا بالحب، وشعرتُ بأعراض العاطفة؛ لقد نشأتِ عميقة التفكير وجديّة؛ لقد كرّستِ فراغكِ لي، إنكِ في حالة عصبية، لقد نشأتِ قلقة، وحينئذ أعني الآن، أنا خائف وأشعر بأنّ من واجبي أن أتوقف وأخبرك ما هو.

'لقد أخبرتك بأني أحبّك، وقلتِ لي نفس الشيء ألا تسمعين كيف أن هذه الأصوات متنافرة؟ أنت لا تسمعين؟ حسنٌ، سوف تسمعينها لاحقًا حين أكون أنا في الهاوية مسبقًا. انظري لي، فكّري بتمعّن ماذا تشبه حياتي: هل من الممكن لكِ أن تحبيني؟ هل تحبينني؟ قلتِ أمس «أحبّك، أحبّك، أحبّك»، وأنا أجيب بحزم «كلا، كلا، كلا!».

«أنت لا تحبينني لكن أسرع وأضيف إنك لا تكذبين عليّ، ولا تخدعينني؛ لا تقدرين على قول كلمة نعم، حين يقول كل شيء فيك كلمة كلا. أريد فقط أن أبرهن لك بأن هديتك «أنا أحبّك» ليست حبا حقيقيا، بل مجرد تطلع إلى الحب في المستقبل؛ إنه فحسب حاجة غير واعية للحب الذي، بسبب الحاجة إلى القوت

المناسب، والحاجة إلى النار، يحترق بشعلة زائفة، دونما دفء، الذي تمارسه بعض النساء كتعبير عن ملاطفة طفل أو مع آخرين ببساطة في نوبات من البكاء أو الهستيريا. منذ البداية كان يجب أن أقول لكِ بشكل صارم: «لقد ارتكبتِ خطأً. الرجل الذي اشتقتِ له وحلمتِ به لم يعد موجودًا أمامك. مهلًا، سوف يأتي، ثم سوف تأتين بنفسك وسوف تغتاظين وتخجلين من غلطتك، وعارك وغيظك سوف يؤلمني» ذلك ما كان يجب أن أقوله لك، هل أنا أكثر إدراكًا وجرأةً و، أخيرًا وليس آخرًا، أكثر إخلاصًا... لقد قلتهُ في الواقع لكن هل تتذكرين؟ أمرٌ مخيف أنك تصدقينني، وأنه يجب أن يحدث حقًا؛ أخبرتك مسبقًا بأن كل شيء يقوله الناس فيما بعد، كأنهم يهيئونك لكي لا تستمعي لهم ولا تصدقينهم، بينما أسرع أنا للقائلِ، مفكرًا بأنه يجب أن أكون سعيدًا أيضًا قبل أن يأتي الرجل المناسب. هكذا هو منطق الافتتان والشغف.» «الآن أفكّر بشكل مختلف. ماذا سيحدث حين أصبح على علاقة عميقة بها، حين لم تعد رؤيتها مجرد ترف بل ضرورة، حين يحفر الحب عميقًا داخل قلبي (إنه ليس عبثًا أن أحس بورم هناك)؟ كيف لي حينئذ أن أنتزع نفسي؟ هل سأكون قادرًا على النجاة من الألم؟ سوف أعيش حينئذ وقتًا عصيبًا. حتى الآن لا أستطيع التفكير فيه دون أن أصاب بالرعب. لو كنتِ أكبر سنًا وتجربة، فيجب أن أبارك سعادتي وأمنحكِ يدي للأبد. لكن الآن...» «لماذا أكتب إذن؟ لماذا لا أقول لكِ مباشرةً بأن رغبتي في رؤيتك تصبح أقوى في كل يوم ومع ذلك يجب أن لا أراك. لكني خائف من أني لا أمتلك الشجاعة لأقوله بوجهك. تعلمين أنك بنفسكِ! أحيانًا أشعر كأني أقول شيئًا من نفس النوع، لكني أقول شيئًا مختلفا جدًا. ربما ستظهرين حزينة (ليت الأمر صحيح أنك لم تشعري بالضجر معي) أو أنكِ ستنزعجين وقد أسأتِ فهم قصدي الطيب: ليس بوسعي التحمل أيضًا، سأقول ثانيةً شيئًا مختلفًا، ومقاصدي الجديرة بالاحترام تتفتت إلى تراب وتنتهي في ترتيب لقاء في اليوم التالي. والآن، بعيدًا عنك، فإن الأمر مختلف تمامًا: عيناك الرقيقتان، ووجهكِ اللطيف الجميل

ليس أمامي. الورقة صامتة ولا تهتم، وأنا أكتب بهدوء (هذا غير صحيح): لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى (هذا صحيح).

«ربما أضاف رجل آخر: أكتبُ في فيض من الدموع، لكني لا أحاول أن أستعرض أمامك، ولا أعرض حزني، لأني لا أريد أن أجعل من الألم أسوأ، وأفاقم الأسف والأسى. إن مثل هذا الاستعراض بصورة عامة يخفي غرضًا يجعل من الشعور يضرب أعمق الجذور، وأريد أن أحطّم بذوره فيّ وفيكِ. إضافة إلى أن الدموع مناسبة أما للمغويين الذين يحاولون أن يستولوا على كبرياء المرأة الأحمق عن طريق العبارات، أو الحالمين فاتري الهمّة. أقول هذا، وأنفصل عنكِ كما ينفصل أحد من صديق طيب يشرع برحلة طويلة. في ثلاثة أسابيع أخرى أو في شهر آخر سيكون الوقت متأخرًا جدًا: الحب يحرز تقدمًا لا يصدّق، إنه نوع من غنغرينا الروح. أنا في حال سيئة الآن، لا أحسب الزمن بالساعات والدقائق، ولا أعلم وقت الشروق والغروب، أعلمهُ فقط عن طريق رؤيتك ووجودك ومجيئك ماضيًا ومستقبلًا... كل ذلك مناسب لعمر الشباب الذي يحمل بسهولة إحساسات الفرح والحزن؛ ما أريده هو السلام والهدوء مهما بلغ من الملل والكسل، لأني معتاد عليه؛ لأني لا أتحمل العواصف.

«العديد من الناس سيتفاجؤون من فعلتي. «لماذا يهرب؟» البعض سيقول، وسوف يضحك الآخرون عليّ. طيب، أستطيع أن أتحمل ذلك أيضًا. إذا أستطعت أن أتحمل عدم رؤيتك فإني أستطيع أن أتحمل أي شيء.» «أنا أرتاح قليلًا في ألمي المبرّح بفكرة أن هذا الفصل الوجيز لحياتنا سوف يترك للأبد ذكرى خالصة وعطرة في عقلي، وسوف يكون وحدهُ كافيًا لمنعي من الغرق في حالتي السابقة من السبات، ودون أن يؤذيك، سوف يخدمك كمبدأ يرشدك في حياتك العادية مستقبلًا. وداعًا ملاكي؛ أسرعي وحلّقي مثل طير خائف يطير من غصن حطّ عليه بالخطأ، وافعليه بخفة وفرح ومرح!» كان أبلوموف يكتب بإلهام؛ كان قلمه يحلّق فوق الصفحات. أشرقت عيناه وتورَّد خدَّاه. أصبحت الرسالة طويلة مثل رسائل الحب كلها: العشاق نفَسَهُم طويل جدًا.

فكّر أبلوموف: «غريب! لم أعد أشعر بالضجر أو الاكتئاب! أنا سعيد تقريبًا. لماذا؟ ربما لأني أثقلتُ عقلي بكتابة الرسالة».
قرأ الرسالة، طواها وختمها.
قال:
زاخار، حين يأتي الخادم أعطِهِ هذه الرسالة للسيدة الشابة.
قال زاخار:
طيب، سيدي.
شعر أبلوموف حقًا بالفرح. جلس على الأريكة وقدمَهُ ملتصقة تحته وسأل أيضًا إن كان ثمة شيء للغداء. أكل بيضتين وأشعل سيجارًا. شعر قلبه وعقله بالراحة: كانت الحياة ملائمة له. تصوّر كيف أن أولغا ستتسلّم رسالته، وكيف ستتفاجأ، وكيف ستبدو حين تقرأها! وماذا سيحدث فيما بعد؟ كان يتمتع بمشاهد اليوم وحداثة الموقع. أصغى بقلب غائص إلى طرقة على الباب، متسائلًا إن كان الخادم وصل، وإن كانت أولغا قد قرأت رسالته مسبقًا. كلا، كل شيء كان هادئًا في ردهة المدخل.
فكّر بقلق: «ماذا يعني ذلك. لا أحد ينادي. لماذا؟» همس له صوت سرّي: «لماذا أنت قلق جدًا؟ هل تريد أن تقطع كل العلاقات معها؟» لكنه كبت ذلك الصوت.
نجح بعد نصف ساعة في استدعاء زاخار، الذي كان جالسًا في الفناء مع الحوذي.
سأل:
هل جاء أي شخص؟ ألم يأتِ الخادم؟
أجاب زاخار:
لقد جاء طيب، ماذا فعلت؟
قلت له إنك لست في البيت لقد ذهبتَ إلى المدينة.
حملق أبلوموف فيه.
سأل:

لماذا قلت ذلك؟ ماذا قلت لك أن تفعل حين يأتي الرجل؟
أجاب زاخار بهدوء:
لكنها كانت خادمة يا سيّدي، وليس رجلًا.
هل أعطيتها الرسالة؟
كلا سيدي. أخبرتَني أولًا أن أقول إنك لست في البيت ثم أعطيتني الرسالة.
حين يأتي الخادم سوف أعطيها له.
آه، إنك مجرم! أين الرسالة؟ أعطني إياها!
جلب زاخار الرسالة التي كانت ملوثة جدًا حينئذ.
صاح أبلوموف بغضب:
لماذا لا تغسل يديك؟
وأشار إلى البقعة قائلًا:
انظر لها!
أجاب زاخار ونظر بعيدًا:
يديَّ نظيفتان سيدي.
صاح أبلوموف:
أنيسيا! أنيسيا!
دفعت أنيسيا الباب بيدها وكتفيها.
شكا لها:
انظري ماذا فعل زاخار! خذي هذه الرسالة وأعطيها إلى الخادمة أو الخادم الذي يأتي من آل إلينسكي، ليعطيها إلى السيدة الشابة. هل سمعتِ؟
نعم سيدي. هاتها، سأتأكد من تسليمها.
لكن ما إن تركت الغرفة حتى انتزع زاخار الرسالة من يديها.
صاح:
ابتعدي واهتمي بعملك.

وصلت الخادمة فورًا. فتح زاخار الباب لها، وحين كانت أنيسيا على وشك أن تصعد لها، حملق فيها بغضب.
سألها بخشونة:
ماذا تريدين هنا؟
جئتُ لأسمع ماذا أنت...
توعدها وهددها بمرفقه:
حسنًا، حسنًا. اخرجي!
ابتسمت وخرجت، لكنها راقبت من خلال شق في الباب لترى إن كان زاخار قد نفّذ أوامر سيّده.
اندفع أبلوموف بعد أن سمع الضجة إلى الردهة.
سأل:
ما الأمر يا كاتيا.
قالت ودارت لكي تخرج:
أرسلتني سيدتي لأسأل أين ذهبتَ لكن يبدو أنك لم تذهب إلى أي مكان. إنك في البيت سوف أهرع لأخبرها.
قال أبلوموف:
بالطبع إني في البيت. زاخار يثرثر دائمًا. هاكِ، أعطي هذه الرسالة إلى سيدتكِ.
نعم سيدي سأعطيها.
أين هي الآن؟
ذهبت في نزهة إلى القرية يا سيدي. سألتني أن أخبرك، سيدي، إن كنت قد أنهيت الكتاب، ولتأتي إلى المنتزه في الساعة الثانية.
خرجت كاتيا.
فكّر أبلوموف: «لن أذهب. لماذا تتفاقم مشاعر المرء حين ينتهي كل شيء؟» وسار باتجاه القرية.

رأى أولغا من بعيد تمشي صعودًا إلى التل. راقب كاتيا تلحق بها وتعطيها الرسالة؛ رأى أولغا تتوقف للحظة، وتنظر إلى الرسالة، وتفكر أن الأمر انتهى، ثم تومئ برأسها إلى كاتيا وتنعطف إلى شارع يؤدي إلى المنتزه.
اتخذ أبلوموف طريقًا متعرجة، مشى متجاوزًا التل، دخل في نفس الشارع من الجهة الأخرى، وقطع نصفه، ثم جلس على العشب بين الشجيرات منتظرًا.
فكّر: «إنها على وشك أن تعطيها لها. سوف أختلس النظر ولن تراني، لأرى رد فعلها، ثم ابتعد للأبد».
أصغى لصوت خطواتها بقلب غائص. كلا كل شيء كان هادئًا. دبّرت الطبيعة عملًا لن يتوقف: كل ما حوله غير مرئي، مخلوقات صغيرة جدًا مشغولة بينما كل شيء بدا يتمتع براحة مقدسة. كان كل شيء يتحرك ويزحف وينطلق في العشب. النمل يجري في اتجاهات مختلفة، ويبدو منهمكًا جدًا ومستغرقًا في عمله، تركض إحدى النملات مارة بالأخرى، وتفر وتتعجل بدا الأمر كأنه إطلالة من قمة على سوق مزدحم: نفس الزحام الصغير، نفس الاحتشاد، ونفس النشاط الصاخب. هنا كانت نحلة طنانة تئز حول زهرة وتزحف داخل كأسها؛ هنا كان المئات من الذباب يتجمع حول قطرة من الصمغ سالت من شق صغير في شجرة الليمون. وفي مكان ما من الدغل كان طير قد كرَّر طويلًا نفس النغمة، ربما كان يدعو فيها زوجه. فراشتان، تطيران وتدوران الواحدة بعد الأخرى، رقصتا بتهوّر كرقصة الفالس بين هياكل الأشجار. أطلق العشب رائحته القوية؛ وارتفعت ضجة مستمرة منه.
فكرّ: «يا له من شجار يحدث هنا، وفي الخارج كل شيء هادئ وساكن جدًا»، وراقب بانتباه كل ذلك النشاط الصاخب واستمع إلى ضجيج الطبيعة الواهن.
لكن لم يكن ثمة صوت خطوات. أخيرًا نعم. أطلق أبلوموف حسرة: «أوه!» وفرّق الأغصان بهدوء. «إنها هي... هي لكن ما هذا؟ يا إلهي، إنها تبكي!».
مشت أولغا ببطء، ومسحت دموعها بمنديل؛ لكن ما إن مسحتها حتى سالت دموع جديدة. كانت خجلة منها، حاولت أن تتجرعها، وتخفيها من الأشجار

ذاتها، لكن لم تستطع. لم يرَ أبلوموف أبدًا أولغا تبكي؛ لم يتوقع منها ذلك، وبدت دموعها تحرقه، لكن بطريقة جعلته يشعر بالدفء لا الحرارة. مشى بسرعة خلفها.

نادى برقة بينما يتبعها:

أولغا، أولغا.

جفلت ونظرت حولها وحدّقت فيه بدهشة، ثم انصرفت وواصلت سيرها.

مشى إلى جانبها.

قال:

هل تبكين؟

جرت دموعها أسرع مما مضى. لم تستطع أن تمنعها، وانخرطت في النحيب ضاغطة منديلها على وجهها، ثم جلست على أقرب مقعد.

همسَ برعب: «ماذا فعلت!» وأخذ يدها وحاول أن يجذبها بعيدًا عن وجهها.

قالت:

اتركني، من فضلك! لماذا أنت هنا؟ أعرف أنه يجب عليّ أن أبكي. من أجل ماذا أبكي؟ أنت على حق: نعم، كل شيء يمكن أن يحدث!

سأل وجثم على ركبتيه أمامها:

ماذا أفعل لأجعلك تكفّي عن البكاء؟ أخبريني، مُريني. أنا جاهز لكل شيء.

قالت وهوّت وجهها بمنديلها:

جعلتني أبكي، لكن ليس من سلطتك أن توقف دموعي. إنك لست قوي جدًا! دعني أذهب سيدي!

نظر لها ولعن نفسه بشكل سرّي.

قال نادمًا:

الرسالة اللعينة!

فتحت سلة تطريزها، وانتزعت الرسالة وأعطتها له.

قالت:

خذها واحملها معك بعيدًا لكي لا أبكي وأنا أنظر فيها.
وضعها في جيبه بصمت وجلس بجانبها، وأدلى رأسه.
قال برقة:
على أية حال، عاملي نيتي بالعدل، يا أولغا، إنها تثبت كم هي عزيزة سعادتك بالنسبة لي؟
قالت متحسّرة:
نعم أكيد، أخشى، سيد أبلوموف، أن تحسد عليّ سعادتي الآمنة وتسرع في تحطيمها.
أحطمها! إذن أنتِ لم تقرأي الرسالة؟ سوف أكررها لك...
لم أقرأها إلى النهاية لأني لا أستطيع أن أراها من خلال الدموع: ما زلتُ غبية جدًا. لكني خمنت بقيتها. أرجوك، لا تكرر قراءتها، لأنك ستجعلني أبكي ثانيةً.
وطفقت دموعها تجري مرة أخرى.
بادر بالقول:
لكن، هل إني لم أتخلّ عنكِ بسبب سعادتك القادمة؟ هل إني لم أضحِّ بنفسي؟ هل تظنّين أني أفعل ذلك بدم بارد؟ وهل لم أبكِ في سرّي؟ لماذا تعتقدين بأني أفعل ذلك؟
تابعت القول والتفتت إليه وتوقفت عن البكاء فجأة:
لماذا؟ إنه نفس سبب اختفائك بين الشجيرات لترى هل سأبكي وكيف سأبكي ذلك هو السبب! بعد أن كنتَ تعني صدقًا ما كتبته في الرسالة، وكنت مقتنعًا بأنه يجب أن نتفرق، فإنك سوف تذهب خارج البلاد دون أن تراني.
قال مؤنبًا، ووقع في الصمت:
يا لها من فكرة!
لقد اندهش من اقتراحها لأنه أدرك فجأة بأن ذلك كان صحيحًا.
أكدت قائلة:

نعم. أمس أردتني أقول: أحبّك. واليوم أردتَ أن تراني أبكي، وغدًا ربما تريد أن تراني أموت.

أولغا، كيف يمكن أن تقولي شيئًا مثل ذلك! بالتأكيد، يجب أن تعلمي بأني سأمنحكِ نصف حياتي الآن لكي أسمعك تضحكين ولا أرى دموعك.

أضافت:

نعم، ربما الآن حين رأيت امرأة سابقًا وهي تبكي أمامك، كلا. ليس لديك شفقة. أنت تقول إنك لم ترغب بدموعي. طيب، إذا قصدته حقًا، فلن تجعلني أبكي.

صاح وضغط كلتا يديه على صدره:

لكني، لم أعرف، أليس كذلك؟

أجابت:

القلب يمتلك طريقة خاصة في الإقناع. إنه يعرف ما يريد، ويعرف ما سيحدث. أمس كان يجب أن لا آتي هنا لأننا كان لدينا زوّار وصلوا فجأة، لكني عرفت كم ستنزعج وأنت تنتظرني وأنك ربما نمتَ على نحو سيء: لذا جئتُ لأني لم أرغب في معاناتك... وأنت أنت سعيد لأني أبكي. طيّب، انظر لي وكن سعيدًا!

وشرعت تبكي مرة أخرى.

لقد نمتُ نومًا مزعجًا كما قلتِ يا أولغا. شهدتُ ليلة مرعبة...

قاطعتهُ:

إذن أنت متأسفٌ لأني نمت نومًا طيبًا، وأني لم أشهد ليلة مرعبة، أليس كذلك؟ هَبْ أني لم أبك الآن، فهل ستنام بشكل سيء الليلة؟

قال برقّة تدل على الطاعة:

ما الذي أفعله الآن. هل أقول إني آسف؟

قالت وهوّت وجهها ثانيةً بمنديلها:

الأطفال فقط يفعلون ذلك، أو الناس الذين يسحقون على أصابع قدم الشخص في الزحام لن يكون لطيفًا قولك إني آسف.

لكن ماذا لو كان صحيحًا يا أولغا؟ أعني، ماذا لو أني على حق وأن حبنا خطأً؟ ماذا لو أنكِ واقعة في الغرام مع شخص آخر وتخجلين من النظر إليّ؟
سألت، ونظرت إليه بعينين عميقتين ثاقبتين ساخرتين بحيث إنه شعر بالإرباك:
طيب، ماذا يحصل لو فعلت ذلك؟
فكّر: «إنها خرجت لتحصل على شيءٍ مني! احذرْ يا أبلوموف!» كرّر قوله بشكل آلي:
ماذا تعنين، «ماذا يحصل لو فعلت ذلك؟» ونظر إليها وأحسّ بالقلق والخسارة حين عرف ما وراء عقلها وكيف أنها ستوضح سؤالها، بما أنه كان واضحًا إذ من المستحيل تبرير حبهما إن كان خطأً.
نظرت إليه بتأنٍّ وإيمان واعيين جدًا وكان من الواضح أنها عرفت عمّ كانت تتكلم.
أجابت على نحو لاذع:
إنك خائف من السقوط في «قعر الهاوية». أنت خائف من أن تصبح أحمق حين أتخلى عن حبّك. لقد كتبتَ «سيصبح الأمر سيئًا بالنسبة لي».
ما زال غير فاهم تمامًا ما تقول.
لكن ألا ترى بأني حين أقع في حب رجل آخر، سأكون سعيدة؟ وألم تقل بأنك تعرف بأني سأكون سعيدة مستقبلًا وأنك على استعداد للتضحية بكل شيء، حتى حياتك، من أجلي؟
نظر إليها بتركيز وكانت عيناه تطرفان بين حين وآخر.
همس: «إذن هذا هو منطقها! يجب أن أقول إني لم أتوقع ذلك...» نظرت إليه من الأعلى والأسفل بسخرية ماحقة جدًا.
تابعت القول:
وماذا بشأن السعادة التي تصيبك بالجنون؟ وساعات الصباح والمساء تلك، وهذا المنتزه، عبارتيْ «أنا أحبّكَ» ألا تستحق شيئًا، تضحية، ألمًا؟

فكّر: «أوه، ليتني دُفِنتُ في الأرض!» وشعر بالتعاسة حين فهم معنى كلمات أولغا أكثر فأكثر.
شرعت بإلقاء سؤال أخر بانفعال:
وماذا لو أصبحتَ مرهقًا من هذا الحب، كما أصبحت مرهقًا من الكتب ومن عملك في الخدمة المدنية والمجتمع؟ ماذا لو أنك، حتى لو لم يكن لديّ منافس، إن لم تقع في حب امرأة أخرى، تقع نائمًا جنبي كأنك على أريكة، وحتى صوتي لن يوقظك؟ لو يظهر ذلك الورم في قلبك، بدلًا من امرأة، هل يصبح مبذلك أعزّ لديك مني؟
قاطعها قلقًا وانسحب منها:
أولغا، ذلك مستحيل!
سألته:
لماذا مستحيل؟ قلتَ إني غلطانة، وأني وقعت في الغرام مع شخص آخر، وإني لا أداري الشعور أحيانًا بأنك ببساطة خارج الحب معي. وماذا بعد؟ كيف سأبرّر نفسي بسبب ما أفعلهُ الآن؟ ماذا أقول لنفسي، إضافة إلى الناس الآخرين أو المجتمع؟ أحيانًا أمضي ليالي الأرق بسبب هذا، لكني لا أعذّبك بالحدوس حول المستقبل لأني أعتقد بأن كل شيء سوف يكون الأفضل. السعادة معي تتغلب على الخوف. أعتقد أنها شيء حين تبدأ عيونك تشرق بسببي، حين تصعد التلال بحثًا عني، حين تنسى كسَلك وتندفع في الحرارة إلى المدينة من أجل بعض الزهور أو كتابٍ لي، حين أرى بأنك تبتسم وتريد أن تعيش... أنا أنتظر وأبحث عن شيء واحدٍ السعادة، وأعتقد أني عثرت عليها. إذا ما ارتكبتُ خطأً، إذا كان صدقًا أني سوف أبكي عليك، ففي هذه الحالة أشعر هنا (ووضعت يدها على قلبها) بأني لا ألومك بسببه؛ سيعني بأنه لم يكن موجودًا، وأنها ليست إرادة الرب. لكني لست خائفة من عدم إراقة الدموع في المستقبل؛ لن أبكي من أجل لا شيء: ما زلت اشتري شيئًا من أجلها...
وأضافت:

كنتُ في غاية السعادة حتى الآن.
توسّل إليها أبلوموف:
واصلي السعادة!
استمرت قائلة:
وأنت لا ترى شيئًا سوى الظلام أمامك؛ السعادة لا تعني لك شيئًا. هذا جحود.
ليس حبًا، إنها...
أكمل أبلوموف الجملة لها:
أنانية.
ولم يجرؤ على النظر إلى أولغا أو الحديث معها وطلب الغفران منها.
قالت برفق:
اذهب حيثما تشاء.
نظر إليها. كانت عيناها جافتين. كانت تنظر للأسفل بتفكير عميق وترسم في الرمل بمظلتها.
أضافت:
استلقِ مرة أخرى على ظهرك. لن ترتكب خطأ حينئذ، ولن «تقع في الهاوية».
دمدم نادمًا:
لقد سمّمتُ نفسي وسمّمتكِ بدلًا من أن نكون سعيدين بشكل بسيط وصريح.
وبّخته بطريقة ساخرة:
اشرب الكفاس... لن يسمّمك.
قال:
أولغا، هذا ظلم! بعد أن عاقبت نفسي بضمير ال...
نعم، بالكلمات تعاقب نفسك، ترمي نفسكَ في هاوية، تمنح نصف حياتك، لكن حين يغمرك الشك وتقضي الليالي في أرق فكم تصبح رقيقا مع نفسك، كم تصبح حذرًا وتواقًا وبعيد النظر!

فكّر أبلوموف: «كم الأمر سهل وبسيط!» لكن كان خجِلًا من قوله بصوت عال. لماذا لم يفهمه بنفسه، لكن هل عليه أن ينتظر امرأة عاشت بصعوبة لكي توضحه له؟ وكم كبرت سريعًا! بدت قبل فترة قصيرة طفلة جدًا!

ختمت قولها ونهضت:

ليس لدينا شيئًا آخر لنقوله. وداعًا، واحتفظ بهدوء ذهنك. تلك هي فكرتك عن السعادة. أليس كذلك؟

قال وأخذ بيدها:

أولغا، كلا، باللّهَّ عليك، كلا! لا تهجريني، الآن كل شيء أصبح واضحًا مرة أخرى.

لكن ماذا تريد مني؟ إنّك غير متأكد إن كان حبّك لي خطأً ولا تستطيع أن تبدّد شكوكك. ربما إنه خطأ لا أعلم.

سمح لها بسحب يدها. مرة أخرى ارتفعت السكين فوقه.

سأل وغزاه الشك ثانيةً:

ألا تعرفين؟ لكن ألا تشعرين؟ هل تعتقدين...

لا أعتقد بأي شيء. أخبرتك أمس بما شعرت، لكني لا أريد أن أعرف ما الذي يحدث في وقت السنة.

سألته وعيناها مفتوحتان عليه:

وهل تظنّ حقًا بأن السعادة تتلاحق بالطريقة تلك؟ أخبرني. إنّ لديك خبرة أكثر مني.

لكنه لم يعد قلقًا من التأكيد لها على الفكرة، وكان صامتًا، يهزّ غصن الأكاسيا بيد واحدة.

قال، مثل تلميذ مدرسة يكرّر درسًا:

كلا. المرء يعشق مرة واحدة فقط!

أضافت:

ها أنت ترى أني أؤمن به أيضًا، لكن إن لم يكن كذلك، فربما سأقع خارج الحب معك، ربما سأعاني من خطأي وأنت أيضًا، ربما نفترق! أن تحب مرة أو مرتين كلا... لا أريد أن أصدق الأمر!

ندّت عنه حسرة. كلمة ربما ثبّطت مزاجه ومشى وراءها ببطء مفكّرًا. لكنه شعر بخلو باله عند كل خطوة؛ الخطأ الذي اخترعهُ في الليل بدا بعيدًا جدًا. خطر في باله: «آه، إنه ليس الحب وحده، بل الحياة كلها تشبه هذا. وإذا ما تم رفض كل فرصة كونها خطأ، فمتى يكون المرء متأكدًا بأنه لا يرتكب خطأً؟ ماذا كنتُ أفكّر؟

يبدو أنني أصبحت أعمى...

قال، وبالكاد لمس خصرها بأصبعين (توقفت):

أولغا. أنتِ أكثر حكمة منّي.

هزّت رأسها.

قالت:

كلا. أنا أبسط وأشجع منك. ما الذي تخافه؟

سألت وكانت مفعمة بالكبرياء والثقة:

هل تفكّر جديًّا بأن أحدًا ربما لا يقع في الحُب؟

قال مسرورًا:

الآن أنا خائف أيضًا! معك لن أخاف من المستقبل.

قالت فجأة بسخرية والتفتت نحوه:

لقد قرأت تلك العبارة في مكان ما مؤخرًا أظن في مجلة «سو»، فقط هناك، إنه قول امرأة لرجل...

تورّد أبلوموف خجلًا.

توسّل إليها:

أولغا، دعي كل شيء كما كان في الأمس. لن أخشى الأخطاء.

لم تقل شيئًا.

سأل متوجسًا:

إذن؟

لم تقل شيئًا.

طيب، إذا لا تريدين أن تقولي شيئًا، أعطني علامة باقة الليلك...

أجابت:

الليلك انتهى! تستطيع أن ترى بنفسك كلهُ أصابه الذبول.

كرّر قائلًا ونظر إلى الليلك:

انتهى أصابه الذبول!

ثم قال فجأةً:

كله انتهى مع الرسالة أيضًا.

حرّكت رأسها. مشى وراءها، وفكّر بالرسالة، وسعادة الأمس، والليلك الذابل.

فكّر: «بالتأكيد ذبلَ الليلك. لماذا أرسلتُ تلك الرسالة؟ لماذا نمتُ طوال الليل ولماذا كتبتها في الصباح؟ الآن ذهني مرتاح ثانيةً (تثاءب) أشعر بالنعاس الشديد. إن لم أكتب الرسالة لما حدث شيء من هذا القبيل: لم تكن لتبكي، وكل شيء كان كما الأمس، ولكُنّا جالسيَن بهدوء في هذا الشارع، ينظر أحدنا إلى الآخر ونتكلم عن السعادة. وسوف يكون الأمر نفسه اليوم، وغدًا.» تثاءب كثيرًا.

ثم بدأ فجأة يتساءل ماذا سيحدث لو أنّ رسالته حققت هدفها، لو أنها اتفقت معه، لو كانت خائفة من الأخطاء وزوابع المستقبل البعيدة، لو أصغت إلى ما سماه التجربة والفطرة السليمة واتفقا على الفراق والنسيان. لا سمح اللهّ! أن تقول وداعًا، أن تعود إلى المدينة، وإلى شقة جديدة! أو تلاحقك ليلة طويلة، وغدٌ رتيب، ونهارٌ لا يحتمل بعد غد، وسلسلة طويلة من الأيام كل منها أشد شحوبًا من الآخر... لن يسمح لذلك بالحدوث! كان ذلك هو الموت! ومن المؤكد جدًا أنه قد حدث! سوف يقع مريضًا. لن يرغب أبدًا بالفراق عنها، لا يستطيع أن يتحمله، سوف يأتي ويتوسل إليها أن تراه.

سأل نفسه: «لماذا إذن كتبت لها تلك الرسالة؟» قال:

أولغا سرغييفنا.
ماذا تريد؟
أريد أعترف اعترافًا آخر...
ماذا؟
آه، لم تكن ثمة حاجة لتلك الرسالة مطلقًا.
حسمت الأمر قائلة:
أوه نعم، لم تكن هناك حاجة لها.
نظرت حولها وضحكت حين رأت ملامح وجهه، وكم اختفى نعاسه فجأة، وكيف فتح عينيه باتساع من الدهشة.
كرّر وركّز نظره ببطء على ظهرها مندهشًا:
ألم تكن هناك حاجة؟
لكنه لم يستطع أن يرى سوى الخيوط المفتولة لمعطفها الفضفاض. إذن ما معنى دموعها وتوبيخها؟ هل كان مكرًا؟ لكن أولغا ليست ماكرة رأى ذلك بشكل واضح. كان الأمر يتعلق بنساء ذات عقلية وضيعة نسبيًا كُنّ يمارسنَ الخداع أو بقين عليه. لا يمتلكن أي ذكاء حقيقي، يحركنَ ينابيع حياتهنّ التافهة اليومية بوسائل المكر، وينسجنَ، مثل شريط الزينة، سياساتهنّ المنزلية دون الشك بوجود تيارات الحياة الرئيسة، ونقاط تقاطعاتهنّ واتجاهاتهنّ. المُكر كان مثل قطعة النقود الصغيرة التي لا يمكن للمرء أن يشتري بها كمية كبيرة. ومثلما يمكن لقطعة نقد صغيرة أن تجعل المرء يذهب لمدة ساعة أو ساعتين، لذا فإن المكر ربما يساعد على إخفاء أو تشويه شيء أو خداع شخصٍ ما، لكن ليس من الكفاية تمكين أحد لكي ينظر إلى أفق بعيد أو يغطّي حدثًا كبيرًا من البداية إلى النهاية. كان المكر قصير النظر: إنه يرى فقط ما يحدث دون أنفه، لكن ليس من بعيد، وذلك هو السبب في أنه كان يقع في الشرك الذي نصبهُ للآخرين. كانت أولغا ذكية حقًا:
كيف حلّت المشكلة بشكل سهل وواضح اليوم، وفي الواقع كل مشكلة! فهمت المعنى الحقيقي للأحداث فورًا وبلغته بأسهل طريق. بينما كان المكر مثل الفأرة

تركض وتجري حول كل شيء وتختفي... إضافة إلى أنّ شخصية أولغا كانت مختلفة. لذا فما معناها؟ وما الداعي لها؟

سأل:

لماذا كانت الرسالة ضرورية؟

كررّت:

لماذا؟

ودارت حوله بسرعة بوجه مرح، مسرورة بأنها استطاعت أن تربكه في كل خطوة.

شرعت بالقول ببطء:

لأنك لم تنم طوال الليل وكتبتها كلها لي. أنا أيضًا أنانية جدًا! هذا في المقام الأول...

قاطعها أبلوموف:

إذن لماذا وجهتِ لي اللوم الآن، إذا تتفقين معي الآن؟

لأنك اخترعتَ تلك العذابات. أنا لم أخترعها، لقد جاءت ببساطة وأنا سعيدة أنها اختفت، لكنك جهّزتها وتمتعت بالأمر كله مقدمًا. إنك شرير! ذلك هو السبب في أني وجهت لك اللوم. ثم رسالتك تظهر الشعور والفكرة الليلة الماضية وهذا الصباح عشت لا بطريقتك المألوفة بل بطريقة صديقك ورغبة منك أن تعيش وذلك في المقام الثاني؛ ثالثًا...

مشت قريبة جدًا منه بحيث إن دمهُ اندفع إلى قلبه ورأسه؛ بدأ يتنفس بصعوبة، من الإثارة. نظرت مباشرة في عينيه.

ثالثًا، لأنه في هذه الرسالة انعكست كما في المرآة رقتك وقلقك واهتمامك بي، وخوفك من سعادتي، ووعيك الخالص كل شيء فيك نبهني إليه السيد شتولتس، وذلك ما جعلني أحبك وأنسى كسلك وفتور شعورك. كشفت عن نفسك في رسالتك دون الرغبة في فعل هذا. إنك لست أنانيًا، لم تكتبها لأنك أردت أن تهجرني لم ترغب بذلك، لكن لأنك كنتَ خائفًا من أن تخدعني. إنها

صراحتك التي تكلمت بها، وإلاّ فإنّ رسالتك كانت ستغضبني ووجب الأمر أن لا أبكي من الغرور! أنت ترى، أعرف ما سبب حبّي لك، وغير خائفة من الخطأ: أنا لا أرمي الخطأ عليك!

بدت مشرقة ورائعة حين قالت هذا. ومضت عيناها بانتصار الحب، مع الوعي بقوتها؛ توّرد خداها. وهو هو كان السبب فيه! كان دافع قلبه النزيه الذي أضرم هذه النار في روحه، فألهمت الشعور بالتفجّر والتألق.

قال بشكل منتشٍ ووضع ذراعيه جنبه وانحنى عليها:

أولغا، إنكِ أفضلٍ من أي امرأة في الكون، إنك من أفضل النساء!

همسَ كأنه في هذيان الحمى:

باللهّ عليك، قبلة واحدة كعربون للسعادة التي تفوق الوصف.

انسحبت خطوة فورًا؛ إشراقة النصر ولونها غادرت وجهها وتوهّجت عيناها الرقيقتان بشكل صارم.

قالت محذرة، وبرعب:

أبدًا! أبدًا! لا تقترب مني.

ومدّت ذراعيها ومظلتها لكي تبعدهُ ووقفت ساكنة، كأنها نبتت في المكان، دون تنفس، بوضع صارم، وهي تنظر إليه بشكل متجهم، ورأسها يرتد جزئيًا.

صحا فجأةً: لم تكن أولغا الرقيقة التي وقفت أمامه، بل إلهة الغرور والغضب المذنبة ذات الشفتين المضمومتين والعينين البراقتين.

دمدم باضطراب وشعر بأنه مسحوق بشدة:

أنا آسف.

دارت ببطء ومشت، ناظرة بخوف فوق كتفيها لترى ماذا كان يفعل. لكنه لم يفعل شيئًا: كان يمشي ببطء مثل كلب مطرود يسير وذيله بين ساقيه. أسرعت خطاها، لكن بعد أن رأت وجهه، كبتت ابتسامة، ومشت بهدوء، على الرغم من أنها ما زالت ترتعد من وقت لآخر. كان اللون يأتي ويختفي من خديها. حين مشت صفا وجهها وأصبح تنفسها أكثر انتظامًا وهدوءًا، ومرة أخرى تقدمت في

طريقها بخطوات محسوبة. رأت كيف كانت مقدّسة كلمة «أبدًا» التي قالتها إلى أبلوموف، ونوبة غضبها بدأت تتلاشى تدريجيًا وحلّت محلها الشفقة. سارت بشكل أبطأ وأبطأ. أرادت أن تخفف من ثورتها وحاولت أن تجد عذرًا للكلام.
فكّر ونظر إلى الأزهار على الشجرة: «لقد صَنعتُ فوضى في كل شيء! كان ذلك خطأي. أبدًا! يا إلهي! الليلك ذبل. أمس ذبل أيضا، والرسالة قد ذبلت، وهذه اللحظة، الأفضل في حياتي، حين أخبرتني امرأة لأول مرة، مثل صوت من السماء، ما الأمر الطيّب لديّ، كله ذبل أيضًا!» نظر إلى أولغا نهضت، منتظرة له، وعيناها منخفضتان.
قالت برقة:
أرجوك أعطني الرسالة.
قال بحزن:
لقد ذبلت.
وأعطاها الرسالة.
انسحبت قريبًا منهُ مرة أخرى وأحنت رأسها للأسفل؛ كانت عيناها مغلقتين. كانت ترتجف تقريبًا. أعطاها الرسالة؛ لم ترفع رأسها أو تتحرك بعيدًا.
أضافت برقة:
لقد أفزعتني.
همس:
أنا آسف.
لم تقل كلمة.
قال حزينًا وتحسّر:
كلمة «أبدًا» الصارمة هذه...
قالت بهمس يكاد لا يسمع، وتورّدت:
سوف تذبل!

ألقت نظرة خجولة ورقيقة عليه، وأخذت كلتا يديه، وضغطتهما بدفء بيديها، ثم وضعتهما على قلبها.
قالت:
هل تسمع كم نبضاته سريعة؟ أفزعتني! دعني أذهب!
ودون أن تنظر إليه دارت وركضت على طول الممر، وهي ترفع طرف تنورتها بخفّة.
صاح:
أين أنتِ ذاهبة؟ أنا تعبان، لا أستطيع أن ألحق بكِ.
كرّرت وتوهّج خداها:
اتركني أنا ذاهبة لأغنّي، أغنّي، أغنّي! ثمة توتّر في صدري يؤلمني تقريبًا!
بقي واقفًا وحدّق فيها مدة طويلة، كأنها كانت ملاكًا يطير بعيدًا.
فكّر بشكل حزين تقريبًا: «هل اللحظة تذبل أيضًا؟» ولم يعرف إن كان ماشيًا أو واقفًا.
فكّر مرة أخرى: «أزهار الليلك ذبلت. أمس ذبلت، والليل بأطيافه ورعبه الخانق انتهى أيضًا... نعم، وهذه اللحظة سوف تذبل مثل الليلك. لكن بينما الليلة الماضية انسحبت إلى نهايتها، فإنّ هذا الصباح بدأ يبزغ».
قال بصوت عال منبهرًا:
ماذا بعد؟ والحب أيضًا الحب؟، لقد فكّرتُ بذلك، إنه سوف يبقى مُعلّقًا، مثل شمس الظهيرة الساخنة، فوق العشاق ولا شيء سوف يتحرّك أو يتنفس في جوّه؛ لكن لا توجد راحة في الحب، أيضًا، إنه يتحرك مثل الحياة بأكملها، كما يقول شتولتس. وجوشوا[58] لم يولد بعد إذ يمكن أن يقول عنهُ: «قف ساكنًا ولا تتحرك!». سأل نفسه بقلق: «ماذا سيحدث غدًا؟» وحزن وسار إلى البيت ببطء.

58يوشع أو أليشع نبي ورد في الكتب السماوية م.

وبعد أن مرّ بنافذة أولغا سمع ألحان موسيقى شوبرت التي وجد صدرها الراحةَ فيها وبدت تنتحب من السعادة.
أوه، كم مدهشة هي الحياة!

❋ ❋ ❋

عثر أبلوموف في البيت على رسالة أخرى من شتولتس، بدأت وانتهت بالكلمات: «الآن وإلاّ فلَنْ!». إنها مليئة بالتوبيخ بسبب كسله وفيها دعوة للمجيء إلى سويسرا، التي ذهب إليها شتولتس بنفسه، ثم إلى إيطاليا. وإذا لم يكن أبلوموف مستعدًا لها، اقترح شتولتس أنه يجب أن يذهب إلى الريف ليهتم بشؤونه، ويحث الفلاحين على العمل، ويكشف عن الكمية المضبوطة للواردات، ويعطي الأوامر الضرورية لبناء بيت جديد. ختم قوله: «تذكّرْ اتفاقنا: الآن وإلاّ فلَنْ». كرّر أبلوموف: «الآن، الآن، الآن!»وأضاف: «أندريه لا يعلم ماذا حدث من أمر مدهش في حياتي. ماذا يريد مني أكثر من ذلك؟ هل يمكن أن أكون مشغولًا مثلما أنا الآن؟ دعه يحاول! أنت تقرأ عن الفرنسيين والإنكليز وهم دائمًا مشغولون بالعمل، تمامًا كأنّ لا شيء في ذهنهم سوى العمل. إنهم يرحلون إلى كل أنحاء أوروبا، وحتى إلى آسيا وأفريقيا، ليس بداعي العمل أيضا: بعضهم يرسم أو يصبغ، بعضهم يحفر الآثار القديمة، بعضهم يصطاد الأسود أو يمسك الثعابين. إن لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يجلسون في البيت بكسل ويتناولون الغداء والعشاء مع الأصدقاء والسيدات ذلك ما يبلغهُ كل عملهم! لماذا يريدني أن أعمل بجدّ؟ كل ما يفكّر به أندريه هو العمل والعمل، مثل الحصان! لأي شيء؟ لديّ كمية وافرة من الأكل وأنا ألبس بشكل لائق. مع ذلك سألتني أولغا ثانيةً إن كنت أعني الذهاب إلى أبلوموفكا...».

رمى بنفسه في العمل. كتب، ووضع خططًا، حتى إنه دفع لزيارة مهندس معماري. سرعان ما وُضع مخطط البيت والحديقة على المنضدة الصغيرة. كان بيتًا كبيرًا كثير الغرف بشرفتين. فكّر مبتسمًا: «ها هي غرفتي، ها هي غرفة أولغا، هناك غرفة النوم، وغرفة الطفل... لكن يا إلهي، الفلاحون، الفلاحون...». واختفت الابتسامة وعبَسَ. «جاري يكتب لي رسالة ويدخل في كل أنواع التفاصيل، ويتحدث عن الأرض التي يجب أن توضع تحت الحرث، وإنتاجية الحبة في كل أكَر... يا للضجر! ويقترح تقاسم كلفة إنشاء طريق يصل إلى قرية

تجارية كبيرة، وجسر على نهر، ويطلب ثلاثة آلاف روبل ويريد مني كي أرهن أبلوموفكا... كيف لي أن أعلم إنه أمر ضروري حقًّا؟ وهل سيجلب الخير؟ هل يحاول أن يخدعني؟ أعتقد أنه إنسان نزيه شتولتس يعرفه لكنه ربما أخطأ، وسوف أخسر نقودي! ثلاثة آلاف؛ إنه مبلغ كبير من المال! أين سأحصل عليه؟ لا، إنها مخاطرة! يكتب أيضًا بأن بعض الفلاحين يجب أن يستقروا في أرض خراب ويطلب جوابًا فورًا كل شيء، كما يبدو، يجب إنجازه حالًا.» «أرسل كل الوثائق لي من أجل رهن العزبة. أرسلُ له سند الرهن العقاري وأذهب إلى المحاكم لكي أكون شاهدًا ماذا بعد! ولا أمتلك فكرة أين المحاكم وأيُّ باب سأحاول دخوله حين أكون هناك».

لم يُجِبْ أبلوموف على رسالة جيرانه لمدة أسبوعين، وفي الوقت نفسه حتى أولغا سألتهُ إن كان موجودًا في المحاكم. قبل بضعة أيام أرسل شتولتس رسالة له وأخرى إلى أولغا، يسأل فيها ماذا كان يعمل. لا شكّ أن أولغا احتفظت بمراقبة سطحية على أفعال صديقها، وضمن محيطها. يمكن أن تقول إن كان يبدو سعيدًا، ويذهب إلى أي مكان بسرعة، ويصل إلى الغابات في الساعة المحددة، ويهتم بأحدث الأخبار أو بالحديث العام. ظلت قلقة، خصوصًا حين راقبته وخشيت أن يفقد رؤية الهدف الأساسي في الحياة. لو سألتهُ عن المحاكم، لتوجّب عليها أن تجيب عن أسئلة شتولتس حول شؤون صديقه.

كان الصيف على أشدّه في نهاية شهر تموز؛ كان الجو رائعًا. بالكاد افترق أبلوموف عن أولغا في أي وقت مضى. في الأيام اللطيفة كان معها في المنتزه، وفي الظهيرة الساخنة صحبها إلى الغابات، إذ جلس عند قدمها بين أشجار الصنوبر، وهو يقرأ بصوت عال؛ بدأت بنسج قطعة أخرى من التطريز له هذه المرة؛ كان صيفًا ساخنًا في قلوبهما: الغيوم أحيانًا كانت تندفع عبر سمائهما وتمر مبتعدة. لو كان لديه أحلام مزعجة وطرق الشك قلبه، لبقت أولغا تراقبه مثل الملاك الحارس؛ نظرت بعينيها الساطعتين إلى وجهه، واكتشفت ما الذي يزعجه وكل شيء كان على ما يرام ثانيةً، إذ شعرت أنّ الأمور تجري بسلام مثل نهر يعكس الأشكال الجديدة

دائمًا للسماء. رؤى أولغا عن الحياة والحب وكل شيء أصبحت مع ذلك أوضح وأكثر تحديدًا. نظر إليها بثقة ولم يكن قلقًا حول المستقبل؛ لقد تطور عقلها ونمت شخصيتها في العمق والتنوع الشاعري، وأظهرت ميولًا جديدة؛ كانت متجانسة وثابتة وطبيعية. امتلكت نوعا من الإصرار الذي لم يَهزم كل العواصف التي تتربص في انتظارها فحسب، بل أيضًا كسل أبلوموف وفتوره. لو قررت أن شيئًا ما يجب أن ينجز، فيجب أن ينجز دون تأخير. إنك لا تسمع بشيء آخر؛ وإن لم تسمع به فيمكن أن ترى بأن لديها ذلك الشيء في ذهنها فحسب، وأنها لن تنسى أو تستسلم أو تفقد صوابها، بل تأخذ كل شيء في الاعتبار وتحصل على ما لم تحصل عليه. لم يستطع أبلوموف أن يفهم من أين حصلت على قوَّتها، ولا كيف عرفت ما تفعل، وكيف لها أن تفعله مهما كانت الظروف. فكّر:

«السبب أنّ أحد حواجبها غير مستقيم تمامًا، بل مرفوع قليلًا وهناك خط نحيف جدًا غير محسوس فوقه. إنه هناك في تلك الثنية يختفي عنادها».

مهما كان تعبيرها هادئًا وقنوعًا، فإنّ هذه الثنية لم تكن أبدًا مصقولة وحاجباها لم يكونا مستويين. لم تكن مزهوة في وسائلها ونزعاتها ولم تمارس قوتها بشكل فظّ. عنادها وعزمها لم يجعلا منها أقل جذبًا كامرأة. لم ترغب في أن تكون لبوة، وأن تُربك معجبًا غبيًا بملاحظة لاذعة، أو تفاجئ غرفة الاستقبال بأكملها بذكاء ظرفها، لكي يحييها أحدٌ في الزاوية: «مرحى! مرحى!». امتلكت أيضًا نوعًا من التوجّس فريدًا من نوعه بالنسبة للعديد من النساء:

صحيح أنها لم ترتجف عند مشاهدتها لفأرة أو تجفل عند سقوط كرسي، لكنها خائفة من المشي بعيدًا عن البيت، وتحيد عنهُ لو رأت فلاحًا ذا نظرة مريبة. أغلقت نافذتها في الليل لتتأكد من أنّ اللصوص لن يتسلقوا منها مثل كل امرأة. إضافة إلى أنها كانت تفهم بسهولة مشاعر الرحمة والشفقة. ليس من الصعب جعلها تبكي؛ كان الطريق إلى قلبها سالكًا. في الحب هي جدُّ رقيقة، أظهرت في علاقاتها مع الآخرين الكثير من الطيبة والاهتمام والحنان باختصار كانت امرأة. أحيانًا كانت هناك مسحة من السخرية في كلامها، لكنها تحمل الذكاء والظرف،

وكشفت عن عقل راجح وساحر، إذ يسعد المرء أن يكون من ضحاياها. من جهة أخرى لم تكن خائفة من تيارات الهواء وارتدت ملابس خفيفة عند الغسق دون أن تصاب بالمرض. كانت تطفح بالصحة، ولديها شهية ممتازة، وعرفت كيف تحضّر أطباقها المفضلة بنفسها. لا شك أن العديد من النساء مثلها أيضًا؛ لكن لا يعرفنَ ماذا يعملنَ في الطوارئ، وإن فعَلْنَ، فقد تعلَّمن ذلك أو سمعن به، وإن لم يفعلن فإنهنّ يشِرنَ حالًا إلى تأثير القريب أو العمة... العديد منهنّ حتى لا يعرفن ماذا يرغبن، وإذا ما قرَّرن أمرًا فإنّهنّ يفعلنهُ بكسل إذ من الصعب القول إن كنّ فعلًا يرِدن أن يفعلنه أم لا. من المحتمل لأنّ حواجبهنّ مقوَّسة بانتظام، وقد تمّ تشذيبهنّ بالأصابع ولأنّه لا يوجد هناك ثنية على جبينهنّ.

لقد رسخ نوع من العلاقة السريّة غير المرئية للآخرين ما بين أولغا وأوبلوموف: كل نظرة، كل كلمة مهمة يتم لفظها في حضور الآخرين، لها معنى بالنسبة لهما.

وجدا في كل شيء إشارة إلى الحبّ. تتورّد أولغا أحيانًا خجلًا، على الرغم من ثقتها بنفسها، لو أنّ شخصًا أخبرها عند المائدة قصة حب شبيهة بقصتها؛ ولأن جميع قصص الحب متشابهة جدًا، فإنها غالبًا ما تتورد خجلًا. كذلك حين يجري ذِكر الحب أمام أبلوموف فإنهُ سوف يقبض، بسبب اضطرابه، على حفنة من البسكويت ويكون مبعث ضحك الآخرين. لقد ازدادا حذرًا وحساسية. أحيانًا لم تخبر أولغا عمتها بأنها شاهدت أبلوموف، وسوف يقول في البيت بأنه كان ذاهب إلى المدينة ويمشي إلى المنتزه بدلًا من ذلك. لكن مهما كانت ذات بصيرة صافية وعملية فإن أولغا بدأت تُظهر بعضا من الأعراض المرضية الغريبة، على الرغم من صحتها الجيدة. كانت أحيانًا يغلبها القلق الذي يزعجها ولم تستطع أن توضحهُ.

أحيانًا حين تمشي وذراعها بذراع أبلوموف في الظهيرة الساخنة، فإنها تميل بكسل على كتفه وتمشي بشكل آلي، بنوع من الإنهاك، ويكون هو صامتًا بشكل عنيد. خذلها سروره؛ بدت مرهقة وكسولة وغالبًا ما تركز عينيها على نقطة ما ولم يكن لديها الطاقة لتحوّلها إلى هدف آخر. شعرت بالبؤس، بعض الثقل ضغط على صدرها وأصابها بالقلق. خلعت معطفها الفضفاض ونزعت وشاح رقبتها لكن

ذلك لم يسعفها ما زالت تشعر بشيء يثقل عليها ويخمدها. كانت تود الاستلقاء تحت شجرة وتبقى هناك لساعات. كان أبلوموف في حيرة مما يفعل؛ هوّى لها بغصن، لكنها أوقفته بإيماءة تدل على فقدان الصبر، واستمرت بالشعور بالبؤس. ثم ندّت عنها آهة فجأة. نظرت حولها باهتمام، وأبصرتهُ. ضغطت يدها، وابتسمت وعاد إليها سرورها، ضحكت وأصبحت رزينة مرة أخرى.

كانت تتعرض لهجوم هذا القلق في المساء بالأخص، وهو نوع من السير في النوم من أثر الحب، وأظهرت نفسها لأبلوموف في ضوء جديد. كان الجوُّ حارًّا ومتقدًا؛ أتت من الغابة قعقعة موحشة لريحٍ دافئة؛ كانت السماء غائمة، وتكاثف الظلام أكثر فأكثر.

قال البارون وعاد إلى البيت:

ستمطر.

استقلت عمّة أولغا في غرفتها. ظلت أولغا تعزف على البيانو مكتئبة، لكنها توقفت أخيرًا.

قالت لأبلوموف:

لا أستطيع الاستمرار. أصابعي ترتجف. أشعر بالاختناق. دعنا نذهب إلى الحديقة.

سارا على طول الممرات يدًا بيد. كانت يداها رطبتين ورقيقتين. دخلا المنتزه. امتزجت الأشجار والأدغال في كتلة معتمة؛ لا يمكن للمرء أن يخطو خطوتين للأمام؛ عدا الممرات الرملية اللولبية فقد ظهرت بيضاء؛ حدّقت أولغا بشدة في الظلام وانسحبت مقتربة من أبلوموف.

ظلا يجولان بلا هدف صامتين.

قالت أولغا فجأةً:

أنا خائفة!

وجفلت وهما يشقان طريقهما عبر شارع ضيّق بين جدران سوداء لا يمكن اختراقها من الأشجار.

سأل:

مِمّ؟ لا تخافي، يا عزيزتي؛ أنا معكِ.

قالت هامسة:

أنا خائفة منك أيضًا! أوه، لكن يا له من خوف يبعث على السرور! إنه يجعل قلبي يخفق. هات يدك، وتحسّس كيف ينبض!

ارتجفت ونظرت حولها. همست وجفلت:

ألا ترى؟ ألا ترى؟

وتشبثت يداها بكتفيه.

ألا ترى شخصًا يمر بسرعة في الظلام؟

أصرّت على أن تكون قريبة منه.

قال:

ليس هناك أحد.

لكن رجفة باردة جرت أسفل عموده الفقري.

همست:

عزيزي، أغلقْ عينيّ بسرعة بشيء ما بإحكام من فضلك. الآن أنا على ما يرام... إنها أعصابي.

وأضافت مهتاجة:

انظر، ها هو ثانيةً! مَنْ يكُون؟ دعنا نجلس...

تحسّس طريقهُ إلى مقعد ودعاها للجلوس عليه.

توسّل إليها:

دعينا نرجع يا أولغا. إنك لست على ما يرام.

وضعت رأسهُ على كتفها.

قالت:

كلا. الهواء منعش هنا. أشعر بالتوتّر هنا قريبًا من القلب.

تنفست بحرارة أمام خديها. مسّ رأسها كان حارًا جدًا. تنفست بشكل غير منتظم وغالبًا ما أطلقت حسرة.

كرّر أبلوموف بقلق:

ألا تعتقدين بأنه من الأفضل أن ندخل إلى البيت. يجب أن تستلقي؟

قالت بوهن وبصوت غير مسموع تقريبًا:

لا، لا؛ أرجوك اتركني وحدي؛ لا تزعجني. شيء ما كالنار هنا هنا...» وأشارت إلى صدرها.

حثها أبلوموف على الإسراع:

دعينا نعود أرجوك.

كلا، انتظر. سوف يمر...» عصرت يده، وبين فترة وأخرى كانت تنظر عن كثب داخل عينيه وتبقى صامتة طوال الوقت. بدأت الآن تبكي، بهدوء في البداية، ما لبثت أن انخرطت في النحيب.

لم يعرف ماذا يفعل.

قال لها محذّرًا:

باللهَّ عليكِ يا أولغا، فلنسارع وندخل.

قالت هامسة:

لا شيء. لا تزعجني. دعني أبكي فالدموع تخفف من همّي إنها أعصابي...

أصغى في الظلام إلى تنفسها الثقيل، وشعر بدموعها الدافئة على يده، والضغط المتشنّج لأصابعها. لم يتحرك أو يسترح. رأسها استند على كتفه وتنفسها أحرق خدّه. كان يرتجف أيضًا، لكنه لم يجرؤ على لمس خدّها بشفتيه. بعد وقت قصير أصبحت أكثر هدوءًا وأضحى تنفسها أكثر انتظامًا. لم تتلفظ بأي كلمة. تساءل إن كانت نائمة وخاف أن يحرّكها.

ناداها بهمس:

أولغا!

أجابت أيضًا بهمس وندّت عنها حسرة عالية:

ماذا؟

قالت بفتور:

الآن. مرَّ. أنا على ما يرام. أستطيع أن أتنفس بحريّة.

قال:

دعنا نذهب.

كررت على مضض:

دعنا.

همست بوهن:

حبيبي!

وعصرت يدها واستندت على كتفيه، رجعت إلى البيت بخطوات مضطربة.

نظر إليها في غرفة الاستقبال. بدت ضعيفة وكانت تبتسم ابتسامة غريبة لا واعية كأنها كانت في حالة نشوة. جعلها تجلس على الأريكة، وجثم أمامها ومسّ بعمق يدها وقبّلها عدّة مرّات. نظرت إليه بالابتسامة نفسها، ولم تحاول أن تبعد يديها، وبينما استدار لكي يغادر، لاحقتهُ إلى الباب بعينيها.

استدار عند المدخل: ما تزال تحدّق فيه، وكانت هناك نظرة الإنهاك نفسها في وجهها ونفس الابتسامة المتوهجة كأنها لم تكن قادرة على السيطرة عليها... ذهبت بعيدًا ذاهلة. لقد رأى تلك الابتسامة في مكان ما: تذكر صورة لامرأة بمثل هذه الابتسامة ولم تكن لكورديليا[59] وحدها...

أرسل في اليوم التالي رسالة ليتحقق من أولغا. فأجابت بأنها كانت في أفضل حال، وترجوه أن يأتي لتناول الغداء، وفي المساء كانوا ذاهبين كلهم لمسافة ثلاثة أميال لكي يشاهدوا الألعاب النارية. لم يستطع أن يصدّق الأمر وذهب ليرى بنفسه. كانت أولغا طرية مثل وردة الربيع: كانت عيناها مشرقتين وفرحتين، وخدَّاها ورديين، وصوتها قويًا ورخيمًا. لكنها كانت مضطربة فجأة، وتصرخ

59شخصية البنت الصغرى المفضلة لدى الملك لير في مسرحية شكسبير المعروفة.

تقريبًا، حين ظهر أبلوموف لها واحمرّت خجلًا حين سأل كيف كان حالها الليلة الماضية.
أسرعت بالقول:
إنه مجّرد اضطراب عصبي خفيف. تقول عمتي يجب أن أذهب إلى الفراش مبكرًا. حدث لي هذا مؤخرًا و...
لم تتمْ كلامها وانصرفت كأنها تسألهُ أن يستغني عنها. لكنها لم تعرف نفسها لماذا كانت مضطربة. لماذا كانت ذكرى ذلك المساء ونوبة أعصابها تقلقها كثيرًا؟
شعرت بالخجل من شيء وانزعجت من أحدٍ ما. هل كانت مع نفسها أم مع أبلوموف؟ وفي أحيان كثيرة لم تستطع أن تداري الشعور بأن أبلوموف قد أصبح أقرب وأعز بالنسبة لها. وأنها شعرت بالانجذاب إليه إلى حد الدموع، كأنها دخلت في نوع من العلاقة السريّة معه منذ الليلة الماضية. لم تستطع أن تنام لمدة طويلة، ومشت وحيدة في الصباح وهي في حالة هياج على طول الشارع، من البيت إلى المنتزه ومن المنتزه إلى البيت، تفكّر بجهد، مستغرقة في التخمينات، عابسة، متوردة خجلًا، مبتسمة أحيانًا، وغير قادرة على اتخاذ القرار. فكّرت منزعجة: «أوه سونيا. كم أنتِ محظوظة! لقد اتخذتِ القرار فورًا».
وأبلوموف؟ لماذا كان أبكم وساكنًا معها في الليلة الماضية، على الرغم من أنّ نَفَسها كان يُحرق خديه، ودموعها الدافئة سقطت على يده، وقد حملها تقريبا بذارعيه إلى البيت وتغاضى عن سماع الهمس الطائش لقلبها؟ هل سيتصرف رجلٌ آخر بمثل ذلك؟ الرجال الآخرون ظهروا أشد صفاقة...
على الرغم من أنّ أبلوموف قد قضى شبابه بين الناس الشبّان الذين عرفوا كل شيء، وحلّوا منذ أمد طويل كل مشاكل الحياة، ولم يصدقوا بأي شيء، وحللوا كل شيء بطريقة منفصلة وحكيمة، إلا أنه مازال يؤمن بالصداقة والحب والشرف، ومهما كان خاطئًا، أو ربما ما زال، تجاه الناس، ومهما نزف قلبه كثيرًا بسببه، إلا أن مفهومه الأساسي عن الاستقامة وإيمانه بها لم يهتز أبدًا. كان يوقّر بصورة سرّية عفّة المرأة، واعترف بحقوقها وقوّتها، وكان راغبا في تقديم

التضحيات من أجلها. لكن لم يمتلك القوة الكافية للشخصية علانيةً لكي يعترف بعقيدة الصلاح واحترام البراءة. شرب من عبيرها سريًّا، لكنه التحق بشكل علني بكورس الساخرين الذين تخوَّفوا من الشك بالعفة واحترموه، مضيفين كلماته الرَّعناء إلى كورسهم الصاخب. لم يفهم بصورة واضحة الثقل المرفق بالكلمة الطيبة والحقيقية والخالصة المرمية داخل فيض الأحاديث الإنسانية، وكم كان يغيّر من مجراه بصورة عميقة؛ لم يدرك بأنه حين يقول بصراحة وبصوت عال، بشجاعة وبدون تورّد من خجل كاذب، فإنّ قوله لم يغرق في الصيحات البشعة للشبق الدنيوي، لكنهُ غطس مثل اللؤلؤة في خليج الحياة العامة، وعثر دائمًا على صدَفة لنفسه. العديد من الناس يتوقفون لفترة وجيزة من أجل أن يتلفظوا بكلمة طيبة، وهم يحمرّون من الخجل، بينما يلفظون الكلمة الطائشة بصراحة وبصوت عال، دون أن يشكّوا بأنها لن تضيع لحسن الحظ، أيضًا، لكنهم سيضيعون سبيل الشر المتأصّل أحيانًا وراءها. غير أنّ أبلوموف لن يضع كلماته الطائشة موضع التطبيق: لم تكن هناك بقعة واحدة في وعيه، ولا يمكن أن يكون ملوما بسبب السخرية الباردة والقاسية التي لا تعرف الشغف ولا الصراع. لم يتحمل سماع القصص اليومية التي تطرح السؤال: كيف يتسنى لإنسان أن يغيّر خيوله وأثاثه وامرأته، وكم من الأموال سيكلّف هذا التغيير؟ غالبًا ما عانى من أجل رجل فقد كرامته الإنسانية، وحزن لأجل امرأة، غريبة عنه تمامًا، شُوّهِت سمعتها، لكنه لم يقل شيئًا، خائفًا من الرأي العام. على المرء أن يخمّن كل ذلك: لقد خمَّنتهُ أولغا.
يضحك الرجال على مثل هؤلاء الرفاق الشاذين، لكن النساء يميِّزنهم فورًا؛ النساء الطاهرات والعفيفات يحببنهم بسبب شعور التعاطف؛ المحرومون يبحثون عن الحميمية معهم كتعويض عن حرمانهم.
كان الصيف ينسحب إلى نهايته. أصبحت ساعات الصباح والمساء أشد ظلاما ورطوبة. انتهى وقت إزهار الليلك والزيزفون، وتمّ جمع ثمار التوت. كان أبلوموف وأولغا يلتقيان يوميًا. لقد لحِقَ بالحياة أي أجاد كل الحقائق التي أهملها سنينَ عديدة؛ عرف لماذا ترك السفير الفرنسي مدينة روما، ولماذا كان الإنكليز

يرسلون سفن الجند إلى الشرق، وكان مهتمًا بالطرق الجديدة التي أنشئت في فرنسا وألمانيا. لكن لم تكن لديه فكرة عن الطريق من أبلوموفكا إلى القرية الكبيرة، لم يكن لديه سند رهن العقار المصدّق في المحاكم، ولم يُجب على رسالة شتولتس.
المواضيع الوحيدة التي أجادها كانت تلك المشار إليها في الأحاديث اليومية في بيت أولغا، أو التي قُرئت في الصحف الموجودة هناك، وبفضل إصرار أولغا وضع هدفًا لمتابعة الأدب الأجنبي الحالي. كل شيء ذاب في الحب الخالص. على الرغم من التغييرات المتتالية في الجو الوردي، إلا أن الميزة الرئيسة كانت أفقا بلا غيوم. لو تساءلت أولغا أحيانًا عن أبلوموف وحبّها له، ولو ترك ذلك الحب لها وقتا ومكانًا حرًا في قلبها، لو لم توجد كل أسئلتها كاملة وجاهزة للإجابة في عقله، ولم تستجب إرادته لإرادتها وأجاب فقط بنظرة طويلة متحمسة على مزاجها الراقي وطاقتها المقيّدة لو حدث ذلك لغاصت في تفكير عقيم: شيءٌ بارد مثل ثعبان زحف داخل قلبها، وأيقظها من أحلام يقظتها، وعالم الحبّ العجائبي الدافئ تحوّل إلى يوم خريفي رمادي. تساءلت لماذا هي مستاءة، ولماذا كانت سعادتها غير كاملة. ما الذي كان ينقص؟ ماذا تريد بعد؟ ألم يكن قدرها، ومهمتها في الحياة أن تغرم بأبلوموف؟ كانت رقّتهُ تبرر هذا الحبّ، وهي الرقة التي لم ترها في عيني إنسان آخر. ماذا يهم لو أنه لم يستجب دائمًا لنظرتها، ولو أنّ صوتهُ تردد بصورة مختلفة عما قد سمعته في إحدى المرات هل كان في أحلامها أم في الواقع؟ كان خيالها، وأعصابها: لماذا الإصغاء إليه وتعقيد المسائل بشكل غير ضروري؟ ولو أنها أرادت أن تهرب من هذا الحبّ فماذا كانت تفعل؟ انتهى الأمر: لقد وقعت مسبقًا في الحب، والتخلي عنه بأي طريقة، مثلما تتخلى عن الثوب، كان شيئًا مستحيلًا. فكّرت:
«لا يمكن أن تحبّي مرتين في حياتكِ». يقول الناس إنه أمر غير أخلاقي. تلك هي الطريقة التي درست بها الحب، ورحبت بكل خطوة جديدة، بدمعة أو ابتسامة وتأملات فيها. لقد ظهر التعبير المركّز فيما بعد، وتحته اختفت الدموع

والابتسامات، الأمر الذي أفزع أبلوموف كثيرًا. لكنها لم تلمّح حتى إلى أبلوموف حول أفكارها وصراعاتها.

لم يدرس أبلوموف الحبّ؛ استسلم إلى النعاس الحلو الذي وصفه مرة بمصطلحات متوهجة إلى شتولتس. بدأ أحيانًا يصدّق في حياة بلا غيوم للأبد، وحلم مرة أخرى بأبلوموفكا مفعمة بالطيبة والودّ والوجوه المسرورة، والجلوس عند الشرفة، والتأملات التي أثارتها السعادة التامة. أحيانًا كان ينغمر عميقا في تلك التأملات، ونام في الغابات مرتين دون أن تعلم، بينما كان ينتظرها. ثم فجأةً ظهرت غيمة بصورة غير متوقعة...

في إحدى المرات كانا عائدين ببطء وصمت من نزهة، وبينما كانا على وشك أن يعبرا الطريق العام شاهدا غيمة من الغبار قادمة ناحيتهما، تتبعها عربة تركب فيها سونيا وزوجها وسيدة أخرى ورجل نبيل.

صاحا:

أولغا! أولغا! أولغا سرغييفنا!

توقفت العربة. ترجّلت السيدتان والرجلان النبيلان، وأحاطوا بأولغا وبدؤوا يتبادلون التحيات والقبلات. تكلموا معا، ولم يلاحظوا أبلوموف. ثم نظروا إليه جميعهم فجأةً، وشاهده رجلٌ نبيل من خلال نظّارات.

سألت سونيا بهدوء:

من هذا؟

قدمته سونيا:

إيليا أليتش أبلوموف.

ذهبوا جميعهم إلى بيت أولغا. شعر أبلوموف بالضيق: تباطأ وراء الضيوف ورفع قدمهُ فوق إحدى الأسيجة وهربَ إلى البيت عبر حقل الشوفان لكن نظرات أولغا جعلتهُ يعود. لم يكن ليهتم لو أن كل هؤلاء السيدات والسادة لم ينظروا إليه بغرابة. حتى هذا الأمر ربما لن يهمّ، لأن الناس دائمًا نظروا إليه هكذا سابقًا بسبب نعاسه وتعبيره الضجر وملابسه المهملة. لكن السيدات والسادة نظروا بالطريقة

الغريبة نفسها إلى أولغا، أيضًا، وأشاعت نظراتهم المريبة القشعريرة في قلبه؛ بدا كأنّ شيئًا يقضم في قلبه، والألم الذي شعر به كان موجعًا بحيث لم يتحملهُ وعاد إلى البيت، وكان كئيبًا ومستغرقًا في التفكير.

في اليوم التالي لم تكن ثرثرة أولغا الساحرة وعبثها المحبوب تعجبه. وجوابًا على أسئلتها الملحّة، كان عليه أن يزعم إصابته بالصداع ويخضع بصبر إلى كلفة بقدر خمسة وسبعين كوبيكًا لشراء ماء الكولونيا لصبّها على رأسه. وفي اليوم اللاحق حين عاد إلى البيت متأخرًا نظرت عمّة أولغا بشكل واعٍ جدًا لهم، وركّزت عليه، ثم خفضت جفنيها الكبيرين والمتفخين قليلًا، وتنشقتْ باهتمام ملح النشادر لمدة دقيقة بينما ما زالت عيناها تنظران إليهم. شعر أبلوموف بالتعاسة لكن لم يقل شيئًا. لم يجرؤ على أن يفضي بشكوكه إلى أولغا، خشية أن يقلقها ويزعجها، ولو قلنا الحقيقة، كان خائفًا أيضًا من نفسه، ويخشى إزعاج عالمهم الصافي والهادئ بمسألة خطيرة جدًا. لأنّ الأمر لم يعد مسألة على أية حال، إنها غلطة من ناحيتها في الوقوع في الحب معه، لكن لو كان الأمر بأكمله ليس غلطة لتواصلت هذه اللقاءات بينهما في الغابات وحدهما وأحيانًا في مساء متأخر.

فكّر برعب: «جرأتي على طلب قبلة هي إهانة إجرامية مسبقة ضد المبادئ الأخلاقية، وليس من النوع الهيّن! هناك العديد من المراحل قبلها: ضغط اليد، التصريح، الرسالة... نحن كنا نمارس كل ذلك. لكن...» فكّر ورفعَ رأسه: «قصدي شريف، وأنا...» وسرعان ما تلاشت الغيمة، ورأى أمامه أبلوموفكا، ساطعة وبهيجة، تنعم بالشمس المشرقة المتألقة، بتلالها الخضر ونهرها الفضي؛ كان يمشي على نحوٍ حالم مع أولغا في شارع طويل، وذراعه حول خصرها؛ أو أنه كان يجلس في البيت الصيفي معها، أو في الشرفة... كان كل فرد يحني رأسه أمامها افتتانًا بها أي، كل شيء كان على أتم وجه كما وصفه لشتولتس.

فكّر متوجّسا مرة أخرى: «نعم، نعم، لكني يجب أن أبدًا بذلك». تكررت ثلاثية «أنا أحبّك»، باقة الليلك، التصريح بالحب كل ذلك يجب أن يكون عربون للسعادة الدائمة، ولن يجري تكرارها ثانيةً، لو أنّ المرأة طاهرة. لكنني ماذا أفعل؟

منْ أنا؟» ظلّ السؤال يطرق في رأسه. «أنا مُغري النساء، وساحرهنّ! كل ما ترك لي لكي أفعله أن أتبع مثال ذلك الخليع العجوز القذر بعينيه الداعرتين وأنفه الأحمر، والذي يعلّق وردة سرقها من امرأة في عروة سترتي ويهمس لأصدقائه حول هزيمتي لكي... لكي... يا إلهي، في أي أرض وضعت نفسي! تلك هي الهاوية! وأولغا لا تحلّق عاليًا فوقها إنها في قعرها لماذا؟ لماذا؟» أضنى نفسهُ وبكى مثل طفل على فكرة ألوان قوس قزح حياته التي بهتت فجأة وأن أولغا على وشك أن يُضحَّى بها. كان حبّه بأكمله جريمة، وصمة في وعيه. ثم خمد هياجه للحظة وأدرك بأنّ هناك حلًا قانونيا مثاليًا لمشكلته: أن يقدّم بيده خاتم الخطوبة إلى أولغا...

دمدم وارتجف من الفرح:

أجل، أجل، وسيكون جوابها نظرة حياء وقبول... لن تنطق بكلمة؛ سوف تحمر خجلًا وتبتسم من كل قلبها، ثم ستفيض عيناها بالدموع...

دموع وابتسامة، تقديم اليد بصمت، يلحقهُ فرحٌ زاهٍ لعوب، إلحاح سعيد في كل حركاتها، حديث طويل جدًا، تبادل الثقة، واتفاق سرّي لدمج حياتين بحياة واحدة! حب، لا أحد يراه سواهما، سوف يشرق عبر كل تفاهة، وفي كل حديث عن شؤون الحياة اليومية. ولن يجرؤ أحد على إهانتهما بنظرة...

فجأة أصبح وجهه صارمًا وقاتمًا.

حدّث نفسه: «نعم. ذلك المكان الذي يمكن العثور فيه على السعادة المباشرة والمشرّفة والدائمة! شعرتُ بالخجل من قطف تلك الزهور، والانغمار في عبير الحب مثل صبي، كي أرتّب المواعيد، وأمشي في ضوء القمر، وأصغي إلى ضربات قلب الفتاة، وأمسك بحلمها المثير... أوه إلهي». احمرّ وجهه خجلًا تمامًا. «هذا المساء سوف تعرف أولغا ما هي الواجبات الصارمة التي يفرضها الحب؛ اليوم سوف أعقد آخر لقاء معها لوحدنا... اليوم...» وضع يدهُ على قلبه. كان ينبض بقوة وبانتظام، كما يجدر بقلب رجل نزيه. أصبح مرة أخرى ساخطًا من فكرة كيف ستحزن أولغا حين يخبرها بأنهما لن يلتقيا بعد؛ ثم سوف يخبرها بتوجّس

عن غاياته، لكن في البداية سوف يكتشف ماذا فكّرت وسوف يتمتع باضطرابها... ثم رأى في عين عقله قبولها الخجول، وابتسامتها، ودموعها، واليد المُقدّمة بصمت، والهمس السرّي الطويل والقبلات أمام العالم كله.

* * *

(12)

هرع لكي يرى أولغا. أخبروه في بيتها بأنها خرجت؛ جاء إلى القرية لم تكن هناك. رآها تصعد تلًا من بعيد، وتنظر مثل ملاك صاعد من السماء، كانت خطوتها خفيفة، وحركاتها رشيقة جدًا. تبعها، لكنها بدت بالكاد تلمس قدماها العشب، كأنها كانت تطير فعلًا. وبدأ ينادي عليها في منتصف الطريق إلى التل.

انتظرتهُ، لكن حالما أصبح على بعد عشرة أقدام منها، أسرعت في المشي، وتركت مرة أخرى مسافة كبيرة بينهما، ثم توقف أخيرًا، متأكدًا من أنها لن تهرب منه.

هرعت ببضع خطوات إليه، وأعطته يدها، وضحكت وجذبته وراءها. دخلا الغابة؛ نزع قبعته، مسحت جبينهُ بمنديلها وبدأت تهوّي وجهه بمظلتها.

كانت أولغا نشطة ثرثارة ومرحة، لكن بعد جيشان عاطفي مفاجئ، استغرقت فجأة في الأفكار.

سألت حين جلس في السقيفة:

خمّن ماذا فعلت أمس.

قرأتِ؟

هزّت رأسها:

كتبتِ؟

كلا غنّيتِ قالت:

كلا. قرأت الحظ؟ جاءت مدبرة منزل الكونتيسة لترانا أمس. تستطيع أن تقرأ البخت بالورق وسألتها أن تقرأ حظي.

حسن. ماذا أخبروك؟

«لا شيء كثيرًا. رحلة، ثم زحام للناس، ورجل جميل في كل مكان، كل مكان... خجلت تمامًا حين قالت فجأة في حضور كاتيا بأن ملك الماسات كان يفكّر بي. حين أرادت أن تخبرني بِمَ كنتُ أفكّر، خلطت أوراق الحظ وهربت. كنتَ تفكّر بي، أليس كذلك؟» سألت فجأةً.

قال:

أوه، ليتني كنتُ أفكّر بكِ قليلًا!
قالت بتمعّن:
وماذا بشأني؟ أبدو ناسية بأنّ الحياة يمكن أن تكون مختلفة. حين كنتُ واجمة الأسبوع الماضي ولم تأت لمدة أسبوعين تتذكر، كنتُ غاضبة تغيرّتُ فجأة وأصبحتُ في حالة غضب شديد. تخاصمتُ مع كاتيا كما تتخاصم أنت مع زاخار. أراها تبكي في سرّها ولم أشعر بالأسف نحوها. لم أُجِبْ عمتي، لم أصغي لما قالت، لم أفعل أي شيء ولم أرغب بالذهاب إلى أي مكان. لكن حالما جئتَ أصبحتُ مختلفة جدًا بشكل مفاجئ. صنعتُ لكاتيا هدية من ثوبي الأرجواني الفاتح...
صاح بصورة محتدمة:
ذلك هو الحبّ.
ماذا؟ ثوب أرجواني فاتح؟
كل شيء! أستطيع تمييز نفسي في كل ما تقولينه. بالنسبة لي، الحياة أيضًا لا تساوي العيش دونك. في الليل أظل أحلم بالوديان المزهرة. حين أراكِ أشعر بالألفة والنشاط، وحين لا أراكِ أصاب بالضجر والكسل. أريد أن أستلقي ولا أفكّر بأي شيء... الحبّ، ولن أفكّر بشيء سوى حُبّك...
صمتَ فجأةً. فكّرَ وتنحنحَ ثم عبَسَ.
سألَتْ:
وماذا لو متُّ فجأة؟
قالَ بلا مبالاة:
يا لها من فكرة.
واصلت القول:
أوه، نعم. سوف يصيبني البرد وألازم الفراش مع حرارة عالية. سوف تأتي هنا ولا تجدني؛ سوف تأتي لنا ولن يخبروك بأنني مريضة. الأمر نفسه اليوم التالي.

سوف تغلق مصاريع النوافذ في غرفتي. سوف يحرّك الطبيب رأسه. سوف تأتي لك كاتيا على رؤوس الأصابع، مغرقة بالدموع وتهمس:

إنها مريضة، وتحتضر...

صاح أبلوموف فجأة:

أوه!

ضحكت. سألتهُ ونظرت إلى وجهه:

ماذا سيحصل لك حينئذ؟

ماذا سيحصل لي؟ سوف أحطّم رأسي أو أرمي نفسي، ثم ستتحسن صحتكِ فجأة!

قالت بعصبية:

كلا، كلا، لا تفعل. نحن نهذر كثيرًا! يجب فقط ألّا تأتي لي حين أكون ميتة؛ أنا أخاف من الأشباح.

ضحكا معًا.

قالت وأصبحت جدّية:

يا إلهي، كم نحن أطفال!

أَصغي... أريد أن أقول شيئًا.

سألت ودارت نحوه بسرعة:

ماذا؟

ظل صامتًا ومتوجسًا.

قالت وسحبته بشكل خفيف من كمّه:

هيّا قل.

قال وأصبح خائفًا:

أوه، لا شيء.

نعم، لديك شيء في ذهنك، أليس كذلك؟

ظل صامتًا.

قالت:

إن كان شيئًا مفزعًا فلا تخبرني به.

ثم أضافت فجأة:

كلا أخبرني به.

لكن لا شيء... مجرد هراء.

أصرّت وأمسكتهُ من طيّة معطفه بقوة بحيث إنه ظلّ يدور برأسه من جانب إلى آخر كأنه لا يريد تقبيلها.

كلا، كلا، لا أصدّقك: ثمة شيء؛ أخبرني!

لن يحوله إلا من أجل حقيقة أنّ كلمتها «أبدًا!» مازالت ترنّ في مسامعه.

أصرّت قائلة:

أخبرني!

توسّل إليها:

لا أستطيع ليس ضروريًا.

لماذا إذن تَعِظني بأنّ «الثقة هي أساس السعادة المشتركة»؛ وأن «أي التواء في قلب المرء يجب أن لا يخفى عن عين صديقه»؟ لمن هذه الكلمات؟

بادر بالقول بطيئًا:

كل ما أريد قوله بأني كنتُ أحبّكِ كثيرًا، كثيرًا بحيث لو...

أصابه التردّد.

سألت نافدة الصبر:

طيّب لو وقعتِ في الحب مع شخص آخر يمكن أن يجعلك أكثر سعادة حينئذ سوف أتجرّع محنتي بصمت وأفسح المجال له.

تركتْ معطفه فجأةً.

سألت فجأة:

لماذا؟ لا أستطيع أن أفهم الأمر. يجب أن لا أستسلم إلى أي شخص. لا أريد أن تكون سعيدًا مع امرأة أخرى. هذا أمر في غاية الذكاء. لا أفهمه.

جالت نظرتها متأمّلة فوق الأشجار.
سألتهُ بعد فترة قصيرة:
إذن أنت لا تحبني، صحيح؟
بالعكس، أحبّك بإخلاص بحيث إني جاهز للتضحية بنفسي من أجلك.
لكن لماذا؟ من طلب منك؟
لكن كنتُ أعني في حالة وقوعك في الحب مع شخص آخر...
مع شخص آخر؟ هل أنت مجنون؟ لماذا وأنا أحبّك؟ هل ستقع في حب امرأة أخرى؟
لماذا تصغين لي؟ أنا أتكلم بالكثير من الهراء وأنتِ تصدّقينني. في حقيقة الأمر لم يكن ذلك مطلقًا ما كنت أنوي الحديث عنه.
إذن ما تريد أن تقوله؟
أريد أن أقول بأني أشعر بالذنب أمامك، وأني شعرت به منذ أمدٍ طويل...
سألت:
لماذا؟ كيف؟ هل كان قولك: «ألا تحبينني» نكتة ربما؟ أخبرني فورًا!
قال بألم مبرّح:
بادر بالقول مترددًا لا، لا، لم يكن الأمر كذلك! أنت ترين ماذا أعني به. نحن نلتقي بشكل سرّي...
بشكل سرّي؟ لماذا بشكل سرّي؟ لقد أخبرتُ عمتي تقريبًا في كل مرة رأيتكَ فيها.
سأل بشكل قلق:
هل في كل مرة بالتأكيد؟
آه، وما الخطأ في ذلك؟
أنا آسف: كان لا بدّ أن أخبرك منذ وقت طويل بأنه لم ينتهِ.
أخبرتني.
صحيح؟ نعم بالطبع أنا ألمحتُ لهُ. حسنٌ، أنا سعيد بأني أنجزت مهمتي، إذن.

شعر بالفرح والسعادة لأنّ أولغا حرّرتهُ قليلًا من مسؤوليته.
هل هناك شيء آخر؟
أجاب:
شيء آخر آ كلا، هذا كل ما في الأمر.
علّقت أولغا بشكل مؤكد:
غير صحيح. ثمة شيء آخر. لم تخبرني بكل شيء.
بادر القول محاولًا اصطناع نغمة عابرة:
حسنٌ، أنتِ ترين بأني فكرت بأنّه...
توقف وانتظرت.
يجب أن لا نلتقي كثيرًا.
نظر إليها متوجسًّا.
كانت صامتة.
سألت بعد التفكير بالأمر لفترة قصيرة:
لماذا؟
ختم كلامه بصعوبة:
أنتِ ترين بأني قلق بشدة إنه وعيي. نقضّي الكثير من الوقت وحدنا. أنا أنا أصبح متحمسًا، قلبي يخفق سريعًا وأنتِ أيضًا آ مهتاجة. لا أستطيع أن أداري خوفي.
لماذا؟
أنتِ شابة ولا تعرفين كل المخاطر يا أولغا. أحيانًا يفقد الإنسان سيطرته على نفسه. فقوة الشرُّ تتملكهُ، وقلبهُ ينغمر في الظلام، وعيناه تومضان بالبروق. لم يعد قادرًا على التفكير بوضوح: احترام العفة والبراءة جرفتهُ الزوبعة؛ لا يعرف ماذا يعمل؛ فقد غلبهُ الشغف، لم يعد يستطيع أن يسيطر على نفسه حينئذ تنفتح الهاوية عند قدميه.
أصابته رجفة.

قالت بعينين مفتوحتين:

طيب، ماذا عنه؟ دعه!

لم يقل شيئًا؛ ليس ثَمَّ شيء يقوله بعد الآن.

نظرت إليه لبعض الوقت كأنها تحاول أن تقرأ أفكاره في خطوط جبينه؛ استعادت كل كلمة ونظرة منه وقلّبت صفحات تاريخ حبّهما، أدركت المساء وحلّ الظلام في الحديقة وفجأة تورّد خداها خجلًا.

قالت بسرعة ونظرت بعيدًا:

إنك تتكلم بالكثير من الهراء عزيزي. لم أر بروقا في عينيك.

أضافت ضاحكة:

أنت أنت تنظر لي غالبًا مثل مثل مربيتي كوزمينيتشنا.

أنتِ تمزحين يا أولغا، وأنا أتكلم بجد و وأنا لم أقل شيئًا لحد الآن.

سألت:

ماذا بعد؟ أي هاوية تتكلم عنها؟

ندّت عنه حسرة.

أعني أننا يجب أن لا نلتقي لوحدنا.

لماذا؟

لأنه غير لائق.

قلّبت الرأي.

قالت بتمعّن:

نعم، يقولون إنه غير لائق. لكن لماذا؟

ماذا سيقول الناس حين يعلمون، حين تنتشر القصة...

سألت:

من سيقول؟ ليس لديّ أم: وحدها يمكن أن تسألني لماذا أراك، وعند جوابها فقط أنخرط في البكاء وأقول بأني لم أكن أفعل أي شيء خطأ ولا أنتَ أيضًا. سوف تصدقني. مَن الآخر هناك؟

قال أبلوموف:

عمّتكِ هزّت أولغا رأسها بحزن:

عمّتي؟ لن تسأل أبدًا. إذا ما ذهبتُ إلى الأبد فلن تذهب للبحث عني أو تطرح أي أسئلة، ولن أعود لأخبرها أين كنت وماذا فعلت. مَن الآخر هناك؟

الآخرون... كل شخص. اليوم السابق نظرت سونيا إليك وإليّ وابتسمت، وكل السيدات والسادة الذين كانوا معها ابتسموا أيضًا.

أخبرها عن الوقت القلق الذي عاشه حينذاك.

أضافت:

لمّا نظرت إليّ لم أهتمْ؛ لكن حين نظرت بالطريقة نفسها إليك، داخلتني القشعريرة.

سألت ببرود:

طيب وماذا بعد؟

حسنٌ، كنتُ قلقًا حد الموت منذ حين، قادحًا زناد فكري كيف أمنعه من أن يصبح مشاعًا. كنت قلقًا من أن أفزعك. لقد كنت أريد منذ وقت طويل أن أناقشهُ معك.

أجابت:

لا تحتاج إلى أن تنزعج. عرفته دون أن تخبرني به.

سأل بدهشة:

أنتِ عرفتِهِ؟

بالطبع. تكلمت سونيا معي، وحاولت أن تكتشف كل شيء، وتوبخني وتخبرني كيف يجب أن أتصرف معك.

وجه لها اللوم قائلًا:

وأنتِ لم تخبريني أي شيء عنه يا أولغا!

أنت لم تخبرني بأي شيء حول قلقك أيضًا.

سأل:

ماذا قلتِ لها.

لا شيء. ماذا يمكنني أن أقول؟ فقط تورَّدت خجلًا.

صاح برعب:

يا إلهي، إذن وصل الأمر إلى ذلك الحد: أنتِ تورَّدت خجلًا! كم نحن مهملين! ما الذي سيجري بشأنه؟

نظرت بتساؤل نحوه.

قالت باختصار:

لا أعلم.

فكّر أبلوموف بأنّ إشراك أولغا في مشكلته سوف يريح عقله ويكتسب القوة من كلماتها ونظراتها، لكن وجد بأنّ ليس لديها جواب حاسم وواضح، ففقد الشجاعة فجأةً. عبّر وجهه عن التخبّط في القرار، وطافت عيناه باكتئاب. كان مصابًا باهتياج محموم داخله. لقد نسي أولغا تقريبا: في عين عقله رأى سونيا مع زوجها وزوّارها؛ سمع ضحكهم والقيل والقال لهم. كانت أولغا، وهي عادةً واسعة الحيلة، صامتة، وتنظر ببرود إليه ومع ذلك قالت ببرود: «لا أعلم». لم ينزعج، ولم يعرف كيف يكتشف المعنى السرّي لتلك العبارة «لا أعلم». كان صامتًا أيضا: لن تنضج أفكاره وغاياته دون مساعدة من أحد، ومثل تفاحة ريّانة، سقطت إلى الأرض بنفسها: كانت بحاجة إلى قطف.

حدّقت فيه بضع دقائق، ثم ارتدت عباءتها، والتقطت المنديل من غصن، ووضعته حول رأسها ببطء وأخذت مظلتها.

قال وجاء بنفسه فجأةً:

أين أنت ذاهبة؟ ما زال الوقت مبكرًا.

قالت وتمعنت بشكل مكتئب:

كلا، أنا خائفة من أن يكون الوقت متأخرًا. إنك على حق تمامًا.

وأضافت بجفاف ومرارة:

لقد ابتعدنا كثيرًا ولم يوجد طريق للخروج: يجب أن نفترق بسرعة ما أمكن وننسى الماضي.

وأحنت رأسها ومشت عبر الممر.

يا إلهي، أولغا، عمّ تتكلمين! لا نلتقي ثانيةً؟ آه، أنا... أولغا!

لم تُصغِ وأسرعت في المشي، وكان الرمل يُسحَق تحت قدميها.

صاح:

أولغا سرجييفنا!

لم تسمعهُ وواصلت السير.

نادى عليها وترقرقت عيناه بالدموع:

باللهَّ عليك ارجعي! حتى المجرم يجب أن يستمعوا له... يا إلهي، لا يمكن أن تكون قاسية! ثمة امرأة لك!

جلس ودفن وجهه بين يديه. لم يعد يسمع وقع خطواتها.

قال برعب تقريبًا:

لقد ذهبت!

لكنه رفع رأسه وإذا به يراها أمامه.

أمسك يدها مبتهجًا.

قال:

لم تذهب. هل ستذهبين؟ أرجوك، لا تذهبي. تذكري إذا ما رحلتي عني... فأنا رجلٌ هالك.

وإن لم أرحل، أنا مجرمة وأنت أيضًا... تذكّر ذلك يا إيليا!

أوه، كلا...

كلا؟ آه، لو أن سونيا وزوجها اكتشفا أننا معًا مرة أخرى أنا محطّمة.

نكص فزعًا.

بادر بسرعة يقول بصوت متلعثم:

أصغي. إني لم أقل شيئًا...

وتوقف فترة قصيرة.
ما بدا في البيت بسيطًا وطبيعيًا وضروريًا بالنسبة له، ما بعث فيه السرور كثيرًا إذ اعتبرهُ سعادته، ظهر فجأةً كنوع من الهاوية بالنسبة له. لم يمتلك الشجاعة لكي يعبره. الخطوة التي كان عليه أن يتخذها كانت جريئة وحاسمة.
قالت أولغا:
أحدهم قادم!
ثَمَّ وقع أقدام على الممر.
سأل أبلوموف ونظر مصعوقًا من الرعب:
أيمكن أن تكون سونيا؟
مرّ رجلان وامرأة غرباء تمامًا.
تنفس أبلوموف الصعداء.
بادر يقول بسرعة وأخذها من يدها:
أولغا، فلنذهب إلى هناك، إذ لا يوجد أحد ولنجلس.
جعلها تجلس على طاولة، وجلس بقدميه على العشب.
قال:
أنتِ انفجرتِ بالغضب ورحلتِ، وكان عليّ أن أنهي ما أردت قوله يا أولغا.
قالت:
وسوف أرحل مرة أخرى ولن أعود إذا بقيت تعبث معي ثانيةً. أنت أحببت دموعي مرة، وربما الآن تود أن تراني عند قدميك وتدريجيًا تصنع مني جارية، كن متقلبًا، نظّرْ عن الأخلاق، أبكِ، كن خائفًا وأفزعْني، ثم أسأل ماذا نحن فاعلون.
وأضافت فجأة بفخر ونهضت:
أود أن تتذكر يا سيدي بأني كبرت منذ أن التقيت بك، وأعرفُ ماذا تسمّى اللعبة التي تلعبها، لكن... لن ترى دموعي بعد ذلك.
صاح جديًا:
أقسمْ أني لا ألعب عليك.

علّقت بشكل جاف:
الكثير من السوء لك. لديّ شيء واحد أقوله لكل إدراكاتك وتحذيراتك وألغازك: منذ لقائنا اليوم أحببتك ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل... والآن عرفت.
ختمت قولها بشكل حاسم وكانت جاهزة للرحيل:
ولن أطلب منك النصيحة.
قال واحتفظ بيدها وجعلها تجلس ثانية، بينما وقف للحظة يستجمع الشجاعة لكي يستمر:
وأنا أعرف أيضًا.
بادر يقول:
تصوري فقط أن قلبي مفعم برغبة وحيدة، ورأسي بفكرة واحدة، لكن إرادتي ولساني لن يطيعاني: أريد أن أتكلم لكني لا أستطيع لفظ الكلمات. مع ذلك فالأمر بسيط جدًا، لذا... ساعديني يا أولغا!
هل أعلم ما الذي يدور في ذهنك سيدي؟
بالله عليكِ، أرجوك، بلا كلمة سيدي: نظرتك الفخورة تقتلني، كل كلمة تقولينها تجمدني مثل الجليد...
ضحكت.
قالت ووضعت يدها على رأسه:
إنك مجنون.
قال، وجثم أمامها:
ذلك صحيح، الآن تلقيت هبة التفكير والكلام! أولغا، هل تتزوجينني؟
كانت صامتة ودارت وجهها.
تابعَ قائلًا:
أولغا، أعطني يدك.
لم تعطهِ يدها. أخذها ووضعها على شفتيه. لم تجذبها. كانت يدها دافئة ورقيقة ورطبة قليلًا. حاول أن يتأمل وجهها، لكنها صدّت أكثر فأكثر.

سأل بقلق وقبّل يدها:

الصمت؟

وأكملت الجملة له برقة:

علامة الرضى.

ولم تزل تصرف النظر إليه.

سأل واستدعى حلمه حول الموافقة الخجِلة والدموع:

ماذا تشعرين الآن؟ وبماذا تفكرين؟

أجابت مستمرة بالنظر إلى مكان ما في اتجاه الغابات، أظهر لهاثها بأنها كبحت شيئًا داخلها.

تساءل أبلوموف:

هل هناك دموع في عينيها؟

لكنها كانت تنظر للأسفل بعناد.

قال وحاول أن يسحبها بشكل أقرب:

هل أنت هادئ؟ هل أنت غير مبال؟

غير مبالٍ لكن هادئ.

لماذا؟

لأنّي توقعتهُ منذ أمدٍ طويل وتعوّدت على الفكرة.

كرّر مندهشًا:

منذ أمدٍ طويل!

أنكرت قائلة:

نعم، من اللحظة التي أعطيتكَ فيها باقة أزهار الليلك، استدعيتك في ذهني...

منذ تلك اللحظة!

مدّ ذراعيه بشكل واسع لكي يحتضنها.

قالت خلسة:

الهاوية مفتوحة، البروق تومض... خذ حذرك!

وتجنبت احتضانه، إذ دفعت يده بعيدًا بمظلتها.
تذكر كلمتها الصارمة «أبدًا» وامتنع.
قال:
لكنكِ لم تخبريني أبدًا أو تُظهِري لي بأية طريقة...» لا نتزوج، بل نتبادل الأفكار والآراء في شؤون الزواج.
قال متأملًا:
من تلك اللحظة... ليس صحيحًا؟
قالت بفخر:
هل تعتقد بأني سوف أكون هنا وحيدة معك إن كنتَ لم تعرفني؟ هل سأجلس في البيت الصيفي معك في الأمسيات؟ هل أصغيتُ لك ووثقت بك؟
بادر بالقول وتغيّر لونه وتخلَّى عن يدها.
إذن إنه...
ظهرت له فكرة غريبة. كانت تنظر إليه بغرور هادئ وانتظرت بعزم؛ وما أراده في تلك اللحظة لم يكن الغرور ولا العزم، لكن الدموع، والشغف، والسعادة المنتشية، ولو للحظة ثمّ دع الحياة تستمر هادئة للأبد! وفجأة لم يكن ثمة دموع ساخنة لسعادة غير متوقعة ولا موافقة خجولة! كيف كان له أن يفهمها؟
واستيقظت حيّة الشك وتحرّكت بقلق في قلبه. هل أحبتهُ أو كانت قلقة فحسب من الزواج منه؟
قال:
لكن هناك طريقًا آخر للسعادة.
سألت:
ما هو؟
أحيانًا الحب لا ينتظر ويتحمل ويخمّن... المرأة كلها على النار، إنها ترتجف كليًا، وتمارس فورًا مثل هذه الآلام المبرحة والأفراح بحيث...
لا أعلم أي نوع من الطريق تعني.

الطريق الذي تضحّي عليه المرأة بكل شيء: هدوء بالها، الرأي العام، الاحترام، وتعثر على مكافأتها في الحب الذي يحل محل أي شيء بالنسبة لها.

هل نحتاج إلى السير على طول ذلك الطريق؟

كلا.

هل تود أن تبحث عن السعادة مقابل هدوء بالي واحترامي لذاتي؟

قال بدفء:

أوه كلا، كلا! أقسم بالرب أني لن أفعل.

إذن لماذا تتكلم عنه؟

أنا، أنا لا أعلم...

لكني أعلم: هل أنت قلق من اكتشاف إن كنت سأضحي براحة بالي من أجلك وأذهب معك على طول ذلك الطريق؟ أليس الأمر هكذا؟

نعم، أظن أنكِ يجب أن تكوني على حق. إذن؟

قالت بحزم:

أبدًا. لا من أجل أي شيء في العالم.

فكّر بأن الأمر انتهى ثم أطلق حسرة.

قال:

نعم. تلك طريق موبوءة، ويجب على المرأة أن تحبّ كثيرًا السعي وراء رجل عليه لكي تواجه الدمار وتواصل الحب.

نظر إلى وجهها بتساؤل: لم يجد شيئًا هناك: كان وجهها هادئًا وتحركت الثنية فوق حاجبها قليلًا.

قال:

تصورّي بأنّ سونيا التي لا تساوي أصبعكِ الصغير، رفضت فجأة التعرّف عليك في الشارع.

ابتسمت أولغا ونظرت نظرة صافية كالعادة. كان أبلوموف من جهته يقاوم بلا فائدة إغراء الحصول على بعض التضحية من أولغا والعثور على المتعة فيه.

تصوّري بأن الرجال لم يخفضوا أعينهم باحترام متوجّس حين يقتربون منكِ، لكن ينظرون لكِ بنظرة صريحة ذات معنى.

نظر إليها: كانت مستغرقة في دفع حصاة على طول الرمل بمظلتها.

سوف تدخلين غرفة الاستقبال وسوف تتحرك العديد من الأغطية باستياء. إحدى النساء سوف تذهب وتجلس بعيدة عنكِ... وسوف يكون غرورك نفسه دائمًا وسوف تعلمين تمامًا جيدًا بأنكِ كنتِ أعلى وأفضل منهم...

قالت بهدوء:

لماذا تحكي لي كل هذه الفظائع. لن أذهب بذلك الطريق.

سأل أبلوموف محبطًا:

أبدًا؟

كرّرت:

أبدًا!

قال بتمعّن:

نعم. لن يكون لديك القوة لمواجهة العار. ربما لن تخافي من الموت: ليس الإعدام هو الفظيع بل التحضيرات له، وممارسات التعذيب المنتظم. لن تكوني قادرة على مقاومته. سيصيبك الهزال. أليس كذلك؟

ظل يدقّق في وجهها ليرى مدى شعورها.

بدت فرِحة: صورة الرعب لم تزعجها؛ كانت ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها.

قالت:

لا أريد أن أهزل وأموت. كله خطأ؛ يمكن للمرء أن يحب أكثر ومع ذلك لا يتبع ذلك الطريق...

سأل مصرًّا وبغيظ تقريبًا:

لكن لماذا لا تتبعيه إذا كنتِ غير خائفة.

قالت:

لأن الناس الذين يتبعونه دائمًا ينتهون إلى الافتراق، وأنا... لا يجب أن افترق عنك!

توقفت، وضعت يدها على كتفه، نظرت بتركيز إليه، وفجأة، رمت مظلتها، وألقت بسرعة وحماس ذراعيها حول رقبته وقبّلتهُ، احمّرت خجلًا، وضغطت وجهها على صدره وأضافت برقة:

أبدًا!

أطلق صيحة الفرح وغاص في العشب عند قدميها.

* * *